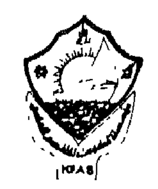
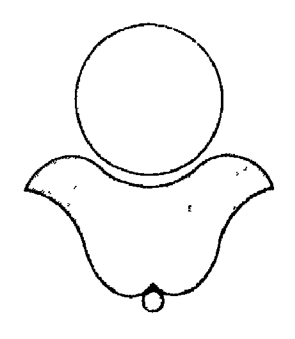
مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ادارة التأليف والترجمة



الكوفة
نشأة المدينة العربية الاسلامية



تأليف

أ. د هشام جعيط

جماعة الدراسات العربية
في
التاريخ والمجتمع

الطبعة الأولى ١٩٨٦ م
الكويت

برنامج كاتب وكتاب

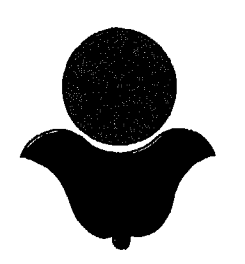


مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ادارة التـأليف والترجمـة

الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية



تـأليفـ

أ.د هشام جعيط

جماعة الدراسات العربية
في
التاريخ والمجتمع

الطبعة الأولى ١٩٨٦ م
الكويت

ص . ب: ٢٥٢٦٣ الصفاة ـ الكويت
الكويت ـ 13113
هاتف : ٢٤٢٥٨٩٧
ادارة التأليف والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ

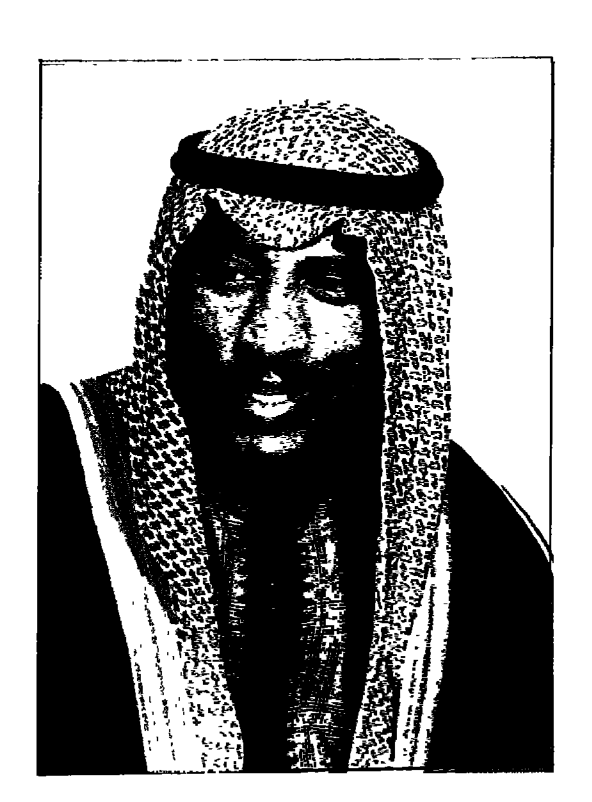
صدق الله العظيم

سورة يوسف ـ الآية ١١١



حضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح

أمير دولة الكويت



سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح

ولي العهد رئيس مجلس الوزراء

فهـــرس

تقديم

ان مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وهي تقدم كتاب « الكوفة » متعاونة مع جماعة الدراسات العربية في التاريخ والمجتمع انما تقدمان كتاباً جديداً في علم تاريخ المدن ، جديداً في منهجه وفي أسلوبه .

يعتبر الدكتور هشام جعيط مؤلف الكتاب مؤرخاً سبر أغوار عدة لغات أجنبية أهمها الفرنسية إلى جانب اللغة الأم « العربية » وكان ولا يزال اطلالة عربية مشرقة على الفكر الغربي المعاصر قدم له تاريخ أمته/وحضارتها العربية الإسلامية بأسلوب علمي موضوعي تحليلي . وبذلك تولى مع قلة من أمثاله مسؤولية نشر تاريخنا باللغات الأجنبية أمام هجمة كاسرة علينا ودون تردد أو وجل .

وفي كتابه الذي نقدم اتخذ تأليفه طابع الحوار الساخن كما يقولون ، الحوار بين المؤلف الذي لم يترك شاردة ولا واردة عن الكوفة الا أحصاها ،وبين الكوفة نفسها . غاص المؤلف في المخطوطات العربية وكتب التراث ، في كتب التاريخ العربي الأولى والمعاصرة ، في الآثار ، في العمارة ، وفي كل ما كتب عن الكوفة باللغات الأجنبية فرنسية والمانية وانجليزية من كتب وما نشر عنها في الدوريات العلمية الأجنبية ووصل إلى يدي الكاتب . وفي الوقت نفسه وقفت الكوفة صامدة أمام علم المؤلف وتساؤلاته . تجيب بصراحة وشجاعة . تنفي ما نسب إليها بغير حق بالأدلة الأثرية ، وتعترف بما اقتبسته عن الحضارات الأخرى بلا خجل وكأنها تود القول ان الأخذ عن الآخرين واعطاءهم ليس عيباً . فهذه هي الحضارة بمفهومها العالمي .

لقد قسا المؤرخ على نفسه وعلى المدينة التي بحث . وكان واضح القصد يريد اخراج الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من أي جانب ، ليضعها أمام كل من أراد الافادة منها . ومن أجل هذا استحضر الدكتور جعيط الأزمنة التاريخية منذ القدم ووضعها أمام الكوفة ليسأل عن دور الكوفة في الفتح الإسلامي . وهل كانت الكوفة

معسكر اعداد لجيش المسلمين أم مستقراً للفاتحين بعد أن أنهوا أو كادوا ينهون امبراطورية فارس ؟

انتقل بعدها ليسأل عن مخطط المدينة وموقعها ومساحتها وأحيائها ومناهجها ومساجدها وقصورها وساحاتها . وتجيب الكوفة بمصادرها العلمية عن كل سؤال . ثم يستحضر الأزمنة التاريخية ليرى أثر حضارة بابل ، وفارس ، والهيلينيه على بناء الكوفة ولا ينسى ما حمله العرب من حس حضاري في بناء المدن كان قد ظهر في مكة والمدينة كما لا يغفل المؤرخ الأحداث التاريخية التي مرت على الكوفة ويستخلص منها ما له علاقة بسكان الكوفة عدة وعدداً وأجناساً وقبائل . . .

لقد أعطى الكاتب من الجهد والعلم ما ندر أن يعطيه أحد في مثل حالته إلا أنه أخرج في النهاية « الكوفة » حية ناطقة شاهدة على تاريخنا وأصالته ولولا سنوات التأريخ التي اثبتها المؤلف لخيل لمن يقرأ الكتاب أن الكوفة حاضرة من حواضر عالمنا الذي نعيش .

لقد كان المؤلف أميناً على نهج جماعات الدراسات العربية في التحليل العلمي وابراز التيارات الاجتماعية الغامضة في تاريخنا وكانت **مؤسسة الكويت للتقدم العلمي** أمينة على رسالتها العلمية عندما بادرت إلى نشر هذا الكتاب في برنامجها كاتب وكتاب .

وأخيراً فان الفصل والحكم للقارىء الذي نتركه مع هذا الكتاب لعله واجد فيه نفعاً . ونحن واثقون من أنه سينفع الناس .

والله الموفق ، ، ،

جماعة الدراسات العربية
في
التاريخ والمجتمع

الباب الأول

الفتح العربي للعراق وتأسيس الكوفة

| ١٢ - ١٧/ ٦٣٣ - ٦٣٨ |

الفصل الأول

اشكالية الفتح

لا مراء في أن إنشاء الكوفة سنة ١٧ من الهجرة الموافق لسنة ٦٣٨ ميلادية ارتبط مباشرة بفتح العرب للعراق. فحالما فرغ العرب من السيطرة على العراق، بعد طرد فلول القوات الساسانية إلى النجد الإيراني، وبعد أن استولوا على جلولاء والمدائن، مكتسحين السواد كله، شعروا بالحاجة إلى إنشاء دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة، تكون بمثابة المعسكر والمركز للهجرة في نفس الوقت. وعلى ذلك، تشكل الكوفة ثمرة مباشرة لعملية من عمليات الفتح الخاطف معللة اياها ومشكلة بدورها امتداداً لها، ضامنة لها، راسمة معالمها على التربة، ذلك أن الكوفة تحتل موقع القلب من المنطقة، تلك المنطقة التي كانت تدور فيها المعارك بين العرب والامبراطورية الساسانية. منطقة معدة لكي يعمرها أول من يعمرها المشاركون في القتال ويستقر بها أغلب المجاهدين العرب. وعلى هذا، فستتأثر الكوفة كثيراً، وبدرجة أعظم مما حصل في البصرة، بالحدث التاريخي المتمثل في الفتح، كما سيؤثر فيها العيش على ذكراه، وسيظهر ذلك التأثير في عناصرها البشرية التي جسمت كيانها، وفي بنيتها الاجتماعية، وفي الحركات السياسية الدينية التي ستهزها. وفضلاً عن ذلك، يتجاوز الفتح العربي للعراق مصير الكوفة بصفته قضية تاريخية، ذلك أن الكوفة تندرج ضمن ظاهرة كونية هي ظاهرة الفتح العربي الذي اكتسح العالم. ولا يبدو لنا مفيداً أو ضرورياً التعمق في بحث القضية في جملتها، بل نرى أنه من الأهم أن نبحث في اندراج الفتح العربي

ضمن فضاء معين، بمواقيت خاصة به وبعناصره البشرية. على أنه طالما يكون الارتباط مباشراً لا محالة بين الظروف التاريخية المحيطة بإنشاء الكوفة وظاهرة الفتح بصفة عامة، فمن المفيد أن نلمح دون إطالة إلى قضية نشأة الفتح العربي ودلالته.

يستحسن التذكير بأن المؤلفين المحدثين ومنهم كايتاني (Caetani) وشعبان (Shaban) الذي تلاه بعد ثلاثة أرباع القرن، قد طرحوا مسألة النظر في أسباب الفتح العربي ومعناه، ارتباطاً بالغارات الأولى التي شنت على أرض الرافدين(١). نعني غارات سنة ١٢ هـ/٦٣٣ م، التي كانت منطلقاً لظهور القدرة الحربية العربية بعد وفاة الرسول، وبذلك يمكن أن يتجه التفكير إلى أنه في المستطاع بلوغ العناصر التي كانت أصلاً للفتح العربي في جملته، لو أمكن تسليط النور على الظروف التي أحاطت بهذا الدفع الأول. نميل فعلاً ومن أول وهلة إلى تأريخ انطلاق الأحداث في محرم سنة ١٢ هـ/مارس ٦٣٣ م رداً على الرؤية التقليدية، ونسبة الغارات التي جدت في السواد إلى مبادرة من بكر بن وائل تجاوب معها اقدام خالد بن وليد وقد خرج منتصراً من حرب الردة قبل مدة قصيرة. ولعلها كانت بداية لمغامرة كبرى في التاريخ العالمي، إنما تجذرت في الغموض والتهميش. ومن أول وهلة يبدو أن الفتح تقرر مصيره في الجنوب الشرقي من بلاد العرب، بعيداً عن قرار الحكم المركزي، وأن الأسبقية الزمنية للغارات على السواد قبل أن تكون للمعارك التي دارت في الشام وفلسطين. وقد طرح كايتاني بهذا الصدد قضية كبرى هي قضية الفتح العربي برمته، وكأنه صار مسلماً بأن حركة الفتح انطلقت من هذه الغارات العراقية.

الواقع أنه لم يكن شيء من ذلك. لا شك أن الأيام التي جدت سنة ١٢ هـ، قد أثرت على قرار عمر الذي اتخذه في السنة الموالية، والخاص بالشروع في فتح السواد. على أن هذا القرار يكون غير معقول بدون الانتصارات على

(١) **Annali dell'Islam**, Milano 1907، القسم الثاني، الجزء ٢، ص ٢٥ وما بعدها.

البيزنطيين. وينزع السياق التاريخي برمته، كما المطالعة المتيقظة للمصادر، إلى الدلالة على أن مواجهة الشام كانت تعتبر الجبهة الرئيسية والجبهة التي كانت فكرة الفتح عامة توضع فيها على محك الاختبار.

هذا وينبغي الإنطلاق من الأحداث الملموسة في ميدان يتصف بمثل هذه الضبابية. اتجه الرسول بنظره إلى الشمال قبل أن يتوفى، فشكل في محرم من سنة ١١/٦٣٢، جيشاً للشام بقيادة أسامة بن زيد، وأمره بـ «أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين» كما روى الطبري[٢] نقلاً عن ابن اسحاق. ولا يكفي أن يكون التقليد الإسلامي أفاض في القول كما شاء في الغايات التي رسمها الرسول للغزو الخارجي لكي ننكر أو نخفّف من وجود نية اتساعية في حياة الرسول نفسه. وإلا فلا يمكن فهم الإلحاح الذي أحاطت به الروايات جيش أسامة، مباشرة بعد مبايعة أبي بكر، في حين بدأت تطرح مسألة الردة الخطيرة، ولا نفهم بالخصوص الا بعسر أنه بعد إنهاء حروب الردة (في أواخر سنة ١١ هـ.)، وبعد أن تكلل بالنصر تسلل خالد إلى السواد فعلاً، قامت الدولة في المدينة بقيادة الفتح الرسمي العلني نحو الشام وفلسطين، فجهزت ثلاثة جيوش هامة (في بداية سنة ١٣/٦٣٤). وهكذا فإن وجدت استمرارية في النوايا منذ عهد الرسول وروح عزم وقرارات باتّة من لدن دولة المدينة فإن ذلك كان موجهاً نحو الشمال، فضلاً عن احتمال وجود أسباب أخرى موضوعية املتها الأوضاع القائمة في الخارج. ويبدو أن شعبان اقترح عن دراية افتراضاً مفاده أن البيزنطيين كانوا يتأهبون للقيام بتدخل وشيك، درءاً للحملات العربية على حدودهم. لقد كانوا أكثر اطلاعاً من الفرس على ما كان يجري في بلاد العرب، وكانوا راغبين أيضاً في إعادة الخطوط التجارية التقليدية التي انقطعت بسبب تقدم الإسلام[٣].

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٨٤، نشرة القاهرة، ٦٥ - ١٩٦٠.

(٣) **Islamic History**، ص ٢٥. من المهم أن نلاحظ أن المسلمين كان يحدوهم في حياة الرسول، شعور بالخطر البيزنطي المسلط عليهم. وقد راجت اشاعات سنة ٨/٦٢٩، مفادها أن هناك قبائل عربية مناصرة تجمعت حول البيزنطيين، هي لخم، وجذام، وغسان، وعاملة: راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٠٤. ومن المعلوم أن وقعة مؤتة كادت أن تكون كارثة.

والمقصود من كل هذا النقاش أنه إذا وجب طرح قضية الفتح عـامة، فمن حصـافـة الـرأي أن يجـدّ هـذا الـطرح بخصـوص الشـام لا بخصـوص العـراق . عـلى أن مشـروع الفتح امتـد سـريعـاً جـداً إلى العـراق أثنـاء خلافة عمر إذ أعاد عمر النظر في العمليات الأولى التي قادها المثنى وخالد، فوسع فيها وعقلنها بداية من سنة ٦٣٤/١٣ . وبذلـك يتبين أن تـطور الفتح في العـراق يوضح توضيحاً ممتازاً كل ما يتعلق بأسباب التوسع . تتجلّى هـذه الأسباب بتـطور الظاهرة ذاتها في تنوعها الملموس ذلك أن الفتح العـربي الخاضـع منذ البـداية إلى دفع مركزي، حالفه التنوع المرتبط بتنوع الأقاليم المفتوحـة، وتضمن هذا التنـوع البذرة التي نبتت فيها القضايا المقبلة التي ستواجه المجتمـع العربي المهـاجر. كـان الفتـح فعلاً «هجـرة مسلحة»، كـما جاء في تعبـير كايتـاني الجيد[٤]، وهي عبـارة تنطبق على العراق أكثر مما تنطبق عـلى أية جهـة أخرى. أمـا أن يعتبر كـرجوع لا شعوري إلى حركة بعيدة في الزمن، كما فعـل المستشرق الإيطالي، وبمثـابة ظـاهرة تدفع بانتظام موجات الساميين بعيداً عن موطنهم الأول في بـلاد العرب، فـذلك يعني تأويلاً عـرقياً مشـطاً للتاريـخ . ذلك أن كلمـة ساميين تشمل بشـراً متنوع الأصناف وحّدهم التبحر العلمي الأوروبي في القرن التـاسع عشر بـأن جدد بنـاء لغاتهم فربط بينهم ربطاً خيالياً[٥] . وعوض أن نرجع إلى العصور الغابرة من الأجدر بنا أن نبذل الجهد للاحتفاظ فقط من تاريـخ العراق الـذي سبق الإسلام مبـاشرة بما من شأنه أن يوضح الاستقرار العربي .

وضعية العراق قبل الفتح العربي

ساد الفرس على هذا البلد منذ ما يزيد على ألف سنة، وكان قطراً معـروفاً بغرينه الـثري، واقتصاده المـائي، فكان حقـاً هبة دجلة والفـرات . ورث الفرس

(٤) **Annali dell' Islam**، قسم ٢، ج ٢، ص ٨٦١.

(٥) من العبث القول ان الفتح العربي في بلاد الرافدين كان «آخر محـاولة لاقـامة الهيمنـة الساميـة من جديد في آسيا» : Caetani، **Annali**، قسم ٢، ج ٢، ص ٨٦١، كأن الأمر يتعلق بوجود وعي سامي وباستمراره عبر التاريخ .

نسق بـابل للري في أسـاسه وقـد ذكر الخـطيب البغدادي أنهم لم يقـومـوا سـوى بتحسينـه فحفروا قنـوات ثانـوية، لأن القنـوات الرئيسيـة كانت سـابقة لهم[٦]. لكنهم طبعوا البلاد بطابعهم فكانت التقسيمات الادارية وتقسيم الأراضي تحمل أسماء فارسية وكانت تنسب إلى ملوك الفرس، لا سيما الساسانيين منهم [٧]. ولقد أقام الملك عاصمة ملكه كله في المدائن أوطيسفون. وكان عليه أن يعود صيفاً إلى اصطخر المدينة المقدسة. والعراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي، وموارده البشرية وماضيه، صار مركز الامبراطورية الفارسية. ومع ذلك، تمادى متميزاً عن الموطن الإثني الأصـلي - أي فارس ذاتهـا - أين كـان للشعب المتفـوق جـذوره العميقـة. وبالفعل فبعد تجاوز الحد الشرقي من حلوان، كان النجد الإيراني يشرف بكـامل ارتفاعه على الأراضي السفلية لبلاد الرافدين. وقد لجـأت فلول جيش يـزد جـرد إلى هذا المكان، بعد أن طردها العرب من العـراق. وكان الخط الفـاصل بشريـاً بـين الشعوب السـامية[٨] النـاطقة بـالآرامية، من الأهـالي الخاضعـين أو النبط، والشعوب الإيرانيـة وهي قوام السيـطرة الساسـانية، كـان هذا الخطّ يقـع أسفل سفوح جبل زاغروس. ولكن بالـرغم من أن العراق كـان قطراً مفتـوحاً خـاضعاً مستغلاً، ولم يكن قطراً «قومياً»، فهو مرتبط بالامبراطورية إلى درجـة أن لو ضـاع

(٦) تاريخ بغداد، ج ١، ص ٥٧. اقتبس المؤلف أخباراً عن الهيثم بن عـدى بخصوص دور الأنبـاط في التشييـد ولعلهم بنوا القنـوات الكـبرى من صراة، وسـوراً، ونهر الملك في حـين أن الفـرس لم يحفروا سوى كوثى، والصراة الصغرى، والنهروان.

(٧) قسم العراق في العهد الساساني إلى اثنتي عشرة ولايـة مالياً وادارياً، سميت أستـان، كانت ست ولايات منها تقع شرقي دجلة وتقع ست ولايات أخرى شرقي الفرات ومن أسمائها: شاد فـيروز، باجيزان خسرو، شادبهمان، أردشير بابغان، بيهقباذ.
راجع في هذا الأمر الذي سنعـود إليه Le Strange، **The Lands of Eastern Caliphate**، ص ٧٩ - ٨١؛ وأحمد صالح العلي، «منـطقة الكـوفة»، **Sumer**، XXI, 1965 ج ١ و ٢، ص ٢٢٩ - ٢٥٣. و Spuler، **Handbuch der Orientalistik**، ليـدن ١٩٥٩، ج ٢، ص ٢٣ وما بعدها.

(٨) راجع ما كتبه Armas Salonen حول آثار اللغة الأكادية في المصـطلحات التقنيـة للري العربي، نجـد في الأكـاديـة مُسَنِّيتـو = مسنّـاة بـالعـربيـة: مجلة **Orientalia** XXXII, (1963)، ص ٤٤٩ - ٤٥١، وكذلك Bosworth، **JESHO** 2/XII (1969)، ص ١٥٤ .

العراق لضاع كل شيء، كما دلت عليه الأحداث فيما بعد. خلافاً لما وقع في الشام وفي الامبراطورية البيزنطية. لقد ميز العرب قطعاً بين العراق ـ الذي اشتمل على الأهواز، وخوزستان في الجنوب الشرقي ـ وبين فارس والجبال، وأصر عمر على رفضه مهاجمة الفرس في بلدهم الأصلي ودام رفضه بضع سنوات، لكن الأمر الدال هو أن أهم ما في الجهاز الدفاعي الإيراني استقر بالعراق. ثم أن خط الدفاع ضد «البرابرة» القادمين من الغرب، لم يكن موجوداً في أسفل جبل زاغروس، بل على مرتفعات الطّف، وراء الفرات، ومواجهاً للبادية العربية(٩).

لا شك أن العرب ما انفكوا يتسللون في كافة العصور، من بلاد العرب إلى بلاد الرافدين. ولو اقتصرنا على المؤرخين العرب كالطبري والمسعودي، لكان شعورنا أن محاولات الاستقرار التي قامت بها الجموع العربية تعود إلى عهد سحيق مع ملاحظة أن أولئك المؤرخين كانوا يخلطون بين القديم والحديث، وما كان قابلاً للتصديق وما لم يكن كذلك. روى الطبري(١٠) أنه وجد تجار عرب في بلاد الرافدين زمن نبختنصر الذي عاش في عصر معدّ بن عدنان (كانت هذه المعاصرة أسطورية لكنها كثيرة الأهمية كعلامة ذهنية). وقد تلقى الملك من الرب أمراً بالقضاء عليهم، لكنه بنى لهم حيراً (معسكراً) ثم تخلى عن هذه الفكرة، فاستقروا عند ذلك في الأنبار(١١) وروى الطبري كذلك في موضع آخر، أن العرب أقاموا بالحيرة والأنبار في عهد ملوك الطوائف أي زمن دولة الأرصسيديين (Arsacides). وقد استفاد عناصر من تغلب وقيس وغطفان واياد، كانوا تجمعوا في البحرين تحت اسم تنوخ الجامع لرايتهم.

ولعل عناصر من لخم والأزد انضموا اليهم، استفادوا من انقسام الفرس،

(٩) لاسيما خندق سابور والحاميات الفارسية الموجودة بمنابع نهر الطفّ، في عين الصيد وقطقطانة، ورهيمة، وعين جمل: البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٣٣، ص ٢٩٦.

(١٠) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٥٥٨.

(١١) لكن من المعلوم أن الأنبار أنشئت بعد ذلك بكثير من طرف سابور ذي الأكتاف: الدينوري، الأخبار الطوال، طبعة بيروت، ص ٤٨ ـ ٤٩.

فأقاموا غرب الفرات حسب خط مسترسل يمتد من الأنبار إلى الحيرة[١٢]. وتقول المصادر أنهم حافظوا على شخصيتهم، حيث كانت لهم شخصية مستقلة ثابتة بصفة خاصة. كانوا لا يسكنون الا الخيام، ولم يختلطوا بالأهالي. وقد سمّي أولئك العرب المقيمون بالطّف **بعرب الضاحية** أي عرب الأطراف، على أن جميع العرب الذين أقاموا خارج شبه الجزيرة، من الأبلّه إلى الشام مروراً بالجزيرة،عاشوا عيشة مهمشة واتصفوا بصفات مشتركة وربطوا علائق قرابة وثيقة بينهم، حيث كانوا محاصرين بين العالم العربي الداخلي والهياكل الامبراطورية الخارجية. وما يدل على ذلك أن جمهرة ابن حزم[١٣]، صنفت تنوخ، وغسان، خارج تسلسل الشجرة المشتركة وظهرت اياد والنمر لا محالة بمظهر هامشي بارز. ثم إن الأمر يختلط على نسابينا ومؤرخينا، فخلطوا بين هجرة قضاعة واستقرار عرب الضاحية واستقرار تغلب والنمر واياد في الجزيرة[١٤]. لكن هذا الشتات العربي كان يربط الصلات حيثما كان.

فهل هذا أصل مشترك؟ أو تضامن أملاه ما كانت عليه ظروف العيش من تشابه، أم كانت سهولة في التحرك مردها استمرار الترحال؟ يرى المسعودي أن الاستقرار الأول في الحيرة. تم بواسطة انفصال جموع من المهاجرين في الشام، فوصف جذيمة الأول بأنه تنوخي[١٥]. هذا وأن تسمية تنوخ الغامضة تستند إلى الماضي البعيد. الواقع أن هذه النسبة كانت نادرة في المصادر كلما اقتربنا من الفتح. لكن إذا وجب التمييز بين خط الاتصال العربي - الفارسي بالطّف والخاضع للحيرة، وبين منطقة الجزيرة، وبين المنطقة العربية الداخلية القريبة من العراق والمستقلة، فلا مناص من القول ان العناصر القبلية لهذه المناطق الثلاث كانت متشابكة.

---

(١٢) الطبري، ج ١، ص ٦٠٩.

(١٣) الجمهرة، طبعة القاهرة، ص ٤٦١.

(١٤) Caetani, **Annali dell' Islam**، قسم ٢، ج ٢، ص ٨٥٣.

(١٥) مروج الذهب، تحقيق Pellat، بيروت ١٩٦٦، ج ٢، ص ٢١٤.

أ) تقيم أياد وتغلب والنمر على أرض الجزيرة بصورة رئيسية، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الحيرة، وتوجد في قلب السواد أيضاً، تقوم على خفارة تجار سوق قرية بغداد[١٦]، أو بعين التمر حيث كانت تدافع عن الحصن رفقة الفرس، وقد قام خالد بتقتيلها[١٧]. وقد تأكد من جهة أخرى أن ملك الحيرة كان يعتمد عليهم ويستخدمهم ضمن فرق شرطته[١٨]. ويمكن الافتراض أنهم أكثروا من التنقل حين انهارت مملكة الحيرة، مع العلم بأنهم كانوا يتنقلون دائماً، وأن مقرهم الرئيسي كان بأرض الجزيرة الفراتية، ويبدو أن الفرس استخدموهم في الدفاع عن حدودهم العربية.

ب) أقام عرب داخل بلاد العرب علائق مع العالم الإيراني، وكان بصرهم مركزاً على العراق، لا سيما قبيلتان كبيرتان من ربيعة هما عبد القيس وبكر. وقد بين ماسينيون (Massignon) أن عبد القيس تأثرت بالحياة الإيرانية إلى حد ما قبل ظهور الإسلام بمدة [١٩]. ومن الثابت أن بعض عناصر هذه القبيلة التي ستقوم بدور رئيس في العشرين سنة الموالية، قد تسربوا إلى منطقة الأبلة وتقدموا إلى خوزستان[٢٠]. أما قبيلة بكر التي ارتبطت بها عجل وثيق الارتباط، فقد كانت تترحل في البوادي خارج الطّف. وقد أنيطت مسؤوليات بعهدة بعض شيوخها، كلفهم بها الفرس، كما جرى الأمر مع شيخ من بكر ولي على الأبله[٢١]. لكن الملاحظ أنه ظهرت داخل هذه القبيلة استعدادات عدائية تجاه

---

(١٦) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٧٤، يتحدث الطبري عن «خفراء من ربيعة وقضاعة». وكانت اياد أنشط القبائل الثلاث.

(١٧) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٣٧٦.

(١٨) Kister، «al-Hira Some notes on its relations with Arabia»، **Arabica**، ج ١، ١٩٦٨، ص ١٥٩. يشير إلى قبيلة النمر لكن ليس صحيحاً القول ان خالداً أبادهم خلال حروب الردة، إلاّ إذا اعتبرنا أيام سنة ١٢ مدرجة في الردة.

(١٩) «شرح تخطيط الكوفة»، في **Opera minqra**، ج ٣، ص ٤١.

(٢٠) نجد عناصر من ربيعة متنصرة في منطقة فارس وأسياف البحر إلى حد زمن علي لكن الأرجح انهم قاموا بهجرة وحشية: الطبري، ج ٥، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢١) كان من بيت ذي الجدين الشريف الذي أقطع الأبلة طعمة: الطبري، ج ٢، ص ٢٠٦.

الإمبراطورية الساسانية. كانت هذه القبيلة قبيلة اتصال ومثلث أيضاً رأس الرمح للعروبة تجاه العجم. ظهر ذلك خلال معركة ذي قار[٢٢]، ثم أثناء مقدمات الفتح الذي انطلق مع بكر فعلاً بقيادة شيخهم المثنى بن حارثة الشيباني. كانت معركة ذي قار تشكل أول مواجهة بين الفرس والعرب على أرض مكشوفة وتستند أسباب نشوبها إلى تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية ومملكة الحيرة، وهي العلاقات التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور. ذلك أنه لكي يقوم بنو شيبان بنجدة آخر المناذرة الذي طارده، كسرى ابرويز، ولكونهم رفضوا تسليم الدروع التي أودعها النعمان عندهم، فإنهم وافقوا على خوض نزاع كان يبدو غير متكافىء[٢٣]. وقد شدت عجل أزرهم بقوة، وجسم حنظلة شيخهم روح النضال والتحدي، أكثر من هانىء بن قبيصة سيد بكر. وما هو ذو دلالة أيضاً أن قبيلة اياد التي حاربت مع الفرس، اقترحت، حسب المصادر، خذلان أسيادها لفائدة أبناء جلدتها ـ وقد تجدد هذا النوع من السلوك في بعض مراحل الفتح العربي.

ولقد أشادت أشعار كثيرة بهذا الحدث[٢٤] الذي كانت مراحله متعددة. وقد وصفها العرب ـ ذهل بن شيبان وعجل ـ كما وصفوا أيامهم المعهودة، فظهرت أيام قراقر وحنو، وجبابات، وذو أجرم ،وغدوان، وأخيراً المواجهة الحاسمة في بطحاء ذي قار. والأمر الهام الواجب ملاحظته أن رؤساء الحاميات العربية بقيادة اياس بن قبيصة الطائي[٢٥] رافقوا الفرس ومن بينهم شخص بارقي (من الأزد) وآخر شيباني من بيت ذي الجدين عهد إليه بقيادة حامية صفوان في الطفّ. ما هي حصيلة هذه الوقعة؟ هل كانت تبشر في واقع الأمر

(٢٢) راجع ما ذكره عنها Goldziher في **Muhammedanishe Studien**، ج ١، ص ١٠٤.

(٢٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٠٦. هذا الاستبقاء لكمية ضخمة من الدروع والأسلحة يفسر قوة بكر العسكرية في أول الفتح: ياقوت، معجم البلدان، ط. بيروت ١٩٥٧، ج ٤، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢١٢.

(٢٥) خليفة النعمان على رأس الحيرة.

بانقلاب الوضع لفائدة العرب، وتغيير علائق القوة؟ الحقيقة أن الموضوع مرتبط بحدث صغير في حد ذاته، كان عبارة عن معركة صغيرة دارت بين بعض الجماعات العربية وبعض حاميات خط الدفاع الفارسي. على أن هذا الحدث يندرج في سلسلة من الظواهر التي تكتسب دلالة معينة حين يقع ربطها ببعضها بعضاً: منها العدوانية المقدامة التي أبدتها قبيلتا شيبان وعجل، الملتحمتان والداخلتان في فلك الساسانيين دخولاً متفاوت الأهمية وقد بقي بعض من عناصرهما على تلك الحال، ثم انهيار مملكة الحيرة في شكلها التقليدي، وتغييرات طرأت على استراتيجية الدفاع الفارسي ضد العرب، وعدم استقرار هذه الاستراتيجية، وهناك أمور أخرى لم يرد ذكرها بالمصادر الا تلميحاً، وهي ترجعنا إلى بنية من العلاقات التي نخمنها: مثلاً، أن يكون الفرس قد اعتبروا الغارات العربية الأولى، حتى وقعة القادسية، بمثابة دفعة حمى تسببت فيها المجاعة وكأن الأمر يعني حركة معهودة من الاضطرابات.

وأخيراً، لن ننفك دائماً نلح على الدور الجديد الذي قامت به بكر بن وائل. فقد كانوا الأولين الذين بدؤوا الإغارة على السواد، واليهم يرجع فضل المبادرة في فتح العراق، بمساندة الحكومة القائمة في المدينة طبعاً وبإذن منها.

ويتضح إذن أنه لا يمكن تعليل هذه المبادرة دون الرجوع إلى ذلك الماضي القريب، ماضي النزاعات والاطماع والتحدي الموجه إلى أعظم امبراطورية في العالم والصادر عن قبيلة كانت ذهنيتها ترتبط أعمق ارتباط بشبه الجزيرة، لكنها كانت تعيش لا محالة على رباط وثيق بالعالم الخارجي وكانت مطلعة على نقاط الضعف فيه.

ج) كتب الكثير عن مملكة الحيرة[٢٦]. كانت الحيرة موجودة قبل

---

(٢٦) فضلاً عن أبحاث كايتاني ومقال نشر في دائرة المعارف الاسلامية (طبعة ثانية)، يمكن الرجوع إلى: Labourt **Le Christianisme dans l'Empire prse,**، و Aigrain (مادة: Arabie)، Dictionnaire d'Hıstoire et de Gé ographie ecclé siastıques، باريس،

الساسانيين، فهيؤوها لتكون مملكة تابعة أنيط بها مراقبة الحدود بالخصوص، وأصبحت مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي، على الأقل بفضل ما حصل عليه النعمان الأول من حظوة عند يزد جرد، وقد أشرف النعمان على بناء قصر الخورنق الذي استقر به ابن الملك الساساني. يضاف إلى ذلك الأسباب العسكرية والسياسية التي تفسر كيف أعطى الملك الفارسي النعمان كتيبتين للقتال، كانت الأولى متركبة من العرب، من ربيعة بالخصوص، وتركبت الثانية من الفرس[٢٧]. ونمت القدرة العسكرية لهذه المملكة في القرن الخامس والقرن السادس الميلادي، كما اتسع مجال عملها. ولكن لا يعني ذلك أننا نجاري كيستار (Kister) في رأيه القائل أن نسيج العنكبوت الذي حبكه ملوك الحيرة قد امتد إلى بلاد العرب كافة وكأنهم أصبحوا المحور والمرجع للوجود السياسي كله في بلاد العرب، إنما دخلت الحاشية الشرقية لشبه الجزيرة بصفة متفاوتة في جهازهم. فكان بنو بكر صنائع لهم (من المرتزقة أو بالأحرى كانوا أعواناً مأجورين » ، والنمر أيضاً ، وارتبطت تميم بهم بفضل رباط الرادفة ، وعقد عهد بينهم وبين سليم وهوازن ، ويمكن اعتبار غطفان وأسد قبيلتين حليفتين لهم .

كانت الحيرة إمارة هامة، بل كانت تصنف ضمن الممالك الأربعة التابعة التي كانت تحويها كل الامبراطورية. وكان ملكها يلقب بلقب **شهداران**[٢٨]. أما دورها الثقافي والحضاري فيبدو عظيماً إذ نصّبت نفسها مركزاً للشعر العربي الأصيل وملتقى لتأثيرات مختلفة كذلك. أما على الصعيد الديني فقد تعايشت بها الوثنية العربية والمانوية والمزدئية والنسطورية والمذهب التوحيدي لطبيعة المسيح.

١٩٢٤، ج ٣، و Christensen، **l'Iran sous les Sassanides**، كوبنهاغن ١٩٣٦؛ و Talbot Rice «Hira» في **Journal of the Royal Central Asian Society,**، المجلد ١٩، ١٩٣٢، ص ٢٥٤ - ٢٦٨، وكذلك أعمال Kister لاسيما في **Arabica**، XV، ١، ١٩٦٩، ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢٧) الأغاني، طبعة القاهرة ١٩٢٨، ج ٢، ص ١٤٦، الألوسي، **بلوغ الأرب**، بغداد ١٣١٤ هـ، ج ٢، ص ١٩١. كانت الكتيبة الأولى تسمى **دوسر**، وكانت شديدة المراس في القتال، وتسمت الثانية **الشهباء**، وعرفت الكتيبتان أيضاً باسم «القبيلتين».

(٢٨) Christensen، ... **Iran**، ص ٩٦.

ويبدو أن المسيحيين المشار إليهم من طرف المصادر بكلمة **العباد** كانوا يشكلون الأغلبية، وعلى رأسهم أسقف منذ القرن الخامس. فمثلاً نجد أوزى (Osée)أسقفاً في سنة ٤١٠ م، على «هِرته»، وكان حاضراً بمجمع سلوقيه حيث نظمت كنيسة فارس[٢٩] في سنة ٥١٠ م، وصوت نرسس (Narses) الأسقف النسطوري، لفائدة انتخاب جاثليق جديد[٣٠]. وكان الجو للتسامح، فكان هذا الملك يبدي تشككه تجاه المسيحية ويذهب الأمر بغيره من الملوك ـ كالنعمان بن المنذر القديم ـ ستقتبس الكوفة كثيراً من هذه الخاصيات الحضارية والثقافية، منها العناصر الهندسية المعمارية، والكتابة، وعناصر الشعور الديني وبذلك تبقى قضية تأثير الحيرة على ثقافة الكوفة كقضية أساسية.

كانت مملكة الحيرة تقوم بدور فعال، دور الحاجز بين العرب والفرس، وطرأت عليها تغييرات بداية من القرن السابع فقد أقصى كسرى أبرويز، في ٦٠٢، الأسرة اللخمية المالكة وكانت من المناذرة، لأسباب تبقى مجهولة لدينا إلا أن المؤرخين القدامى ربطوا هذا القرار بالدور الذي قام به عدى بن زيد الشاعر[٣٢]. كان عدي ذا حظوة في بلاط الساسانيين، ويعتقد أنه أنقذ السلالة اللخمية لما أجلس على العرش النعمان الذي كان في حمايته. وقد أثارت حظوته الخاطفة في الحيرة الحفائظ والدسائس. فاغتيل، وقرر الابن الأخذ بثأر أبيه فأثار كسرى على النعمان الثالث. وأظهر النعمان العصيان وطورد من أجل ذلك إلى قبيلة طيّ التي رفضت مساعدته، ثم دخل في ذمة هانىء بن قبيصة من ذهل بن شيبان من بكر، فكانت حمايته له ناجعة، مما أدى إلى نشوب المواجهة في ذي قار،

---

(٢٩) مادة «Arabie» في **Dictionnaire d'Histoire et de Géographie ecclésiastiques**.

(٣٠) Talbot-Rice، بحث مذكور، ص ٢٥٤. ازداد عدد النسطوريين.

(٣١) الأغاني، ج ٢، ص ١٣٥: يروى أن هنداً ابنته هي التي أمرت ببناء دير هند الشهير الذي كان محاذياً لمدينة الكوفة المقبلة.

(٣٢) الطبري، التاريخ، ج ٢، ص ١٨٨ وما بعدها؛ والأغاني ج ٢، ص ١٠٠ وما بعدها؛ والمسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٣ وما بعدها.

التي صمد فيها العرب حتى النصر، لكن هذا لم يحل دون طرد المناذرة عن الحكم، وألحقت مملكة الحيرة الحاقاً كان مقنعاً ثم صار مباشراً. وبالفعل ولّي عربي هو اياس ابن قبيصة الطائي على ثغر العرب، ومن المحتمل أن الأمر تم له بعنوان الولاية لا بصفته ملكاً. وخلفه أزاذا بِه بن ماهان الفارسي طيلة سبعة عشر عاماً، منها أربعة عشر عاماً وثمانية أشهر في حكم كسرى أبرويز(٣٣). وبذلك نصل إلى سنة ٦٣٠ ب.م/٨ هـ. وصارت الوضعية عندئذ غامضة. فظهر أحد أحفاد الأسرة المالكة سابقاً وهو أحد المناذرة الذي اشتهر باسم الغرور عند العرب، وانتهى أمره مقتولاً في البحرين(٣٤).

وها أن الحيرة تبرز في ضوء التاريخ الإسلامي، بمثابة الجزء المركزي من الأيام التي جدت سنة ١٢ هـ. وأنشأت إلى جانبها الكوفة بعد خمس سنوات، رمزاً وموطناً للعروبة الجديدة التي برزت مع الإسلام، وكانت عروبة مغايرة كل المغايرة لتلك التي جسمتها الحيرة طيلة ثلاثة قرون.

الواقع أن إنهيار حكم المناذرة لا يكشف عن تناقض سياسة كسرى الثاني فقط، حتى ولو دل على أي حد من الخفة بلغه عسف هذا الملك. إذ أن حالة الحيرة في آخر طورها، الحيرة التي صار الولاة يتقاذفونها، تعكس تفكك السلطة الساسانية ذاتها. ولا فائدة من التعرض للأسباب العميقة للأزمة التي مرت بها الامبراطورية الفارسية على أننا نلاحظ ما هو ماثل للعيان وهو ما لاحظه المؤرخون العرب أنفسهم. كان العهد الطويل الذي قضاه في الحكم كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨)، بمثابة الكارثة من وجوه عدة: اكتناز المال بصورة لا تصدق، وتشطط جبائي وتجاوزات من كل قبيل، وحروب مرهقة مع بيزنطة(٣٥). فضلاً عن أن الهوس التنجيمي لهذا الملك دفعه إلى القضاء على ذريته ذاتها. فطرأت أزمة على خلافة الملك، لكون الذرية مفقودة. لم يكن البيت الساساني مهدداً بالزوال

(٣٣) الطبري، التاريخ، ج ٢، ص ٢١٣.
(٣٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢١٣.
(٣٥) الطبري، التاريخ، ج ٢، ص ٢١٦.

فقط، بـل أن الضربة القـاضية لحقت هيبتـه، دون أن تتأكـد في الاثنـاء شرعيـة سياسية أخرى. فتواتر على العرش خلال بضعة أعوام الملوك والمدعون بـأحقيتهم الملك، إضافة إلى الدسائس والانقلابات والاغتيالات والمقتلات. ولم يبق شيرويه في الحكم خلفاً لكسرى سوى ستة أشهر أو يكاد، وخلفه ابنه أزدشير وبقي سبـع سنـوات في الحكم. ثم ساد الغمـوض بعد ذلـك. وما يمكن ذكـره من أسـماء في هذا الصدد، اسما: بوران ورستم، وآخرها يزدجرد الذي توج باصطخر حينما كان الفتح العربي على أشده[٣٦].

ولذا أدى الاضطراب السياسي إلى نشوب أزمة خلافـة لا مخرج منهـا. ومما زاد الطين بلة أن الكوارث الطبيعية نزلت على العراق، ففاض الفـرات ودجلة في سنة ٧ من الهجرة، واستحـال سد الثغـرات ونشأت البطائـح وكانت مسـاحات واسعة من الماء الراكد تقع بجنوب موقع الكوفة المنتظرة إلى حدود الأبله. وبذلك نـزعت مساحـة كبيرة كـانت صالحـة للزراعة وخسرهـا النشاط الـزراعي خسارة دائمة[٣٧] وعجز كسرى أبرويز عن ايقاف هذه الـظاهرة التي استمـرت وتفاقمت مع الغزوات العربية.

(٣٦) الطبري، ج ٢، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤؛ والدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ١١٠ ـ ١١١.
(٣٧) الـبـلاذري، فـتـوح الـبـلدان، ص ٢٩٠، Le **The Lands of Eastern Caliphate,** Strange، ص ٢٦ ـ ٢٧.

الفصل الثاني

من الأيام إلى القادسية

انطلق الفتح العربي في مثل هذه الظروف غير الملائمة للفرس إطلاقاً. وقد ارتكب الساسانيون خطأً كبيراً. ذلك أنهم لم يتفطنوا إلى تقييم ما كان يجدّ في بلاد العرب، كما أنهم لم يتغلبوا على الشعور بالمناعة الذي قضى عليهم في النهاية.

الأيام

بينما كانت تدور حروب الردة ـ وقد كانت مدرسة تعلم فيها العرب الحرب تعلماً ممتازاً(٣٨) ـ بلغ إلى علم بني شيبان أن مملكة فارس كانت في أزمة خلافة فخططوا للقيام بغارات كبيرة على السواد(٣٩). وأراد المثنى سيدهم ربط هذه العملية بالإسلام: كان الجزء الذي يتبعه من بكر في طريق الأسلمة لا سيما أنه بقي وفياً للدين خلال حروب الردة. وعمل المثنى من أجل إكساب وضعه صبغة شرعية، فطلب الإذن من أبي بكر، لكن بعد انطلاق العملية. وتدخل خالد بن الوليد في هذا الظرف حيث كان قريب العهد بالانتصار على حنيفة في معركة عقرباء. فلا مفر من تفسير ذلك بأن السلطة في المدينة أرادت استرجاع المبادرة التي قامت بها قبيلة بكر، وحصرها، وحتى تسييرها. وأذن أبو بكر للمثنى بالتحرك، لكنه عمل على إعلام خالد بالأمر، وأمره بالانضمام إلى المثنى وقيادة

(٣٨) ذلك ما لاحظه نابليون: راجع Norman Daniel، **Islam, Europe, Empire**، ص ٢٩.

(٣٩) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٤٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١١.

العملية كلها. فنشأت عن هذا الإتصال «أيام» سنة ١٢ هـ، التي كانت منطلقاً لسيطرة العرب على العراق، ثم على كافة المملكة الساسانية في فترة لاحقة.

هل اغتاظ المثنى من قدوم خالد؟ «وكره المثنى ورود خالد عليه وكان ظن أن أبا بكر سيولّيه الأمر» كما قال الدينوري[٤٠]. ليس يهم إلا قليلاً الاطلاع على مشاعر المثنى. لكن وخلافاً لذلك، لا منازع أن مساعدته كانت فعالة وثمينة وأنه جسم عنصر الاستمرار والدوام في مشروع الفتح الذي تعطل عدة مرات. كان البلاذري والدينوري محقين في منحه مكاناً مركزياً في انطلاق المغامرة العراقية[٤١]، في حين أن الطبري نزع إلى اغفال دوره، فيما نقله لنا من روايات باستثناء تلك التي يعتمد فيها أبا مخنف[٤٢]. وعلى كل، فخلافاً لما اتصف به كتاب الدينوري من ايجاز ووضوح وتبويب، إذ ربط أحداث **الأيام** بعرض حول تدهور الأحوال في الإمبراطورية الساسانية، وقصرها على الاستيلاء على الحيرة وحصونها الثلاثة، وكذلك على وقعة عين التمر، وخلافاً أيضاً لما يبدو عليه نص البلاذرى من الوجازة، فإن النصوص التي أوردها الطبري تستهدف الشمولية، فجاءت كثيفة، مفرطة التفاصيل، مترامية الأطراف. وردت روايات مطولة لأحداث الأيام، وتجاوزت كثيراً ما كان يترقب منها من أهمية عسكرية حقة. وتجلى هذا الأمر في كتب الفقه[٤٣]، والمغازى والتاريخ[٤٤]، أما حقيقة الأمر، فإن المناوشات الأولى على حدود العراق تبدو في نظر المؤرخ الحديث المتتبع لسياق الأحداث، بمثابة ا لأحداث الصغرى بالنظر للمعارك الحاسمة ـ منها معركة القادسية ـ التي هزت الامبراطورية الفارسية في قوتها ثم في وجودها هزاً لا رجعة فيه. فضلاً عن أن نتائجها الإيجابية كخضوع الحيرة وخضوع بعض قرى السواد

---

(٤٠) **الأخبار الطوال**، ص ١١٢.

(٤١) **فتوح البلدان**، ص ٢٤٣؛ **الأخبار الطوال**، ص ١١٢؛ لا نجد بتاريخ خليفة ابن خياط أي خبر مهم: انظر ج ١ ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٤٢) الطبري، **التاريخ**، ج ٣، ص ٣٤٣.

(٤٣) ابو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٤٢ ـ ١٤٩.

(٤٤) ابن الأثير، **الكامل**، ص ٣٨٤ ـ ٤٦١.

منها أليس وبانقيا كانت غير ثابتـة، لأن عودة الفـرس إلى الهجوم جعلتهـا لاغية، وهكـذا انطلق العـرب من الصفر بعـد القادسيـة، كأنـه لم يقع شيء. فلم هـذا التضخيم لحدث **الأيام** في الـروايات؟». يمكن تعليـل اهتمام الفقهـاء بالتـطورات الأولى للفتح بمحاولتهم العثور على قاعدة فقهية عامة مستمدة من صور خاصـة، هي قاعدة الصلح المتميزة عن وضعية العنوة. ومن الممكن أيضاً أن سكـان الحيرة أرادوا التملص من النظام المشترك للسواد، مستظهرين بمعاهدة أبرمت مع خالد. وبذلك يمكن للمشاغل النوعية الخاصة بالقرن الثاني (إمكانية التصرف بالبيـع في أرض السواد أم لا، نظام خـاص أو غير خـاص للمجموعـات التي طالبت بـه، بعنوان الحقوق التاريخية) أن تفسر اهتمام الفقهاء بأحداث تبدو ثانوية من الـوجهة التاريخية[٤٥].

هناك تعليل آخر صبغته اجتماعية تـاريخية. لقـد تحقق الفتح عـلى مراحـل متوالية، وكان التمييز بين المحاربين على أساس الأقدمية في الخدمة («السابقة»). فجسم هذا الأمر اسقاطاً، على الأحداث التي تلت وجود الرسول، لزمنيـة نبويـة وإسلامية محضة، وعندما جدت نـزاعات اجتـماعية دينيـة في خلافـة عثمان وعـلي ومعـاوية، وفي الكـوفة بـالذات، كـانت جميعها أو يكـاد تدور حـول اختيار سلم الرتب، وكان التيار الإسلامي ينزع طبعاً إلى تمييز السابقة الزمنية في القتال. وقـد آل الأمر إلى أن يكوّن أبطال **الأيام** مجمـوعة متـماسكة كـانت لها مـطامح سيـاسية واجتماعية في البداية، ثم تحولت إلى مجرد مطامح تاريخية وأدبية. «كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعـدون معاويـة عند بعض الـذي يبلغهم، ويقولـون: ما شـاء معـاوية، نحن أصحـاب ذات السلاسـل، ويسمون مـا بينها وبـين الفـراض مـا

---

(٤٥) يعتمد البلاذري في رواية الأحداث، قواعد فقهية من هذا القبيل: «ليس لأهل السـواد عهد إلاّ الحيرة وأليس وبانقيا أو من ذاك، «لا يصلح بيع أرض دون الجبـل إلاّ أرض بني صلوبا وأرض الحيرة»: فتوح البلدان ص ٢٤٦. وقد تعددت المناقشات أيضـاً حول تسـويغ البيـع والشراء أو عـدمه في أراضي بغـداد، التي اعتبرت جـزءاً لا يتجزأ من السـواد. راجع الخـطيب البغدادي، تاريخ بغـداد ج ١، ص ٤ ـ ٢٠. وقد اعتمـد Dennett **Conversion and the Poll-tax,** هذه التصورات الفقهية، فأعطى مكاناً أعظم مما ينبغي لقرى مثل أليس وبانقيا، الخ...

يذكرون ما كان بعد احتقار لما كان بعد فيما كان قبل»(٤٦).

لعل هذه المجموعة النشيطة في خلافة عثمان خلت إلى ذكرياتها في عهد معاوية، وهي التي غذت رواية الأساطير حول أيام سنة ١٢، فتقصت الأحداث الصغرى والأشعار المنظومة على نموذج مستمد من العصر الجاهلي بصورة غريبة. فنجم عن ذلك مصدر جديد للأثر التاريخي قائم لا على الفقه بل على الأخبار وقد استوحى صبغة ذات خصوصية ـ استهدفت المصلحة الأدبية لمجموعة معينة ـ وصبغة إسلامية في الآن نفسه قامت على مفهوم إسلامى للعزة، وصبغة عربية جاهلية المظهر أخيراً. فمن جهة هناك شعور بعزة شبه ميتة ناشئة عن أن أهل الأيام كانوا أول من انطلق في مغامرة هشة في بدايتها، لكن عظيمة في نتائجها آخر الأمر، حيث أن الأشياء لا تقاس بأهميتها الظاهرة بل بصوفية الانطلاقة، وبالحركة الأولى التي تلهب التاريخ والتي ترجع إلى زمن النبي. ومن جهة أخرى يعود لفظ الأيام العراقية، بتكييف تكتيك الحرب القبلية بتكتيك الحرب الشاملة بين شعب وشعب. الحقيقة أن هذا التدرب تحقق بعد وقت قصير زمن أبي عبيد وجرير بن عبدالله البجلي، خلال المرحلة الثانية من الفتح. أما في مرحلة الأيام، فالأمر بقي مرتبطاً بأحداث كانت تدور بين العرب أنفسهم: في الحيرة مثلاً أو في عين التمر، حيث المهزومون الرئيسيون كانوا من عرب الحدود أكثر مما كانوا من الفرس، وكأنّ الموجود بالذت إنهاء القضاء على الردة.

إن تاريخ الطبري هو أضمن المصادر بهذا الصدد رغم مظهره المتشعب. أما البلاذرى فيخلط بين التواريخ وتشتبه لديه الأحداث ويدخل فيها جانباً لا يستهان به من غريب الرواية والوعظ. أما كتاب أبي يوسف فهو جيد لكن الدقة تعوزه.

يروي الطبري عدة روايات منكراً صحتها(٤٧)، وقد ورد بها أن خالداً مرَّ بالأبله واتجه شمالاً حتى الحيرة. الواقع أن الساحة الرئيسية للعمليات كانت تقع

(٤٦) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٨٥.

(٤٧) وجاراه Wellhausen في هذا الرأي: ...**Prolegomena**، ص ٤٣.

في موقع الكوفة المقبل حيث جرى الاستيلاء على الحاميات وفي الإمكان أن يكون العرب قد تقدموا في مرحلة ثانية إلى السواد حتى دجلة، محتلين إياه في واقع الأمر، بحيث أن دجلة لا الفرات هي التي قامت مقام الحاجز بين العرب والعجم في مطلع عام ١٣[٤٨]. ودعي خالد، في المرحلة الأخيرة، لنجدة الجيوش في الشام فسار إلى أعلى الفرات ودخل الجزيرة فقمع بشدة القبائل العربية بحدود الشام، ثم عبر الصحراء فتفرع جيش الأيام فرعين: فرع رافق خالداً تحت اسم **أهل العراق** وعاد فوراً لا محالة بعد واقعة القادسية، وبقي قسم آخر مع المثنى في الحيرة، وهم في اعتقادنا أنصار المثنى بالذات، وسيكون نصيبهم المشاركة في كافة مراحل المغامرة العراقية.

إن الحصون التي استولى عليها خالد والمثنى هي ألّيس والحيرة وبسما وبانقيا وأمغيشيا. توجد ألّيس على الفرات[٤٩] وكانت في حماية قائد عسكري فارسي يسمى جابان وقد لعب دوراً ما في حروب الفتح حتى وقعة القادسية. كان جابان يعتمد على أعوان عرب إما من عرب الضاحية (الحيرة)، وإما جندوا من القبائل المتحالفة: وهي قبائل عجل وأياد وضبيعة. وانتهت القضية بتقتيل حقيقي لهؤلاء العرب والاستيلاء على أمغيشيا[٥٠]، وكانت أليس قلعة لها[٥١]. كما وقع

(٤٨) الطبري، **التاريخ**، ج ٣، ص ٤١٤.

(٤٩) هذا ما ورد بأغلب المصادر، لكن لا يشكل ذلك خبراً كافياً، إذ لو كانت حامية فارسية تدافع عن خط المواجهة مع العرب، لوقعت منطقياً على ضفة الفرات اليمنى، لكن السياق كله الذي توحي به مطالعة كتاب الطبري خاصة، يدل على وجود هذه القرية والقرى الأخرى داخل السواد، أي على ضفة الفرات اليسرى وبالأحرى في منطقة الحيرة والكوفة وهو الموقع الذي حدده لها أحمد صالح العلي في الخارطة المدرجة بدراسته: «منطقة الكوفة، دراسة تبوغرافية»، Sumer، ١٩٦١، المجلد ٢١، ج ١ و ٢، ص ٢٢٩ - ٢٥٣. وقد أشار الدينوري صراحة، ص ٢٩٨، إلى وجود بانقيا في المنطقة ذاتها. هذا ولا يُعتمد على المعاجم الجغرافية المتأخرة في موضوع التعرف على المواقع القديمة، إذ أوردت ما نقلته عن الكتب السابقة وهي بذاتها قليلة الوضوح: ياقوت، **معجم البلدان**، ج ١، ص ٣٣١ و ٣٢٠. وقد أكد الطبري في مكان آخر أن أليس تقع بمنطقة الأنبار، وتتوغل في الشمال: **التاريخ**، ج ٣، ص ٤٧٣.

(٥٠) اثبتت الحفريات التي تمت في بابل عام ١٨٨٣، وجود Ummischigedia ولعلها تكون هي بذاتها أمغيشيا: Wellhausen، **Prolegomena**، ص ٤١.

(٥١) الطبري، ج ٣، ص ٣٥٨.

الاستيلاء على الحيرة بنفس العنف. فقد ضرب الحصار على حصون القصر الأبيض وقصر العدسيين، وقصر بني مازن، وقصر إبن بقيلة حيث كان يوجد عمرو بن عبد المسيح[٥٢] الحامي الرئيسي للحيرة[٥٣]. ونشبت المعركة ودخل الجيش البيوت والأديرة، وبدأ التقتيل، فطلب سكان القصور الصلح، لما كانت عليه المدينة والأديرة من عجز عن الدفاع، واعدين بارشاد الجيوش الإسلامية. وتجدد نفس المشهد تقريباً في كل مكان: الشروع في التقتيل بالمدينة الملاصقة للقلعة، واستسلام المدافعين عن الحصن بعد التفاوض على إبرام اتفاق. وكان يتم أحياناً إبرام معاهدة صلح بعد حصول اقتحام واضح لا جدال فيه: حدث ذلك في بانقيا وعين التمر[٥٤]. ويروى الطبري الأمور وكأنه يريد إطلاعنا على القواعد الفقهية التي اعتمدها الفتح في البداية وقد يتعلق الأمر أيضاً باسقاط على الماضي. ويظهر خالد في هذه الروايات بمظهر أول شخص ينظم الفتح ويكتشف ويمارس قواعد تنظيمه الأساسية: مبدأ الصلح، والعهد، وبقاء الفلاحين بأراضيهم، والتمييز بين العمل والثغر[٥٥].

وهكذا أنهي فتح نصف السواد (حتى دجلة) بعد إنجاز ضربة خاطفة، ساعد عليها غياب الفرس من الساحة غياباً كاد أن يكون تاماً، ويمكن القول ان خالداً تعهد الفتح وكأنه وقع احتلال نهائي. روى أنه بقي سنة في الحيرة يقوم بدور الوالي الحقيقي على المنطقة الموجودة بين الفرات ودجلة[٥٦]. وإن هو انطلق شمالاً وقاد حملة قصيرة، فذلك لكي ينجد أحد ضباطه المسمى عياض بن

(٥٢) الطبري، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٥٣) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٥٤) تحدث أبو يوسف عن الاستيلاء على هذه القرى عنوة، كما تحدث أيضاً عن عهد: كتاب الخراج، ص ١٤٥، كان يرمي إلى وعظ الأمراء عن واجب احترام المعاهدات التي أبرمها سابقوهم.

(٥٥) يبدو أن خالداً ولي عمالاً: فاتجه جرير إلى بانقيا وبسما أو باروسما، واتجه بشير بن الخصاصية إلى بانبوره، وسويد إلى نِستار أو عقر، الخ: الطبري، التاريخ، ج ٣ ص ٣٦٩. أما الثغور فكانت في حكم أربعة أمراء منهم المثنى والقعقاع بن عمرو المعروف.

(٥٦) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٧٢.

غنم الـذي كان في وضـع صعب. وجـدّ في الاثنـاء يـوم الأنبـار[٥٧] ويـوم عـين التمر[٥٨]، ويوم دومة الجندل[٥٩]. كانت عبارة عن هجمات عنيفة طلبـاً للغنيمة والتخويف، وقد ذهب ضحيتهـا عرب الضـاحية. فقتّلت النّمـر وتغلب وأياد في عين التمر داخـل الحصن، واشتهر هـذا الحصن لوجـاهة الأسرى الفتيـان الذين أسروا به (لا سيما سيرين ويسار ونصير). وقد واجه خالد في دومة الجنـدل قبائـل كانت تقيم بين الشـام والجزيـرة هي بهراء وكلب وغسـان وتنوخ. نـدرك في هذا الصدد الوجه الجاهلي العروبي الموجود في **الأيام**، إدراكاً جيـداً، فضلاً عن كـونها تـظهر أيضـاً بمظهـر حروب الـردة، الذي لا يـرحم غير المسلمـين. فوقـع تقتيل الأسرى العرب، الا من كانوا من كلب لأنهم كانوا في حماية حلف مبرم مع تميم. وعلى هذا النحو حصلت القطيعة مع عرب الضاحيـة في الجزيـرة كما في العـراق، وانضمت العناصر الخارجية من ربيعة إلى الفرس[٦٠].

عاد خالـد بعد هـذه الجولـة العسكريـة إلى الحيرة وهنـاك دعي إلى اللحاق بالشام، فانتهت **الأيام** العراقية بعـد نشوب بعض المعـارك، بيوم الفـراض. وقد حددها أصحابها أنفسهم، نعني أهل الأيام، على هذا النحو من الوجهة الزمنية. وبرزت هذه التشكيلة كاحدى التشكيلات الاجتماعية المقبلة التي ستكون لها أهمية كبرى في الكوفة. الواقع أنه بقبولنا رواية هذه الأحداث على هذا النحو، ندرك ما كان من تمجيد هؤلاء الرجال **لـلأيام**، ونـدرك مبررات هـذا التمجيد بصـورة من الصور، ذلك أن هـذه الأيام ـ تمثـل الملحمة الكـاملة ـ ولو بصـورة مجملة ـ لفتح العراق، على وتيرة لاهثة.

---

(٥٧) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٥٨) الطبري، المصدر نفسه ج ٣، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٥٩) الطبري، ج ٣، ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(٦٠) اعتنقت الاسلام منذئـذٍ بعض جماعـات من ربيعة في العـراق: الطبري، التـاريخ، ج ٣، ص ٤١٤. هـذا دون اعتبار الـوثبة العـرقية القـومية التي دفعت بـأفراد من ربيعـة إلى الانضـمام إلى اشقائهم العرب، في وقعة القادسية وحتى قبل ذلك: المرجع نفسه، ص ٤٦٤.

مرحلة وسيطة

الجسر والبويب (١٣-١٤/٦٣٤-٦٣٥)

إذا ارتأت حكومة المدينة لزوم توجيه خالد لنجدة جيوش الشام ولم تقم بالعملية المعاكسة بالرغم من الإنتصارات الساحقة التي سجلتها الأيام، فإن هذا يرجع إلى كون الجبهة الحقيقية الجدية والوحيدة التي تخضع لاستراتيجية مسطرة هي جبهة الشام. الواقع أن العمليات التي وجهت ضد البيزنطيين بكامل الجدية، أعطت نتائج ايجابية فورية بفضل انتصار أجنادين[١] (جمادى الأول من سنة ١٣/٦٣٤) الذي جدّ وأبو بكر على قيد الحياة.

وتولى عمر الخلافة فتمادى يعمل بمخططات أبي بكر، دون أن يدخل عليها من البدء تغييرات تذكر. ولا يبدو قابلاً للتصديق، أن ننسب إليه، كما فعل سيف[٢]، مشروعاً واضحاً شفافاً واسع النطاق، يكون شرع فيه منذ سنة ١٣، ويتمثل في تصور الفتح صراحة بمثابة غزو للهجرة، وفي إرادة تشريك كافة العرب من شبه الجزيرة - ومنهم المرتدون - في التحرك العراقي. كما أنه لا يمكننا على العكس مجاراة كايتاني حين يؤكد أن عمر لم يهتم جدياً بالعراق الا بعد وقعة اليرموك[٣]. معنى ذلك أنه لا يمكن أن نحصر كامل العمل الذي سيحققه عمر

(١) الطبري، ج ٣، ص ٤١٥ - ٤١٨، نقلاً عن سيف بن عمر الذي لم يميز بين أجنادين واليرموك (١٥/٦٣٦)، فالتبست عليه المعركتان وأرخهما في سنة ١٣، في حين أن كافة الروايات التاريخية الأخرى لاسيما رواية مدرسة المدينة (ابن اسحاق والواقدي) ومنطق الأحداث البديهي تفصل بين الأمرين: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٠، وخليفة بن خياط، التاريخ، ج ١، ص ٨٧. يلاحظ كايتاني عن حق أن تقديم سيف لمعركة اليرموك نشأ عنه غلطه في تأريخ المعارك العراقية: **Annali dell' Islam**، قسم ٣، ج ٢، ص ٥٤٩.

(٢) الطبري، ج ٣، ص ٤٤٥.

(٣) Caetani، قسم ٣، ج ٢، ص ٦٣٢.

خلال الثلاث سنوات القادمة ـ وكان عملاً تدريجياً حذراً وجسوراً في آن ـ في نية وضعت مسبقاً، إذ تصير بداهة تنظيراً اسقاطياً لما سيتم تحقيقه بعد ذلك. فماذا فعل عمر وماذا كان يقدر أن يفعل؟ أن يتمادى على ما سنه أبو بكر، ويداوم الضغط على الحدود الساسانية، ترقباً لظروف أخرى تكون أكثر ملاءمة، بمعنى أن يسهر على اعداد آلة الحرب. لقد استعان في المدة الأولى بنخبة محاربة صغيرة من الأنصار وأقنع في فترة ثانية قبيلة بجيلة بالاستقرار في العراق، وتقدم بخطوة حذرة في اتجاه الانفتاح على المرتدين. كانت سنة ١٣ و١٤ هـ عبارة عن مرحلة وسيطة لكنها تجاوزت مرحلة الأيام، بقوة المجابهات التي جَدّت. ذلك أن السلطة الفارسية استعادت تماسكها وأخذت في ردّ الفعل في حين أنها اكتفت لحد ذلك الوقت بالاعتماد على الحاميات العربية الفارسية الساهرة على خط الدفاع.

لكن شعور الفرس الجديد بالخطر العربي لم يكن قوياً بما يكفي، حتى يعدلوا عن منازعاتهم الداخلية فكانت ردودهم ظرفية، قوية أحياناً لكنها غير مسترسلة وغير مثمرة.

١) أبو عبيد ومعركة الجسر (شعبان أو رمضان ١٣/أكتوبر أو نوفمبر ٦٣٤)[٤].

كلف عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي[٥] برئاسة سرية متركبة من ألف رجل لمدّ يد المساعدة للمثنى[٦]، وقيادة العملية العسكرية في العراق، فربطها

---

(٤) قدّم سيف المعركة شهراً: **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٦٣٠ و٦٣٣، راجع أيضاً: Voccia-Vaglıori مادة «قادسية»، **دائرة المعارف الاسلامية** ج ٤، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣؛ وأورد أبو مخنف تاريخاً حدده في شهر رمضان من سنة ١٣: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٥٩. نجد نفس التاريخ في **الأخبار الطوال**، ص ١١٤.

(٥) لعلّ أبا عبيد لم يكن خاملاً بالصورة التي يريد كايتاني حملنا على تصديقها، ويظهر أن **Hill** **The termination of hostilities in the early arab conquests,** (٦٣٤ ـ ٦٥٦)، لندن ١٩٧١، ص ١١٠، قد جاراه في ذلك لكن كان أبو عبيد ينتمي إلى نسب رفيع من ثقيف.

(٦) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٥١، ذكر أن أبا عبيد جند الرجال في الطريق؛ وقال الطبري، ج ٣٢، ص ٤٤٤، أن المثنى كان بالمدينة؛ انظر الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ١١٥.

هكـذا بالحكم المركزي. ضمن هؤلاء الألف نفر نجـد صفـوة من المسلمـين من الأنصار، مع أنه يمكن التخلص إلى تأكيد وجود عـدد هام من أبنـاء ثقيف أيضاً، إعتماداً على إشارات كثيرة وردت برواية سيف[٧].

لقد واجه العرب المسلمون مع أبي عبيد جيشاً فارسيـاً نظاميـاً، لأول مرة، كان بقيادة بهمن جاذويه وانضم إليه جالينـوس، وكانـا قائـدين هامـين. وبدأت المعركة، بعد حصول بعض عمليات نهب، بقرقس[٨] الواقعة على ضفة الفـرات اليسرى، لكنها احتفظت باسم معركـة الجسر، اعتماداً عـلى اسم المشهد الـرئيسي الذي أثر فيها وحيث أشرف العرب على الكارثـة. لقد أرهبتهم الفيلة، فـاخفقوا في تفجير قلب الجيش الفارسي رغم الحملات العنيفة التي شنوها عليه. وما لبثـوا أن أجبروا على التقهقر إلى شاطىء الفرات دون أن يقدروا على عبوره من جديد - ذلـك أن الجسر المتكون من مـراكب انقطع بمبـادرة عابثـة قام بهـا أحد العـرب - فقتلوا وأغرقوا. روى سيف أن عدد القتلى ارتفـع إلى ٤٠٠٠ وفر ألفـان، ولم ينج سوى ٣٠٠٠ رجل من بكر من رجال المثنى[٩]. لقد أنقذ المثنى الجيش، بـرباطـة جأشه، من هلاك لا هوادة فيه. أما أهـل المدينـة فلجأوا إلى الصحراء استحيـاء من الفرار، وقتل أبو عبيد بعد أن برهن على شجاعته أكثر مما برهن عـلى خبرتـه. ان الصـدمـة التي أثـرت في الأنصـار رفقـاء أبي عبيـد تـبرهن بقـوة عن مـاهيـة الايديولـوجيا الإسـلامية التي استلهمت الفتـوحات روحهـا منها إلى مـدى بعيد، فبدا الفرار في نـظر أهل المـدينة وكـأنه ضعف لا يغتفـر، لا بمعنى الشرف العربي المعهود بل كخطيئة اقتُرفت تجاه الله. ولم يكن ينوي عمر توجيه الاتهـام اليهم[١٠]

(٧) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٨) المرجع نفسه، ص ٤٥٤. كانت تسمى أيضاً قسّ الناطف أو المروحة: الدينوري، ص ١١٣.

(٩) الـطبري، التاريـخ، ج ٣، ص ٤٥٨؛ اقتبس ابن الأثير هـذه الأرقام والقصـة بأكملهـا، متقيداً كثيراً برواية سيف التي ذكرها الطبري لكنه عرضها بصورة اكثر وضوحاً: الكامـل، طبعة بـيروت ١٩٦٥، ج ٢، ص ٤٣٨ - ٤٤٠.

(١٠) نسب كايتاني إلى سيف خطأ، انه روى خبراً عن عمر جـاء فيه تـأنيب للأنصـار: القسم ٣، ج ٢، ص ٦٥٧.

بل إنه قام بعملية نفسية من شأنها رفع الشعور بالاثم عنهم[١١]. ويرجع الفضل له وللمثنى في التغلب على صدمة الهزيمة ناسباً اياها إلى الخطأ لا إلى ضعف عسكري هيكلي. ولولا إصرار عمر، ولولا ما بذله المثنى من جهد تنظيمي حيث نراه دائماً مستعداً لتصحيح أخطاء الآخرين، خاضعاً لتدخلات السلطة بالمدينة وعزمها على إبعاده عن القيادة، لبدا فتح العراق بعد انهيار الجسر أمراً مستحيلاً المنال بالنسبة للعرب. ومن يدري، لعل فتح الشام أيضاً ستهدده بعد ذلك وعلى المدى المتوسط الدولة الفارسية لو أتيح لها الوقت لاسترداد قواها.

٢) البويب

بقي المثنى وحيداً من جديد. وامتنع استغلال التقدم الذي اكتسبه الفرس في معركة الجسر، لما كانوا عليه من خلافات داخلية[١٢]، لكن المثنى احتاط وتراجع إلى الطفّ، فبلغ إمّا أليس الصغرى، أو أقام بين خفان والقادسية تاركاً الحيرة. عند ذلك قرر عمر توسيع التجنيد، وتجاوز الدائرة المدنية القرشية - الثقفية. من العرب المستقرين الأوفياء للسلطة الحاكمة، وقرر تعبئة القبائل والعشائر داخل جزيرة العرب. كان هذا الإنفتاح تدريجياً لا محالة، يجري حسب نظام التطوع كالعادة وبمساعدة شيوخ العشائر، ولم يتقرر آنذاك بعدُ استنفار العناصر التي أمعنت في الردة. كان عمر يقصد محو هزيمة الجسر وحمل العرب أيضاً على قبول فكرة الهجرة إلى العراق[١٣]، فوجهت الدعوة إلى قبيلة بجيله.

---

(١١) أضنى الخجل بعض أهل المدينة، فلجأوا إلى البادية، ورجع بعضهم الأخر إلى المدينة: الطبري ج ٣، ص ٤٥٨. ولنذكر أن القرآن بعد وقعة أحد أنب المؤمنين الفارين من القتال، إلاّ إذا حصل تجمعهم لدى مؤمنين آخرين: «ومن يولهم يومئذٍ دبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً لفئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» الأنفال، ١٦. واعتمد عمر تفسيراً آخر للآية ليعيد لرجاله هيبتهم كما كانوا يتصورونها. وتحدث أيضاً البلاذري عن تقتيل الأنصار، ص ٢٥٣، لكن القصة التي أوردها عن معركة الجسر كانت موجزة ضعيفة التماسك في مجموعها.

(١٢) روى ذلك الطبري نقلاً عن سيف قال: «وأتى ذا الحاجب الخبر باختلاف الفرس»، ج ٣، ص ٤٥٨. وعاد بجيشه.

(١٣) الطبري، التاريخ، ص ٤٦٠ - ٤٦٤؛ الدينوري، ص ١١٤. كان على عمر أن يقنع المتطوعين القادمين من اليمن باختيار الاقامة في العراق.

وكانت بجيله من أصل يمني، وأقامت قبل ذلك بالسراة ثم دحرت وشتتت، وتفرقت (تحت ضغط الأزد؟). وكان جرير بن عبدالله البجلي وهو من صحابة النبي ومن المقربين لعمر، يسعى إلى جمع أفراد هذه القبيلة المتفرقين، ويحاول أن يعيد تشكيل قبيلته فرداً فرداً[١٤]. فالتقى مشروع جرير بمشروع عمر: كان الأول في حاجة إلى فكرة، وهدف جديد، وطموح، وكان الثاني محتاجاً إلى مهاجرين ومحاربين مسلمين أوفياء ليدفع بهم إلى العراق. على أن جريراً لم يرض بمقترح عمر الا متردداً، لأن قومه كما كافة العرب أو يكاد، باستثناء بكر دون شك، كانوا يفضلون الشام على العراق. وتم الاتفاق، بعد بذل الوعد لبجيلة أن تمنح هبات خاصة عند الانتصار وتقرر أن تأخذ ربع الخمس من الغنيمة كما جاء بأغلب المصادر[١٥]، أو «الثلث بعد (أخذ؟) الخمس»، كما أشار إلى ذلك البلاذرى إشارة غامضة[١٦] أو ربع البلدان المفتوحة كما كان محتملاً كثيراً[١٧]. ويبقى الشك يسيطر على هذه المساومة، نظراً لأن المرحلة التي بلغها الفتح في العراق لم تكن تؤهل للوعد بأي شيء. ومما له دلالة أن جريراً تخلى عن كل مطلب على السواد، بعد الانتصار، لأسباب أدبية صرف[١٨]. هذا وقد تحولت قبيلة

(١٤) لعلّ بجيلة تفرقت بعد حرب الفجار: الجمهرة، ص ٣٩٠، فاعتزم جرير جمعها في حياة الرسول حيث حصل على وعد منه في هذا المعنى، فذكر أبا بكر بالأمر حين انضم إلى جيش الشام، لكن أبا بكر أجّل المشروع إلى وقت لاحق لكثرة مشاغله: الطبري، ج ٣، ص ٣٦٥. والملاحظ أن نسبته لحمير لا لبجيلة في هذا الخبر. وتوجد هذه النسبة أسفل الوثائق التي يعتقد أنها أبرمت بين خالد وأهل الحيرة: المرجع نفسه، ص ٣٦٨ و ٣٦٩. لكن سيف كان صريحاً في أن جريراً لم يدخل العراق قبل معركة الجسر. أما عن تسميته بالحميري، فاما انها تعود إلى أن مجمّع بجيلة كان غريب النسب عنها سواء كان أزدياً أم حميرياً. واما انها اختلطت بمسألة عرفجة بن هرثمة منافس جرير. كان عرفجة أزديا من بارق، ويبدو أنه قاد جانباً من بجيلة على أدنى تقرير وكان عمر يفضله على غيره، لكن بجيلة تخلوا عنه والتفوا حول جرير: الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٦٢ وص ٤٧١.

(١٥) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٦٢ مثلاً.

(١٦) فتوح البلدان، ص ٢٥٤، نقلاً عن الشعبي.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٢٥٣ عن أبي مخنف، وص ٢٦٧، عن ابن أبي حازم حيث قال أيضاً أن بجيلة «كانت ربع الناس يوم القادسية».

(١٨) فتوح البلدان، ص ٢٦٧، وذكر خبراً آخر بنفس الصفحة قال فيه «كان عمر أعطى بجيلة ربع

بأكملها كانت تعد ٢٠٠٠ رجل، إلى العراق بهدف الهجرة نهائياً، مفتتحة بـذلك الحركة الكبرى للهجرة اللاحقة.

وإلى جانب بجيلة، أُشيرَ إلى تدفق الحشود من الأزد[١٩]، وكنانة، وضبة، وخثعم والرباب، وبني سعد، وبني عمرو[٢٠]، وعبـد القيس، كما حضرت قبيلة النمـر من ربيعة وقـد كانت إلى جـانب الفرس لحـد ذلك الـوقت، تدور بـدرجة متفـاوتة في فلك السـاسانيـين، وبعد أن سلط عليهـا خالـد قمعاً شـديداً. لعـل عنـاصر عبد القيس والنمـر[٢١]، وحتى تغلب وقـد شهـدت البـويب أدمجت من طرف المثنى فيما يمكن تسميته بجيشه الخاص أو القبلي، طالما كـان استقلالـه كبيراً بـالنسبة للسلطة في المـدينة. أمـا الآخرون فـإن السلطة هي التي استحثتهم عـلى التنقل والواقـع أن منهم عشائـر وقواداً تـورطوا في حـروب الردة، منهم عـامر بن ربعي، وعدي بن حاتم. وبمـا أن سيف بن عمر انفـرد بذكـرهم، فيمكن القول انه سبق الأحداث، ويمكن التفكير كذلك أن عمر بتوجيهه هاته الفرق الصغيرة، أراد اختبار صلاح أهل الردة. إن روايات سيف جيدة بصـورة عامـة، فيما يخص القبائل وتـركيب الجيش العربي، وتـرتيب وصول الجيش وعـدد المقاتلين[٢٢]، في حين انها تخطىء في خصوص ضبط التواريخ. فما قولنا في كل ذلك سـوى أن عمر قرر على الأرجح منذ مطلع سنة ١٤ هـ، وربما حتى منذ أواخر سنة ١٣، الشروع

السواد فأخذوه ثلاث سنين». ويوجد ذات الخبر تقريباً في كتاب **الخراج** لأبي يوسف، ص ٣٢.

(١٩) الطبري، **التاريخ**، ج ٣، ص ٤٦٣، كانت الأغلبية لبارق بقيادة عرفجة لا مخنف بن سليم كما يقول الدينوري في **الأخبار الطوال**، ص ١١٤.

(٢٠) الطبري، **التاريخ**، ج ٣، ص ٤٦٤.

(٢١) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٤، وقد مثلها أنس بن هلال النمري، وكان شخصاً مرموقاً.

(٢٢) معلوماته من الدقة والتماسك في هـذا الموضـوع بما يمنـع التشكيك فيهـا في جملتها وقـد استخدم الطبري كتاب **الفتوح الكبير**: راجـع **الفهرست**، طبعـة بيروت، ص ٩٤. أمـا عن الفتوحـات فيراجع Hill **Termination of Hostilities,** الذي استعرض ستاً وثلاثـين رواية كـان أوردها سيف. ولنضف بخصوص فتح العراق، أن الاسنادات المتواترة تعود إلى مجالـد والشعبي ومحمد وطلحة.

في مسيرة القبائل الطويلة، بهدف فتح العراق فتحاً حقيقياً[٢٣]، دون أن يترقب نتائج العملية الدائرة في الشام؟ ومن هذه الوجهة تمثل هجرة بجيلة، ورحيل ضبة وخثعم وغيرهما، التي تمت عن طواعية، توطئة لما سيجد على صعيد أوسع بمشاركة سعد، كما تمثل البويب معركة تدريبية تعد العدة لمعركة القادسية. كان ينبغي الانتصار لا محالة في البويب، بلوغاً لهذا المطلب.

سمي هذا الصدام يوم مهران أيضاً[٢٤] على اسم القائد الفارسي المهزوم والمقتول، بموقع الكوفة المقبلة، فيما بين خطة السكون والفرات أو دار الرزق ـ وبني سليم[٢٥]، حيث كان البويب بمثابة المصب العتيق للفرات[٢٦]. ودارت المعركة وراء الفرات، على كامل امتداد الفضاء الذي ستحتله مدينة الكوفة. المؤكد أن الرهان كان هاماً. قد يتسبب انتصار للفرس بالبويب في دحر العرب، كما أن انتصاراً للعرب من شأنه أن يجبر الفرس فعلاً على خوض المجابهة النهائية أو يكاد لإنقاذ ـ أو التخلي عن العراق والامبراطورية كافة. لا شك أن الفرس شعروا عند انهزامهم بالبويب، بواقع الخطر العربي عند فوات الأوان، أما العرب، فقد استمدوا من نصرهم جسارة لا تقهر. بقي أن نتحدث الآن عن مشكل تأريخ الأحداث.

رفض كايتاني بحق التأريخ الذي اقترحه سيف والذي جعل وقعة البويب تجد بعد شهر من معركة الجسر، يعني في رمضان ١٣ هـ/نوفمبر ٦٣٤، وحجته

---

(٢٣) نتفق كل الاتفاق في هذا الأمر مع السيدة Veccia-Vagli eri: دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية، مادة «قادسية»، ومن المفارقة أن سيفا أورد نفس التأريخ: الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٧٨.

(٢٤) كان مهران احد رؤساء العشائر السبعة راجع: **Sassanides L'Iran sous les,** Christensen (كوبنهاغن، ١٩٣٦، ص ٩٩).

(٢٥) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٦٨.

(٢٦) «كان مغيضاً للفرات في عصر الأكاسرة يصب في الجوف»، حسب عبارة البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٤؛ وفي معجم البلدان، لياقوت، ج ١، ص ٥١٢، تفاصيل أخرى.

على ذلك جيدة[٢٧]. لقد قدم سيف تأريخ وقعة البويب لأنه قدّم تأريخ القادسية وبما أنه أساء تأريخ اليرموك وفتح دمشق[٢٨]، فقد أجبر على تنقيح كل التواريخ. ومن جهته أخذ كايتاني مؤشرين بعين الاعتبار صعوداً ونزولاً استمدهما من مدرسة المدينة ـ مدّة سنة بين معركة الجسر ومعركة البويب[٢٩]، وثمانية عشر شهراً بين وقعة البويب والقادسية ـ فكان عليه أن يؤخر التواريخ كلها. وحيث أننا نلتزم بتأريخ معركة القادسية في رجب أو شعبان ١٥ هـ/٦٣٦ م فإن تاريخ رمضان من سنة ١٤ هـ يبدو لنا تأريخا متأخرا جدا بالنسبة لوقعة البويب، وقد فضلنا عليه تأريخ ذي الحجة من سنة ١٣ هـ أو محرم من سنة ١٤، وبذلك نكون قد احتفظنا بمدة الثمانية عشر شهراً التي تفصل بين المعركتين[٣٠].

على أن المهلة كانت نسبية تماماً، لأن العرب شرعوا في اكتساح السواد واستغلوا حيرة أعدائهم واضطراب أمورهم، فشنوا الغارة فيما بين الحيرة وكسكر وسورا والصراة وفيما بين الفلّوجتين، والنهرين، وعين التمر. ثم أنهم نهبوا تكريت وسوق بغداد، فانتزعوا أموال التجار الآراميين من الأعالي، كما نهبوا

(٢٧) **Annali**، القسم ٣، ج ٢، ص ٦٥٥ وما بعدها. وقد سبق لـ Wellhnusen أن رفض هذا التأريخ، راجع **Prolegomena** في **Skizzen une Vorabeiten** ج ٦، ص ٧٣.

(٢٨) أرخها في سنة ١٣ هـ.

(٢٩) الواقع أن هذا الخبر ذكره أبو مخنف واستعاده البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣، وهو عبارة عن قول منفرد، نرفضه فيما يخصنا لادخاله البلبلة على تسلسل الأحداث.

(٣٠) أرخ البلاذري معركة الجسر في رمضان سنة ١٣، ولم يذكر تأريخاً دقيقاً بشأن معركة البويب بل اكتفى بذكر مدة سنة حسب رواية أبي مخنف، وبذلك تحدد تأريخ معركة البويب في رمضان من سنة ١٤ هـ. وقد فصل محترزاً بين معركة البويب والقادسية، بمدة ١٨ شهراً وبذلك يكون تاريخ سنة ١٦ هـ معقولاً، وهو الذي اعتمده كايتاني. فيثق المستشرق الايطالي في النهاية بالواقدي الذي اعتمده البلاذري. وقد أرخنا فيما يخصنا معركة القادسية في عام ١٥ هـ. وسنبين ذلك ـ فوجب علينا إما اهمال السنة الفاصلة بين معركة الجسر ومعركة البويب أو مدة ١٨ شهراً التي تفصل بين معركة البويب والقادسية، وقد فضلنا الحل الأول رغم أن سيفا أشار إلى المحاربين في البويب صائمين (الطبري، ج ٣، ص ٤٦١)، وفي رأيه أن الأمر يتعلق بعام ١٣ لكن رواية ابن عمرو الشيباني ارخت معركة البويب بالفعل في محرم سنة ١٤ هـ: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٥، وأرخ خليفة بن خياط وقعة البويب في صفر من سنة ١٤ هـ: التاريخ ج ١، ص ٩٨.

حماتهم العرب ـ الخفراء ـ من قضاعة وربيعة[٣١]. لكن في الاثناء وبفاعل الضغط العربي أخذت السلطة الفارسية تعمل من أجل إعادة تنظيم صفوفها وقد تعالت الشكايات الصادرة عن دهاقين السواد المنهوك. وهكذا توّج يزد جرد ملكاً، وقد كان حفيداً لكسرى أبرويز وأنهيت وصاية بوران، وسلمت قيادة الجيش الموحدة إلى رستم. ووازن هذا التأهّب الفارسي من أجل المواجهة الحاسمة، المسيرة الطويلة التي قادها سعد ابن أبي وقّاص، من المدينة إلى القادسية. وتنظيم جيش عربي جديد تحت قيادته.

المسيرة العربية إلى العراق والتوطئة لوقعة القادسية
(محرم ١٤ - رجب ١٥)

ان الفكرة الرئيسية لكايتاني هي أن عمر لم يكن يقدر حقاً على أن يأخذ على عاتقه القضية العراقية الا بعد أن يكون قد حسم الأمر مع البيزنطيين في اليرموك (رجب ١٥/اغسطس ٦٣٦)[٣٢]. لكن هذا تأريخ مردود إذ يفسح وقتاً قصيراً جداً لسعد لكي يجمع جيشاً يعد ثلاثين ألف رجل. ولا موجب لإبداء الشك في الأرقام التي ذكرها سيف، كما أنه لا موجب للتقليل من أهمية المعركة ذاتها. يذكر كايتاني أن عمر لم يكن ليقدر على «تقسيم قواته»، لكن لم تكن هناك قوات لكي تقسم، ذلك أنّا لا نجد نفس المادة البشرية هنا وهناك، في الشام والعراق. ان تزامن العمل إحدى خاصيات الفتح العربي (مع استثناء تنقل صغير من الشام إلى العراق والعكس) وقد سبق ليوسف في بحث نشر منذ ثلاثين سنة، أن لاحظ أن بطء مسيرة سعد كان يفترض مسبقاً مدة طويلة فأرخ قرار عمر بداية سنة ١٣ هـ[٣٣].

---

(٣١) قتل المثنى جماعات من تغلب والنمر: الطبري، ج ٣، ص ٤٧٣، وجدت أعمال نهب وأخذ بالثأر يعود طابعها إلى العصر الجاهلي.

(٣٢) **Annali**، ص ٦٣٢.

(٣٣) «معركة القادسية»، في **Islamic Culture**، ١٩ (١٩٤٥)، ص ٢٨، لكنه جارى كايتاني في بداية الأمر.

الواقع أن عمر لم يحتج إلى أن يترقب معركة اليرموك للعودة إلى الهجوم على العراق، ذلك أن عزمه على مواجهة الفرس كان واضحاً من قبل، حين حث بجيلة وعربا آخرين من قلب الجزيرة على الهجرة. ولم يكن ليلقي بسعد في المغامرة النهائية بكل تأكيد قبل ظهور نتيجة ايجابية في واقعة البويب، أي قبل محرم من سنة ١٤ هـ أو ذي الحجة ١٣ هـ/فبراير-مارس ٦٣٥ م.

ومما يدل على ذلك أن عمر اختار صحابياً قرشياً كبيراً مكلفاً بجمع الجباية الشرعية من هوازن وهو سعد بن أبي وقاص(٣٤) لقيادة المجابهة الكبرى مع العلم بأن هوازن كانت مع أهل الردة(٣٥). الواقع أن مسيرة سعد بين المدينة والقادسية، مروراً بصرار وزرود، وشراف، والعذيب وهي آخر مرحلة في الطفّ قبل دخول السواد، تبدو قبل كل شيء مسيرة لحشد قبائل معروفة هامة أصيلة في عروبتها، كانت من الرحل المشاركين في الردة(٣٦). وهكذا تجاوزت السلطة الحاكمة في المدينة سياسة الاعتماد على جموع مستقلة أو يكاد (بكر)، أو هامشية (بجيلة وكذاشظايا الأزد واليمن). كما أنه لم يعد يمكنها توجيه فرق صغيرة مدنية صرف أو شغل القوات المقاتلة في الشام لكنها تولت قيادة الفتح والهجرة فاتحة الباب لجموع الردة الكبيرة القوية، ووسعت دائرة الأطر البشرية والسياسية والعسكرية لفائدة الاسلام الغازي. لقد عمل عمر بهذا على تطابق الدين الإسلامي وشبه جزيرة العرب، فطرد من بلاد العرب كل من لم يكن إسلامياً(٣٧). إنه تغلب على الصّدع الذي دب في الهيكل العربي مع ظهور الإسلام، وشحن الإسلام بمحتوى قومي ـ ثقافي لكنه في الآن نفسه طبعه بطابع

(٣٤) يبدو أن أبا بكر هو الذي ولاّه على صدقات هوازن في نجد: الطبري ج ٣، ص ٤٨٢.

(٣٥) الطبري، ج ٣، ص ٢٦١ وما بعدها، البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٤، يذكر غطفان، وفزارة، وعبس وذبيان، لكن إلى أي حد تمثل هوازن قبيلة معينة بدل أن تكون نسباً يشمل عدة قبائل، منها عامر بن معصمة وسلول وغيرهما. . . : الجمهرة، ص ٢٦٠ وما بعدها؟

(٣٦) منها أسد، وتميم، وغطفان.

(٣٧) الواقع أن طرد نجران وقع بعد مدة، لكن منطق التماثل قام منذ عصر الرسول، واكتسى كامل دلالته في خلافة أبي بكر، واتخذ صفة عملية في خلافة عمر.

البداوة والتسيّس مشكلاً بذلك الهيكل المقبل للحضارة التي ستتحدد معالمها في الكوفة والبصرة.

خرج سعد من المدينة رفقة ٤٠٠٠ رجل - منهم ٣٠٠٠ يمني ومن السراة[٣٨]، و١٠٠٠ قيسي أكثرهم من بني هلال[٣٩] - وحين حط سعد الرحال أول مرة، لحق به ٤٠٠٠ مقاتل منهم ٢٠٠٠ من غطفان[٤٠]. ولما كان في زرود وهي من مراعي تميم وأسد اختار بنفسه ٧٠٠٠ رجل من هذه التجمعات القبلية. وتجمع ٣٠٠٠٠ رجل[٤١] في الجملة في شراف التحموا بجيش في تضخم مستمرّ منهم فيما بين ٧٤٠٠ إلى ٩٤٠٠ من اليمنيين، ويرتبط تغيّر هذا العدد بحسب ما يلتصق بنسبة اليمني من تضييق أو توسيع. وعدت ربيعة ٨٠٠٠ رجل منهم ٦٠٠٠ من بكر و٢٠٠٠ من قبائل أخرى (النمر،اياد،تغلب). وحضر بشراف ١١٠٠٠ رجل من مضر منهم ٤٠٠٠ من قيس، و٤٠٠٠ من تميم وحلفائها، و٣٠٠٠ من أسد فمالت النسبة لفائدة مضر. لكن الأمر الأكثر دلالة أن نسبة العناصر التي حاربت من الأول لفتح العراق (من بكر وعجل وبجيلة) تقهقرت لفائدة اللاحقين، وضعفت نسبة المخلصين القدامى للإسلام لفائدة المرتدين السابقين، وأخيراً تناقصت أعداد العناصر المحتكّة بحضارة المدن المرتبطين من قديم بالخارج لفائدة المجموعات البدوية الضاغنة الكبرى التي برزت من أعماق بلاد العرب. هذا ما يمكن استنتاجه على الأقل من شعور يوحي به الوصف المفصل الذي قدمه سيف بن عمر والذي عملنا على استكماله (راجع الجدول الملحق بهذه الدراسة.)

---

(٣٨) الطبري، ج ٣، ص ٤٨٤.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٤٨٣. المقصود هنا هم الألف رجل الذين جندهم سعد بنجد، وما يمكن استنتاجه من أن واحداً من بني هلال قاد هذا الحشد الأول، هو وجود أكثرية من بني هلال فقط، لكنه استنتاج وليس بحجة قاطعة.

(٤٠) المرجع نفسه، ص ٤٨٦. لكن عمر هو الذي وجه الرجال هذه المرة. المؤكد أن كلمة غطفان تشمل مجموعة من القبائل المتصاهرة مثل فزاره وأشجع وذبيان، وسليم. فمثلاً حضر المسيّب بن نجبة الفزاري القادسية مع ابناء قبيلته: **الجمهرة**، ص ٢٥٨.

(٤١) الطبري، ج ٣، ص ٤٨٧.

لقد شكك كايتاني في هـذا الوصف، معتمـداً روايات أهـل المدينـة فقط، التي كانت قليلة الإسناد والمعلومات، فألغى حضـور المرتـدين متهماً سيفـاً بالمـودة المتحيزة للبدو أجـداد سكان مـدينة الكـوفة[٤٢]. وصحيـح أن سيفاً يقـدّم وقعة القادسية وكأنها انتصار للموجات المتأخرة من البدو، فلم يعد يتحـدث عن بكر، وهـو على العكس يمجـد القادة المـرتدين الكبـار ـ وهذا يـبرر نقد كـايتـاني ـ لكن بخصوص سير المعركة لا غـير. ذلك أن مصـداقية سيف أكيـدة في كل مـا يتعلق بتجمع الجيش، وتركيبه، وهيكلته، وكـلّ ما يـذكر من تـوافد الـرجال من أسـد وتميم، والرباب، وغطفان[٤٣]. وكيف نقبل أنه لم يكن يوجد في القادسية سـوى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ رجـل في حـين أن جـيش المثـنى وحـده كـان يـعـد نـفس العدد[٤٤].

كيف يتـاح لنا فهم الكـوفـة المقبلة دون وجـود جيش سعـد في شراف كـما وصفـه سيف؟ لا مناص من التـأكيد عـلى أن كـايتـاني لم يفهم لا معنى ولا أهميـة استخدام أهل الـردّة في عملية الفتـح وقد لفت شعبـان (Shaban) فقط النظر إلى هـذه الظاهـرة منذ مـدة قريبـة[٤٥]. ولنا مـزيد من التـدقيق فيما ذكـره سيف بهـذا الصدد[٤٦] إذ يقول: « استنفرهم عمر ولم يولّ منهم أحداً » .

(٤٢) **Annali** القسم ٣، ج ٢، ص ٦٥٧.

(٤٣) إن حسابات سيف دقيقة جداً، فلا يمكن التشكيك فيها. وهي تتفق ومعلوماتنا عن الكوفة المقبلة وتؤيدها معلومات دقيقة وردت بالجمهرة لابن حزم: مثلاً ص ١٩٤، حيث تعرضت لعشيرة بني الحارث بن ثعلبة بن دودان (أسد) التي لعبت دوراً ما في القـادسية. وورد ذكـر تميم وبني عمرو، ص ٢١٤، وبني رياح بن يربـوع والأبناء، وبني شيـطان ص ٢٢٨، على أنها أقـامت بالكـوفة. وكانت فعلاً عشائر قد شاركت في معركة القادسية، خـلافاً لأكـثر تميم البصرة. وصف ابن حزم بني الأعرج من الأبناء بـأنهم ساهمـوا في المعركـة ولذا يبـدو عدد ٤٠٠٠ رجـل من تميم معقولاً، ويجعل البقية محتملة.

(٤٤) يبدو لنا أن الأرقام التي ذكرها عوانه (٧٠٠٠)، واليعقوبي (٨٠٠٠)، وابن اسحـاق (٦٠٠٠)، وأوردها كايتاني، **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٦٤٥ وما بعدها غـير صحيحة وكـذلك الأمـر بالنسبة للأرقام التي ذكرها الواقدي وأوردها البلاذري في فتوح البلدان، ص ٢٥٦.

(٤٥) **Islamic History**، ص ١٦ وما بعدها.

(٤٦) التاريخ، ج ٣، ص ٤٨٩.

الواقع أن الاحترازات بقيت عنيدة على مستوى المؤسسات، ولن تبدأ في التبدد الا بعد وقعة القادسية فعلاً، كأن القادسية كانت فرصة للتكفير عما سلف أو بوتقة للتوحيد. لقد صاحب القادة الكبار المرتدون منهم الأشعث بن قيس وطليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب، قبائلهم إلى الحرب، لكنهم لم يتحصلوا على أية صفة عسكرية قيادية في شراف. إن قادة **الأعشار** التي كانت عبارة عن وحدات كبيرة ـ والتي ستتحول بعد ذلك إلى **أسباع** ـ وكذلك الذين كانوا على رأس وحدات الجيش الكبرى المتأهبة للقتال ـ وهم أمراء التعبئة ـ سواء على الميمنة، أو الميسرة، أو القلب، أو المشاة، أو الفرسان، قد اختيروا لولائهم للإسلام وهكذا، وقع تفضيل شرحبيل ابن السمط الكندي ضمن قبيلة كندة، على الأشعث الذي كان أكثر شرفاً، لكنه كان مرتداً شهيراً كما يذكره سيف الذي يشير إلى أن الأمور ستتغير بعد ذلك قائلاً: «وكان قد غلب الأشعث على الشرف فيما بين المدينة إلى أن اختطت الكوفة»[٤٧].

ويلاحظ ذات الاتجاه الإسلامي في مستوى القيادات الصغرى، نعني العرافات المتركبة من عشرة رجال، على نمط عرافات الرسول والتي ستبقى بالكوفة والبصرة، وبعد أن أعيد فيها النظر من وجهة الوظيفة والعدد. روى أنه «كان في الأعشار»، سبعون رجلاً بدرياً، وثلاثمائة وعشرة من الصحابة ممن ترجع صحبته إلى بيعة الرضوان، وولي ثلاثمائة صحابي آخر شاركوا في فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة من كافة القبائل[٤٨]، لكن مفهوم الصحابي مرن، وهو يشمل كل أولئك الذين كان لهم اتصال سابق بالرسول. وإذا صحت هذه الأرقام، فلعلها تعني أنه لم يغادر المدينة عناصر كثيرة حيث لم تصلنا أسماء معروفة منهم[٤٩] لا في مرحلة التنظيم ولا في مرحلة المعركة لكنها تبرهن على أنه وقع تفضيل الأوفياء على غيرهم وأن التيار الإسلامي فُضّل على التيار التقليدي ضمن

(٤٧) المرجع السابق ج ٣، ص ٤٨٨.
(٤٨) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٤٩٠.
(٤٩) لكن ورد ذكر اسم عبد الله بن المعتم: الطبري ج ٣، ص ٤٨٨.

عالم القبائل بالذات[٥٠].

وخلافاً لذلك، كان أبناء كبار الصحابة حاضرين بالشام، وقاتلوا بأجنادين كما في اليرموك، حيث دفعوا ضريبة الدم التي كانت مرتفعة[٥١]. وعندما يرد ذكر بعض الأسماء منهم في القادسية فإن عدد الأنصار يربو على عدد القرشيين. ومن باب التناقض أن يلح سيف في روايته المستندة في هذا المقام إلى مجالد بن سعيد والشعبي، في آن واحد على متانة القيادة الإسلامية والطابع العربي القومي للمواجهة النفسانية، وعلى الدور الفعلي المتفوق الذي لعبه القادة التقليديون المرتدون الذين صاروا يجسمون القيم الحربية العربية. وقد قلنا أن روايته للاستعدادات لمعركة القادسية لم تتجاهلهم، بل يبدو أنها وضعتهم في المقدمة. لقد انتزعت من رؤساء القبائل القيادات الكبيرة كافة، لكنهم لعبوا دوراً حاسماً في التعبئة النفسانية، وأجروا المحادثات مع العدو وتولوا فعلاً قيادة أفراد قبيلتهم في الهيجاء[٥٢]. فهل كان ذلك تشويهاً متحيزاً عن وعي أو بدون وعي كما أكد كايتاني، أم كان تحويلاً طرأ على واقع الأمور، أي تجسيماً لعودة القوى الحقيقية ومحاولتها زعزعة الهيكل المؤسساتي؟ لا شك في تضافر الأمرين. إن روايات سيف دقيقة وملحمية في آن، وهي مطبوعة بالشمولية والانتقائية على السواء، فالدقة تحملها على عدم تجاهل إرادة عمر الجازمة على إقرار تأطير إسلامي على أوسع درجة وانتقائيتها تحملها على تناسي الرجال الذي كانوا دعامة لتلك القيادة. كما أن رواية سيف اتصفت بالملحمية لأن هذا المؤلف أعطى المرتبة الأولى لأعمال الذين أسسوا استمرارية تاريخية في العراق ولا سيما في الكوفة. لكن الصحيح من جهة أخرى أن جيش العراق باستثناء فترة خالد وأبي عبيد كان متركباً

(٥٠) من الأوفياء كان هناك أشراف. ولنذكر زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية الذي كان قائداً للطليعة (الطبري ج ٣، ص ٤٨٨ وغيرها)، وعاصم بن عمرو (ذات المرجع ص ٥٣٠).

(٥١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١.

(٥٢) الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٥١٤، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧، حيث تنسب الروايات لعمرو بن معد يكرب دوراً بطولياً كان قام به في يوم أرماث وفي ص ٥٥٧، حيث نرى عودة عمرو وطليحة إلى الظهور يوم عماس ومبادرتهما بأعمال ظرفية في القتال.

في الواقع وعلى الدوام من عناصر بدوية من خارج الحواضر الإسلامية، وهي لعمري ظاهرة اتسعت مع سعد، فلا عجب بعد ذلك أن يتناسى ويتجاوز قادة القبائل سلطة المدينة، ومن يدري، لعل عمر اجتهد بغية محاربة الفرس، من أجل النهوض بالقوى العربية الصرف، شريطة أن تخضع هذه القوى للمثل الإسلامية المطروحة كهدف أسمى؟

وقد روى سيف أن عمر أراد مواجهة الفرس بأفضل العرب، بمعنى أبطالهم وخطبائهم وشعرائهم. ولعله سمح لبعض قيم الجاهلية بالعودة إلى النشاط لا سيما القيم التي لم تكن تعارض الإسلام الا قليلاً. كان ذلك نتيجة منطقية للانفتاح على الردة والاختيار الأساسي المتمثل في تفضيل الفتح الواسع على الفتح المحدود، وتوسع الإسلام بدل تعميقه. وقد لاحظ سيف وجود رجال من أهل الشجاعة ـ على رأسهم عمر بن معد يكرب وطليحة، وقيس بن هبيرة ـ ورجال من أهل الرأي ـ كالمغيرة بن شعبة وحذيفة، وعاصم ـ وشعراء ـ كالشماخ، والحطيئة، وأوس بن المغراء، وعبدة بن الطبيب[٥٣].

أما عن الوفد الموجه إلى رستم، فقد انتقى سعد قادة تقليديين من الرؤساء ورجال دين وإسلام أيضاً، منهم ربعي بن عامر والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن مقرّن[٥٤]. وما له دلالة كبيرة رواية الحوار الذي دار مع رستم، حوار كان بمثابة المواجهة الإيديولوجية التي سبقت الصدام المسلح. من البديهي أن هذه الرواية أعدت بالكوفة، لكن متى؟ هل تمت قبل انبثاق الشعوبية أم بعده؟ هل كانت تعبر عن وعي بالارتباط بعملية الفتح فقط، لكونها أساساً للسيطرة العربية التي

(٥٣) الطبري، ج ٣، ص ٥٣٣. روى أن المغيرة جاء من الأبله: الدينوري، ص ١١٨، والبلاذري، ص ٢٥٦. ولعلّ وضع أبي محجن الشاعر يستند إلى عملية عصيان في وجه سعد، وقد أفاضت المصادر في رواية موقف هذا الشاعر: الطبري، ج ٣، ص ٥٣١: لكن الرواية التي شاعت كثيراً عزت حبسه إلى السكر: مثلاً ابن اسحاق حسب رواية الطبري، ج ٣، ص ٥٧٣؛ والبلاذري، ص ٢٥٨.

(٥٤) لكن الوفد المذكور لم يشتمل على كبار رؤساء الردة، رغم تكاثر روايات المحاورة مع رستم.

كانت قائمة الذات في مجتمع الكوفة، فيما بين سنة ١٠٠ و١٣٠ من الهجرة؟ أو هل أنها كانت تردّ ردّاً غير مباشر على تشكيكات الشعوبية، فقدمت صورة مرضية للعرب، صورة شعب فتي متحمس يحتقر السهولة على طرفي نقيض مع صورة الفرس كشعب أبطره النعيم؟ إن رواية الصورة الذاتية المعروضة تؤيد الفرضية الأولى، فضلاً عن أن الرواية المذكورة تشمل ذكريات كثيرة مستمدة من العصر الجاهلي. هناك جانب كبير من البناء الأديولوجي تضمنه وصف ربعي الخشن البرابري أو يكاد، لكن مجموعة أسلحة المقاتل العربي جديرة بالاهتمام: إنه السيف المغمد في الخرق، والرمح، والترس من جلد البقر، والدرع، وهو سلاح لم يكن جيداً الا قليلاً[٥٥]. وكذلك الأمر بالنسبة للصورة الاخلاقية التي قدمها العرب عن أنفسهم إلى رستم، إذ من المناسب أن نميز بين الإسقاطات التي تعود إلى الماضي، ومبررات الفتح، ومتبقيات الماضي الحي. ذلك أن الدوافع الاقتصادية طرحت في الميزان دون تحفظ، ولعل أن الأمر كان وقع تعتيمه لوصنع الخبر في وقت متأخر: الجوع والبحث عن الأراضي الجيدة، واستياق القمح واللحم، والرغبة في النساء والأطفال، فوقع التعبير عن كل هذه العناصر بصراحة لا تدانى. اعتداء من شعب على شعب، نية الاستقرار، العزم على الخروج من الجاهلية. كلّ هذا الذي نستشفه لدى الطبري في ذكره رؤية فتح العراق من الجانب العربي يبدو مقبولاً إذا أرجعناه إلى الفترة المبكرة حتى ولو دونت الروايات في القرن الثاني من الهجرة[٥٦]، وهو وصف للعرب يظهرهم بأنهم كانوا على شعور من صلاتهم بالتاريخ. وما يبدو أيضاً قابلاً للاحتمال أن الدّعوة إلى اعتناق الإسلام قبل المعركة كانت فعلية (٥٦ مكرّر)، لكن الأشخاص الذي وفدوا على رستم لم يقدموا الاسلام لحمل الغير على اعتناقه وإنما

(٥٥) الطبري، ج ٣، ص ٥١٩.

(٥٦) لا أقل من ١٣ خبراً في هذا الموضوع، رواها سيف ويبدو أن اكثر الأخبار استكمالاً وطرافة هي أخبار محمد، وطلحة، وعمرو، وزياد، ص ٥١٨ - ٥٢١.

(٥٦ مكرّر) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٧.

للتعريف بذاتيتهم الجديدة ومن أجل إفهام وشرح معجزة تلاحمهم. لقد أخلى المظهر الكوني المجال لفائدة البعد القومي، فكان اسلامهم إسلام البعث الاخلاقي الذي طرأ على الأمة أكثر مما كان وحيا بالمطلق. وواضح أن تأويل الإسلام في المنحى السياسي التاريخي لم يكن من سمات الخطاب المتأخر لعصر التصنيف المذهبي. فاما أنّه يعبّر عن مجتمع مهيمن قريب من تاريخه، مستفهماً مغامرته (كوفة سنة ١٠٠ هـ) واما أنه يستعيد خاصيات عتيقة. والأمر الأكثر احتمالاً أنه وقع المزج بين هاتين اللحظتين في المجتمع العربي، لحظة الفتح الحقيقي ولحظة رؤية هذا الفتح.

معركة القادسية

١) الاستعدادات النهائية

لقد تمت هذه المواجهة الايديولوجية عن طريق السفارات حين تواجه الجيشان قبيل القتال، وحين احتلت الأطراف المتواجهة مواقعها. استقر العرب بعد مرحلة شراف، في قلعة العذيب المهجورة حيث بقي سعد مريضاً غير قادر على الحركة طيلة المعركة، بينما خرج أكثر الجيش في اتجاه الفرات بين خندق سابور والعتيق، الملاصق لقرية قادس أو قديس[٥٧]. ويحتمل أن كلمة قادسية لم تكن تدل في ذلك الوقت على اسم قرية بل على المنطقة التي حددها الخندق والعذيب والعتيق[٥٨]. أما رستم، فقد استقر في النجف أول الأمر، ثم عسكر بين الحصن والعتيق: كان الجالينوس يوجد آنذاك إلى الجنوب، بين النجف

(٥٧) الطبري، ج ٣، ص ٤٩٤ الذي يقول: «ونزل زهرة بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسية اليوم». وهذا يدلّ على أن قرية القادسية لم تكن موجودة في تلك الفترة. أما كلمة قادس التي يستعملها ابن اسحاق فيظهر انها تعبر عن قرية قديس كما يذكرها سيف. ولعلّ التسمية الجماعية (قوادس) تشير إلى المنطقة كافة وهذا ما لا يراه صالح العلي. والملاحظ أن العتيق وصف بأنه كان مجرى قديماً للفرات، وكان يصب في الجوف ثم تحول إلى قناة.

(٥٨) الطبري ج ٣، ص ٥١٠.

والسيلحين وعسكر ذو الحاجب بين رستم والجالينوس[٥٩]. وسيدور القتال بين العرب والفرس وراء الفرات، على حدود البادية العربية، فيبقى للعرب إمكانية الرجوع إلى صحرائهم. كان هؤلاء وأولئك يوجدون في أسفل منحدرات الطفّ، بوادي الفرات. فأما الفرس فقد انتشروا على ثلاثة عشر صفاً حذو الفرات. وأما العرب فهم إلى الغرب وعلى ثلاثة صفوف فقط فرساناً ومشاة ونشّابة[٥٩] وكان العتيق يفرق بينهم.

وقد مربنا أن الجيش العربي كان يعد ٣٠٠٠٠ رجل على أقل تقدير، وربما تجاوز ذلك بقليل. وكانت الأرقام المتعلقة بالجيش الفارسي تتراوح بين ٦٠٠٠٠ و١٢٠٠٠٠ رجل[٦٠]. والواقع أن نصف الجيش الفارسي اشتمل على الاتباع وعلى هذا، فنحن نتمسك برقم ٦٠٠٠٠ مقاتل، منهم ١٥٠٠٠ من الاشراف[٦١]، أي ضعف الجيش العربي. ولم يكن ذلك بالأمر المثبط قط لكن حضور الأتباع بكثرة، ووجود ثلاثين من الفيلة، وكون المقاتلين مترابطين بالسلاسل وكون فضاء القتال محدوداً نسبياً محصوراً بين الفرات وقنواته وأعالي الطفّ، كل ذلك جعل من الجيش الفارسي كتلة صعبة التحرك، ثقيلة الحركات. ومما زاده تثاقلاً أنه كان جيشاً عظيم التجهيز مدرعاً كله بالحديد، مع أنه صار بذلك أداة حرب هائلة. وكان العرب تجاه أعدائهم قليلي العدة وقد روى أن المحاربين استخدموا سروج مطاياهم وأحزمتها بدل التروس والخوذات، مما يوحي بالشعور أنه كان جيشاً هشاً[٦٢]. لكن الرجال كانوا مسلحين، وكانوا

---

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٥٥٩، والدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ١٢٢.

(٦٠) ٢٠٠.٠٠٠، باضافة أتباع الجيش، كما ورد بخبر آخر: الطبري ج ٣، ص ٥٠٥.

(٦١) الطبري، ج ٣، ص ٥١٠: ٦٠.٠٠٠ هو أدنى رقم يستمد من رقم ١٢٠.٠٠٠ رجل المتداول وهو يشكل عدد المقاتلين الحقيقيين. وقد خفضه عوانة كما نقل عنه الطبري، ص ٤٩٦، إلى ٣٠.٠٠٠، مخفضاً عدد العرب إلى ٧.٠٠٠. وروى الطبري، ج ٣، ص ٥٧٣، عن ابن اسحاق أن عدد المقاتلين ٦٠.٠٠٠، راجع أيضاً **Skizzen und Vorarbeiten,** Wellhausen ج ٦، ص ٧٧. أما البلاذري، فتوح، ص ٢٥٦، فيذكر رقم ١٢٠.٠٠٠ مقاتل فارسي.

(٦٢) الطبري ج ٣، ص ٥٥٣ (سيف)، وص ٥٧٥ (ابن اسحاق).

يمثلون نخبة القبائل حيث أمر سعد بألاّ يجند الا الرجال المتلكون لأسلحتهم. وتمّ له ذلك بيسر، وهو دليل على ما بلغته بلاد العرب من تطور في ذلك العصر. فلم يكن العرب برابرة بالمعنى المعهود للكلمة، بل كانوا متفتحين على العالم الخارجي بما يكفي لكي يستطيعوا التسلح بصورة واسعة، أما عن طريق التبادل وأما بفضل الإقتباسات التكنولوجية(٦٣).

ويبدو أن رستم قد فضل استراتيجية الاستنزاف على الهجوم الفوري(٦٤). ولا يحتمل أنه لم يدرك لحد ذلك الوقت طابع الغزو المنظم الذي اكتساه التدخل العربي في العراق، نظراً للوضع الذي صارت عليه الأحداث: وبذلك فإن المقترحات التي عرضها على العرب والتي استهدفت العودة إلى ديارهم عوداً مشرفاً، لا يمكن أن تؤوّل إلاّ من باب الحرب النفسية(٦٥). فهل كان يريد حقاً تلافي صدام مسلح لا يكون فيه له غنم إذا انتصر، ويفقد فيه كل شيء لو هزم؟ لقد أشارت المصادرإلى حذره، واعتماده المنجمين الذين توقعوا له كارثة، الا أن الملك حثه على القتال(٦٦). كان هذا الملك قليل التروي، وقد عيل صبر دهاقين الطفّ، فغشوه لحمله على حسم الأمر مع العرب(٦٧). وضايق تريث رستم المبيّت الجيش العربي البعيد عن قواعده لا محالة، فاقتصر على شن غارات على السواد لضمان الغذاء للمقاتلين، لكن تزايدت صعوبة مثل تلك الغارات (يوم الأباقير، يوم الحيتان)(٦٨). فأراد العرب كسر الطوق، والخروج من موقف

---

(٦٣) وجد سعد أسلحة بقلعة العذيب. ولا بدّ أن الثلاث سنوات السابقة التي قضيت في شن الحملات، مكنت العرب من الحصول على عدد من الأسلحة: الطبري، ج ٣، ص ٤٩٢.

(٦٤) المرجع نفسه، ص ٥٠٩.

(٦٥) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٥٢٣.

(٦٦) الطبري ج ٣، ص ٥٠٩ و ٥٠٥.

(٦٧) «وعج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار، وأرسلوا إليه أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلاّ الحرب... وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات، وليس فيما هنالك أنيس إلاّ في الحصون، وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة... وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطف»: الطبري، ج ٣، ص ٥٠٣.

(٦٨) المرجع نفسه ج ٣، ص ٤٩٥. كان ذلك لتغذية النساء والأطفال في العذيب وقادس حيث خرجت بعض القبائل بنسائها وأطفالها.

الانتظار الذي أصبح دقيقاً والذي قد يؤدي إلى تفتيت معنويات الجيش، فتحدد بذلك اختيار وقت القتال أكثر مما لو كان الأمر يتعلق بنفاد صبر يزدجرد.

٢) قضية التأريخ:

أشرنا سابقاً إلى هذه القضية عند الحديث عن وقعة البويب حيث أن توقيت المعارك المختلفة بالعراق مترابط، وقد بينا أن تأريخ سيف مردود في جملته، وبذلك نكون متفقين في الرأي مع فلهاوزن، وكيتاني، ويوسف. وبخصوص القادسية بالذات، فلا يمكن قبول تاريخ محرم ١٤/ فبراير ومارس ٦٣٥. وقد اقترح ابن اسحاق آخر عام ١٥[٦٩] واقترح خليفة بن خياط شوال من عام ١٥ هـ[٧٠]. واقترح الواقدي أواخر عام ١٦ هـ[٧١]. وبعد أن قدم كايتاني البرهان بصورة متبحرة ودقيقة أيضاً، مع أنها لم تكن دائماً مقنعة، انتهى به الأمر إلى تأريخ حرب القادسية في ربيع سنة ٦٣٧ بعد الميلاد، أي بين محرم وجمادى الأولى من سنة ١٦ هـ[٧٢]. وأكد موافقته على التأريخ الذي اقترحته مدرسة أهل المدينة، رغم فارق ستة أشهر على الأقل يفصله عن الواقدي، لكن يبدو لنا أن التأريخ الذي اقترحه كايتاني ينبغي رفضه لأن شواهد شعرية وتاريخية كثيرة تحثنا على طرح تزامن وقعتي اليرموك (رجب عام ١٥ هـ) والقادسية أو على الأكثر أن نقبل فارقاً ضئيلاً لا يمكن أن يتجاوز شهراً[٧٣]. وقد تسمى أحد أيام القادسية

---

(٦٩) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٥٧٢.

(٧٠) التاريخ، ج ١، ص ١٠١.

(٧١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٦، واعتمد ابن سعد تأريخ الواقدي، طبقات ابن سعد، تحقيق Sachau، ج ٣، القسم الأول، ص ٣٠.

(٧٢) **Annali**، القسم ٣، ج ٢، ص ٦٣٣.

(٧٣) سيف كما روى عنه الطبري، ج ٣، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣، الذي يصرّح بفارق شهر بين احتلال دمشق والقادسية، مقترحاً تزامناً مع وقعة اليرموك أو يكاد. وفي هذا الصدد فلا مجال للحديث إلّا على الاستيلاء الثاني على دمشق. وقد ورد بقصائد كثيرة ذكرها الدينوري ص ١٢٤ ـ ١٢٥، منها قصيدة منسوبة إلى قيس بن هبيرة، فارق شهر بصورة واضحة. ونسب البلاذري، ص ٢٦١، ذات القصيدة إلى قيس بن مكشوح، نقلاً عن خبر لهشام بن الكلبي.

بيوم **أغواث**، مذكراً بالنجدات التي وردت من الشام بعد معركة اليرموك[٧٤].

وسواء أكان قيس بن مكشوح أول القادمين، أم هاشم بن عتبة، أم القعقاع بن عمرو فذلك لا يهم إلا قليلاً، كما أنه لا يهم إلا قليلاً أن نعرف أن الامداد من مقاتلة اليرموك وصلوا قطعة واحدة خلال المعركة، أم أنهم توافدوا جموعاً متوالية أو فوراً بعد القادسية لما انتهى كل شيء[٧٥]. وبالفعل فإن الروايات مختلفة في هذا المقام، ورغم الفارق الكبير الذي صدر عن مدرسة أهل المدينة يسود الشعور بوجود تزامن تقريباً بين وقعة اليرموك ووقعة القادسية مع تأخر طفيف لمعركة القادسية، وهذا يفسر في آن واقع الامداد والاضطراب الذي ساد الرواية التاريخية بصددها. فإذا وقعت حرب اليرموك في رجب سنة ١٥ هـ/ أغسطس ٦٣٦ م. فلا مراء أنه يجب تأريخ حرب القادسية في ذات التاريخ أو بعد شهر من ذلك، أي في شعبان من سنة ١٥ هـ[٧٦]. وتتكاثر الحجج المؤيدة لهذا الاختيار والمتمثلة في ضعف الامداد وفي الإشارة إلى أن العرب أقاموا وسيطروا على السواد طيلة ثلاثة أعوام[٧٧]. ويفيد خبر آخر أنه مرت مدة زمنية تقدر بثمانية عشر شهراً تفصل بين معركة البويب وحرب القادسية، وأخيراً هناك منطق الأحداث (اختيار عمر لوقت الغزو، ومسيرة سعد، ومرحلة الانتظار بالقادسية)، وقد تضافرت كل هذه الأمور على تأييد هذا التوقيت الجملي[٧٨].

---

(٧٤) الحقيقة أن كلمة **أغواث** لم توجد سوى في روايات سيف وفي المقاطع الشعرية التي أوردها الطبري، ج ٣، ص ٥٤٥.

(٧٥) خاضت مصادر الفقه في الموضوع؛ راجع أيضاً قصيدة لبشر بن أبي ربيعة، وردت في **الأخبار الطوال**، للدينوري، ص ١٢٥، بخصوص حضور هاشم وقيس.

(٧٦) ابن حبيش، كتاب الغزوات مخطوطة القاهرة، ورقة ٢١٦ وما بعدها، يذكر سيفاً مفصلاً ويبدو أنه اطلع على كتابه، وهو يؤرخ وقعة القادسية في شوال سنة ١٥ هـ. وقد ذكر تأريخاً قريباً من تأريخنا بالنسبة لمجموع المعارك.

(٧٧) الطبري، ج ٣، ص ٥٣٢.

(٧٨) الأمر المسلم به الذي لا يتفق وتأريخنا والذي اعتمده كايتاني، هو فارق سنة الذي فصل به أبو مخنف بين معركة الجسر ومعركة البويب. وقد اقترح Elias de Nisibe تأريخ جمادى الأولى سنة ١٦ هـ/يونيو ٦٣٧ م، وجاراه Wellhausen في هذه النقطة: **Skizzen**، ج ٦، ص ٧٣.

٣) سير المعركـة :

ليس ما يبرّر البتة أن نتجه بتفكيرنا، كما فعل كايتاني، إلى القول أن المعركة دارت في يـوم واحد[٧٩]، ورغم أن روايـة سيف اكتسـت طابعـاً ملحميـاً، فقـد كانت أكثر تفصيلاً، ولا شك أنها كانت قريبة من الحقيقة نسبيـاً. وإذا ما حـاولنا كتابة التاريخ العسكري الصرف لحرب القادسية، ففي الامكـان تشييد إشكـالية كاملة للفن العسكري عند العرب، اعتـماداً للروايات التي وصلتنـا. كان تـرتيب القتـال قائـماً على الخط، لا عـلى الكـراديس التي استخـدمهـا مـروان الثـاني فيـما بعد[٨٠]، مع وجود جناحين وقلب. كيف كانت الـوحدة التكتيكيـة؟ هل كـانت الكتيبة؟ وفي هذه الصـورة ما هـو الدور الـذي كان للعـرافات المـتركبة من عشرة ومن مـائة رجـل، والتي وقع الحـديث عنها؟ وهنـاك مشكلة هامـة أخرى: كيف يتكيف النسق القبـلي بالتنـظيم العسكري البحت؟ هـل حافـظت القبـائـل عـلى وحدتها وكيانها، بعد أن اندمجت في نظام قتالي لا يخضع مبدئياً إلا لغـائية خـاصة بـه[٨١]. يدور الحـديث مثلاً حـول كتيبـة أسـد[٨٢]، وفي اليـوم الأول من وقعـة أرماث، نشعر تماماً أن القبيلة ـ من مثل بجيلة، وأسد، وتميم ـ أصبحت العـامل

---

(٧٩) **Annali**، ج ٣، ص ٦٥٦ ـ ٦٥٧. يتحـدث الواقـدي عن «يوم القـادسية»: البـلاذري، ص ٢٥٦، لكن ذلك لا يدل عـلى أنه ينبغي اعتبـار يوم بمعنى «يـوم واحد». أمـا ابن اسحاق، فلم يحدد المدة وقد استنتج كـايتاني أن البـلاذري تأثـر بمدرسـة العراق عنـد حديثـه عن ثلاثـة أيام، معتمداً رواية للشعبي، وكيف لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لرواية أحداث تهم أهل العـراق في المقام الأول؟

(٨٠) Wellhausen, **Das Arabische Reich und sein Sturze**، نقله إلى العـربية أبـو ريدة، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٥٨

(٨١) يرتب سيف رؤساء القبائل في آخر السلم، بعد أمـراء التعبئة (المشـاة والفرسـان والطليعـة دون شـك)، وأمراء الأعشـار، وأصحاب الـرايات: الـطبري ج ٣، ص ٤٨٩. هـذه أمـور كلهـا غـامضة ويكـاد يكون مستحيـلاً كذلـك تكوين فكـرة عن التنظيم العسكـري العربي، اعتـماداً لروايات أبي مخنف المتعلقة بالفترة اللاحقة؛ راجع الطبري، ج ٣، ص ٥٥٧، بخصوص وجود فرق المائة.

(٨٢) الـطبري، ج ٣، ص ٥٣٩. من الممكن أن تكون الكتيبـة هي الوحـدة التكتيكية وإن الـوحدة الاستراتيجية هي الجناح والقلب والطليعة.

الأساسي للتحرّك. ويمكن أن يكون قد سخر سعد عبقريته كلها لحماية تماسك وحدة القبيلة مع صهرها في نفس الوقت في هياكل استراتيجية وتكتيكية للجيش، بمعنى أن يجد الحل الوسط بين البنية القبلية والبنية العسكرية الصرف. أما عن العمل العسكري ذاته فتبقى الأمور غامضة. يجري الكلام عن **المطاردة والطراد**(٨٣) (هل كانت ملاحقات للخيالة؟)، **والجولان** (دورات الخيل ومبارزات؟)، **والزحف** أو الهجوم الشامل. وقد ذكر سيف ما يلي: «كان يكون أول القتال في كل أيامها المطاردة»(٨٤). ويبدو أن المطاردات كانت تتمادى على شكل اشتباكات عنيفة، لكن باستثناء اليوم الأخير، لم يكن يعني الأمر سوى مواجهات ظرفية، ولم يشن الهجوم العام إلا في النهاية.

ولنتعمق في الأمور عن كثب. لقد دامت المعركة أربعة أيام وليلة: يوم **أرماث**، ويوم **أغواث**، ويوم **عماس**، وليلة **الهرير**، ويوم **القادسية**.

أ) في اليوم الأول، واجهت القبائل صدام الفيلة، وكانت على التوالي بجيلة، ثم أسد، ثم تميم(٨٥). وقد تمثل المشكل عند العرب من وجوب التصدّي للصدام، والتنسيق بين نشاط القبائل، وأبطال تأثير الفيلة. وقد تحقق لهم ذلك حين لجؤوا إلى تجريدها، وتمزيق أغطيتها الفاخرة وسيورها، وتحطيم المحامل. كان يوماً شديداً على العرب فقدوا فيه ٢٥٠٠ من القتلى وأشرفوا على الكارثة مراراً، لكن الغموض الذي اكتنف تفاصيل العملية لا يزول: فمن جهة، يروى أن الجهد الفارسي تركز على نقطة دقيقة في المكان الذي عسكرت به بجيلة، وأنه وجب أن تتدخل أسد وتميم إنقاذاً للوضع. ومن جهة أخرى،

(٨٣) الطبري ج ٣، ص ٥٣٨، وغيرها حتى صفحة ٥٧٦. وكذلك الأمر بالنسبة للمصطلحات الأخرى التي استخدمها سيف.

(٨٤) المرجع نفسه، ص ٥٤٥.

(٨٥) نتبين من خلال الرواية شحناء ما بين القبائل. وذلك دليل على أن دور القادة من رؤساء القبائل كان هاماً بالرغم من تهميشهم على الصعيد المؤسّساتي: راجع الطبري ج ٣، ص ٥٢٩ ـ ٥٤٠. وقد قتل ٥٠٠ رجل من أسد.

تتحدث الرواية عن مرحلة الطراد، مرحلة تشابكت فيها الكتائب وعن تكبيرة رابعة لسعد تأهبا للهجوم العام أو الزحف، لكن لم يتم هذا الهجوم إلا في اليوم الرابع : فكأن الرواية مترددة في تجميع الأحداث في يوم واحد أو في تمييعها(٨٦).

ب) يطرح يوم أغواث مشكلة المساعدات القادمة من الشام. هل كانت هامة وحاسمة أم كانت بمثابة الدعم النفساني أكثر منها مساعدة حقيقية؟ تحدث خبر عن بعض ٦٠٠٠ رجل من أهل العراق (كانوا من المقاتلين المتمرسين الذين خرجوا مع خالد) من طرف أبي عبيدة(٨٧). وورد بخبر آخر أن ٧٠٠ رجل فقط بلغوا القادسية(٨٨). وكان قيس بن مكشوح حاضراً أو أنه كان غائباً حسب الظرف، وهناك خبر ملح ورد مراراً مفاده أن المساعدات وصلت متأخرة لكنها حصلت على نصيبها من الغنيمة رغم ذلك.

ومن الممكن أن سيفاً ومخبريه من أهل العراق، مجدوا أكثر مما يجب، دور القعقاع وهو أحد قادة بعث اليرموك الذي أصبح محركاً للجيش العربي كافة. فكان يوجد بكل مكان، ويقود أعمالاً ظرفية، وهو الذي دشّن تكتيك الدفاع

(٨٦) وعلى هذا، يسترد كل قيمته نقد كايتاني لما تضمنته رواية سيف من تناقضات. بدأ سيف يتحدث عن توصيات سعد الذي حدد تكبيراته تماشياً مع مراحل القتال، فخصص التكبيرة الرابعة للهجوم العام، لكن هذه الخطة العامة تتنافر ومدة القتال الذي استمر أربعة أيام : الطبري، ج ٣، ص ٥٣٥. ثم تتوحّل الرواية في الأيام المتتالية وكأن التكبيرة الأخيرة بقيت معلقة. وفي خصوص يوم عماس يعود الخبر إلى المزج بين عناصر سبقت روايتها وبين قضية سعد، ص ٥٥٩ وما بعدها، كأن الأمر يتعلق بإجمال للعملية كلها، أقحم في اليوم الثالث وكأن المقصود منه وصف يوم عماس، أو أن سيفاً رتب استخدام رواية مستقلة تصف الفاجعة في يوم واحد.

(٨٧) الطبري، ج ٣، ص ٥٤٣، والبلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٦. وقد أورد كايتاني رواية اليعقوبي التي لم تكن سوى نقل لرواية سيف: ج ٣، ص ٦٤٥. ولم يرد عدد المقاتلين لدى الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ١٢٠.

(٨٨) الطبري، ج ٣، ص ٥٥١؛ يتحدث سيف، ص ٥٤٣، عن ١٠٠٠٠ رجل دون أن نعلم هل يقصد بذلك ١٠٠٠٠ مقاتل في الجملة، وصل منهم ٧٠٠ في بداية الأمر، أو أنه قدم ١٠٠٠٠ ثم ٧٠٠ رجل؛ البلاذري، ص ٢٥٧، يذكر رقم ٧٠٠ رجل بقيادة قيس بن مكشوح الذي جاء لانقاذ الوضع.

المتمثل في دائرة الخيل المحيطة بنواة من الجمال وهو الذي قتل الجالينوس، وتولى فعلاً قيادة العمليات آخر الأمر[٨٩] لكن لا نجد له أثراً في روايات الواقدي المدنية.

ج) كان يوم عماس أقسى يوم على العرب. تحصل الفرص على النجدات في حين أن دعم هاشم لم يكن إلا رمزياً[٩٠] وظهرت الفيلة من جديد فتحتم قتلها هذه المرة. تذكر لنا المصادر وقوع حركة تطويق في أحد ممرات العتيق كان عملاً جسوراً أنفذه طليحة وعمرو بن يكرب لكن من الصعب إدراك تأثيراته على المعركة في مجموعها[٩١].

والأمر الأساسي أن المعركة استمرت كامل الليل ـ ليلة الهرير ـ حيث توقع العرب أن يشن الفرس هجوماً عاماً، فقاموا بزحف كامل، مستبقين أوامر سعد، وبالكاد متخطين لأوامره[٩٢]. فكانت لهم الغلبة في فجر ليلة القادسية، لكن مسعاهم لم يكلل بالنصر بعد، إذ كان عليهم أن يتجلدوا ساعات أخر، ويقاوموا ويجالدوا حسماً للأمر لصالحهم.

د) وقد تم لهم ذلك في صبيحة وقعة القادسية. قتل رستم فانهار الجيش الفارسي انهياراً تاماً. ودار التقتيل والاغراق في نهر العتيق. ولم ينجح في التقهقر بانتظام إلى المدائن سوى جمع محدود العدد، لكن حتى ذو الحاجب الذي كان يقود هذا الفريق قد وقع اللحاق به وقتل. كان النصر العربي كاملاً. أما ما يثير الاستغراب في الجانب الفارسي فهو اتساع الانهيار أكثر من الهزيمة ذاتها، وما لحق الفرس من تقتيل وقد تشتتوا شذراً مذراً، واستسلموا، وهو ما لم يكن متوقعاً بعد صلابة المقاومة الفارسية التي استمرت ثلاثة أيام وليلة.

(٨٩) الطبري، ج ٣، ص ٥٤٧ وغيرها.

(٩٠) روى أن هاشماً جاء يوم عماس رفقة قيس بن مكشوح في حين أن القعقاع سبقهما.

(٩١) الطبري، ج ٣، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ نقلاً عن سيف.

(٩٢) الطبري، ج ٣، ص ٦٥١؛ البلاذري، فتوح البلدان، يعترف أن ليلة الهرير بالقادسية كانت نموذج ليلة الهرير بصفين: ص ٢٥٩. ويرى كايتاني خلافاً لذلك، أن الأمر اسقاط يعود من المستقبل على الماضي **Annali** ج ٣، ص ٦٤٦ وما بعدها.

٤) تفسير وقعة القادسية ودلالتها:

فتح النصر بالقادسية طريق العراق للعرب، العراق الذي يجب اعتباره الآن مفتوحاً، بعد القضاء على القوة العسكرية الفارسية. وقد تضمن هذا النصر على المدى المتوسط بذور نهاية الامبراطورية الساسانية وغزو فارس وإخضاعها بالذات. ويعترف كايتاني أن نتائج معركة اليرموك كانت أقل أهمية من نتائج معركة القادسية لكنه ينازع في أن يكون لهذه المعركة صبغة درامية. قال: «كانت القادسية معركة ناجحة في يوم واحد، وكانت اليرموك الخلاصة والأزمة القصوى لحملة طويلة شاقة استمرت ثلاث سنوات»[٩٣]، ومن المؤكد كما أسبقنا أن الشام اكتسبت أهمية أعظم من العراق، في مسيرة الفتح العربي، وأنها استقطبت القدرة العسكرية لدولة المدينة، بمعنى تلك القوة الضاربة التي أنشأها الرسول ﷺ، ثم طورها أبو بكر وعمر. وخلافاً لذلك، وقع اللجوء دوماً إلى قوات قبلية فرعية في خصوص العراق، كانت مستقلة نسبياً. ويحتمل أيضاً أن بيزنطة اعتبرت في بداية الأمر الخطر الأساسي الذي كان يستوجب أسرع رد ممكن، وأكثره تنظيماً وتواصلاً، كما اعتبرت الشام امتداداً طبيعياً لبلاد العرب. وهو ما يفسر استمرار الجهد المبذول وتماسكه لفائدة جبهة الشمال. لكن لا يعني ذلك إطلاقاً أنه وقع استنقاص الفرس من الوجهة العسكرية. ومن المعروف أن العرب ترددوا في الهجرة إلى العراق وقد مر بنا ما كان من خطورة للهزيمة التي جدت في معركة الجسر، وهي الوحيدة التي ألحقت بالعرب والتي كان لها مثل تلك الأهمية. وتدل الأخبار الكثيرة التي وردت بالمصادر على الشعور بالنقص الذي انتاب العرب أمام القوة الفارسية، وقد وجب التغلب على إحباط نفسي حقيقي لمواجهتها.

كانت وقعة القادسية كوقعة اليرموك تتويجاً لعمل دام ثلاث سنوات. وليس لها أن تكون نصراً يسهل قطفه إلا إذا أخفق الفرس في تنظيم أمورهم من جديد، ولم يكن الأمر على ذلك النحو. كانت حقاً امبراطورية قائمة الذات بكامل

---

(٩٣) Annali، ج ٣، ص ٦٥٩.

مـواردها وتنـظيمها، وتقـاليدهـا العسكريـة تلك التي واجهت الغـزو العـربي في القادسية. صحيح أنها كانت امبراطوريـة في حالـة ضعف بصورة عميقـة، لكنها استردت استقرارها مؤقتاً، وكانت قائمة الذات حين وقعة القادسية.

ويعني ذلـك أن الأمر لم يتعلق في شيء بغـارة موفقـة بل ان المعـركة كـانت جدية، درامية، وكانت بمثـابة المـأساة إلى أعـلى درجة في نـظر المهزومـين. كانت درامية بالنظر للمقاتلين لأن نتيجتها كانت محل شك. لكن مشكل المناعة العربيـة مطروح على المؤلف لكثرة ما اعتُبر طبيعياً أن العرب لا يمكنهم إلا أن ينتصروا.

توخى العرب تجاه كافة خصومهم سلوك انتصـار محقق، ولم نعد في حـاجة إلى تعليـل جانب كبـير من ذلك. إنها قضيـة تـاريخيـة، لكن يمكن عـرض بعض العناصر في وضع القادسية بالذات. لقد جمع الجيش العربي بين خـاصتين: كـان من الصنف البـرابري، وكـان أيضاً جيشـاً منظماً تنـظيماً قـوياً لا محـالـة، كـان جيشـاً ـ شعباً وجيش مهاجرين، وقد تركب من محاربـين مالكـين لاسلحتهم، نعني نخبة القبائل، فضلاً عن أنهم كانـوا من المتطوعـين. وكان يحـرك هؤلاء الرجـال رغبة واضحة في الفتح: ليس إرادة لتوسيع امـبراطوريـة ما، بـل صورة ملحـة للعيش الأفضل. وكان جيشاً من النوع البرابري أيضاً، لأنه واجـه شعباً بـامبراطـورية، وكان ذلك الشعب قليل السلاح، لكن كانت له دوافع نفسانيـة فضلاً عن وجـود القوة التعبوية للاسلام ونداءه الموحد، ووجود سياسـة منسّقة، ومسعى عقـلاني. قلنا أنه كان غزواً من الصنف البرابري لا شعباً برابرياً ذلك أن ما يلفت النـظر في الروايات التي وصلتنـا لم يكن من شكيلة الجسارة الـلاّواعية، بـل هي الشجاعـة المكتسبة والمزج بين روح المبادرة والانضباط، وفوق كل ذلك وجود تقاليـد ثقافيـة وتقاليد عسكرية.

لا شك أن البعد المعنوي وهو الأيسر على الإدراك كان الأكثر حسماً لتعليـل الانتصار. وفوق ذلك، فإنّه يبدو أن العرب أقاموا استراتيجية عسكرية جديـدة. كان تجهيزهم أخف، وكانوا أكثر حركـة تجاه جيش قـوي لكنه ثقيـل، وقد مـرت

بهم أيضاً تجربة حروب الردة وما حصلت عليه بكر ثم بجيلة من ممارسة حربية ثمينة خلال فترة الأيام إضافة إلى خبرة القعقاع ورجاله. ولا نعلم إلا القليل عن تنظيم الجيش العربي، لكن هل آل تنظيمه إلى الرفع من قدرته على التنقل والفعالية من الوجهة التكتيكية؟ ودور الفرسان أيضاً؟ كل هذه الأمور تستوجب التوضيح.

وحقيقة الأمر أن هذا الفن العسكري شهد تطوراً حاسماً بدفعة من النبي، خصوصاً على مستوى التعبئة أي تنظيم الجيش القتالي أو قبلها[٩٣ مكرر ١]. لقد كانت الحرب مقامة في الجاهلية على نظام الكر والفر أي الرجعة بعد الجولة وهذا يعني من وجهة التعبئة أن يصطف المقاتلة على أساس قبلي ويعني من وجهة القوة العدائية انتفاء روح الاستقلال والصمود على نطاق واسع. والتجديد الحاسم الذي أوجده الإسلام يكمن أولاً في اتخاذ التعبئة بالصفوف بصفة مضبوطة صارمة وثانياً في نبذ فكرة الفر والابقاء على الكر وبالتالي بث روح الصمود دون استثناء. وأول ما طبق ذلك النبي بمعركة بدر حيث تذكر لنا المراجع أنه كان يسوى الصفوف كصفوف[٩٣ مكرر ٢] الصلاة (وهنا تبرز بصفة محسوسة العلاقة في الإسلام بين الحرب والصلاة) وأن المؤمنين كانوا يزحفون على العدو دون فكرة تراجع. وقد اعتبر القرآن بعد أحد كل انهزام في المعركة دون مبرر تكتيكي أمراً كبيراً حيث يرد أن «ومن يولهم دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير[٩٣ مكرر ٣]». وكان الجيش الإسلامي يتركب منذ زمن النبي على النمط التالي: الصف الأول هو صف الرماح والثاني السهام والثالث والرابع السيوف. ويبدو أن الصفوف الأربعة هذه كلها مشاة، أما الفرسان فهي تكون ميمنة الجيش وميسرته. فالنبي إذن يكون قد سن انقسام تعبئة

(٩٣ مكرر ١) المؤسسة العسكرية بيروت ١٩٧٧، عبد الجبار محمود السمرائي، تنظيم التعبئة عند العرب، المورد، مجلد ١٢، عدد ٤، ١٩٨٣ ص ٧ - ١٥.

(٩٣ مكرر ٢) ابن اسحاق، المسيرة، ص ٤٤٥ حيث يقول: «أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر - وفي يده قضيب يعدل به القوم . . »

(٩٣ مكرر ٣) سورة الأنفال، ١٦.

الجيش إلى قسمين: القلب وهو متركب من المشاة، والجناحان حيث الفرسان، والقلب بذاته منتظم صفوفاً مختصة حسب السلاح. وإذا صح هذا فقد قام النبي بتجديد عميق في التعبئة، تجديد معقلن تماماً يفوق بكثير التنظيم القبلي القديم إذ يتجاوز الاصطفاف على أساس القبيلة ويقيم وحدة الجيش المقاتل، ولعل هذا يفسر إلى حد كبير تفوّق جيوش النبي على جيوش أعدائه كما تفوّق قوّة الحكم القائم بالمدينة على القبائل العربية في حروب الردّة. ونحن نعلم أن أبا عبيدة باليرموك جعل هو بدوره الفرسان على أجناب الصفوف الثلاثة. أمّا بخصوص سعد بالقادسية، فإنّ سيفاً يذكر لنا ما نصّه[٩٣ مكرر]: «والمسلمون على مواقفهم الأمن تكتّب أو طاردهم وهم ثلاثة صفوف، فصفّ فيه الرّجالة أصحاب الرماح والسيوف وصف فيه المُرامية، وصفّ فيه الخيول، وهم أمام الرجالة وكذلك الميمنة، وكذلك الميسرة» ويعني هذا أنّه احتفظ بالثلاثة صفوف وبهيكلة الجيش إلى قلب وجناحين دون تخصيص الجناحين إلى الفرسان. لكن من جهة أخرى، وقد ذكرنا ذلك، تبدو القبائل وكأنها وحدات قائمة الذات، ونحن نلحظ نَفْس الشيء في معركة صفّين[٩٣ مكرر]. ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا اعتبرنا توزيع القبائل إلى كتل الكتلة حذو الأخرى لكن على جميع الصفوف.

وتبرز المصادر أيضاً هذه المقدرة على الصمود وصبر المقاتلين العرب، وهذا أمر يعود بنا إلى خلفية المعنويات تجاوزاً للمآثر الفردية والقبلية.

وخلافاً لذلك، فقد انهارت قدرة الفرس القتالية في آخر الأيام الأربعة بصورة يرثى لها وكان ذلك نتيجة لمعنوياتهم الرديئة كما كانت حصيلة استنقاصهم للعدو. ومن المتيسر جداً إذا اعتمدنا شهادة الغالبين إبراز السلوك العشوائي الذي ساد جيشاً بلا روح، ولا دافع، ولا إيمان. وهناك سؤال أكثر أهمية: من كان يقاتل مع رستم؟ هل هي الارستقراطية الفارسية بالسواد، التي كانت عنيفة

(٩٣ مكرر ٤) الطبري، ج ٣، ص ٥٥٩.
(٩٣ مكرر ٥) الطبري، ج ٣، ص ٥٦١.
(٩٣ مكرر ٦) نصر بن مزاح، معركة صفين، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٩.

في عـدائها للعـرب، لكنها أثبتت عجـزها قبـل ذلـك؟ أم جمـع المـرازبـة والملوك والأسياد في الداخل (فارس، وميديا، وسجستان، وخراسان) مصاحبين بمواليهم وأتباعهم؟ كلاهما دون شك. لكن الشعـور يحدونـا أن الارستقراطيـين في السواد بقوا بحصونهم في موقف دفاعي، وأن الارستقراطية العسكرية بـالداخـل لم تجند بتمامها، إذ وجب على العرب أن يقاتلوا فيما بعد أو أن يتفاوضوا مع رؤسـاء المدن والمناطق. وكأن كل شيء يحمل على الاعتبار أن الامبراطورية لم تعبىء كافة قدرتها العسكرية، لكن كل شيء يحمل على الافتراض أن ما جندته كان هـاماً لمـا يكفي حتى يقضي عـلى جانب عـظيم من الارستقراطيـة الساسـانية، بعـد أن تم تقتيـل القادسية[٩٤]. وكما أن امبراطور بيزنطة واجه العـرب في اليرمـوك بجموع الأرمن وعـرب الشام، إضـافة إلى الـروم، فكذلـك استخدم يـزدجرد أعـواناً من الأمم التابعة، من أجناس أخرى، كالأتراك وأهالي بخارى، والديلم[٩٥]. ومن المعلوم أن الديلم تخلوا عن الجيش وانتقلوا إلى الصف العربي. فيعـود بنا الأمـر دائماً إلى أزمة الدولة الفارسية التي لم تتوان عن التأثير على معنويـات الجيش والقيادة. لكن ينبغي البحث عن التعليـل الأساسي للنصر العـربي، من وراء السياق العـام، في الشعب العربي ذاته الذي شهد تحرر قدراته فجأة، تبعاً لتحول طرأ على التاريـخ. وقد تجاوزت معركة القادسية في هـذا الصدد مصـير العراق لتـطرح نفسها كـأحد الأحداث الأقوى دلالة في تاريخ العالم.

---

(٩٤) الطبري، ج ٣، ص ٥٦٩.

(٩٥) المرجع نفسه، ص ٥٦٦.



الفصل الثالث

انهاء فتح العراق وتنظيم السواد

(١٦ – ١٧هـ / ٦٣٧ – ٦٣٨ م)

تلاحقت الأحداث بعد معركة القادسية، وجرى فتح سريع نسبياً ويسير شمل السواد كافة، وطرد الفرس من العراق، وأقيم نظام الأراضي والبشر، وأنشئت الكوفة وأخيراً البصرة. وقد تطلبت كل هذه الإنشاءات سنتين أو ثلاثاً، اعتباراً للسنة التي تم خلالها استقرار الأمور وتهيئتها، نعني سنة ١٧ أو ١٨ من الهجرة. وكما جد بخصوص المدة السابقة، فإن المادة التاريخية المتوفرة لدينا تختلف في العديد من التفاصيل. لكن الوقائع الجوهرية الثلاث: الاستيلاء على المدائن، واحتلال جلولاء وطرد الفرس إلى النجد الإيراني، وانشاء الكوفة - وردت في كافة الروايات المتواترة.

قسم كايتاني[١] كعادته هذه المادة إلى رافدين كبيرين: الروايات المدنية (ابن اسحاق والواقدي) التي كانت مفضلة لديه، والروايات العراقية المركزة على سيف بن عمر، وهو يرفضها إن صح القول. فهو يعارض بين رواية عراقية متلونة قطعاً، حية أيضاً وحماسية بالخصوص، لكنها تمتاز بالأخطاء في التواريخ وبتضخيم الأحداث البسيطة، ويراها في جملتها تمجيداً خرافياً للأحداث العسكرية، وبين الروايات المدنية الجافة، الهزيلة المضطربة، لكن المتميزة حسب رأيه بمصداقيتها. هذا وان هيل (Hill)[٢] يجاري كثيراً وجهة كايتاني وقد انتقد

(١) **Annali dell' Islam**، القسم ٣، ج ٢، ص ٧١٣ وما بعدها، لاسيما ص ٧١٠ - ٧٣٢، و ٧٣٤ - ٧٥٢.

(٢) مرجع مذكور، ص ٩٤.

بالخصوص التوقيت الرديء لسيف وانحيازه للكوفة وهما أمران بديهيان بخصوص فتح الجزيرة ، هذا الفتح الذي جعل منه سيف امتداداً فورياً للعمليات بالعراق . إن نقائص سيف بديهية فوجبت الحيطة بشأنها . لكنه يتميز بتماسك الرواية كما بثراء المادة الاخبارية وعلى النقيض من ذلك ، فقد اتسمت روايات عراقية أخرى بجفاف تجاوز ما هو موجود عند ابن اسحاق ـ وقد روي عنه الطبري[٣] وهو الذي يشكل جوهر الروايات المدنية ـ واعتمد البلاذري[٤] بالخصوص تلك الروايات العراقية (رواية عوانة ومجالد بالنسبة للمدائن ، ورواية أبي مسعود الكوفي وعوانة وهشام بن الكلبي وعوانة من جديد بالنسبة لجلولاء) . وقد اشتملت رواية خليفة ابن خياط[٥] على كثير من الأخبار المقتضبة التي كانت عراقية ومدنية، كانت أخباراً رئيسية وثانوية ، اضطرب توقيتها . أما رواية الدينوري[٦] ، فقد اتصفت بشكلها العام .

الواقع أن من غزارة الروايات وتناقضاتها ذاتها يبرز منطق للأحداث يجب متابعته دون المساس بأصل الروايات أو بشكلها: تلك هي الطريقة التي توخيناها لحد الآن، وهي الطريقة ذاتها التي سنستمر في العمل بها.

الاستيلاء على المدائن

خرج العرب إلى المدائن بعد وقعة القادسية، ودفعتهم إلى ذلك ضرورة عسكرية بديهية هي الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الفارسية التي كانت المقر الرئيسي للسلطة في العراق، والمركز النابض للقيادة وتبعاً لذلك تقرر القضاء على الدولة الفارسية في العراق. كان العرب لذلك السبب على يقين من أن انتصارهم في القادسية كان حاسماً واكتسب طابعاً آخر مغايرا لما كان عليه الأمر في البويب

(٣) التاريخ، ج ٣، ص ٥٧٨.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥.
(٥) التاريخ، ج ١، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.
(٦) الأخبار الطوال، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

مثلاً. ويزيد الأمر بداهة عند مقارنته بما جد في «الأيام» المعروفة. بقي أن نعرف هل تم القضاء على الجيش الفارسي قضاءاً مبرماً، إلى درجة أن المسيرة نحو المدائن ستؤول إلى مجرّد حوز للمدينة أو أنه ما زال للفرس دافع يدفعهم، وهل كان ممكناً قلب الوضع لصالحهم؟

يبدو أن كايتاني يميل إلى الرأي الأول[7]، وذلك ما جعله يرق لرواية المدنيين الجافة. على أن ما يقبل الاحتمال هو ظهور بعض مواقع المقاومة الصغرى حتى المدائن، وصمود أشد في أسفل جبل الزاغروس، بجلولاء ذاتها. لجلولاء في الرواية التاريخية العربية كلها مكان مفضل في ملحمة فتح العراق، لكن أيضاً في كتب الفقه. كان حضور الناس وعدم الحضور في المدائن وجلولاء يكتسب أهمية بالنسبة لتقسيم الغنيمة وإسناد أراضي الفيء[8]. هذا يعني أنه ينبغي مجاراة سيف بحذر ويقظة أيضاً.

وبذلك نصل إلى طرق نقطة أخرى كذلك هي أنه كان للعرب رغبة ملحة في الاستيلاء على الكنوز الساسانية. وخشية أن تفلت منهم هذه الكنوز بعيداً داخل الأرض الإيرانية اندفع العرب إلى التعجيل بالمرحلة الأخيرة المتمثلة في الاستيلاء على المدائن وكذلك إلى ملاحقة الجيش الفارسي بجلولاء وحتى حلوان. وبتهيئتهم المراحل (في بابل، وساباط، وبهرسير والمدائن)، أثبتوا جيداً ما كان لهم من حيطة في التوغل العسكري، ويدل هذا الأمر كذلك على وجود مقاومة فارسية ما، قُصِد بها حماية فرار ملكهم وكنوزه. وتم هذا الفرار على مراحل أيضاً، فانطلق الملك من المدائن إلى حلوان، ثم من حلوان إلى الجبال، كأن هذا الملك كان يترقب حدوث معجزة، أو كان يعقد بعض الأمل في رجاله.

(٧) فقد تحدث عن «حملة بدون رونق» ترتب عنها طرد الساسانيين من بلاد بابل: القسم ٣، ج ٢، ص ٧١٣ - ٧١٤ و ص ٧٥٦.

(٨) الطبري، ج ٣، ص ٦١٥، وج ٤، ص ٢٠ - ٣٢، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٣٢ - أما بخصوص الأقوال المنسوبة إلى عمر والمتعلقة بأبناء سبايا جلولاء الذين سيحضرون وقعة صفين، فليراجع الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٩.

إذ لـو اقتصر الفرس عـلى مجرد حمـاية كنـزهم لما تـرقبـوا أن يبـاغتهم العـرب في المدائن. المؤكد أن الفـرس أعادوا تجميـع قواتهم في فـترة أولى ـ لتشتت أكثرهـا ـ وحاولوا تعطيل التقدم العربي إلى أقصى حـد لكن فوجيء الملك في المـدائن، ففر تاركاً جانباً مهماً من ماله، ومع هذا فلم يتردد في مواجهة العرب من قلعة أخـيرة، نعني الجيش المخنـدق بجلولاء. كان عـلى هذا الجيش أن يحمي فـراره، ويقـطع الطريق على غزو محتمل للتراب الإيراني، وأن يقاتـل في آن واحد من أجـل الكنز الملكي أو ما تبقى منه.

أما بخصوص التوقيت، فلم يتمكن سيف إلا بعسر من التوفيق بين تأريخه المبكـر لحـرب القـادسيـة في ١٤ هـ. والاستيـلاء عـلى المـدائن في صفـر سنـة ١٦ هـ[٩]. ولذا أرخ، حسب ما ورد لدى الطبري، أكـثر الأحداث التي جـدت بين وقعتي القادسيـة والمدائن في سنـة ١٥ هـ. ولا شك أنـه أفاض القـول بسبب ذلك في عبور سواد الفرات في حين أن الرواية توحي بنفـاد صبر الجيش العـربي. ويقول الطبري أيضاً أن ابن اسحاق والـواقدي أرخـا هذه الأحـداث بالـذات في سنـة ١٦ هـ[١٠]، وبذلـك كـان عليهـما أن يـوجـزا القـول فيهـا. واتفق جميعهم باستثناء خليفة بن خياط الذي اعتمد تواريخ كانت محض خيال[١١]، اتفقـوا على تـأريـخ الاستيـلاء عـلى المـدائن وجلولاء المؤرخـة في ذي القعـدة ١٦ / ديسمـبر ٦٣٧[١٢]. وبـالفعـل يتفق الـواقـدي وسيف، حسب الـطبري كـما حسب البـلاذري، على أن تـأريخ وقعتي المـدائن وجلولاء يتحـدد في سنـة ١٦ هـ[١٣].

(٩) الطبري، ج ٤، ص ٨.

(١٠) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦١٨.

(١١) التاريخ، ج ١، ص ١٠٧ حيث أرخ وقعة جلولاء في ١٧ هـ/ ٦٣٨ م.

(١٢) فتـوح البلدان، ص ٢٦٥: الطبري، التـاريـخ، ج ٤، ص ٣٢؛ Wellhausen، **Skizzen un Vorarbeiten** ج ٦، ص ٧٣؛ كـايتـاني، **Chronografia**، ص ١٩٠؛ **Termination of hostilities,** Hill، ص ١١١.

(١٣) فتوح البلدان، ص ٢٦٣: «قال الـواقدي: كـان فراغ سعـد من المدائن وجلولاء في سنـة ست عشرة لا يقترح ابن اسحاق تأريخاً ضمن الرواية التي ذكرها الطبري، ج ٣، ص ٥٧٠ ـ ٥٧٩، والبلاذري.

وبذلك يكون تحديد التأريخ في سنة ١٩ كما جاء عند الواقدي وذكره كايتاني، غير مقبول اطلاقاً(١٤) . لا شك أنه ينبغي تأخير الاستيلاء على المدائن، كما ورد عند سيف، بضعة شهور كي تتسق سلسلة الأحداث طبق الصورة التي وردت عند المؤرخين. وعلى ذلك يبدو لنا تأريخ المدائن في جمادى سنة ١٦ / يونيو ٦٣٧، حسب ما قرّره كايتاني قريباً إلى المعقول كل القرابة(١٥) .

تقدم العرب على الطريق الرابطة بين الحيرة وبابل، فالمدائن، فالنهروان، ثم جلولاء في اتجاه حلوان والري. وكان لا بدّ من عبور الفرات وسورا ودجلة. نحن هنا في قلب بلاد بابل، أي في قلب السواد أو تربة الفرات، حيث تجري قنوات جانبية كثيرة رابطة بين دجلة والفرات في اشتباك مكثّف(١٦) .كانت تربة غنية عامرة بالفلاحين الخاضعين للدهاقين، وقد سبق أن اختار أكثر هؤلاء حلاً للتعايش مع الغالب وفرّ الفلاحون أمام التقدم العربي. وكان هذا التقدم إلى المدائن مصحوباً بغارات جدت بين دجلة والفرات، روي أن ١٠٠,٠٠٠ امنهم وقعوا أثناءها في الأسر، في حين تحدثت المصادر وألحت في الحديث عن هروب الفلاحين(١٧) . أما القيادة فهي دائماً بيد سعد في أعلى مستوى، نائبه فيها هاشم بن عتبة ابن أخيه وقد عوض في هذا المنصب خالد بن عرفة الذي عيّن قائداً للمشاة(١٨) . ولم تتضمن كوكبة القادة التي أحاطت بسعد وهاشم، قادة الردة، ولكنها اشتملت على ثلاثة رجال رئيسيين هم زهرة بن الحوية قائد الطليعة وعبدالله بن المعتّم، وشرحبيل بن السمط. وقد روى سيف أن «كل المسلمين

---

(١٤) **Annali**، القسم ٣، ج ٢، ص ٧١٧ حيث نستغرب نسبته تأريخ وقعة جلولاء في ١٦ هـ، إلى ابن اسحاق، وإلى الواقدي تحديد تأريخها في ١٩ هـ.

(١٥) **Chronografia Islamica**، ج ١، ص ١٩٠ .

(١٦) Le Strange، **The Lands of Eastern Caliphate**، ص ٣٠ .

(١٧) الطبري، ج ٤، ص ٥، وقيل أن ذلك وقع خلال الحصار المضروب على بهرسير في حين أن العرب كانوا يغيرون على المناطق الموجودة بين الفرات ودجلة.

(١٨) الطبري، ج ٣، ص ٦١٩، روى البلاذري خبراً لعوانة مفاده أن خالداً كلف بالاستيلاء على ساباط: **فتوح البلدان**، ص ٢٦٣ . وكان خالد قائداً بالنيابة في معركة القادسية وحليفاً لزهرة عشيرة سعد: ابن سعد، **الطبقات**، ج ٦، ص ٢١ .

فارسن مؤد»[١٩]. وذلك قد يعني أن المشاة ينتمون إلى صفوف **الأساورة والحمراء**. وبقي سعد في المؤخرة على عادته مع أكثر الجيش، لكنه كان يلحق دائماً بالمقدمة.

تكللت المرحلة الأولى في نَرس[٢٠] بنصر صغير على بصبهري. وفي بابل وهي المرحلة الثانية تجمعت بقايا القادسية ممن أفلت من القتل مع قوادهم وهم: النخيرجان، ومهران الرازي، والهرمزان، والتحق بهم بصبهري، وتولى عليهم الفيرزان قائداً أعلى، وكان سابقاً منافساً لرستم[٢١]، واتضح بذلك العزم الفارسي على التصدي. ولم يعتقد زهرة أنه كان يستطيع هزمهم بمفرده، فطلب المدد من سعد الذي وجه إليه عبدالله وشرحبيل، ثم هاشماً مع باقي الجيش الذي وصل بعد أن تم النصر[٢٢]. كان نصراً سريعاً، تفرق بعده أكثر القواد الفرس، فجارى كل واحد منهم أطماعه أو انساق وراء المصلحة المحلية للاقليم الذي كان يمثله. فعاد الهرمزان إلى الأهواز، ورجع الفيرزان إلى نهاوند لاستغلال موارد هذا الاقليم. وبقي النخيرجان ومهران وحدهما للدفاع عن المدائن[٢٣]. ويدل تفكك القيادة هذا على عدة عوامل، منها أن السلطة الملكية تلاشت تماماً أو يكاد، وأن الاقليمية عادت إلى الظهور في عالم إيراني منحلّ مهدد، وقد تأكدت دون شك حال انفجار أزمة الخلافة على الملك، وبلغت طلائع الجيش العربي بهرسير غرب دجلة بعد صدام قصير في كوثى. وتجدد ذات المشهد في مواطن القتال الأخرى إذ حالما وصل زهرة في مقدمة الناس إلى ساباط، طلب دهقانها الصلح، بعد أن

---

(١٩) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦١٩.

(٢٠) خليفة بن خياط، التاريخ، ج ٧١ ص ١٠٣، لا بُرس بالباء كما جاء بطبعة القاهرة لتاريخ الطبري، ج ٣، ص ٦١٩. ذكر خليفة أن الطريق المسلوكة هي نرس ـ دير كعب ـ كوثا. وقد ذكر البلاذري مرتين كوثى وساباط: فتوح البلدان، ص ٢٦٢ ـ٢٦٣، لكن لم يتحدث أي واحد منهما عن بابل.

(٢١) الطبري، ج ٣، ص ٥٢٠.

(٢٢) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦١٩.

(٢٣) الطبري، ج ٣، ص ٦٢٠. في الامكان أن يكون لكل قائد جيش خاص به.

قضى زهرة على الكتيبة الخاصة لكسرى بوران، ولحق به هاشم وخاض القتال[٢٤]، وأخيراً وصل جميع الفرسان المرافقين لسعد أمام بهرسير وضربوا عليها حصاراً دام شهرين (أواخر سنة ١٥ وبداية سنة ١٦ من الهجرة)[٢٥] وخلال هذا الحصار اكتسح الجيش العربي السواد فيما بين الفرات ودجلة، ولعل الاتفاق قد تم أثناءه بخصوص وضع الفلاحين وأراضي هذه المنطقة.

إن حصار بهرسير سبق الدخول إلى المدائن وكان له تمهيداً. وكانت بهرسير ذاتها جزءاً من مجموعة المدن المكوّنة للمدائن الكبرى، فضلاً عن أنه يمكن اعتبارها مفتاح المدائن ـ طيسفون بالذات، بتسمية «المدائن الدنيا» تجاه «المدائن القصوى»[٢٦]. لقد تكون مركب المدائن أصلاً انطلاقاً من مدينتين[٢٧] هما سلوقية غرب دجلة المؤسسة بين ٣١٢ و ٣٠١ قبل الميلاد، وطيسفون شرقاً (٢٢١ ق. م.) وهي وريثة أوبيس (Opis). لكن في حين أن المدينة الواقعة شرقاً تطورت وأدمجت القرى المجاورة، واتسعت أيضاً بفضل إنشاء مواطن جديدة (مثلاً رومية حيث وطن المهاجرون من سلوقية الشام في ٥٤٠ بعد الميلاد، والتي لا ينبغي أن تشتبه علينا بسلوقية توأم طيسفون)، فإنه يبدو أن المدينة الواقعة إلى الغرب التي كانت من أصل يوناني، قد تقلصت. ولم يبق فعلاً منها سوى الجزء الجنوبي الذي أعيد تسميته بيه ـ أردشير، من طرف الساسانيين[٢٨]. ويطابق هذا الاسم الصيغة المعربة «بهرسير» المشتقة من الأرامية، وكان يصل جسر بين بهرسير والمدائن وقد مكّن الفرس من إخلاء مدينة بهرسير والاتجاه إلى الساحل الشرقي،

---

(٢٤) الطبري، ج ٣، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٢.

(٢٥) الطبري، ج ٤، ص ٥؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٢، حيث جاء في رواية غير مقبولة أن الحصار استمر مدة تتراوح بين تسعة أشهر وثمانية عشر شهراً. والملاحظ أن الملك كان بالمدائن آنذاك.

(٢٦) الطبري، ج ٤، ص ٨.

(٢٧) Le Strange، مرجع مذكور، ص ٣٣ وما بعدها؛ Streck، مادة «مدائن» في دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الأولى؛ Hertzfeld, **Archaeologische Reise**، ج ٢، ص ٤٦ ـ ٧٦. وأورد ياقوت في معجم البلدان، ج ٥، ص ٧٤، قائمة منقوصة لمختلف المدن، كما اورد اليعقوبي في كتاب البلدان، ص ٣٢١، قائمة لها.

(٢٨) (واه) حسب Streck و(بيه) حسب Le Strange، وهو لايعني أردشير الطيب بل بيت أردشير.

دون أن يتفطن العرب إلى ذلك. ثم إنهم حطموا الجسر وسحبوا كافة السفن فدخل العرب مدينة قفراء. وشاهدوا عن بعد القصر الأبيض لكسرى[٢٩]، وكان رمزاً خيالياً للعظمة والحضارة الفارسية. إنها للحظة مشهودة في خضمّ مغامرة خاطفة. ولا ريب أن الفرس فكروا في الاستفادة من مهلة ما، في المدائن الشرقية، حتى يرتبوا أمورهم، ويضمنوا إجلاء منظماً للعائلات والكنوز الملكية الهائلة. فوجه يزدجرد أهل بيته إلى حلوان بعد أن تم الاستيلاء على بهرسير[٣٠]. لكن العرب عجلوا باحتلال المدائن، بصورة لم يكن يتوقعها الفرس، وقصروا الإقامة في بهرسير، فاتجه العمل العسكري بأكمله عند ذلك إلى السباق نحو الغنيمة إذ وجب اللحاق بها قبل أن تطير.

وتم عبور دجلة عبوراً ملحمياً على الخيل[٣١]. توجه في البدء عاصم بن عمرو عاجلاً في الطليعة مع ٦٠٠ رجل منهم ٦٠ مقاتلاً خرجوا للاستكشاف فنجحت العملية، وفرض عاصم رقابته على ضفة النهر بعد الفراغ من مناوشات صغيرة وسريعاً ما لحق به أكثر الجيش بأمر من سعد الذي كان حاضراً بنفسه. إنها لمفخرة بالنسبة لاولئك العرب الصحراويين أن يتخلصوا من خوفهم من الماء، ويتحدوا عظمة دجلة وزبدها وموجها الأجاج، ولم يفت سيفاً طبعاً أن يفاخر «بيوم الماء»[٣٢]، لكن الواقعة وردت في أكثر الأخبار. بعد الوقعة وفي هذه المرة أيضاً تشتت السكان، وفر الملك وكان لفراره طابع الفاجعة، ودخل الجيش العربي مدينة قفراء واقتحم القصر الأبيض والأيوان بعد استسلام المدافعين، وأقام سعد صلاة الفتح في الإيوان بين التصاوير الحائطية

---

(٢٩) الطبري، ج ٤، ص ٨. لا ينبغي أن يشتبه القصر الأبيض بالديوان، لكن كلاهما كانا على الساحل الشرقي.

(٣٠) الطبري، ج ٤، ص ١٣.

(٣١) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٩؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣؛ الأخبار الطوال، للدينوري، ص ١٢٦.

(٣٢) الطبري، ج ٤، ص ١٣.

والتماثيل[٣٣].

وبعد قرنين من ذلك جاء البحتري متأملاً منشداً شعره أمام الإيوان، فأهدى الدولة المنقرضة درة من درر الشعر العربي[٣٤]. واستولى الفاتحون على الغنيمة التي كانت تعادل نصف أموال الملك المقدرة بثلاثة مليارات من الدراهم[٣٥]. وكانت هذه الذخائر ثمرة لتقليد طويل مقام على خزن المال زاد تأكداً مع السياسة الخرقاء التي سار عليها أبرويز. وقد سلمت أربعة أخماس الغنيمة إلى الرجال وتجاوز نصيب الفرسان مرتين أو ثلاث مرات نصيب المشاة (الحمراء المتحالفين فقط أم أن هناك مشاة من العرب؟)[٣٦]. ووجه الخمس المتبقي إلى المدينة بعد أن أجاز سعد بعض القادة. ووافق المقاتلون على عدم اقتسام كسوة الملك وجواهره، وبساط كبير مرصّع بالأحجار الثمينة، وقرروا توجيه كل هذا إلى الخليفة[٣٧]. وقد روى سيف حكايات شيقة بهذا الصدد فقال مثلاً أن الغالبين العرب ظنوا الكافور ملحاً، واستبدلوا بالتساوي الآنية الفضية بالآنية الذهبية[٣٨]. أما بالمدينة وحول عمر فقد تواجد الوجوم والعبث، والانبهار الكبير والتذكير بزيف الدنيا.

سيتبين أن الاستيلاء على المدائن كان يكتسب أهمية قصوى من حيث منطق الفتح العربي ومن حيث التنظيم الآتي للبلدان المفتوحة. واستقر بها العرب بصورة مؤقتة[٣٩]، فصارت نقطة تعتمد لتحديد البلاد التي فتحها جيش العراق

(٣٣) الطبري، ج ٤، ص ١٦: وأقيمت بعد صلاة سعد المفردة أول صلاة جامعة في العراق، والتاريخ المحدد هو صفر من سنة ١٦ هـ.

(٣٤) في ٢٩٠ هـ. راجع قصيدته المشهورة التي تضمنتها مقدمة ديوان الحماسة للبحتري، ط القاهرة، ١٩٢٩، ص س إلى ف.

(٣٥) الطبري، ج ٤، ص ١١.

(٣٦) الطبري، ج ٤، ص ٢٠، زعم سيف أن عدد الفاتحين كان ٦٠.٠٠٠ وأكد أنهم كانوا جميعاً من الفرسان وأن نصيب كل واحد منهم كان ١٢.٠٠٠ درهم.

(٣٧) الطبري، ج ٤، ص ٢٠ - ٢١.

(٣٨) المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٧؛ **الأخبار الطوال**، ص ١٢٧؛ **فتوح البلدان**، ص ٢٦٣.

(٣٩) الطبري ج ٤، ص ٢٠ - ٢١، قسمت دور المدائن بين الفاتحين بعد أن استولوا على الغنيمة كلها التي كانت موجودة بها.

عملاً بالمبدأ القائل أن لكل جيش مجالاً ترابياً يصبح ملكاً له ومن حقه ومكسبه. فكان مهما أن يعرف من كان حاضراً في تلك الفترة الممتازة التي كانت خلالها المدائن مرحلة، ذلك أن مثل هذا الحضور كان يعادل حقاً مكتسباً في الفيء بمعناه الأكثر اتساعاً، أي الغنيمة لكن أيضاً كل محصول قار في المستقبل. ومن المدائن تحدد كذلك الفضاء الذي سَتَمْنَحُهُ الكوفة فيما بعد، بصفتها وريثة للمدائن بالذات. وبهذا المعنى ينبغي فهم قول سيف: «فتوح المدائن السواد وحلوان وماسبذان وقرقيسيا»[٤٠] وهذا القول الآخر: «ولي سعد بن مالك على الكوفة بعدما اختطت ثلاث سنين ونصفاً سوى ما كان بالمدائن قبلها، وعمالته ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسياء إلى البصرة»[٤١]. هذا وسنعود إلى طرق مشكل امتداد فتوحات أهل المدائن وقد أصبح أكثرهم من أهل الكوفة[٤٢]، لكن ينبغي التأكيد على دور الاستيلاء على المدائن والإقامة فيها كعقدة فضائية ـ زمنية في النسق العربي، ومرحلة لزمنية تاريخية تندرج في تسلسل معين لكنها تفرض مسبقاً وجود فضاء وحقوق.

جلولاء (١٦ هـ / ٣٧ م): المعركة الأخيرة من أجل العراق.

كان الاستيلاء على المدائن بلا قتال. أما جلولاء فهي معركة هامة، وتكاد تكون حدثاً تاريخياً في المشروع العربي الموجه ضد الساسانيين، ومعركة أخيرة. لا شك في أن الغنيمة كانت أحد الحوافز بالنسبة لبعض الفاتحين، فقد اكتسبت وقعة جلولاء مظهر الملاحقة وحتى مايشبه السباق من أجل الملاحقة. لكن كان الأمر بالنسبة للفرس يتعلق بالدفاع عن أملاكهم وحماية العبور إلى الجبال، وإلا فلا يفهم الغرض من اعتصامهم بهذا المكان قبل لجوئهم إلى النجد الإيراني. كان

(٤٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٩.
(٤١) الطبري، ج ٤، ص ٥٠.
(٤٢) الطبري، ج ٣، ص ٦١٥.

معسكر جلولاء يشكل نقطة قصوى لتجمع الفرس قبل كارثة تشتتهم الذي نجم عنه خضوع بلدهم[٤٣] .

كانت جلولاء بالفعل آخر مدينة بالسهل في اتجاه الجبال[٤٤]. وكانت مفترقاً لطرق الشمال والشرق، الطرق المؤدية إلى آذربيجان وطريق الجبال فخراسان[٤٥] فاكتسبت بذلك أهمية الحاجز والحصن، من هنا تجمُّعُ الفرس واسراعُ العرب الكبير للتحول إلى هذه النقطة. من هم هؤلاء الفرس الذين اعتصموا في جلولاء، بقيادة مهران أو خرزاد؟ كانوا عبارة عن النواة الأخيرة المتبقية من جيش القادسية والذي سبق أن تخلت عنها فصائل فضلت الانسحاب إلى النجد الإيراني، وروي أن أمداداً قادمة من حلوان وما والاها التحقت بها أيضاً[٤٦]. لقد أجلي الأهالي إلى خانقين، بينما حط الملك رحاله بحلوان[٤٧] التي كانت أول ممرّ جبلي بالجبال[٤٨]، وكانت تقع تماماً بالتراب الإيراني لا بالعراق كما قيل، ولذا يحدونا الشعور الجلي أن الفرس عمدوا إلى اختيار موقع جلولاء ليكون العراق مسرحاً لآخر معاركهم في سبيل العراق كما لحماية الولوج إلى التراب القومي : كانت جلولاء أهم من المدائن من حيث الأهمية الاستراتيجية.

ولم يخطىء العرب في تقديرهم ولذا وجهوا هاشم بن عتبة نائب القائد العام رفقة ١٢٠٠٠ فارس شكلوا نخبة المقاتلين، ونحن نستشف هذا الأمر في رواية الأحداث بل أن الروايات تؤكد ذلك تأكيداً[٤٩]. وخرج إلى القتال قادة من

---

(٤٣) الطبري، ج ٤، ص ٢٤ ٣٥؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٤ - ٢٦٥؛ الأخبار الطوال، ص ١٢٧ - ١٢٩؛ خليفة بن خياط، التاريخ، ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٤٤) Le Strange، ص ٦٢.

(٤٥) الطبري، ج ٤، ص ٢٤.

(٤٦) فتوح البلدان، ص ٢٦٤؛ الأخبار الطوال، ص ١٢٧؛ الطبري، ج ٤، ص ٢٧.

(٤٧) الأخبار الطوال، ص ١٢٧، فتوح البلدان، ص ٢٦٤.

(٤٨) على الطريق الكبرى لخراسان: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٧٠ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٦٤؛ Le Strange، ص ٦٣.

(٤٩) الطبري، ج ٤، ص ٢٤ و ص ٢٦ : كان القعقاع يقود الطليعة؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤.

طراز جرير بن عبدالله البجلي والقعقاع بن عمرو، وقد تولوا القيادات في حين أن زعماء الردة لم يقوموا إلا بالمساهمة في القتال. لقد ظهرت معركة جلولاء في نظر العرب بمظهر المعركة الجدية التي كانت موفقة مسبقاً ، نظراً للموقف العسكري العام ، وهو ما يفسر ان سعدا لم يخرج باكثر الجيش من المدائن ، فوجه جيشاً مهماً لا كل الجيش .على أنه يمكن القول أن ثمة مجموعة شاركت في القتال بغية العمل من أجل كسب حقوق معنوية لاحقة ، لأن الحضور بجلولاء اعتبر مخولاً للفيء بمعناه الضيق (التمتع بالأراضي المغتصبة من أملاك التاج الفارسي) ، ولأن الغنيمة المتكدسة كانت عظيمة .

لا فائدة من الإلحاح على العملية العسكرية وتفصيلها. لم تكن جلولاء محصنة أصلاً: فوجب تحصين المعسكر وإحاطته بالوسائل المتاحة لكون الفرس سلكوا حتماً مسلكاً دفاعياً. فلم يتمكنوا من الصمود طويلاً، وحاولوا الهجوم، فكانت الهجمة الأخيرة هي التي شكلت معركة جلولاء بالذات: كانت معركة حامية إذا ما صدقنا سيفاً الذي عاد إلى وصفه الملحمي جاعلاً من جلولاء استعادة للقادسية إلى حد ما[٥٠]: كان كيتاني محقاً عندما أشار إلى مبالغاته في هذا الصدد. ثم بدأ تقتيل الفرس، واستولى العرب على غنيمة هامة وحتى على بيت المال الساساني ذاته[٥١]، وقد ألحت بعض الروايات على سبي النساء، وروي أن نساء جلولاء كُنّ بداية للتمازج العربي الفارسي[٥٢]. ويفهم من التأكيد على هذا الحدث بأن الفرس كانوا دائماً يعملون على إبعاد نسائهم عن أطماع الغزاة، ويبدو أن أكثر النساء أبعدن عاجلاً إلى خانقين التي تم الاستيلاء عليها بعد قليل. أنه ينبغي تسمية مجموع العمليات التي جدت فيما بين معركة المدائن والاستقرار بالكوفة بمرحلة جلولاء وهو اسم الحدث الرئيسي، وذلك بالنسبة للإطار المتعلق

(٥٠) الطبري، ج ٤، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٥١) الطبري، ج ٤، ص ٢٧ ؛ الدينوري، ص ١٢٩ ؛ فتوح البلدان، ص ٢٦٥ ؛ خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٠٨ . كانت الغنيمة هامة جداً.

(٥٢) الطبري، ج ٤، ص ٢٨ : سبيت أم الشعبي بجلولاء؛ الدينوري، ص ١٢٩ .

بالغنيمة، واستحقاقها، وبخصوص كل امتياز معنوي أو قانوني: هـذا ما تـوحي به النصوص ظاهراً.

ماذا كانت هذه العمليات؟ لنقـل بدايـة أن استيلاء جـرير عـلى خانقـين، وسيطرة هاشم على سواد شرقي دجلة هما حدثان لا مجال للشـك فيهما[٥٣]، عـلى أن احتلال حلوان وشرقي الجزيـرة يطرح مشكـلاً. أن البلاذري هـو الذي يـبرز نشوب معركة خانقـين[٥٤]، وقد أوضـح كذلـك بدقـة أكبر من دقـة سيف، دور هـاشم في إخضاع شرقي السـواد، وقـد كـان عمليـة استيـلاء أكـثر منـه عمليـة عسكرية. هذا السواد الشرقي كان له ذات الاتساع وسواد الفرات، وقد أثـر فيه كثيراً الحضور الساساني وذكريات هذا الحضور والإنجازات المعمارية الساسـانية، وهو يضاهي في الثراء الزراعي السواد الآخر. وقد أسر ١٣٠٠٠٠ من فلاحي هذه الجهة ثم أخلي سبيلهم سريعاً[٥٥] كما سنرى ذلك وبذلك عاد الفارون إلى قراهم.

أما حلوان، المدينة الفارسية، مدينة الجبال المشرفة على الفج والتي تمر منهـا الطريق الكبرى نحو الشرق، فقد غادرها الملك بعد وقعة جلولاء متـوغلاً داخـل البلاد. فهل استولى عليها القعقاع لكي يقيم فوراً ثغـراً أي حاميـة خارجيـة عن الميـدان المفتوح لكنهـا ساهـرة على أمنـه، والثغر عبـارة عن امتداد، وهـو بالمعنى الحرفي ثلمة (ينبغي سدها) وبمثـابة المـدينة الحـدودية المـطلة على العـدوّ والمغايـرة للمصر أو المـدينـة. المعسكـر إن سيفـاً يعلن ذلـك[٥٦]، كـما أن المصلحـة الاستراتيجية تتطلب مثل هـذا الأمر، ولم ينبس البـلاذري بكلمة عن ذلـك لكنه يتحدث عن وجود وال عربي بحلوان في موضع آخر من كتابه[٥٧].

---

(٥٣) الطبري، ج ٤، ص ٢٨.

(٥٤) فتوح البلدان، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٥٥) الطبري، ج ٤، ص ٣٠.

(٥٦) الطبري، ج ٤، ص ٢٨.

(٥٧) فتوح البلدان، ص ٣٢٩: المقصود بالذات هو عزرة بن قيس البجلي.

وعلى النقيض من ذلك، تنسب روايات ملحة إلى عمر رفضه رفضاً تاماً المساس بالقطر الفارسي، معبراً عن عزمه على الاكتفاء بالسواد[٥٨]. ويبدو جيداً، فضلاً عن ذلك، أن المقاومة الفارسية هدأت وسبب ذلك قد يرجع إلى أن الفرس حصلوا على تطمينات من جانب العرب بالتوقف عند حدود العراق. لكن حلوان كانت توجد في إيران. فهل أفهمهم العرب، وهل فهم الفرس أن ذلك الأمر يشكل استثناء يعود إلى موقع حلوان وفائدتها في حماية العراق من وجهة نظر العرب؟ فالدينوري يقدّم وجود العرب بحلوان والأهواز على أنه السبب في الرد الفارسي الذي مهّد لتحرك الهرمزان كما لمعركة نهاوند[٥٩]، لكن العمليات العربية في الأهواز لم تبدأ إلا سنة ١٧ هـ. وهي تنتهي سنة ٢١/٦٤٢ بالاستيلاء على تستر. أم هل وضع الجيش العربي يده على حلوان ضمن عمل منفصل متأخر بالنظر لمعركة جلولاء وربما بعد الاستقرار بالكوفة؟ يبقى السؤال بدون جواب.

وتتضح الأمور أكثر بخصوص شرقي الجزيرة لأن رواية سيف غير قابلة للتصديق. يريد سيف حملنا على أن نصدق أن الجيش العربي انقسم نصفين في المدائن، فاتجه قسم منه إلى جلولاء واتجه قسم آخر إلى شرقي الجزيرة، لا سيما الموصل التي وقع اقتحامها والاستيلاء عليها سنة ١٦ هـ[٦٠]. ويكون هذا القول في رأي هيل (Hill) بمثابة التعويض بالنسبة للكوفيين الذين بقوا في الواقع في حالة فراغ طيلة أربع سنوات و «لم يحاولوا فتح الجزيرة الشرقية في حال أنها جهة غير ممتنعة وفارغة من جيوش العدو»[٦١]. ذلك أن الجزيرة فتحت في جزئها الغربي خاصة الذي كان أكثر ثراء، انطلاقاً من الشام سنة ١٩ هـ. ولم يستول عتبة بن فرقد القادم من العراق، على الموصل وتكريت إلا سنة ٢٠ هـ، مع أن هرثمة بن عرفجة الذي كان أحد الشاميين الذين شاركوا في فتح الجزيرة صحبة عياض بن

(٥٨) الطبري، ج ٤، ص ٢٨.
(٥٩) الأخبار الطوال، ص ١٢٩.
(٦٠) الطبري، ج ٤، ص ٣٥ - ٣٦.
(٦١) مرجع مذكور، ص ٩٤ وص ٩٧.

غنم هو الذي تولى تخطيط الموصل[٦٢]. وستقع هذه المدينة في فلك الكوفة، لكن يمكن القطع بالقول أنه لم يقع اخضاعها أثر وقعة جلولاء. فلا يمكن إذن إدراج الموصل، وقرقيسيا، ومن باب أحرى ما سباذان ـ التي استولى عليها أبو موسى بعد نهاوند[٦٣] ـ ضمن فتوحات المدائن لسنة ١٦ هـ، خلافاً لمزاعم سيف. ولم يبق إلا حلوان التي تطرح علينا مشكلا. يعني كل هذا أن العرب ركزوا في جهودهم بعد وقعة القادسية على طرد الساسانيين فقط، وإخضاع وادي دجلة والفرات دون التقدم خلف ذلك الخط سواء في اتجاه الجزيرة أم في اتجاه الأرض الإيرانية. وتوارت الغاية العسكرية لفائدة قضايا التنظيم والاستقرار. إن اختيار الكوفة بالذات بدل المدائن كمركز للسكنى ينبىء بالرغبة في الوقوف عند حد المواقع المكتسبة.

تنظيم السواد:

لن يتم إنشاء الكوفة قبل نهاية سنة ١٧ هـ. وبداية سنة ١٨[٦٤]، أي بعد أربعة عشر شهراً من احتلال المدائن[٦٥]، وبعد سنة من انتصار جلولاء بحيث أن سنة ١٧ بقيت سنة استراحة وتفكير وتنظيم. لقد تحول عمر إلى الشام في سنة ١٧ هـ، لكي ينظم أوضاع المقاتلة[٦٦]، ويحل مشاكل الدفاع والاستقرار والاعطيات، لكن هل قام بذلك بالنسبة إلى كافة الأقطار المفتوحة بما فيها العراق، حين تحوله هذا؟ لا تؤيد النصوص ذلك بل هي تقول العكس، بمعنى

(٦٢) فتوح البلدان، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٦٣) فتوح البلدان، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٦٤) الطبري، ج ٤، ص ٤٢، قد اعتمد خبراً أورده الواقدي؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٤، Caetani، **Annali**، ج ٣، ص ٨١٣ - ٨٣٣، و **Chronografia Islamica**، الكراس الأول، ص ١٩٩. أرخ سيف انشاء الكوفة في بداية سنة ١٧، وهذا تاريخ غير مقبول: الطبري، ج ٤، ص ٤٠. ويبدو لنا أن آخر سنة ١٧ أكثر اقتراباً من المعقول من بداية سنة ١٨ وهو التاريخ الذي أخذ به Shaban **Islamic History,**، ص ٥١.

(٦٥) الطبري، ج ٤، ص ٤٢.

(٦٦) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٥٩. لم يتحول عمر إلا مرة واحدة في هذه السنة. بسبب انتشار الطاعون.

أنه تم فض المسائل المعلقة بالشام ولم يفض سواها[٦٧]. وعلى النقيض من ذلك يحثنا الوضع العام على الاعتقاد بأن التشاور المستمر بين عمر وسعد خلال عام ١٧، أدى إلى إعداد وضبط النظام الشامل الذي سيخضع له العراق[٦٨].

فبعد أن تبلور الوضع، تحول أكثر الجيش المعسكر بالمدائن إلى الكوفة المقبلة ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، لأن الاتجاه إلى اختيار اقرار الجيش بمعسكر ارتباط باختيارات مسبقة أخرى هي: عدم اقتسام البلاد المفتوحة بقوة السلاح، وابقاء الفلاحين على أراضيهم والتمادي في العمل بالهياكل الجبائية الساسانية، والعمل بفكرة تسديد نفقات المقاتلين بواسطة العطاء. كما أن الصلة واضحة بين هذه الاختيارات الأولى التي جدت في البلاد المفتوحة عملاً برأي عمر، والانشاء المركزي العام للديوان وقد أدرك سيف هذه الصلة لكن لا يمكن موافقته على تأريخ ذلك في سنة ١٥[٦٩]. وهو بهذا يناقض نفسه لأنه يعيد الكلام في الأمر بعد حرب جلولاء فيفصّل لنا أوامر عمر الجديدة ومقرراته بخصوص الفيء والجزية والخراج الخ... على أن أخباره ثمينة المحتوى. إن الروايات العراقية الأكثر قدماً وهي روايات مجالد والشعبي جاء بها تأريخ تأسيس الديوان بآخر سنة ١٧، أي بعد إنهاء فتح الشام والعراق، وبعد جباية محاصيل الخراج الأول[٧٠]؛ أما الروايات المدنية كما جاءت عند الواقدي والزهري، فقد اقترحت تأريخ محرم سنة ٢٠/٦٤٠[٧١]. الواقع أن هذا الخلاف يفسر كثيراً من الأمور. إن الديوان كسجلّ لتسجيل أسماء كل مستحقي العطاء، عملاً بالترتيب الذي تصوره عمر الذي انطلق من المغامرة الإسلامية بأكملها منذ وقعة بدر، وكوثيقة ضبطتها وحددتها الكتابة، والديوان كمؤسسة لنسق توزيعي عام، تقرر انشاؤه

---

(٦٧) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٦٤.
(٦٨) البلاذري ص ٢٦٦ - ٢٦٨، والطبري، ج ٤ ص ٣٠ - ٣٢.
(٦٩) الطبري، ج ٣، ص ٦١٦ - ٦١٩.
(٧٠) فتوح البلدان، ص ٤٣٥.
(٧١) المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

على الأرجح سنة ٢٠/ ٦٤٠، لكنه بهذه الصفة كان امتداداً معقلنا للاختيارات التجريبية التي جدت في البلدان المفتوحة فور الفراغ من القتال، أي في سنة ٦٣٨/١٧، بعد أن استقرت الأمور، بحيث وقع صعود من أسفل إلى أعلى، لا العكس، وهذا ما يفسر أن البلاذري قسم إلى فصلين متميزين التراتيب التي يخضع لها السواد ومؤسسة الديوان ذاتها(٧٢). وقد فعل ذلك كبار الفقهاء، منهم أبو يوسف(٧٣) وأبو عبيد بن سلّام(٧٤). فأصبح الديوان الكتابي عملاً منسجماً جاء بعد الوضع الناشيء عن القرارات الحية، وشمل بالخصوص النخبة الإسلامية بالمدينة وأقرها على رأس النسق. فما هي هذه الاختيارات الأساسية بالنسبة للعراق؟ يعتمد قسم من جملة المواد التي وصلتنا على الظروف التاريخية السائدة في ذلك العصر ـ نعني رواية سيف والاخباريين ـ ووقف قسم آخر موقف الفقهاء، فقدم الأمور تقديماً منطقياً إسلامياً. ولا يوجد أي سبب لرفض رواية دون أخرى إذ لو عمل عمر طبق تصميم سياسي قبل غيره، فلا يتصور كيف أنه فعل ذلك متجاهلاً تعاليم القرآن التي حددت أعمال الرسول.

ولنترك جانباً المدن القليلة التي تمتعت بعهد وكانت مدناً ثانوية تماماً، علماً أنها فسخت لا محالة هذا العهد، حين تراجع العرب مؤقتاً، فمنح العهد من جديد لبعض المدن. إن فتح العراق وقع عنوة على حساب سيد قديم ـ الملك الساساني ومن والاه ـ لكن أكثر الأشخاص العائشين في العراق كانوا غير إيرانيين، كانوا أنباطاً كما سموا في اللغة العربية وكانوا من الساميين الآراميين. وقد أرغموا منذ ألف سنة على البقاء في وضع الفلاحين يدفعون الطسق أو الخراج والجزية: كانوا من المزارعين والعمال الفلاحين، فشكلوا سوقة الأرياف

(٧٢) وضع جلولاء مباشرة ضمن الفصل المتعلق بفتح السواد، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٤، والديوان في آخر كتابه، ص ٤٣٥ ـ ٤٥١.

(٧٣) أبو يوسف، كتاب الخراج، على التوالي، من ص ٢٣ إلى ص ٣٩ ومن ص ٤٢ إلى ص ٤٧. ترتبط مؤسسة الديوان في هذا الصدد بفكرة العطاء لصحابة الرسول.

(٧٤) كتاب الأموال، طبعة القاهرة، ص ٥٧ وما بعدها و ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧.

الضخمة التي قدر عددها بـ ٥٥٠٠٠٠ شخص، إذا ما اعتبرنا تقدير عثمان بن حنيف الذي أحصاهم وختم عليهم كما روي[٧٥]. وبذلك تواجد في العراق صنفان من الأراضي: أراض كانت على ملك التاج وكبار الملاك الإيرانيين الذين حاربوا العرب، وأراض استقر بها أكثر الفلاحين في البلاد بإشراف الدهاقين. وقد استولى الجيش العربي على الصنفين، لأن عدداً كبيراً من الفلاحين فروا أمام تقدم هذا الجيش. وحسب السنن العربية للحرب فالأرض والرجال[٧٦] تعتبر غنيمة يقتسمها المقاتلة. وورد ذلك أيضاً في تعاليم القرآن الذي ينص على أن كل ما أخذ عنوة يعتبر غنيمة تسلم أربعة أخماسها إلى المقاتلة والخمس الباقي يسلم إلى الله ورسوله يعني إلى الخليفة[٧٧]. ويحدد القرآن **الفيء** كهبة من الله لم يكن من اللازم أن يحصل قتال من أجله ولذا فهو يعود كاملاً إلى الله ورسوله[٧٨]. ومن المعلوم أن النبي استولى على أموال بني نضير لمساعدة المهاجرين المعوزين إذ اعتبرها فيئاً[٧٩]. فحلُّ التقسيم كان يبدو حتمياً إذن في العراق لكن عمر خيّر عدم التقسيم. فثار نقاش كبير في المدينة حول هذا الموضوع: تمسك عبد الرحمن بن عوف وبلال خاصة شديد التمسك بمبدأ التقسيم، وعارضه عمر، وكان علي أول المؤيدين له، وكذلك طلحة، وعثمان، وعبدالله بن عمر، ومعاذ بن جبل[٨٠]. ولجأ الخليفة إلى تأويل اجتهد فيه شخصياً لإحدى آيات سورة الحشر تعلقت **بالفيء** فتعرضت لأوضاع المهاجرين والأنصار، وجاء بها بعد ذكر هؤلاء

(٧٥) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٠؛ يبدو أن سعداً لم يجد سوى ١٣٠,٠٠٠ وراء دجلة بعد جلولاء: الطبري، ج ٤، ص ٣٠.

(٧٦) الطبري، ج ٤، ص ٣٠. روى أن نصيب كل مقاتل كان ثلاثة رجال.

(٧٧) لا يميز القرآن بين الأموال المنقولة والعقارية، سورة **الأنفال**، الآية ٤١، بل عمر هو الذي ميز بينها.

(٧٨) سورة الحشر، الآية ٦ إلى ١٠.

(٧٩) **سيرة ابن هشام**، ط ١٢٧٦ هـ، ص ٦٥٢ وما بعدها، لكن كلمة فيء لها أيضاً معنى أعم يدل على الغنيمة.

(٨٠) دار النقاش أساساً بخصوص الشام، لكن أيضاً في شأن العراق: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٢٦، أبو عبيد بن سلام، **كتاب الأموال**، ص ٥٩ ـ ٦٠.

ما يلي: «والذين جاؤوا من بعدهم» فاعتبر عمر أن الآية تقصد الأجيال القادمة[٨١].

من المهم أن نلاحظ أنه انطلاقاً من فكرة الاستمرارية الزمنية للأجيال المسلمة، اعتبر عمر حسب ما ذكره الفقهاء الثروة العقارية في العراق، **فيئاً**. ومضمون ذلك ليس أن الدولة تتصرف فيه حسب مشيئتها، بمعنى أن تنزعها من المقاتلة، بل معناه أن على الدولة أن تقوم بدور الوساطة، وتبتكر حلاً وسطاً يجعل من الفيء ملكاً مشاعاً للمجتمع الإسلامي، فيشمل بداية وقبل كل شيء كل الذين قاتلوا من أجله. وبهذا المعنى يقع الفيء في الوسط، بين الغنيمة المتركبة من الأموال المنقولة والقابلة للتقسيم، والخاضعة لدفع الخمس إلى بيت المال[٨٢] وبين التصور القرآني للفيء الذي يوكله تماماً إلى مشيئة الرسول، فصار الفيء نوعاً من الوقف تتصرف فيه الدولة لمصلحة الجميع، الحضور منهم والغائبين[٨٣]. ووافق أفراد الجيش على ذلك بعد أن استشيروا على تصور الأمور هذا. وأفضل من ذلك: فيما يخص الأراضي الملحقة بالتاج الساساني والمحاربين الإيرانيين والمعروفة **بالصوافي**، لكن أيضاً **بالفيء** بمعنى أكثر تحديداً، كان يخول

---

(٨١) لكن مثل هذا التأويل الذي استهدف اقحام المهاجرين والأنصار والقادمين الجدد، بفيء بني نضير، تأويل غير صحيح بداهة لأن الأنصار وغيرهم أقصوا عنه: ذكرهم القرآن محرضاً إياهم على إخراج ما في قلوبهم من ضغينة بسبب استثنائهم بالذات من الفيء. يلاحظ بلاشار (Blachère)، **Coran**، ج ٣، ص ٩٧٩، أن الآية العاشرة لا ارتباط لها بالآية السابقة من الوجهة النحوية.

(٨٢) كان المسلمون الأوائل مشدودين إلى نموذج خيبر، الذي أكدته الآية ٤١ من سورة **الأنفال** حيث الغنيمة التي تشمل الأموال المنقولة والعقارية تقسم قسمين يأخذ منها المقاتلة $\frac{٤}{٥}$ ويسلم الخمس المتبقي إلى الرسول لتسديد الصدقات. عمل عمر بهذه القاعدة بالنظر للغنيمة المنقولة فحسب والقابلة للتقسيم والتخميس. ولم يطبق على الأرض مبدأ اقتطاع الخمس، لأنه لم يقع تقسيمها. فينبغي لذلك التفكير في مصدر أعطيات أهل المدينة المتأتية من المداخيل الشاملة لا من الخمس. وقد وجب على الفقهاء الذين اضطربوا في الأمر فعقلنوه بعدياً، أن يقبلوا بوجود خطين وسنتين، سنة الرسول وسنة عمر: ابن سلام، **كتاب الأموال**، ص ٦٠.

(٨٣) الطبري، ج ٣، ص ٦١٤ ـ ٦١٥، وص ٥٨٤ ـ ٥٨٥

لهم تقاسمها، لكنهم فضلوا نسق الشياع. وقد ذكر سيف أنهم فهموا أن تفرقهم في السواد قد يضرّ بالتأكيد بوظيفتهم الحربية كما بعزمهم على البقاء معاً[٨٤].

لنتمعن في الأمور عن كثب. عاد الفلاحون أصيلو المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة وكذلك فلاحو ما وراء دجلة، عادوا إلى أراضيهم بعد تبدد الرعب لا سيما أنهم شُجعوا على العودة. فنجوا بداية من العبودية حيث أن عودتهم قامت مقام العهد وبقوا على حالهم في استغلال الأرض[٨٥]. وكل الذين لجأوا إلى الفرس ولم يعودوا عن طيب خاطر، استُثنوا من إجراء التهدئة والادماج، فوقع اللحاق بهم أو ألقي عليهم القبض، وحتى في هذه الصورة فقد خير عمر المقاتلين بين أن ينتزعوا منهم أراضيهم أو أن يسترقوهم أو يعتقوهم ويعيدوا ادماجهم في النسق، ومن المحتمل أن الحل الأخير هو الذي تم لأكثرهم. أما الدهاقين الذين لا ينبغي أن يلتبس أمرهم بأمر أشراف الفرس من المقاتلين، فقد اعتنق كثير منهم الإسلام[٨٦]. ومهما كان الأمر، فإنهم سيتحملون دوراً كبيراً في التأطير ونقل الأوامر والوساطة الجبائية بين جماهير الفلاحين والسلطة العربية. لا فائدة في هذا المقام من الدخول في تفاصيل الجباية المسلطة على الأرض، والتي كانت في بداية الأمر موحدة (درهم وقفيز لكل وحدة مساحة

---

(٨٤) الطبري، ج ٤، ص ٣١؛ كان الجيش هو الذي بادر بالأمر.

(٨٥) الطبري، ج ٤، ص ٣٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٣٥ - ٣٦؛ ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٥٧. جعل عمر من أهالي السواد ذميين، لا عبيداً كما كان يتوقع أن تفرضه قوانين الحرب فأدى ذلك بالفقهاء إلى التذكير باستمرار بهذا القرار. ونفس التساؤل موجود بخصوص مبدأ العهد: هل حصلوا عليه أم لم يحصلوا عليه؟ منعه عنهم يحيى بن آدم، ولم يفعل ذلك الشعبي الذي أوضح أن العهد ضمني لأنهم قبلوا بدفع الخراج: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٦. لقد بقي الذين درسوا هذه المسائل في القرن الثاني رهن مقولات جامدة، فعاقهم ذلك عن اقحام التدابير التي اتخذها عمر ضمنها. الواقع أن اضفاء الطابع الاسلامي على المفاهيم ساهم مساهمة خفية في اعادة تصورات عربية مبكرة إلى النشاط: ومن الغريب أن بقي المستشرقون أيضاً رهن هذه الاشكالية اللاواقعية.

(٨٦) راجع بخصوص الدهاقين عامة المسعودي، مروج الذهب ج ٢، ص ٢٤١؛ و Christensen، **L'Iran sous les Sassanides**، ص ١٠٧؛ و Dennett، مرجع مذكور، ص ٣٢؛ وراجع حول اعتناقهم الاسلام، فتوح البلدان، ص ٢٦٥.

عـرفت بالجـريب)[87]، ثم اتجهت أكثر فـأكثر إلى التنـوّع ارتبـاطـاً بمحصـولات الأرض وبالقرب من مراكز التسويق، منذ خـلافة عمـر، مع استمـرار الأمر زمن عـلي، وأخيراً في خـلافة معـاوية الـذي استكمل العمـل التنظيمي الـذي حققـه عمر[88]. لكن ينبغي الاحتفاظ بعنصرين، أولهما أن المساحـة الخاضعـة للخراج كـانت تسـاوي ٣٦ مليـون جـريب دون شـك[89] وثـانيهـما أن مسـاحـة أراضي الصوافي لم تتجاوز ٧ ملايين جريب[90]. وقد وفق الضبط الأكبر للجهاز الجبـائي في التحصيل على دخل كان أقصـاه ١٠٠ مليون من الـدراهم من الفئة الأولى أي أراضي الخـراج. وخصص أكثر هـذا المقدار لتسـديد أعـطيات المقـاتلين المقيمين (يبـدو أنهم لم يقبضوا سـوى عطاء أو عطاءين في المـدائن، أي قبل الانتقـال إلى الكـوفة[91]، ولا شـك أن المبلغ المذكـور استخدم أيضـاً لسـد نفقـات التصرف والأشغال العامة. وأخيراً فإن بيت المال المركزي تغذى بمداخيل العراق أسـاسـاً، وأعـاد توزيـع جانب من المـال عـلى المستحقـين من النخبـة الإسـلاميـة المـدنيـة والمسجلين بالديوان، بدايـة من سنة ٢٠ هـ. وبـذلك نـدرك الدلالات المتعـددة التي تضمنها اختيار عمر. لم يتعلق الأمر بحماية زراعة مزدهرة فحسب بأن يحـافظ على هياكلهـا البشرية والجبـائية، ولا تجنب غليـان الأطماع وتـراتب الناس حسب ثرواتهم فقط، بصورة لا تتيح المراقبة، بل أضيف إلى ذلك فكرة مفادها أن الخيار العسكري العربي أمر دائم يوجب تحرير العـرب من الهمّ الاقتصادي،والاستعاضة

(٨٧) الجريب قياس مساحة يطابق انتاج أربعة أقفزة ويساوي ١٥٩٢ متراً مربعاً.

(٨٨) البـلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٨ ـ ٢٧١؛ أبـو يـوسف، كتـاب الخـراج، ص ٣٦ ـ ٣٨؛ Dennett **Conversion,**، ص ٢٤ ـ ٢٥: يـرى المؤلف أن فرض الضرائب تـدقّق بعـد سنـة ٢٢ هـ. أي في أواخر خلافة عمر، بمساعدة المغيرة بن شعبة، انـظر أيضاً: **Termination of Hostilities,** Hinds، ص ١١٣.

(٨٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٨.

(٩٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٢، كانت مجرد اشارة إلى أغلالها ٧ ملايين درهم. وبمـا أن أراضي الخراج في المـرحلة الأولى، وبموجب نمط الجبـاية المـوحدة، كـانت تدر ٣٦ مليـونـاً من الـدراهم فهـذا استنباط قريب من المعقول.

(٩١) الطبري، ج ٤، ص ٤٢: روى سيف أن المال وزع في محرم ١٧ هـ. بالمـدائن وتمّ توزيـع أولي في بهرسير سنة ١٦ هـ.

عن الاتجاهات الأقليمية التي يحتمل أن تنشأ عن الاستقرار الزراعي ، بمبدأ وحدة الأمة الإسلامية وتصامنها أيضاً. وتجسم الدولة هذا التضامن وتقوم مقام الوصي والمتصرف والمنظم والوسيط والموزع. فأسست من لدنها تراتيبها التوزيعية احتلت فيها النخبة الإسلامية بالمدينة مقام القمّة. وبذلك فإن فيء العراق لا يوزع على الرجال الذي افتتحوه عنوة فحسب، فقد أصبح المهاجرون والأنصار يستحقونه[92]، وكل الذين وفدوا على العراق، من العرب البدو أو الروادف[93]، وطبعاً الأجيال القادمة. وبذلك تكون الطريقة التي سنها عمر قد تميزت بتجاوز حدث الفتح البحت، والتوسيع تدريجياً في حلبة المساهمة ودعم سلطة الدولة التنظيمية. على أن الأمر يتعلق بتحويل فعلي لمكاسب العراقيين بصورة من الصور، يعني ذلك تبعية تتزايد باستمرار بطول المدة، تجاه السلطة المركزية.

وفيما يخص الفئة الثانية، أي أراضي **الصوافي**، كان لتدخل الدولة تأثير أقل شدة على الأقل في بداية الأمر. فقد مدد المقاتلة عن طيب خاطر في مبدأ الشياع[94] لكن ما كان مفروغاً منه هو ملكيتهم لهذه الأراضي بصورة جماعية **لا يشاركهم فيها أحد**. فانطبقت كلمة فيء سريعاً جداً، على الصوافي بصفة خاصة عند سيف بن عمر الذي ميز فضلاً عن ذلك بين **أهل العطاء وأهل الفيء**[95] .

---

(٩٢) استثني من ذلك أهل مكة، والبدو أيضاً، الذين لم يشاركوا في الفتوحات: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٤٤.

(٩٣) وعلى هذا توجد صلة مؤكدة بين الجهاد والعطاء. راجع الطبري، ج ٣، ص ٦١٤، بخصوص أعطيات الروادف، التي لم توزع قبل سنة ٢٠/٦٤٠. المهم أن يلاحظ أن قراء القرآن شكلوا فئة قائمة بذاتها، أجري عليهم العطاء بصفتهم تلك بالتساوي مع أهل القادسية وأهل الشام (٢٠٠٠ درهم): **فتوح البلدان**، ص ٤٤٢.

(٩٤) تلافياً للتشتت: الطبري، ج ٤، ص ٣٢.

(٩٥) الطبري، ج ٣، ص ٦١٥ - ٦١٦. وهكذا ازدوج معنى كلمة فيء، فهي تعني:
أ) أولاً كل الأموال المكتسبة عن طريق الحق الطبيعي للفتح، من أراضي الخراج أو الصوافي، مع اشتراك بقية المسلمين في قسط منها بفضل تدخل الدولة. وليس أهل العطاء جميعاً أهل الفيء، لكن العكس صحيح. ويعني ذلك تأكيد لا غير لحق معنوي. =

وبما أن هذه الأراضي كانت بالماضي ملكاً للمقاتلين الفرس فقد كان عسيراً حرمان المحاربين العرب الذين استولوا على السواد من التمتع بها. فلم يرد في هذا الباب ذكر الأجيال القادمة ولا الروادف أو الإنضمام إلى نسق الديوان على الأرجح، بل كان الحضور في ساحة الوغى هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار لا غير. فكل محارب شارك في القتال فيما بين مرحلة الأيام والاستيلاء على المدائن، له استحقاق في **الفيء ـ الصوافي** بسواد الفرات، وكان المقصود بالذات هو الجيش الذي حضر برمّته وقعة القادسية. لكن المقاتلين في جلولاء فقط، أي ١٢٠٠٠ رجل بقيادة هاشم بن عتبة، استحقوا دون الآخرين على ما يبدو، في ما وراء دجلة. يقول سيف[٩٦]: «وكان أحظى بفيء الأرض أهل جلولاء، استأثروا بفيء ما وراء النهروان وشاركوا الناس فيما قبل ذلك».

وهكذا تجعل الدائرة المضاعفة للامتيازات التضامن يربط بداية بين أهل القادسية ثم بين رجال جلولاء بالخصوص، الذين تحصلوا بذلك على الأكثر، دون التوقف عن المشاركة في الأقل. بقي أن نتعرف عليهم. لا شك أن بجيلة بقيادة جرير[٩٧]، وطليعة زهرة أيضاً، ورجال القعقاع، وفدا لتقديم المدد بالقادسية على رأس **أهل العراق** أصحاب خالد سابقاً، يعني المشاركين في **الأيام** لسنة ١٢. ومن المحتمل أنهم كانوا قليلي العدد نسبياً عند العودة من الشام إلى العراق[٩٨]. لكن لا ننس أيضاً بروز عناصر من الردة في معركة القادسية حيث

= ب) ينطبق الفيء في معناه الضيق أيضاً على الصوافي حيث يقع الحفاظ على حقوق المقاتلة بصورة أوضح.

(٩٦) الطبري، ج ٤، ص ٣١. معنى «فيء» الواضح في هذا الصدد هو أراضي الصوافي.

(٩٧) كان جرير في حلولاء وخانقين وحلوان، حسب بعض الأخبار: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٥٤ ـ ٢٦٥؛ Caetani, **Chronografia**، كراس ١، ص ٢١٧ و **Annali** ج ٤، ص ١٤٣ ـ ١٤٥. وصمتت رواية سيف كما أوردها الطبري، ج ٤، ص ٢٤ ـ ٢٩ عن جرير، في حين أبرزت دور القعقاع وهاشم الذين استعانا بجنود الحمراء الايرانيين الملتحقين بالصفوف العربية.

(٩٨) ارجع إلى ما سبق وانظر Shaban، مرجع مذكور، ص ٤٥، حيث طابق بين **أهل الأيام وأهل العراق**، أي رجال خالد لا غير (الأنصار والمهاجرون وبعض العشائر الصغرى الأخرى) مميزاً =

رويت أسماء قادتهم الرئيسيين كطليحة وعمرو بن معدى كرب خاصة . لا بد أن هؤلاء القواد شاركوا أيضاً في فيء جلولاء بصفتهم مالكين على الشياع . على أن التصرف أنيط بعهدة الأمراء، أي الماسكين لقيادة كهاشم، وخالد بن عرفطة، والقعقاع، وزهرة بن الحوية، وجرير بن عبد الله البجلي، فاستثني قادة الردة من التمتع فعلاً بهذا الأراضي[٩٩]. الحقيقة أن القادة الرئيسين وقع اختيارهم من أهل الأيام، لكن لم يكونوا منهم جميعاً دون شك، وبذلك يكون التعريف الذي اقترحه شعبان (Shaban) جريئاً نوعاً ما، ومفاده أن أهل الفيء هم أهل الأيام[١٠٠]. إن العهد إلى إطارات الجيش بالتصرف في أراضي الصوافي يعني أن امتيازاً مشطاً سلم إلى هذه النخبة الإسلامية التي أراد لها عمر أن تتميز عن العامة فأفردها بوضع متميز عن الرؤساء التقليديين، بداية من وقعة القادسية. وكما سنرى ذلك، فقد طرح هذا الإقصاء قضايا خطيرة[١٠١]. لكننا على جهل بالأهمية الحقيقية التي كان عليها التفويض الذي تمتع به الأمراء والكيفية التي بها

= إياهم عن بكر الذين حضروا هم أيضاً الأيام، ولعلهم تسموا بأهل البلاء. ويحتمل أن جيش خالد، الذي عاد جزء منه بعد مدة قصيرة، قد تلقب اعتباطاً بهذا اللقب وهو ما يفسر أن تأثير بكر قد تقهقر مباشرة. لكن مفهوم **الأيام** بالنسبة للديوان مثلاً ومن الوجهة الرسمية كان يشمل كل الذين حضروا قبل حرب القادسية، هذا ولا ريب أن رفقة خالد الذين كانوا يمثلون الجيش الاسلامي النظامي في بدايته، قاموا بدور ممتاز كبير بعد القادسية، واتخذوا مبادرات وأكدوا روح عصبية بينهم، كما دل على ذلك حضور القعقاع في مقدمة الساحة.

(٩٩) الطبري، ج ٤ ص ٣٢. جاء بجملة لسيف ما يؤكد أنه كان موجوداً ضمن حملة جلولاء التي كانت عملية «مُريحة قبل كل شيء» وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتدّ وممن لم يرتدّ»: المرجع نفسه، ص ٢٥. اذن وقعت هنا تنقية واختيار لفوائد محتملة. وبخصوص التصرف في هذه الأراضي، راجع Shaban، **Islamic History**، ص ٥٣، وقد جعل منها قضية قراء واعتبرهم خطأً هُمْ أهل الأيام، في حين أن الأمر يعني فئة خاصة تجاوزت الترتيب الزمني للمعارك، ذاكراً وضعية القعقاع ـ الذي كان أميراً ـ لا قارئاً ـ فكان مرجعه الوحيد.

(١٠٠) **Islamic History**، ص ٥٣.

(١٠١) وجدت الثورة على عثمان جذوراً لها في هذا الوضع، لكن المعوزين طالبوا قبل ذلك بالتقسيم بصفتهم مستحقين، لكن الأغلبية لم تكن لترضى به: الطبري ج ٤، ص ٣١ حيث يقول: «فكان بعض من يرق يسأل الولاة قسم ذلك فيمنعهم من ذلك الجمهور، أبوا ذلك، فانتهوا إلى رأيهم ولم يجيبوا». انظر أيضاً ج ٣، ص ٥٨٦.

استثمروا الأرض، وكيف وزعوا على عامة المستحقين المنـابات[١٠٢]. وأقصى مـا نعلم أن الكثيرين منهم استقروا في قلب السواد[١٠٣]، ونستشعر بـأنهم ربما قـاموا في أراضي الصـوافي بدور شبيـه بدور الـدهاقـين في أراضي الخـراج. تلك كـانت القواعد التي أجملناها والمتعلقة بالتنـظيم العربي الـذي ساد العـراق، وقد سبق أن وضعت خـلال مرحلة المـدائن. لكن من البداهـة كلها أنـه إذا كانت الخيـارات واضحة إذن واستخدمت كمخطط للمستقبل، فـلا بد أن الـترتيب الفعلي مـا زال يكتنفه الغموض. والأرجح أنه لم تتحـدد نسب العطاء الا عنـد إقامـة الديـوان؛ وكذا فإن إنشاء مؤسسات الإحصاء، وتوزيـع الأعطيـات، والتجنيد، لم يقـع الا بعد التحوّل إلى الكوفة.

---

(١٠٢) يمكن أن يكـون تقسيم المداخيـل متساوياً بين المـالكين عـلى الشياع في الكـوفة كما في البصرة (الطبري، ج ٤، ص ٧٥) بعد طرح الخمس لفائدة بيت المال.

(١٠٣) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٧٥.

الفصل الرابع

انشاء الكوفة (أواخر سنة ١٧ هـ / ٦٣٨م)

ما ينبغي تأكيده جيداً، أن عرب العراق رغم أنهم اندمجوا في نسق أكد التفوق الأبوي للدولة، فانهم تمتعوا فعلاً بأعظم جزء من مداخيل الولاية بفضل مؤسسة **العطاء**. ذلك أن بيت المال بالمدينة تغذّى أيضاً بموارد أخرى[١] وما يستخلص من آخر تحليل إن إعادة توزيع الأموال لفائدة الارستقراطية الإسلامية لم يشمل سوى قليل من الناس. ولا شك في قلة احتياجات الدولة وفي بساطتها في تلك الفترة، مما جعل ولاية العراق تتمتع بذاتية مالية محددة. وكانت هذه الذاتية شرطاً أولياً لتكوين مصر الكوفة. لعل كلمة مصر من أصل يمني، ولم تكن شائعة للتعبير عن إنشاء الكوفة (خلافاً لكلمة تخطيط التي تعني الاستيلاء على الأرض بعد تقسيمها)[٢]. ومن الممكن أن الكلمة شهدت تطوراً وأنّها رسخت في الاستعمال ارتباطاً بما أوحت به من واقع. كانت توحي في الأصل بفكرة الحدود والمعسكر الحدودي المتاخم لعالمين حيث يجري توزيع الفيء «دون الرجوع إلى الخليفة »[٣].

لا شيء في المصادر المتوفرة لدينا يدل على الأسباب المحتملة التي يمكننا عرضها بخصوص انتقال جيش المدائن إلى الكوفة المقبلة، كضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية والإصرار عليها، والصلات المتيسرة بالوطن الأم، والانفصال عن

(١) دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية، مادة «بيت المال».

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ ؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ؛ الطبري، ج ٤، ص ٤٠ وما بعدها؛ استعمل ياقوت كلمة تمصير: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٥٦، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٧٦.

السكان الخاضعين، والاستعداد العسكري. حقاً قد أشارت إحدى الروايتين اللتين ذكرهما البلاذري، وهي رواية مدنية (للواقدي)، أشارت جيداً إلى السبب الأصلي المتمثل في الأمر الذي صدع به عمر لسعد بأن يجد «دار هجرة» لا يفصلها البحر (بمعنى النهر) عن المدينة[٤] أي أن يبقى الإتصال الفضائي ببلاد العرب قائم الذات. لكن الإشارة إلى الأسباب المناخية كانت هي الواردة في كل الروايات الأخرى. ولنأخذ على ذلك مثل الطبري: تستند كافة الروايات الخمس المذكورة بخصوص الإنشاء، ومن بينها أربع روايات رواها سيف وخبر واحد رواه أبو عوانة، إلى مشكلة المناخ[٥]. ولم يزد البلاذري عن كونه حوّل المكان الذي انطلق منه المشكل لمناخي، فلم يحدده في المدائن بل في المواقع المختارة مؤقتاً بالانبار وسوق حكمه[٦].

لا بد أن المشكل كان واقعاً. إذ بعد أربعة عشر شهراً من الإقامة في المدائن تخللتها عمليات جلولاء وحلوان وسواد دجلة. ظهرت علامات التعب على العرب فلم يتكيفوا بالمناخ واعتبروه مضراً بصحتهم، ومتعفناً، ووخيماً[٧]. وكانت الحشرات تنهال على الجمال فتضجرها. فصار واضحاً أن موقع طيسفون المائي لم يناسبهم. كان موقعاً غطته القنوات، فكان ندياً بالرّغم مما امتازت به مثل هذه المدينة المشيدة المنظمة من الميزات. وقد صار مؤكداً أن ضرورة التكيف بالمحيط الطبيعي لا مناص منها في كافة المواقع التي استقر بها العرب. فأدى ذلك إلى اختيار الفسطاط بدل الإسكندرية، والقيروان بدل قرطاجة. تلك كانت الضرورة الطبيعية التي أملت على العرب اختيار موضع الكوفة على مشارف الصحراء دون شك فأثر ذلك الاختيار بدوره على الخيارات القادمة، وسن سنة. لكن اختيار الموضع أملته أيضاً خيارات سياسية واستراتيجية وثقافية على رأيي.

(٤) فتوح البلدان، البلاذري، ص ٢٧٤.
(٥) التاريخ، ج ٤، ص ٤٠ وما بعدها.
(٦) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ و٢٧٥؛ الطبري، ج ٤، ص ٤١.
(٧) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٠.

لقد كان لتعليمات عمر دور جوهري في هذا الاختيار، وهو الذي ينسب إليه هذا القول: «إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل[٨]». فهل كان قوله هذا تعبيراً عن تصور رعوي للوجود العربي في العراق وكامتداد لوجودهم في بلاد العرب، وكيف تفسر أن المقاتلين العرب في المدائن وجلولاء قد اصطحبوا ابلهم؟ تثير هذه العبارة مشكلاً متشعباً هو: استقرار العرب، وتراكب الأنماط الحياتية السابق منها واللاحق، وآثار الحياة الرعوية أو الإرادة العنيدة في المحافظة على نمط العرب الحضاري، رغم أنهم كانوا محمولين على تقمص دور آخر هو دور المجموعة الإمبراطورية المقاتلة المقامة على توزيع المال المقتطع من الأهالي الأصليين. وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع.

والملاحظ على كلّ أن الإبل كانت حاضرة، سواء اعتبرنا هذا الحضور بقية من بقايا الماضي أم لا. ولا يستبعد أنه أثر على قرار الانتقال إلى منطقة تفتح على البادية لأسباب نفسية أكثر منها اقتصادية، كان التكيف بالموقع أكثرها بداهة، ذلك أن العرب لا يتكيفون بمكان إلا إذا تكيفت به مواشيهم. فكان موقعاً بين البر[٩]ـ عالم السباسب والصحراء ـ والريف ـ عالم البادية المزروعة، المنظمة، غير العربية، الخاضعة «للبحر»، بمعنى أن له وضعية الحدود فيسمح بمراقبة السواد دون أن ينفصل عن بلاد العرب. وتذكر المصادر أن ارتياد الأراضي شمل الفرات على امتداده، وقد قام بالعملية سلمان وحذيفة بن اليمان كل واحد منهما لحسابه سلمان من جهته وحذيفة[١٠] من جهته، ذلك أن مواضع كثيرة قد تستجيب للشروط المقررة مسبقاً، وذكرت المصادر مراراً اسم الأنبار وهي الحاضرة التي أنشأها سابور[١١]. وقد مر بها سلمان دون أن يتوقف، وهذا ما ذكره سيف.

---

(٨) الطبري، ج ٤، نقلاً عن خبر لأبي عوانة، و ص ٤٢ عن رواية لسيف.

(٩) الطبري، ج ٤، ص ٤٢.

(١٠) الطبري، ج ٤، ص ٤١.

(١١) Le Strange **The Lands of the Eastern Caliphate,** ص ٦٦؛ ياقوت، ج ١، ص ٢٥٧.

وأقام سعد بها مدة، كما قال الواقدي، وبها تململ الجيش من كثرة الذباب[١٢]. الواقع أن الأنبار كانت تتمتع بموقع استراتيجي طيب: كان مدينة حدودية. فضلاً عن وقوعها بمدخل أو طريق مائية بين الفرات ودجلة. وقد أعد فيها السفاح بعد ذلك مقر إقامته. إلا أنها كانت حاضرة تقع فيما وراء الفرات، بعيداً إلى الشمال في ظن المخططين، وكانت مدينة قائمة الذات بمعنى أنها كانت مجمدة الهياكل، في حين أن همة العرب تعلقت بالجديد، أي أن رغبتهم أن يشكلوا فضاء على حسب مزاجهم، لا أن يسكنوا إطاراً مبنياً طبق مقاييس حضارية مغايرة. ويحتمل أنهم لم يريدوا حتى إنشاء مدينة ما خلال المرحلة التي وقفوا عندها. بل أن همّهم كان إقامة معسكر مفتوح، كما جاء بتوصية منسوبة إلى عمر[١٣]. حتى انهم مالوا إلى اختيار أرض عراء بدل اختيار الأنبار، أو سوق حكمه وحتى الحيرة. كانت الحيرة شديدة التوغل في البادية ولم يكن قربها من الفرات والسواد كافياً[١٤]، لكنها كانت تقع بالخصوص تحت وطأة الماضي الذي أرادت العروبة الجديدة الانفصال عنه. ومع هذا فلا بد أن قربها قد لعب دوراً في الاستقرار بموقع الكوفة، وقد ورد خبر فريد لكنه هام مذكراً بتدخل لبني بقيلة الذين أسدوا النصح لسعد حتى يختار موضع الكوفة[١٥].

تتحدث المصادر عن ذلك وكأنه اكتشاف. لكن سبق للعرب معرفة هذه

---

(١٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٤.

(١٣) «العسكر أجد لحربكم»: الطبي، ج ٤، ص ٤٣.

(١٤) لم يتأكد لدينا هل أن الحيرة كانت تقع إلى الجنوب الغربي من الكوفة المنتظرة، على طريق القادسية، أو إلى الغرب تماماً، من جهة النجف الحالي، وقد تضاربت المصادر في هذا الموضوع، وسادها الغموض. حدد اليعقوبي، فتوح البلدان، ص ٣٠٩، موقعها على طريق النجف، وحدده ياقوت «على بعد ثلاثة أميال من الكوفة في مكان يقال له النجف»: ج ٢، ص ٣٢٨. راجع أيضاً الجنابي، ص ١٩٧، وما بعدها، وصالح العلي، «منطقة الحيرة» في مجلة كلية الآداب، بغداد عدد ٢٥، ١٩٦٢، ص ١٧ ـ ٤٤. انظر كذلك: **The Shaping of ‘Abbasid Rule,** Lassner، Princeton، ص ١٤٣ ـ ١٥١، الذي يميل إلى الاعتقاد بأن الحيرة هي مجموعة قصور ومواضع مشتتة ممتدة أكثر مما هي مدينة مجمّعة.

(١٥) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

المنطقة فضلاً عن أنها وافقت التصور الذي أراده عمر وفرضه . كانت منطقة مأنوسة لديهم نظراً لما شنوه من غارات على الحيرة وضواحيها في البداية ثم لأن معركة البويب دارت بها ، وقريباً منها دارت وقعة القادسية ، لقد طرق العرب باب العراق من هذا المكان ، ومن هنا كان الممر الذي يسّر تسربهم . وما يمكن استخلاصه أن أيسر خط للمرور بين بلاد العرب والعراق كان يمر من هذا المكان ، وكذلك الأمر بخصوص عبور الفرات الأوسط وبلاد بابل كافة . إن موقع الكوفة يمثّل نقطة اتصال كما نقطة التقاء بين عالمين وهو ينفتح على الأمداد العربية القادمة من الصحراء ، ويشرف على السواد مع كونه متأخراً عنه . تلك كانت وضعية الكوفة ، وبما أن العرب فضلوا تجميع الأمة ووقفوا ضد الانبثاث في السواد ، فقد كان منطقياً نسبياً تحديد هذا الموقع المهمش الحدودي الخارج عن المركز ، مع أنه كان موقع اتصال . وهم سيقومون بحركة معاكسة في اتجاه الشرق ، بغرض إنشاء واسط أولاً ، ثم بغداد ، لكن بعد أن استوثقوا تماماً من الفضاء العراقي ومما يليه من بلاد فارس .

لقد فعلت الظروف المناخية فعلها بخصوص انتقال الجيش ، فوجب على موقع الكوفة أن يكون صحياً . كانت الكوفة تقع بالمكان الذي يدلع البر لسانه(١٦) في الريف المروى ، في موضع متقدم من البرّ إذن ، على سطح يقع فوق شاطىء الفيضان للفرع الرئيسي للفرات في ذلك العصر ، على ارتفاع يناهز ٢٢ متراً من مستوى البحر(١٧) . ويرتفع الموضع فوق النجاف غرباً ، الذي كان بمثابة الحوض المالح ، وقد كان أصلِه محل نظر عند الجغرافيين العرب(١٨) ، وكذلك فوق البطائح جنوباً التي كانت تمتد حتى البصرة(١٩) ، وهذه البطائح عبارة عن

---

(١٦) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٢ ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٢١٨ ، Massignon ، «شرح تخطيط الكوفة» ، في **Opera Minora** ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

(١٧) الجنابي ، ص ٣٢ .

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(١٩) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص ٩٤ ، الذي يجعل البطائح تبدأ من كسكر لا من جنوب الكوفة كما يرى ذلك لي سترانج Le Strange .

مساحة غارقة في الماء حيث ينبت القصب والحلفاء. وأرض الكوفة مزيج من الحصباء والرمل الأحمر، فأما مصدر الحصباء فهو الرسوبات النهرية وأما الرمل الأحمر فهو متأتّ من الغرب، كما يدل اسمه على ذلك (سهلة) لأن مسجد السهلة الذي استكشفته الآثار كان يقع بالضبط إلى الشمال الغربي من المصر. وبقدر ما نقترب من النهر في المنطقة الغربية دائماً، بقدر ما تكون الأرض متركبة من غرينات طينية وهي التي تحدّد الملطاط[٢٠].

إن جودة موضع الكوفة، وهواءها النقي ومواردها المائية الطيبة، كل ذلك كالت له كتب الأدب المديح، لا سيما من خلال ذكرها للمجالس التي تواجه فيها الكوفيون والبصريون، وقد اعترف البصريون على الدوام بعيوب مدينتهم[٢١]. وفوق كل ذلك، إنّ ما يجعل هذا الموضع مكتسباً قيمة استثنائية بالنسبة للسكن البشري، كونه محاطاً من كل جانب بمناظر جغرافية تختلف شديد الاختلاف: الصحراء والنهر والبطائح والبحيرة المالحة، دون التأثر بمساوئها. وفي إمكان هذه الصلة الممتازة بين الصحراء والأرض الزراعية المستقرة المائية أن تنشيء نوعاً من التكامل ينبغي التعمق والتمعن فيه. لكن لعل الأمر نفسه يتعلق أيضا بحل تلفيقي وسط مستحيل أو أنه دليل على التردد في الاختيار والقرار.

إن تربة الكوفة لم تكن معدة للزراعة بل للاستقرار البشري. فاستقر العرب بها، ولم يجدوا سوى ثلاثة أديرة فصلت بينها مساحات القصب، هي دير حرقة ودير أم عمرو، ودير سلسلة. كانت هذه الأديرة شاهداً على استقرار

---

(٢٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٢، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٧، من رأي سيف أن اللسان هو ظهر الكوفة، أي حدها الغربي المعلى وهو يمتد في جهة الفرات بالملطاط، وفي جهة الطين بالنجاف. فنجد من الغرب إلى الشرق: النجاف، واللسان ذاته، والملطاط. وتابعه Massignon عن كثب، واضعاً الملطاط على حافة النهر: مرجع مذكور، ص ٤٧. ولكن عبارة سيف غامضة. أما البلاذري فقد حدد موقع الملطاط بين الكوفة والحيرة، وجاراه صالح العلي في ذلك: مرجع مذكور، ص ٢٥.

(٢١) ابن الفقيه، ص ١٦٤، ياقوت، ج ٤ ص ٤٩٢.

المسيحية العربية التي أشعت انطلاقاً من الحيرة(٢٢). وعلى هذه المواضع الهادئة أقيم في أواخر ١٧ هـ/٦٣٨ تجمُّع هائل من القبائل العربية والعشائر وأنصاف القبائل، أتى البعض منها من البعيد النائي والبعض الآخر من أقل بعداً، فجعلوا منها مكاناً سامياً للتاريخ المضطرب ورحماً أساسياً للحضارة والثقافة الإسلامية قاطبة.

---

(٢٢) الطبري، ج ٤، ص ٤١؛ لم يذكر الشابشتي أي دير منها في الديارات، ولا ياقوت، لكنهما أشارا معاً إلى وجود دير الحريق، بالحيرة: الديارات، ص ٢٣٠، ومعجم البلدان، ج ٢، ص ٥٠٥.

الباب الثاني

المخطط المدني الأول



الفصل الخامس

تشابك المشاكل

أشرنا لحد الآن إلى التقلبات التي طرأت على نشأة الكوفة وإلى الأسس التنظيمية التي ستعيش عليها. لكن، ألا يتجاوز الفتح العربي للعراق مصير الكوفة، إذا ما شرعنا في دراسة هذا المصر في خصوصيته وفي وجوده الهش كمدينة؟ لا شك أن المأثرة العسكرية التي دامت خمس سنوات والتي انطلق منها العرب فخرجوا من الحجاز ونجد واليمن إلى طيسفون، إن هذه المأثرة أعطت أكلها فكانت الكوفة وكانت البصرة أيضاً. وكان من المحتمل أن يؤول الأمر إلى خيار آخر، مثلاً إلى انبثاث في السواد، ريفي الطابع. لكن لا مناص من الاعتقاد أن فكرة الهجرة هي التي هيمنت على فتح العراق، بصورة أوضح مما كان عليه الأمر بالشام، وأن الاستقرار بالكوفة كان الغاية والمحرك للعمل العسكري. كان العرب يهدفون إلى احتلال مكان الفرس بصورة محسوسة، أكثر مما كانوا يهدفون إلى تحطيم الامبراطورية الفارسية في العراق، بوازع القوة[1]. واجتمع في الكوفة أكثر المقاتلة، فبدت وكأنها نتيجة تمخضت عن الفتح إلى حد بعيد، ذلك أن التسلسل من الفتح إلى الكوفة أقرب إلى الإدراك الفوري مما عليه في البصرة. بقي أن نطرح المشكل الذي ألمحنا إليه سابقاً، والمتعلق باختيار النموذج المديني كـ نمط للاستقرار بالعراق، أي في الكوفة كما في البصرة. كان

---

(١) راجع أعلاه ص ٣٠ وما بعدها، سمى العرب الفرس «الأسد» وسموا البيزنطيين «الأسيد». روى الطبري هذه الكلمة مشوهة، ونجت من التشويه عند ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤٥٢.

اختيـاراً كبير النتـائج لتحكمـه في بنية الحضـارة العربيـة الإسلاميـة المرتقبـة وفي التوسعية العربية كـما في الأسلوب المضطرب الـذي به عـاشت الكوفـة. ذلك أن مفهوم المصر ينطبق بداية عـلى مركـز ذي اتجاه عسكـري حدودي[٢]، لكنـه يعني أيضاً وبصورة لا تقل قيمة، إقامة دائمة للسكن قابلة للتطور إلى مدنية[٣].

ارتبطت الكوفة في نشأتها ونشوئها بالعمل العسكري، متحملة اياه كهدفها طيلة قرن. لم تكن حاضرة ـ امبراطوريـة، بل كـانت إحدى الحـواضر الجوهـرية لامبراطورية ارضية شاسعة في حالـة تكون، وقـد ساهم رجـالها كبـير المساهمـة في خلقهـا والمحافـظة عليها، وتـوسيعها. صـارت الكوفـة جزءاً من الجهـاز العـربي لاحتلال ومراقبة المشرق كافة أي العالم الساساني، موجهة قـدرتها العسكـرية إلى التراب الإيراني الـذي كـان أفقاً للفتـح انفتح إلى مـا لا نهاية. ومـع هذا، كـان الطابع المدني للسكنى، والتعايش المنظم العائـلي والعشائـري والقبلي، قـائماً منـذ البداية. لم يكن الجيش المقيم في الكوفة مقيماً على شكـل حاميـة كما هـو الشأن في مستعمرة خارجية، كما في المـاه أو الثغور تـدقيقاً[٤]. بـل استقر في وطنـه الجديـد دون إبداء نية في العـودة. وبذا دلت كلمتـا مصر ومصّر منذ البـداية عـلى الكيان

---

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ١٧٥.

(٣) المعنى واضح عند البلاذري، فتوح البلدان، فهو يصف ما يـطرأ من تحول من الحـامية إلى المـدينة حيث يصير لها جامع: مثلاً ص ٣٢٨ بخصوص الحديثة بالموصـل. وتعني كلمة «مصر» معسكـراً في الحميرية: راجع بحثنا عن «اليمنية بالكوفة في القـرن الأول الهجري»، ضمن مجلة **JESHO** عدد ١٩، ج ٢، ص ١٧٧. أمـا عند ابن خلدون، فـالمصر هو الحـاضرة بالضبط: مقـدمـة ابن خلدون، طبعـة بيروت ١٩٦١، ص ٦٣٦ وغـيرها حيث استخـدم الكلمة دون تمييـز مـع كلمـة مدينة. راجع أيضاً مقال Wensinck في دائرة المعارف الاسلاميـة، الطبعـة الأولى، والصفحات التي كتبها صالح العلي في كتابه التنظيمات الاجتـماعية والاقتصـادية في البصرة. . . ، ص ١٣ ومـا بعدها.

(٤) قبل دخول العرب التراب الايراني، يبدو أن ثغور الكوفة كانت الموصل، وما سابـاذان، وحلوان، وقـرقيسيا: الـطبري، ج ٤، ص ٣٧ ـ ٤٢؛ ثم الري وقـزوين بعد ذلـك: الطبري، ج ٤، ص ١٤٩ وما بعدها. أما عن مسألة الماهين الاثنين، التي سأعود إليها، فليراجع الطبري، ج ٤، ص ١٦١. انـظر أيضاً البـلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٤، ٣٢٥.

المديني، سواء على الصعيد البشري أم على الصعيد الهندسي المعماري حتى أننا نجد ابن خلدون يستعمل ذلك باستمرار في فترة متأخرة، تسمية للظاهرة المدينية في نقاوتها المطلقة، وفي أشد معارضتها للحياة البدوية(٥).

تخطئة بعض التصورات . قضايا حقيقية وقضايا خاطئة .

المفارقة أن الكوفة وهي المصر المثالي، كانت مصراً للبدو في أول الأمر. إذ لا يمكن أن يسحب من قبائل كقبيلة أسد وتميم وكندة، وهي التي استقرت بكثرة في الكوفة، السمة المزدوجة للبداوة العربية، أي التنظيم العشائري والقبلي الذي استبقي في الكوفة، ثم ماضي الترحل والظعون. لكن الأمر يرتبط تدقيقاً بماض معين، مهما كان قريباً. أما عن الظاهرة القبلية، فقد أطرها بقوة التنظيم الحكومي والعسكري والجبائي. فلم ترتبط بالترحل وما كان أحاط به من تيه ونهب. هنا في هذا الزمن والفضاء، بقيت القبائل مستقرة منضبطة متحضرة بصورة متزايدة، مع المحافظة على صلات وجدانية ببلاد العرب، ورغم أن نمط العيش السابق استمر يؤثر على السلوكيات والذهنيات. والأهم من ذلك أن الاستقرار كان له من السرعة والتوفيق ما جعل الترحل يظهر جلياً وكأنه كان ضرورة بالنظر للماضي وواقعاً حتمياً، أكثر مما كان وجوداً محبوباً مع أنه كان محبوباً بصورة من الصور. أما عن الكوفة، والبصرة أيضاً، فلا شيء أغرب لا محالة عن واقع الأمور من الفكرة الشائعة التي تقول بهجرة فوضوية وفدت منقضة على بلاد الرافدين(٦). إن مقابلة ومعارضة ابن خلدون بين المصر والإنسان البدوي في منحى التنافر بينهما، قد تكون وجيهة في فترات متأخرة، في الكوفة بالذات وفي غيرها، لكن هذه الظاهرة لم تجدّ قطعاً في المدة التي تكون خلالها هذا المصر

---

(٥) مقدمة ابن خلدون، مرجع مذكور، ص ٦٤٩ ـ ٦٥٠.

(٦) توجد أخطاء فادحة جداً في تقدير ظاهرة الفتح العربي، مثلاً عند **Les Fondements géographiques de l'Histoire de l'Islam,** Xavier de Planhol (باريس ١٩٦٨)، ص ٣٥ ـ ٣٧.

وازدهر. هذا إشكال خاطىء ينبغي احباطه. وتوجد إشكالات أخرى أكثر دقة، منها أشكال الاستقرار مثلاً. لقد اعتبره ماسينيون (Massignon)(٧)، وريشارد بوليات Richard Bulliet(٨) أيضاً، تجربة حاسمة في الكوفة التي كانت لديها نموذجاً جديراً بأن يبدي الرأي فيه المخططون المعماريون المعاصرون، وعرض كل منها تفسيراً لهذا النجاح العظيم الذي بلغته عملية الاستقرار. وقد عزاها (ماسينيون) إلى الدور الدافع الذي لعبه اليمنيون المتحضرون من قديم(٩)، وعزاها (بوليات) إلى فقدان الفاصل بين ظاهرة الترحل وظاهرة الاستقرار في ماضي الشرق قبل ظهور الإسلام، وتمادي هذا التناضح في الكوفة والبصرة. ينبغي أن تؤخذ وجهات النظر هذه بعين الاعتبار قطعاً، وهي تُردّ دون وعي على الأشكالية القديمة وتتقمصها، حتى لو قصدت دحضها (بوليات). الواقع أنه يمكن التساؤل فيما إذا كان لفظ الإستقرار هو اللفظ الصالح فعلاً في هذا الصدد. ولعل الأولى أن نقول إنها كانت عملة تمدينية جدت في ظروف خاصة، اثر دعوة دينية وضمن نشوء دولة إمبراطورية،وبعد الفتح. إن العنصر الايرادي كامن دائماً، ولاسيما عنصر التأطير. قد يكون لمفهوم الاستقرار معنى أنفذ، لو استقر العرب المهاجرون في السواد بصفة الفلاحين، استقراراً عفوياً ضمن إطار اقتصادي مدمج منسجم تقريباً، أي في ظروف تاريخية لم تعرف الانقلاب الهائل الذي أقامه

---

(٧) تحدث ماسينيون عن ذلك، في بحثه الأساسي عن الكوفة: «شرح تخطيط الكوفة»، المنشور في بداية **Mélanges Maspéro**، ج ٣، ص ٣٣٧ - ٣٦٠، ثم أعيد نشره في **Opera minora**، ج ٣، ص ٣٦ - ٦٢، فلاحظ من أول وهلة أن رغبته من وراء هذا العمل هو أن يُستخدم «للدراسة التاريخية للاسلام في العراق خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، وأيضاً للدراسة الاجتماعية لاقرار البدو، وكانت الكوفة أنشط مركز في فجر الاسلام، لهذه الظاهرة الاجتماعية الرئيسية في تكون الحضارة الاسلامية لذلك العصر، وهي ظاهرة رئيسية في عصرنا أيضاً، حيث رجعت على نطاق واسع، لمستقبل العروبة».

(٨) في بحث غير منشور زاخر بالأفكار، عنوانه **Nomadic Sedentarization in the Seventh Century** وتخصص للكوفة والبصرة، عرضت أفكاره الرئيسية في كتابه: **The Camel**.

(٩) «شرح تخطيط الكوفة»، **Opera minora** ص ٤١. راجع نقدنا لاراء ماسينيون في هذه النقطة بالذات، ضمن بحثنا، «اليمنية بالكوفة»، **JESHO**، ص ١٧٥.

الإسلام. ان التغيير، بطابعه المحير، يكمن في التدرب على التعايش بين قبائل كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى منذ أقدم العصور، أكثر مما كان ترسيخاً سكنياً لأناس اعتادوا من قبل التنقل الترحلي، كما أنه يكمن في امتلاك جديد للروح الحضرية، والخضوع لدونة فوقية موحّدة. ولم يتسرب لا محالة أي شيء من المصادر، تسرباً صريحاً، فيما يخص الطريقة التي بها تم الاستقرار. وبلوغاً لذلك، ينبغي أن نعود إلى طرح القضية ضمن منظور يخالف كل المخالفة منظور الجغرافيا الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية. وما يلفت النظر أن النصوص القليلة المتاحة والخاصة بالكوفة وتشييدها من الداخل، تجر الباحث كلما تعمق في المطالعة إلى الاقتناع بأن الأمور تمت من أول وهلة، وأن الكوفة حصلت على خاصيات المصر الأساسية منذ أول انطلاقه لها وفي مدة قصيرة، المصر أي مكان للإقامة الدائمة، متملك لنواة معمارية ومنظم، ومن البديهي أنه يجب إعادة النظر في مراحل تطور الكوفة منذ خطواتها الأولى.

سبق لنا أن جلّينا مظهر الكوفة، وسنحاول التدقيق فيه، وهو في الحقيقة يتحدى التصورات المعهودة. نحن نترقب مثلاً أن تعود بقوة إلى السطح مسألة العلائق القائمة بين المدينة والريف. الواقع أن الكوفة كانت مرتبطة في آن بالسواد، ومنه تستمدّ عيشها وقاعدتها المادية ـ كنقطة لامتصاص الفيء، كما يقول ماسينيون[10]، ومرتبطة ببلاد العرب حيث تستمد جوهرها البشري والثقافي. الا أن نشاطها ارتبط بالأحرى بالأفق الإيراني الذي اتجهت إليه بطاقتها كاملة[11]. ولذا يظهر السواد عبر المصادر بمظهر الإطار الجغرافي، و«البستان» في

(١٠) بحث مذكور، **Opera minora**، ج ٣، ص ٣٩.

(١١) الطبري، ج ٤، ص ١٢٢ وما بعدها، ص ١٤٩ ما بعدها وما قبلها، ج ٦، ص ٣٤ وما بعدها؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٠٢ وما بعدها، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥؛ ابن رسته: **الأعلاق النفيسة**، B.G.A.، ص ١٦٦؛ Hill **Termination of Hostilities**، ص ١٣٨ وما بعدها، ص ١٥٢ و١٥٣؛ Shaban **The Abbasid Revolution**، كمبردج، ١٩٧٠، ص ١٦ وما بعدها.

نظر أهل الكوفة، تمثلاً بعبارة معروفة[١٢]، أكثر منه فضاء اندمج في الحاضرة أو غزاها. المؤكد أن المبادلات البشرية جدت وزادت قوة بمرور الزمن، لكن يتبين أن الانفصال كان أقوى من التناضح. هذا ولا يمكن الحديث عن عراق عربي جديد في القرن الأول الهجري تحتل فيه الكوفة والبصرة موقع العاصمتين السياسيتين. بل على النقيض من ذلك مثلت هاتان النقطتان البؤرتان العراقين[١٣] العربيين، واستنفدتا فكرة العراق العربي، فما كان يوجد خارجهما شي سوى سواد البصرة والكوفة أي ميدانهما أكثر مما هو ترابهما[١٤]. وقد اقتطع بعض الأفراد من أرستقراطية الاشراف قطائع[١٥] وأقاموا بها من حين لآخر، ومنهم المختار[١٦]. لكن الحياة الزراعية استمرت على ما كانت عليه في الماضي، مع قيام الدهاقين بمهمة الجباية، وكانوا يعودون بالنظر إلى دواوين الدولة. لقد كان الرجل العادي في الكوفة يشعر بوزن السواد شعوراً سلبياً فقط، عندما تنقص مداخيل الخراج باستحواز جماعات الخوارج على الأموال[١٧]. ويعني هذا

---

(١٢) نسبت هذه الكلمة إلى سعيد بن العاص دلالة على السواد كـ «بستان قريش»، مما أدى بقسم من أهل الكوفة إلى معاداته فعلاً: البلاذري، **أنساب الأشراف**، طبعة القدس ١٩٣٦، ج ٥، ص ٤٠؛ ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان**، B.G.A.، ج ٥، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(١٣) العراقان كلمة شاعت في كل مكان في العصر الوسيط ولا صلة لها بما طرأ من تمييز لاحقاً بين (العراق العربي) (والعراق الأعجمي = الجبال) راجع: Le Strnage، **The Lands of Eastern Caliphate**، ص ١٨٥، بخصوص هذه النقطة الخطيرة.

(١٤) وهو ما كان يفرض مسبقاً لا تملك الأرض فقط، بل رباطاً مادياً بواسطة الشغل، وحضوراً، وتنقلاً بين المدينة والحقل. على أن الشعور بالتملك كان الأقوى.

(١٥) سنعود إلى مسألة القطائع التي وزعت في خلافة عمر، وفي خلافة عثمان بصورة أوسع: Massignon **بحث مذكور**، ص ٤٨، حسين الزبيدي، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة**، بغداد، ١٩٧٠، ص ١٤٥ ـ ١٤٦. لكن من المهم التذكير بوجود انبثاث عربي بالسواد منذ القرن الأول مع تقوية الظاهرة في القرنين الثاني والثالث. انظر بهذا الصدد عبد العزيز الدوري: «الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب» في **القومية العربية والاسلام** من منشورات معهد دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨١، ص ٦١ ـ ٩٠ وبالخصوص ص ٧٠ ـ ٧٤.

(١٦) كان يملك قرية كاملة وضيعة ضخمة في خطرنيه: **أنساب الاشراف**، ج ٥، ص ٢١٤.

(١٧) هو «كسر الخراج»: راجع الطبري، ج ٦، ص ٢٥٨ بالخصوص، حيث يحرض الحجاج أهل =

أن العلاقة بين المدينة والريف لا تسترعي هنا الانتباه كثيراً ولا تبرز للعيان وأنها أكثر تشعباً مما هي عليه في وضع المجتمع المنسجم غير المتأثر بظروف الهيمنة العسكرية والعرقية، أو في صورة الحاضرة المستقلة التي لا تعيش الا اعتماداً على ترابها. ومن المفارقات أنه بقدر ما يقوي الرباط الحميم الذي يربط بين الكوفة والسواد، بقدر ما يتضاءل شعورهم بهذا الرباط. وبدون أن تكون العلاقة بين الحاضرة وريفها مفقودة، فهي تكتسي صبغة ثانوية في هذا المجال، كأن الكوفة قد اقتلعت عن الأرض للنهوض بمشاريع يغطّي رهانها مجال الإسلام كله. لم تكن الكوفة مدينة زراعية كما أنها لم تكن مدينة تجارية أيضاً. وهذا منظور آخر ينبغي تفنيده أو تقويمه: وهو يتمثل في فكرة ما للدور التجاري من أهمية ضرورية لتفسير الازدهار الذي تبلغه حاضرة من الحواضر. وهي تتحول إلى فكرة فاتنة شديدة الجاذبية إذا تعلق الأمر بمدينة إسلامية. إذ منذ أن أبرزت أهمية اللغة التجارية في القرآن، مروراً بالتاريخ القوافلي لمكة، دون إغفال الاتجاه التجاري الأولي للرسول، إلى أن أوضحت خطوط الاتصال الكبرى في العالم الإسلامي بصورة أكثر تفصيلية، ووزنه النقدي في العصر الكلاسيكي (٦٥٠-١٠٥٠)، كما تيارات المبادلات العظيمة التي اخترقت مجال الإسلام(١٨). لم ينفك التقليد

الكوفة على «أن يقاتلوا عن بلادهم وفيئهم»؛ راجع أيضاً الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص ٢٦٩ - ٢٨٠؛ خليفة بن خياط، **التاريخ**، ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٧٨، Wellhausen **Die religios -politischen Oppositions parteien im alten Islam,** نقله إلى العربية عبد الرحمن بدوي، طبعة جديدة بالكويت، ١٩٧٣، ص ٦٠ - ٩٨. وقد لاحظ صالح العلي، بعد أن ذكر ابن خرداذبه، أن خراج العراق انخفض في ولاية الحجاج، إلى ٢٤ مليون درهم بعد أن كان ١٢٠ مليون درهم، اعتباراً للانكسار الحاصل، يعني الاغتصاب الذي جد بسبب الخوارج: راجع **التنظيمات**، ص ١٣٥.

(١٨) ابن خرداذبه، **المسالك**، ص ١٥١ وما بعدها؛ عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي**، بغداد، ١٩٤٨، Lopez et Raymond **Medieval Trade In The World Mediterranean,** نيويورك، ١٩٦١؛ Goitein **A Mediterranean Society,** Berkeley, 1967؛ Lombard, **L'Islam dans sa première grandeur** باريس، ١٩٧١؛ **Espaces et Réseaux du Haut Moyen Age**، باريس، ١٩٧٢؛ وأعمال Massingon و Claude Cahen من بعده، معروفة بما يكفي.

التاريخي الحديث يفرض أخذ الظاهرة التجارية بعين الإعتبار، عند القيام بأية دراسة تاريخية للمدينة، الا أن الكوفة، وكذلك البصرة، لم تنشأ من احتياجات التجارة التي لم تكن محركاً لتطورها. وفي حين أن البصرة ـ التي ازدهر دورها التجاري كما عرفناه، في القرن التاسع[19] ـ تمكنت لا محالة من النشوء مجدداً من العدم، نظراً لموقعها الطيب، كان المركز الديني بالنجف العنصر الوحيد الذي خلفته الكوفة حين قضي عليها إلى الأبد. لقد تمكنت التجارة من إنقاذ البصرة إلى حد ما. وبما أن التجارة كانت ضعيفة بالكوفة، فإنه لم يتح لها مثل هذا الإنقاذ. وبعد، فقد ظهرت التجارة هنا وهناك منذ البداية[20]، وقامت بوظائفها الأساسية في تغذية الحاضرة وهي الحاضرة لمتخمة بالعُملة[21]، لكن هذه التجارة تمت انطلاقاً من المال الموجود والعمران القائم.

لم تنشأ تصورات شعبية خاصة بالكوفة، لها نفس ثراء التصورات التي نشأت بخصوص البصرة وبغداد اللتين كثيراً ما ورد ذكرهما في كتاب ألف ليلة وليلة مثلاً. حقاً وجدت رؤية شيعية كارثية، وقد حللها ماسينيون[22]، كما وجد تصور ثقافي ما زال حياً متعلق بالارث النحوي[23]، الا أن ايقاع أطوار حياة هذه

(١٩) صالح أحمد العلي، التنظيمات، ص ٢٣٣ ـ ٢٦٣؛ Lombard, **L'Islam...**، ص ١٤٢ من الطبعة الجديدة.

(٢٠) الزبيدي، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري**، بغداد، ١٩٧٠، ص ١٤٩ ـ ١٧٨.

(٢١) كان محصول الخراج في خلافة عمر ١٠٠ مليون درهم: **فتوح البلدان**، ص ٢٧٠؛ أما عن عصر زياد، فيراجع أنساب الاشراف، قسم ٤، ج ١، ص ٢١٩، والأرقام الخاصة بالكوفة فحسب؛ والصولي، أدب الكتّاب، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٢٢٠.

(٢٢) مرجع مذكور، ص ٥٤؛ البراقي، **تاريخ الكوفة**، ص ٧٠ وما بعدها، يعرض وصفاً غريباً لنهاية الزمان بالكوفة والعلامات البارزة المرافقة لذلك، وهي عبارة عن تنبؤات توحي بالكوارث.

(٢٣) **الفهرست**، تحقيق Flügel، ص ٦٤ ـ ٧٧؛ ياقوت، **معجم الأدباء**، ج ٥ ص ١٠٦ ـ ١١٥. لقد اعتمدت كافة التآليف الكلاسيكية في الأدب والطبقات، المقارنة بين الكوفة والبصرة في مجال النحو الذي ارتبط كثيراً بفقه اللغة، لاسيما ابن الأنباري. أما عن المُحْدَثين فيراجع جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، القاهرة، ١٩٢٤، ج ٢، ص ١٧٩ ـ ١٨٩؛ وأحمد أمين، =

الحاضرة بقي هزيلاً في المخيال الإسلامي. وبذلك تفرض نفسها صورة الحاضرة الإسلامية المتأخرة، الحاضرة المختنقة في أزقتها الضيقة، المسحوقة بتشعبها الفوضوي، المأهولة بالسكان والمتلونة[٢٤]، وإذا كانت ظهرت فكرة «المدينة»[٢٥] بظهور العصر العباسي ـ التي نفترضها متراصة ـ وكذا فكرة الربض المحيط، يبقى أن الكوفة تميزت بخاصيات المدينة المفتوحة الهندسية الواسعة المهواة وهي الخاصيات الموجودة حين كان نشاطها السياسي والعسكري على أشده (١٧-١٣٢/٦٣٨-٧٤٩). والموجودة مجدداً في آخر مراحل حياتها[٢٦]. ولذا وجب في استقرائنا للمدينة الإسلامية من الجيل الأول أن نمعن النظر باتجاه الماضي القريب (العربي ذاتياً، والماضي الفارسي[٢٧] والهلنستي[٢٨])،أكثر مما بالاتجاه إلى المستقبل أي نحو الجهاز الكلاسيكي، وقد أصبح هذا الجهاز يتماثل مع طول الزمن وإلى حدّ، كبير بنمط المدينة العراقية القديمة[٢٩].

= ضحى الاسلام؛ و Brockelmann **Geschichte...,**، الملحق، ج ١، ص ١٧٧ وما بعدها؛ وخصّ المخزومي المدرسة النحوية بالكوفة بدراسة جدية عنوانها: **مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو**، بغداد، ١٩٥٥.

(٢٤) انظر فيما يلي ص ٢٠٨

(٢٥) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج ١، ص ٧١، ٧٤، ٧٦؛ الطبري، ج ٨، ص ٥٦١.

(٢٦) ابن جبير، **الرحلة**، بيروت ١٩٥٩، ص ١٨٧ وما بعدها؛ ابن بطوطة، الرحلة، بيروت ١٩٦٠، ص ٢١٩ وما بعدها. وهناك معلومات عند المقدسي في **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ١١٧.

(٢٧) انظر فيما يلي، ص ٢٤٣ ـ ٢٦١.

(٢٨) انظر فيما يلي، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٣.

(٢٩) **Town Planning, Review,** «Town - Planning in Ancient Mesopatamia», H. Frankfort، عدد ٢١، ٢ (يوليه ١٩٥٠)؛ **Excavations at Ur; A Record of Twelve Years Work,** Sir Leonard, Wooley، لندن ١٩٥٤؛ وكذلك، **History of Mankind**، ج ١، ص ٧١٤ ـ ٤٢٩؛ راجع كذلك: **La Mésopotamie,** Leo Oppenheim، باريس ١٩٧٠، ص ٨٨ ـ ١٥٥؛ وقد ذهبت Marguerite Rutten في كتابها **Babylone**، باريس ١٩٤٨، بعيداً جداً في المقارنة بين المدينة الاسلامية في العهد الوسيط والمدينة البابلية: ص ٥١ ـ ٥٥. راجع أيضاً:
Saeculum, «Die orientalische Stadt.....» E Wirth ٢٦ (١٩٧٥)، ص ٥٤ـ٩٤ ونقدنا له ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

لا شك أن شخصية حاضرة ما ولا سيما اختياراتها الإيديولوجية تؤثر في بنية فضائها وأكثر من ذلك في رؤية هذا الفضاء، وقد أجاد ماسينيون عرض التصور الشيعي اللاحق (القرن الرابع هـ/العاشر م.) للكوفة[٣٠]. لكن تصور المدينة الشيعية المتميزة بطابعها الفارسي وذات الخصوصية الكبيرة، لا يطابق في الجملة واقع القرن الأول والثاني من الهجرة، حيث شاركت الكوفة بقسطها في التاريخ العربي الصميم وفي صميم مشاكل الامبراطورية. فكانت مسرحاً لأعظم الحركات على اختلافها وكانت نقطة تجذر فيها الفاتحون العرب الأوائل، وبوتقة لأسلمتهم.

عند ذلك تبرز على صعيد الجغرافيا التاريخية أربعة خطوط للبحث: قضية مدينية تهّم تنظيم الفضاء الداخلي، وقضية تعمير واستيطان، وقضية محيط، وأخيراً قضية وظائف الكوفة.

ومن الواضح أن هذه المستويات تتشابك فيما بينها، فيكون الفصل بينها مفتعلاً.

إن تاريخ الكوفة غطته فعلاً كتابات كثيرة[٣١]. كتب ماسينيون بحثاً ثرياً جاء طابعه تبوغرافيا أصلاً، وهو كذلك دون شك، لكن الأمر يكون متيسراً بصورة غير لائقة لو استرجعنا هذا البحث على علاته وتوسعنا فيه لا غير، كما فعل الجنابي[٣٢]. أما التعمير فإنه يفترض دراسة علاقاته بالفضاء وضبطا لقائمة

---

(٣٠) مرجع مذكور، ص ٥٢، ٥٤؛ راجع أيضاً بشأن مفهوم المسجد المبارك، والمسجد الملعون: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٧٣، وخاصة البراقي، التاريخ، ص ٤٤ وما بعدها.

(٣١) باستثناء الدراسة المعروفة لماسينيون المنقولة نقلاً سيئاً إلى العربية، ينبغي ذكر كتاب الجنابي وعنوانه **تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية**، بغداد ١٩٦٧، ١٩٧ صفحة ورسوم وخرائط كثيرة. وقد اهتم صالح العلي بمنطقة الكوفة: سومر عدد ١٩، ١٩٦٥، ص ٢٢٩ ـ ٢٥٢، ومجلة كلية الآداب، عدد ٥، ١٩٦٢، ص ١٧ ـ ٤٤. وهناك أعمال أخرى كثيرة عن الحياة الاقتصادية والثقافية: راجع بحثنا، مادة الكوفة، دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية.

(٣٢) امتاز عمل الجنابي باستعراض نتائج الحفريات الأثرية التي تمت في القصر وحواليه.

القبائل، وهو يطرح مشكلاً سكنياً، مشكـل التواجـد الإنساني ومشكـل العلائق بالتنظيم العسكري الجبائي. وفي المقام الثالث يستدعي المحيط التفكير فيه بالنظر للمواصلات والاقتصاد والإطار الطبيعي وأسماء المواضع المشكّلة لدائرة الكـوفة، والحركة المزدوجة التي تدفع الكوفة نحو السواد ونحـو بلاد العـرب على السـواء. وأخيراً فإن قضية وظائف الكوفة العسكرية والسيـاسية والإداريـة تثير من جـديد القضايا السابقة لكنهـا تتشكل أسـاساً حـول الروابط بـالعالم الإيـراني. هذا وإن عائق التحديد الزمني كما العائق التوثيقي قائم الذات حيثما كان[٣٣].

الإطار الزمني

شيدت مدينة الكوفة على مراحل فعلاً وأكثر المراحل بداهة بعد تحليل أولي هـي: خـلافـة عـمـر (١٧-٢٣/٦٣٨-٦٤٣) وولايـة زيـاد (٥٠-٥٣/ ٦٧٠-٦٧٢) ـ وكـانتـا فـترتـين رئيسيتـين ـ وولايـة خـالـد القسري (١٠٥ ـ ١٢٠ / ٧٢٣ ـ ٧٣٧)، والعصـر العبـاسي الأول (١٣٢ـ ١٩٧ / ٧٤٩ ـ ٨١٣)، والعصـر العبـاسي الثـاني وهي فتـرة ممتـدة عـلى زمنيـة شاسعة (١٩٧-٣٣٤/٨١٣-٩٤٥). توحي دراسة المصادر المكتوبة بهذا التقسيم الزمني مؤيدة تماماً بما توصل إليه علم الآثـار من نتائـج، فالحفـريات الجـدية التي جـرت في القصر[٣٤] أتـاحـت بلوغ مستـوى أولي، ومستـوى أمـوي (يمتـد عـلى

(٣٣) المصادر مشتتة وجزئية. أما بخصوص مصادر تاريخ الكوفة فيقع الرجوع بنفع كبير، فضـلاً عن بحث ماسينيون المذكور آنفاً، إلى دراسة صالح العلي: «مصادر دراسة تاريخ الكوفـة في القرون الاسـلامية الأولى «في مجلة المجمـع العلمي العراقي»، عـدد ٢٤، ١٩٧٤، ص ١٣٧ ـ ١٧١، لكن هـذا العمل المتـين المفصل أهمـل المصادر الشيعيـة. ومن المؤسف أن لم نتمكن مؤخـراً من الاطلاع على كتاب النسب لابن الكلبي، وتوجد منه نسختـان متكاملتـان في المتحف البريـطاني ومكتبة الاسكوريال. وقد ذكر صالح العلي أنه لا شك في قيمته بخصوص خطط القبائل.

(٣٤) محمـد علي مصـطفى «تقريـر أولي عن التنقيب في الكوفـة»، مجلة سومـر، عدد ١٠، ١٢، ١٣ (١٩٥٤، ١٩٥٦، ١٩٥٧): استخدمنا خاصة الترجمة الانجليزية بالنسبة للنتائج الحـاصلة سنة ١٩٥٦، والتي نشرت بعنـوان «Preliminary Report on the Excavation in Kufa during the third season» في مجلة سومر، عدد ١٩ (١٩٦٣)، ص ٣٦ ـ ٦٤.

فترتين) ومستوى عباسي (يمتد أيضاً على فترتين). والأهم من ذلك أن القصر الأموي المشيد والذي أعيد بناؤه، يشكل إلى حد بعيد أهم عنصر في البناية من جهة الهيكل كما من جهة المظهر[٣٥]. فجاء علم الآثار مؤيداً للتاريخ في اصطفاء العصر الأموي عصراً أساسياً في وجود الكوفة، ولم يكن ذلك على الصعيد المعماري فحسب، إذ لم يقم الولاة العباسيون سوى بترميم القصر الأموي لصلاحه على وضعه القائم، لكن أيضاً لأن التغيير شمل كل شيء في الكوفة فلم يعد هناك مجال للخلق، بل للتدعيم انطلاقاً من البنية الموروثة، إذ لم تعد الكوفة عسكرياً وسياسياً، أحد المراكز الحيوية للامبراطورية. وليس من باب الصدفة كذلك أن تكاثرت الجزئيات بالنسبة للعصر الأموي في ما لدينا من مصادر حيث كانت الأحداث متوفرة عندئذ، وقد جدت أمور وأمور. هذا ولا يمكن أن يكون الترابط عفوياً بين ما اصطبغ به المستوى الأموي من مركزية كشف عنها علم الآثار، وما اكتسته الأحداث التاريخية من أهمية، وإسهاب الاخباريين في الكلام عنها. حقاً لا يستبعد أن تكون الكوفة أفادت في العصر العباسي من نماء دار الخلافة بصورة عامة وأنها امتدت في الفضاء في ذات الوقت الذي رقت خلاله الحضارة أي إطار الحياة، ويشهد على ذلك اتساع حقل الآثار[٣٦] وإشارات متفرقة إلى فساحة المدينة[٣٧]، ومظهر الفترة الأولى من المستوى العباسي بالضبط[٣٨]. لكن المعلوم أيضاً أن القوى الحية ـ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ـ هاجرت من الكوفة إلى بغداد[٣٩] وأن الكوفة وقع الحط من مركزيتها

(٣٥) «Preliminary Report»مرجع مذكور، ص ٣٧، ٤١، ٥٧.

(٣٦) الجنابي، ص ٤١، ١٧٢ : كان أقصى امتداد يعادل ١٥ كم في الطول و ٩ كم في العرض.

(٣٧) ذكر ياقوت رقم ١٦ ميلاً وثلث (هل كانت أميالاً مربعة؟) بالنسبة لسنة ٢٦٤ هـ: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٢؛ وتحدث المستوفي القزويني بعد مدة طويلة جداً عن دائرة محيطها ١٨.٠٠٠ خطوة وهذا أمر له معناه: Le Strange، ص ٧٥.

(٣٨) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٣٨ ـ ٤٨.

(٣٩) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٤؛ راجع بخصوص العلماء الكثيرين الذين هاجروا من الكوفة منذ انشاء بغداد: ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، =

على صعيد المؤسسات[٤٠]، وصار وضعها هشا بصورة متزايدة. فإذا وجد نمّو ما في الفترة العباسية فينبغي اكساؤه صفة النسبية وادراجه في الحركة العامة للعالم الإسلامي الكلاسيكي (القرن التاسع والقرن العاشر).

وخلافاً لذلك، كان العصر الأولى المتفرع إلى ثلاث فترات هي الفترات التي تولى خلالها الخلفاء الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) تبدو بدائية من الوجهة المعمارية، لكن ذلك العصر كان القاعدة والأس، ويمثله مستوى الأسس في هندسة القصر[٤١]. لقد رسم هذا العصر من كافة الوجوه بنية وجود الكوفة، فخطط في خلافة عمر لهندسة المدينة واستنبط تنظيمها، واستعمل ذلك من عدة وجوه في خلافة عثمان، وأضفيت في خلافة علي الصيغة التاريخية ذات الدلالة الرفيعة بالنسبة للقرون الموالية.

كانت الكوفة الأولى أكثر تاريخية من الكوفة الأموية التي صارت مهمشة بعد، وكانت الكوفة في العصر الأموي أكثر تاريخية منها في العصر العباسي. لكن لاشك انه ينبغي عكس الحركة على صعيد الحضارة المادية. ومصدر الطابع المميز للعصر الأموي أنه جمع في آن عنصر الحضارة وعنصر الدلالة التاريخية. فالكوفة بوصفها مدينة تشكلت عندئذ وهي أفرزت الحدث بصورة صاخبة بصفتها موضع تاريخ، ولذا يستدعي هذا القرن قطعاً عمودياً عميقاً. لكن لا يمكن تناسي الإطار الزمني، وكله انفصامات وقفزات ووثبات، ضمن أية دراسة بنيوية ذلك أنه هو الذي يسمح بصفة خاصة بتجميع وتركيب جمهرة الأحداث التي تخترق حياة الحاضرة.

= ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، الخ. وقد تشكلت أغلبية المهاجرين إلى بغداد من العلماء من أهل الكوفة.

(٤٠) منذ أن تولى العباسيون الحكم، وقعت مراجعة وضع الأعمال أي الولايات. فبقي الطبري يتحدث في سنة ١٣١ هـ. عن والي العراق: التاريخ، ج ٧، ص ٤١١. ولكن في سنة ١٣٢ تعدّد الولاة: الكوفة وسوادها إلى جانب البصرة وفارس والجزيرة والموصل الخ، كل على حدة، ص ٤٥٨. وبداية من سنة ١٣٣، كان الحديث عن الكوفة ومنطقتها، ج ٧، ص ٤٦٠. راجع أيضاً قدامة بن جعفر، كتاب الخراج، ص ٣٣٤ - ٣٣٨.

(٤١) مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦٣.



الفصل السادس

الكوفة الأولى (١٧ ـ ٢٤/ ٦٣٨ ـ ٦٤٤)
هل كانت مجرد معسكر أم مدينة حقيقية؟

يكون انطلاقنا من نص رئيس كتبه لويس ماسينيون[1]، واستعرض فيه مراحل التمصير معرفاً أياه بأنه «الإنتقال من مرحلة تجمع المعسكرات إلى مرحلة التوزيع على حارات في المدن». ثم أضاف: «من المعلوم أن الكوفة، بعد سنة ١٧هـ، (= ٦٣٨ م)، لم تكن خلال السنوات الخمس الأولى من انشائها، سوى مجرد تجمع من خصاص القصب (= أكواخ منطقة وهران)، يقام بين حملتين بصورة مؤقتة (استمرت النساء في مصاحبة الرجال إلى الحرب). وأثناء ولاية المغيرة (التي امتدت من ٢٢ هـ. إلى ٢٤ هـ.)، ظهرت مواقع الخيام المصففة، بصورة دائمة، في شكل حيطان صغيرة من لبن. وبداية من سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) وقع أخيراً الشروع في بناء دور حقيقية من آجر، وكان ذلك في ولاية زياد».

---

(١) مرجع مذكور، ص ٣٨ ـ ٣٩. اعتمد ماسينيون ياقوتاً واقترح عبارة «جدران صغيرة من لبن». لكن لا نجد لها ذكراً عند هذا المؤلف (معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٩١). وخلافاً لذلك، لعلّه اقتبس هذا الرأي من الشيخ علي الشرقي الذي نشر سنة ١٩٣٢، مقالاً عنوانه «عروبة المتنبي»، في مجلة الاعتدال الصادرة في النجف. وقد اقتطف منه البراقي نتفاً، ص ١١٧ وما بعدها. وتتفق هذه المقتطفات اتفاقاً واضحاً مع رأي ماسينيون على الأقل بالنسبة لهذا القسم، مما يحمل على الاعتقاد أن ماسينيون قد اطلع عليه بالرغم من تأكيده العكس. ويمكن أيضاً التساؤل في خصوص نقاط أخرى كثيرة، فيما إذا كان ماسينيون اقتبس منه الكثير. وإلاّ فإن البراقي يكون قد اقتبس عن بحث ماسينيون، المؤرخ في ١٩٣٤ دون ذكر اسمه، علماً أن تأليف البراقي نشر سنة ١٩٣٨.

فالأمر واضح لأمراء في ذلك: يرى ماسينيون أنها كانت إقامة عسكرية في البداية، يمكن الرجوع فيها، ويفسّر ضعف الاستقرار كذلك بأن الكوفيين بذلوا نشاطاً واسعاً في منطقة الجبال. واستقر القوم بعد معركة نها وند تماماً (٢١ هـ/٦٤٢ م)، وبذلك عوضت الخيام ببيوت من لبن. ويمكن أن تكون «المناهج» وحدها هي التي ابتنيت فحدّدت بحيطان صغيرة من لبن على أنّ ماسينيون يماثلها بصفوف الخيام[1] وأخيراً، لم تشيد الكوفة حقاً الا في العصر الأموي، خلال ولاية زياد، حيث استخدم الآجر المعهود في بلاد الرافدين. هذا التصور جذاب حقّاً وهو تصوّر تحتل فيه لوازم البناء مكاناً هاماً في بلورة الكوفة وتحولها إلى مدينة، كما أن فكرة الترحل العسكري تخول أضفاء صفة المعسكر والمدينة ـ المعسكر على الكوفة. وتؤيد هذا التصور القريب من المعقول إشارة وردت لدى البلاذرى وجاء فيها أن أهل البصرة، كانوا في بداية الأمر يقلعون خصائص القصب قبل الخروج إلى القتال[2]، ويتحدث ابن سعد من جهته في خصوص الكوفة عن الخيام وأهل الخيام كما ورد أنّ أغلب سكان الكوفة كانوا يسكنون بيوت القصب[3]. الاّ أنّا لا نعثر على أي أثر في أقدم النصوص، نعني سيفاً كما رواه الطبري[4]، لوصف لمثل هذه الطريقة البطيئة المتسقة المتبعة في بناء الكوفة قبل ولاية زياد، أي الكوفة كما كانت في خلافة عمر، ولم نجد أثراً لذلك في «فتوح البلدان» للبلاذرى[5]. وتعتمد هذه الصورة تماماً على خبر عارض رواه

---

(١) يتحدث ماسينيون بعد ذلك عما ذكره سيف من مناهج ورواه الطبري، ج ٤ ص ٤٥، وسنرى ذلك، فيقول إنها عبارة عن صفوف من الخيام. ثم يقول: «إن القائمة الوحيدة المتوفرة بخصوص صفوف المساكن يرجع عهدها إلى الفترة الأولى. كان التصفيف ينطلق من الجامع. ويشمل خمسة عشر منهجاً (يعني صفوف الخيام) كما حددها سعد للقبائل»: مرجع مذكور ص ٤٤ ـ ٤٥. وقد أكد الشيخ علي الشرقي نفس الشيء، واقتبس عنه البراقي، ص ١١٧.

(٢) **فتوح البلدان**، ص ٣٤٢.

(٣) **الطبقات**، ج ٦، ص ٦ و ٧.

(٤) الطبري، ج ٤، ص ٤٠ ـ ٤٨.

(٥) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

ياقوت وانفرد بروايته (القرن السابع / القرن الثالث عشر)(٦). يتحدث ياقوت بالخصوص عن خصاص من قصب كانت تقتلع في كل حملة، حين كانت النساء ترافق المقاتلة إلى الحرب، كما يتحدث عما سنه الوالي المغيرة بن شعبة من تغيير (دون تحديد للتاريخ، ٢٢-٢٤ هـ. أو ٤١-٥٠ هـ. في خلافة معاوية(٧)؟) لكن مقولة ياقوت عن الكوفة، ومقولته عن البصرة أيضاً، اقتبست أغلب موادها عن البلاذري. فما هو مصدر هذه الزيادات؟ سبق لصالح العلي أن لاحظ أن مصدر الفروق الطفيفة الموجودة بين البلاذري وياقوت بخصوص البصرة، يتمثل في تآليف مفقودة، منها كتاب الساجي خاصة(٨). لكن ما الرأي بشأن الكوفة؟ لم يصل إلى علمنا شيء من ذلك. يبدو الخبر الذي أورده ياقوت دقيقاً جداً، فلا شك أنه مستمد من مصدر معين. على أنه غير مستبعد أن يكون ما تجمع من خبر عن البصرة قد أسقط على الكوفة، وهو ما يوحي به كتاب «فتوح البلدان» عند الحديث عن اقتلاع الخصاص.

وما لا يقبل الجدال أن ماسينيون اعتمد نصاً متأخراً ـ هو نصّ ياقوت ـ انفرد بالخبر لرسم مسار الكوفة في أول عهدها، باستثناء ما أمكننا الإطلاع عليه من وثائق. وبدا هذا الوصف مستنداً إلى تحديد زمني لم يعد ثابتاً تبعاً لذلك. ولنكرر ما قلنا :الثابت في كل المصادر أنه وقع استخدام القصب ثم اللبن، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر محل نقاش. وعلى النقيض من ذلك، يتفق البلاذري والطبري على عدم التحدث بتاتاً عن تفكك المعسكر عند نشوب الحملة. ويأخذ

---

(٦) **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٤٩١.

(٧) يقع اختيار علي الشرقي وماسينيون على المدة الأولى: **مرجع مذكور**، ص ٣٨.

(٨) **التنظيمات**، ص ٢٣ ؛ أعاد العلي إلى الأذهان ضمن ما ذكره من مصادر، **مرجع مذكور** ص ١٥٠، أن مصدر البلاذري الرئيسي في خصوص الكوفة هو أبو مسعود الكوفي الذي لم يعثر له على ترجمة في أي كتاب، لكن يبدو أنّه عاش في بداية القرن الثالث الهجري. ويعود الخبر الذي رواه ياقوت إلى ابن عباس، دون سند وسيط: انظر مجددا العلي، «مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الاسلامية الأولى»، **مجلّة المجتمع العلمي العراقي**، ١٩٧٤، جزء ٢٤، ص ١٣٧ - ١٧١.

كلاهما بعين الاعتبار التخطيط كالأمـر الأساسي ويعني التصـور الشامـل المخطوط على الأرض وهو تخطيط ظهر بسرعة فائقة، من أول وهلة أو يكاد، مـواكباً للبنـاء بالصلب، كما روى سيف بن عمر هذا الأمر.

مشكلة المراحل حسب البلاذرى وسيف بن عمر:

إنّ لهذا النقاش كما هو واضـح وكما سيتضـح أهميته. ذلـك أن الأمر يتعلق بالتحقق من وجود إرادة تمصيرية ظهرت منذ البـداية، وصـدرت عن السلطة كما عن أهل الكوفة. ولنتساءل هل كانوا يشعرون بكنه مدينـة جديـدة، وهل طـرح على النظر مشكل الاستقرار، في بـداية الأمـر؟ ويطرح أيضـاً مشكل المـوازاة بين الكوفة والبصرة.

١) نبدأ باعتـماد البلاذرى. فقـد ذكر روايـات سبعاً، تهمنـا منها روايتـان اهتماماً مباشراً، الأولى مقتضبة وهي مدنيـة (عن الواقـدي)[٩]، والثانيـة مطوّلـة وهي عراقية بصريـة (عن أبي عبيدة) و(عن هشـام بن الكلبي) في آن واحد[١٠]. وينسب الواقدي كـل شيء إلى ما قـام به سعـد في سنة ١٧ هـ، أي الاختـطاط، وتوزيع الخطط على القبائل، وبناء المسجد.

ولا يتحـدث هشام بن الكلبي ولا من روى عنهم من أهـل الكـوفـة[١١]،

---

(٩) فتوح البلدان، ص ٢٧٤؛ Caetani، **Annali**، قسم ٣، ص ٨٤٧: أورد رواية الـواقدي من خـلال الطبري وابن الأثـير؛ راجع أيضـاً صالـح العلي، مـرجع مـذكور، ص ١٤٧. لقـد ألف الواقدي كتاب الفتوح، وبقيت منـه مقاطـع: فؤاد سزكـين، **Geschichte des arabischen Schrifttums**، Leyde، ١٩٦٧، ترجمة عربية، القاهرة ١٩٧٧، ج ١، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦.

(١٠) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(١١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥: من المعلوم أن ياقوتاً أورد في معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٩١، هـذه الرواية وسنرى أن هذا التحديد على عين المكان لليمنية شرقاً والمضرية غرباً، لا يـطابق التصور الخاص بالاستقـرار الأول كما وصفـه سيف، ولا بالمتضمنـات الأرضية لـروايات الثـورات التي جدت في القرن الأول الهجـري. ويمكن على النقيض من ذلـك ترجمـة هذا الاستقـطاب الثنائي عن وضع جديد نشأ في العصر العباسي حوالي عام ٢٠٠ هـ: راجع اليعقـوبي، كتاب البلدان، =

عن الخيام أو خصاص القصب. وهم يلحون على العملية الأساسية الأولى المتمثلة في تحديد فضاء مركزي وقع برمي السهام، ويضم المسجد والقصر. وخلف هذا الفضاء المحدد بعلامات جعلته منيعاً، وهب سعد خطتين كبيرتين، واحدة لقبائل اليمن كافة في اتجاه الشرق، والأخرى لمضر في اتجاه الغرب. وهما تظهران بمظهر المجموعتين الموحدتين، لكنّ الخطط وزعت على القبائل في صلب كل مجموعة[١٢]، ولم يقع الحديث عن البناء في هده المرحلة. بل خلافاً لذلك، يحدونا الشعور أن الفضاء المركزي، وهو الذي يسميه غرابار (Grabar)[١٣] «الفوروم» (Forum)، قد وقع الإقتصار على تحديده. لكن هناك فراغاً في الرّواية إذ هي تقفز إلى المغيرة وتنسب إليه توسيع المسجد ثمّ إلى زيادة الذي ابتناه[١٤]. وتقترب هذه الرواية مما رواه ياقوت واعتمده ماسينيون، لكنها تفترض فكرة التخطيط الفوري النهائي، مع أنها لم تتحدث عن بناء المسجد قبل ذلك، حتّى ولو كان باللبن. وتشير هذه الرواية إلى دور المغيرة، وقد أكّدت على هذا الدور كذلك رواية ثالثة أوردها البلاذرى (عن المدائني)، فنسب إليه صراحة فضل بناء المسجد الذي لم يعمل زياد الا على توسيعه. علماً بأن المسجد هو ما يضفي الطابع العمراني على المدينة، فإنه يمكن أن نستنتج من ذلك أن البناء بالصلب ظهر في ولاية المغيرة. لكن هاتين الرّوايتن الأخيرتين توحيان بأن العمل كان منقوصاً، إذ كيف كان المسجد والقصر في ولاية سعد؟ يصعب الإعتقاد أن الأمر يتعلق بمجرد فضاء خال. لقد روى البلاذرى نفسه أخباراً أخرى[١٥] ذكرت ما أحدثه محمد بن مسلمة بالكوفة، وقد أرسله عمر لإحراق بوابة القصر الخشبي الشامخة التي كان الوالي يحتجب خلفها عن الرعية. فهل كان قصراً مبنياً من

= ص ٣١١، وقد ورد به تحديد لموقع مضر إلى الغرب، ضمن تحركات القبائل. ولم يرو الرواية الثانية الكلبي وحسب، بل أبو عبيدة معمر بن المثنّى أيضاً: كايتاني، **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٤٧.

(١٢) عند لابيدوس، **Middle Eastern Cities**، بركلي ولوس أنجلس ١٩٦٩، ص ٣٤.

(١٣) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٥.

(١٤) فتوح البلدان

(١٥) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٧. هذا خبر جدي سنده يعود إلى أبي مخنف وهشام الكلبي.

قصب وكـان بابـه من خشب؟[١٦] لا نرجـح ذلـك لأنّ الأمـر يـرجـع إلى رفض الـرواية القـائلة بأن سعـدا بني باللبن، وقـد أيد سيف بشـدة هذه الـرواية[١٧]، وكذلك الواقدي[١٨]، واليعقوبي[١٩].

وفيـما كانت الـروايات التـاريخية العـربيـة واضحـة بـالنسبـة للبصرة، في خصوص استخدام القصب لبنـاء حجرة الصـلاة والقصر في المرحلة الأولى[٢٠]. فانّا لا نجد ما يقابل هذا بالنسبة للكوفة. ولعل ذلك لا يرجـع إلى قضية التـوثيق وحسب، بل إلى ما أحاط بنشوء المدينتين من ظروف متنوعة سوف نعود إليها.

٢) سيف بن عمر:

يتوفر لدينا نص وحيد مفصل بخصـوص بدايـة التخطيط[٢١]. يحـدد هذا النص بـوضوح المـراحل ويؤرخهـا خـلال سنـة ١٧، مضيفـاً بعض العـلامـات الزمنية[٢٢]. ويستعرض بمزيد من الوضـوح القبائـل المستقرة ومـواقعها، وذلـك ثمـين بالنسبـة لكل دراسـة تخص الجغـرافيـا القبليـة. الا أنـه يتبـين بعـد قـراءة النصوص التي تروى الأحداث السياسيـة اللاحقـة[٢٣]، أن توزيعـه التوبـوغرافي للقبائل أصح من الروايات التي أقرت المضريـة غربـاً واليمنية شرقـاً. الحقيقة أن

(١٦) هذا ما أكده بوضوح الخبر الذي رواه أبو مخنف.

(١٧) الطبري، ج ٤، ص ٤٧: التبكير بالعمل لا يستثني وجـود مرحلة أولى، قصـيرة حسب سيف، حيث كان البناء من قصب، لكن هل كان القصر أيضاً من قصب؟

(١٨) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٥. كايتاني، الجزء ٢ من القسم ٣، ص ٨٤٧.

(١٩) **كتاب البلدان**، ص ٣١٠.

(٢٠) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤١؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ج ١، ص ٤٣٢؛ صالح العلي «خطط البصرة»، في **Sumer** عدد ٨، ١٩٥٢، ص ٧٢.

(٢١) الـطبري، ج ٤، ص ٤٠ ـ ٤٨. نقـدم المـرجـع لهـذا النص في طبعـة Leyde، ج ١، ص ٢٤٨٢ ـ ٢٤٩٥، حيث أنه يكتسي مزيداً من الأهمية ومكاناً في ثنايا دراستنا.

(٢٢) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٢ و ٤٤.

(٢٣) ثورة حجر بن عـدى: الطبري، ج ٥، ص ٢٥٣ ـ ٢٨٦. ثـورة المختار: الـطبري، ج ٦، ص ٧ ـ ١١٦. ثورة شبيب: الطبري، ج ٦، ص ٢٢٤. ثـورة زيد بن عـلي: الطبري، ج ٧، ص ١٦٠ ـ ١٧٣ و ١٨٠ ـ ١٩١.

قيمة سيف في هذا الباب جيدة كما نعلم. يبقى أن أخباره المليئة بالمعلومات توحي بضعفها من الوجهة الزمنية. وهو ما لا يفيد في حل مشكل المراحل. ذلك أنه يتحول تحولاً غير معقول من ولاية سعد إلى ولاية زياد[٢٤]. وتجري الأمور كما لو أراد سيف تقديم صورة متقصاة لنشأة الكوفة وتطورها، متجاوزاً مجرد الإطار الزمني المحدد إلى عام ١٧، فتجاوز بذلك صيغة الحولية التاريخية[٢٥]. لكن ما يقوله عن بناء المسجد في ولاية زياد يشبه كثيراً ما يقوله عن ذلك في ولاية سعد[٢٦]. يحتفظ نص الطبري بثرائه الإخباري الاستثنائي بعد إبداء هذه الاحترازات، وعلينا أن نعتمده من جميع الوجوه. ولنستعرض الأحداث في تسلسلها. فحالما استقر أهل الكوفة، طلبوا من عمر الإذن في البناء بالقصب. لم يرفض عمر ذلك مع أنه كان يفضل البقاء بالمعسكرات، ولا شك أنه كان يؤيد نصب الخيام[٢٧]. ثم شب حريق في شوال، فقضى على كل شيء، وجد ذلك بعد عشرة أشهر من استقرار العرب (في محرم). وطالب أهل الكوفة عندئذ بأن يؤذن لهم في البناء الصلب، يعني باللبن. **فكان ذلك منطلق التخطيط أي أن التخطيط تزامن مع قرار البناء باللبن**. ان نصّ سيف واضح كل الوضوح في هذا الشأن. الرواية الأولى:

«فبعث سعد منهم نفراً إلى عمر يستأذنون في البناء باللبن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم وكانوا لا يدعون شيئاً ولا يأتونه الا وآمروه فيه فقال افعلوا ولا يزيد ن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان...»[٢٨].

---

(٢٤) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٦.
(٢٥) يتضمن تحليل كايتاني عملياً، نصّ سيف بتمامه: **Annali** قسم ٣، ج ٢، ص ٨٥٣ - ٨٦٣.
(٢٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٥ و٤٦.
(٢٧) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٣.
(٢٨) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٤: يمكن أن نستنتج أن بيوت الكوفة العادية لم تتجاوز ثلاث حجرات في القرن الأول هـ. ويندر أن تكون بيوت ذات طوابق.

الرواية الثانية :

« لمّا أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبي الهياج فأخبره بكتاب عمر في الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين وبالأزقة سبع أذرع . . . »[٢٩].

ثم يبدأ الوصف المفصل للأجهزة الأساسية المقامة، والخطط القبلية، والسكك، طبق ترتيب دقيق. فتم في آن التخطيط والتمصير في الجملة. ولقد تحدد الفضاء المركزي (Temenos=) بالخصوص في هذا الوقت بالذات الذي يلي تخطيط المسجد: «فأوّل شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد»[٣٠].

ويستنتج من نص سيف أنه:

أ) في فترة أولى دامت عشرة أشهر وهي فترة التنزيل، برزت إلى الوجود بصفة فوضوية وبدون تخطيط مسبق نواة مدينة ثابتة ومبنية، بيوتها من قصب، وهي متميزة عن المعسكر العادي لكنها لا تبتعد عنه كثيراً.

ب) الرغبة في البناء الصلب، أي في إنشاء مدينة حقيقية، ظهرت بقوة وكانت سبباً في كافة العمليات التي تؤدي إلى تحقيق هذا المشروع، مشروع (التخطيط) بالذات. ولم يتم البناء على الأرجح إذن، انطلاقاً من فضاء وقع توزيعه بعد وتقسيمه وتم فصله إلى أجزائه المتنوعة، بل أن البناء هو الذي يكون فرض تحديد هذا الفضاء.

ولا شك أن سيفاً يعرض علنا في هذا المقام مثلاً تمصيرياً إرادياً، عقلانياً،

---

(٢٩) تابع للخبر الأول بذات الاسناد: الطبري، ج ٤، ص ٤٤.

(٣٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٤. لا Wellhausen في **Skizzen**، ج ٦، ص ١٥٥ ولا Caetani في **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٥٧، لا Creswell في **Early Muslim Architecture**، ج ١، ص ١٨ وما بعدها، لا أحد منهم أدرك الصلة بين قرار البناء بالصلب وتخطيط المدينة. فأخطأوا جميعاً في مدلول الأشغال الأولى التي تحددت بفضلها مساحة مركزية لم يكن المسجد إلاّ مركزها هي، فاعتقدوا أنّ المناهج الفاصلة للخطط القبلية تنطلق من المسجد. لعلّ الوحيد الذي اشتمّ مثل هذا الاحتمال هو Reitemeyer، مرجع مذكور، ص ٢١ و٣٢، لكنّه يرى أنّ مخطّط سيف يترجم عن هندسة معمارية من الصنف العباسي: ص ٣٥.

سريعاً بصورة عجيبة، مبتعداً عن التصور الذي اعتمده ماسينيون والذي مفاده أن المدينة نشأت نشوءاً بطيئاً، وهو تصوّر لا يتفق كذلك والأخبار التي رواها البلاذرى فيما يخص وجود تخطيط تلاه البناء في مرحلة لاحقة.

الواقع أن علم الآثار يقدم لنا يد المساعدة في هذا المجال، شواهده تؤكد على وجود قصر شيد تشييداً صلباً في المدة الأولى(٣١). فمن بنى هذا القصر؟ هل بناه سعد أو المغيرة؟ هل بنى بعد ولايتهما؟(٣٢). لا يمكننا الفصل في هذا الأمر. لكن ذلك دليل على وجود مركز معلمي قبل العصر الأموي. ويتبين من قراءة المصادر الكتابية تواجد عدة أصناف من مواد البناء في اللحظة التاريخية الواحدة. فقد ظهرت في آن واحد وتعايشت في فترة متأخرة جداً من العصر الأموي، خصاص القصب، ومساكن من لبن، وبناءات من آجر(٣٣)، لأن مرحلة معينة لا تمحو المرحلة التي سبقتها.

ما من شك في أن التردد ساد في بداية الأمر، كما أن الاستقرار استتب بصفة فوضوية. على أنّ هذه المرحلة لم تكن لتدوم طويلاً ومن المؤكد على كلّ حال أنها لم تدم خمس سنوات (تلك التي ارتآها ماسينيون). ظهرت في الأوّل الخصاص عفوياً على وجه أرض الكوفة، معبرة عن الرغبة الجامحة في الاستقرار عليها، فشكلت ما يشبه القرية العظيمة. وجاء دور التخطيط والتمصير سريعاً

---

(٣١) علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦٣: يحدد المؤلف المستوى الأول من الحفريات بدار الامارة التي بناها سعد أو بمبنى قيل اسلامي.

(٣٢) بنى المستوى الأول السابق للعصر الأموي بالآجر، ولا أثر للزخرفة به: مرجع مذكور، ص ٦١. وبذلك يؤيد علم الآثار أقوال سيف الذي روى أن روزبه بنى داراً لسعد هي «قصر الكوفة اليوم»، مستخدماً آجر القصور الساسانية في الحيرة: الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

(٣٣) لو تبعنا حرفياً نص سيف ابن عمر حيث التخطيط مرهون بالبناء باللّبن، لقلنا أنّ أغلب مساكن الكوفة كانت من لبن أبان التخطيط، وليس من شكّ في أن دور الاشراف كانت كذلك زمن زياد: على أن ابن سعد، طبقات، ج ٦، ص ٢٣٨، يؤكد «أن عامة الكوفة يومئذٍ لخصائص» يعني زمن علي بن أبي طالب. وورد في تاريخ الطبري وفي خصوص ثورة ابن المهلب بالبصرة، ج ٦ ص ٥٩٤، إن دار الحسن البصري كانت من «خصّ القصب». وهذا يثير تساؤلات محيرة.

جـداً باشراف سعـد ـ هذا أمـر ثابت لـدينا ـ لكن ربمـا بصفـة مستقلة عن المـادة البنائية المستخدمة. فانتصب على الأرض شكل لمدينة مقبلة قادرة على حمل وجـود جماعي جديد الاسلام (وهـذا هو المعنى الصحيـح لكلمة مصـر) ودائم ومدني وحضري . لعل القصب كان المادة المهيمنـة في ولاية سعـد ، باستثنـاء المسجد والقصر ، خلافاً لما قاله سيف ، وأن المغيرة هو الذي أدخل اللبن(٣٤) . لكن ليس هذا أمراً ثابتاً ، فضلاً عن أن تغيير المواد لو وقع زمن المغيرة ، لدخل على بنية مدينة سابقة الوجود فلم يكن له أن يغير من تنظيم الفضاء الداخلي ، وكذلك كان الأمر في عهد زياد بعد ذلك . كانت نية التمصير حاضرة منذ البداية ، وكذلك الجـانب الإيرادي في ظهور مدينة الكوفة . هذا ما سنحتفظ به أساسا من النص المهم جداً المنسوب إلى سيف بن عمر .

---

(٣٤) هذا رأي ماسينيـون، كما بينـا، ورأى الشيخ عـلي الشرقي. ولا يعتمد إلاّ فصـل ياقـوت الذي حللناه سابقاً، فما زال الشك قائماً.

الفصل السابع

بنية الفضاء الداخلي

الفضاء المركزي

يورد سيف بالذات تفاصيل ممتازة عن المخطط المديني الاولي الذي ستتقيد به بنية الحاضرة المقبلة وتوبوغرافيتها . يتشكل فضاء الكوفة الاولى من عناصر ثلاثة : مساحة مركزية كبرى سياسية ودينية تشمل المسجد والقصر ، وهي عبارة عن مكان القيادة وتجمع الناس ، ثم تأتي الخطط القبليـة للسكن ، وهي تشع انطلاقاً من هذه النواة المحددة من أعلى قسراً ، والمحصورة ، والمرسومة بمثابـة الفضاء المقدس ، ثالثاً : هناك عنصر للفصل والمرور في آن ، وهي المناهج التي تمكن من تفريد الخطط القبلية وجمع المقاتلة في أسرع وقت داخل الفضاء المركزي الكبير . ومن المناسب قطعاً أن نتساءل عن أصل هذا التصور ودلالته أيضاً . لكن ينبغي قبل ذلك تقرير وجوده وواقعة تقريراً حازماً . ذلك أن سيفاً خلف لنا نصاً صعباً ، كثيراً ما أسيئت قراءته ووقع التسرع في استيعابه .

وعلى هذا فإن قراءة مستعجلة أدت[1] وتؤدي إلى حملنا على الظن أن هناك تخطيطاً أولا للمسجد أنجز بـرمي السهام، وأنـه إنطلقت من المسجـد شوارع

---

(١) Wellhausen, **Sikzzen** ج ٦، ص ١٥٥؛ Creswell, **Early Muslim Architecture** ج١ ،ص ١٨ وما بعدها، وبحثه «Architecture» في **دائرة المعارف الاسلامية**، طبعة ثانيـة . وقد جاراه الجنابي في رأيه دون نقاش: مرجع مذكور، ص ١٢٤ ـ ١٢٧، أو نـاقشه بـالأحرى نقـاشاً متضارباً. يرى هذا المؤلف أنه لا وجود لفتحات أربع جنوب المسجد، حيث أن علم الحفريات لم يؤكد سوى فتحـة واحدة. لكنـه استمر يعتقـد أنها فتحات بجـدران المسجد. ونقـل (ص ١٢٨) رسماً لفكري به فتحة في الشـمال، وأخرى في الجنـوب، وثلاث فتحـات بالشرق والغـرب، فكان مجرد تصحيح لرسم Creswell.

مستقيمة ، وأن هذه الشوارع كانت بمثابة صفوف للخيام[٢] ، بمعنى أنها كانت الخطط القبلية ذاتها .

أما القصر ، فلعله كان يقع (من ذا الـذي حدد مـوقعه ؟ كيف ؟) إلى الجنوب الشرقي من المسجد . وقد ذهب الامر بـ كرسول (Creswell) إلى أن استنتج أن رمية السهم تساوي ما يقرب من ٥٥ متراً،حيث المعلوم أن أضلاع المربع الذي يشكله المسجد ، كان كل ضلع منها يساوي قرابة ١١٠ من الامتار . ثم أضـاف قائـلاً : أن نقاط انـطلاق المناهـج كانت تشكـل الأبواب وفتحات المسجد[٣] . ولم يصل أي باحث إلى استنتاج فكرة المساحة المركزية التي قصدها المخططون العرب ، وأيضاً الوظيفية الثلاثية للعناصر المدينية بالكوفة الذي كان مخططها موحداً . وتبدو الفكرة الاولى حاسمة إذا أمعنا النظر في نـص سيف الوارد بالطبري[٤] .

ـ تحدد موقع المسجد في مرحلة أولى . كيف ؟ لم يصلنا من أمره شيء . لكن ذلك لم يتحقق بواسطة رمية السهام قطعاً .

ـ ثم وقع استدعاء الرامي في المرحلة الثانية فقط ، وهو رام قوي «شديد النزع» ، كما يقول سيف . ولعله إنتدب من بين أساورة القادسية . ويطرح لا محالة في هذا الموضوع مشكل فيما إذا كان هذا فعلاً شعائرياً ، أو أنه كان تقنية لانشاء الحواضر ، وفيما إذا كان من أصل عربي أو ساساني (الاحرى أنـه كان ساسانيـاً) . وقف الرامي في وسط المسجـد المحدد ببعد ، وأطلق القوس في اتجاهات أربعة مطابقة تقريباً للجهات الجغرافية الاربعة[٥] ، إلا أن القبلة وهي بالجنوب الغربي تعتبر المرجع الأول .

---

(٢) Massignon، انظر ما سبق.

(٣) بحث «Architecture» في دائرة المعارف الاسلامية، طبعة ثانية.

(٤) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٤.

(٥) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٤ . الجملة هي : «وترك المسجد في مربّعة غلوةمن كل جوانبه».

وبذلك تحددت مساحة مربعة الشكل ضلعها غلوتان ـ وهو المصطلح الصريح الذي إعتمده سيف والطبري ـ وتعني الغلوة «مسافة رمية السهم»[٦] . وقد أصبحت قياساً يعادل ١/٢٥ من الفرسخ ، أي ٢٤٠ متراً[٧] . فيكون ضلع المربع مساوياً بذلك ٤٨٠ متراً ، أي ما يقرب من نصف كلم ، وتساوي مساحته ٤٠٠ . ٢٣٠ متر مربع ، أي ٢٣ هكتاراً و ٤, بالضبط . هذا فضاء هام كما نرى . ومن المعلوم أن مساحة مدينة أور كانت تساوي مائة هكتار ، وأن بابل في عصر هيرودوتس كانت على شكل مربع ضلعه يساوي ١٢٠ «ستادا» (بابلياً)[٨] (أي أكثر من ٢٣ كلم) وهو مقدار عظيم لا يمكن مقارنته سوى بأبعاد سامراء . على أن ضلع معبدها وهو عنصر مركزي ، كان قياسه «ستادين» (قرابة ٤٠٠ متر) . أما مساحة ميسان (Mycènes) ، فكانت خمسة هكتارات .

إن هذا الفضاء الواسع الذي خلف القلعة القديمة لبلاد الرافدين ، سيشمل المسجد ذاته ، وقصر الوالي ، والاسواق ، وخصص خلاء لساحة كبرى استخدمت للاجتماعات وعرفت بالميدان أو الرحبة ، فلا عجب ان كان لهذا الفضاء مثل هذه الابعاد ، لا سيما أن أفراد الطبقة الارستقراطية تمكنوا من قضمه بعد ذلك ، مع العلم أنه صح العزم على أن يبقى خارج كل نية تروم بناء المساكن الخاصة .

من أول نظرة يبدو نص سيف مبهماً ومغلطاً ، لكنه صريح في كل ما سبق قوله . إذ لم تكن هناك حاجة ، أن ترسم أولاً الخطوط الأولية لمحيط المسجد ، إذا وجب بعد ذلك دعوة الرامي الماهر لتحديد المسجد ذاته .

---

(٦) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٥ ص ١٣٢ وهو يعادل ٢٥ غلوة بفرسخ.

(٧) يساوي الفرسخ (Parasange) ٣ أميال، أي ٥٩٨٥ متراً. وبذلك تساوي الغلوة ٢٤٠ متراً: مادة فرسخ في **دائرة المعارف الاسلامية** طبعة ثانية، بقلم W. Hinz؛ راجع أيضاً كتابه: **Islamische Masse und gewichte** ,Leyde ١٩٥٥ ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٨) الملاحظ أن «ستاد» هيرودوتس لم يكن «الستاد» الأتيكي بل البابلي، أي ما يعادل ١٩٨ متراً.

يقول سيف :

«فأول شيء خطّ بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد ، فوضع في موضع أصحاب الصابون والتمارين من السوق فاختطوه . ثم قام رجل في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين[٩] .

وهذه الآن الجملة الحاسمة : «وترك المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه» . إنها جملة غامضة في تركيبها . لكنها واضحة بما يكفي لاستخلاص الاستنتاجات الآتية :

أ) لا يدل لفظ مسجد على فضاء ما ، بل على الجهاز الديني المعروف[١٠] .

(ب) أقحم هذا المسجد مربع الشكل في محيط مربع أيضاً أوسع منه ، تحددت أبعاده بالغلوة فعلاً . هذا وأن رمية السهم تفصل مركز المسجد عن أقصى نقطة في المحيط ، مع وجوب مضاعفة ضلع المحيط . وهو ما يدل عليه معنى الجملة التي ذكرها : «فترك المسجد في مربعة غلوة من كل جوانبه»[١١] . ما هو الاسم الذي سمى به المؤلف هذه المساحة المركزية ، إذا كان علينا أن نفهم كلمة مسجد في خصوصيتها الدينية الضيقة ؟ إستخدم لذلك كلمة **صحن** عدة مرات بعد ذلك ، علماً أنه لا ينبغي فهمها بالمعنى المتأخر أي أنها ساحة مكشوفة في المساجد ، تقابل بيت الصلاة المغطاة (ظلّة) ، بل يجب فهمها بمعناها الأول المرادف **للفناء** أي للساحة المركزية بأرض منبسطة . عرّف «لسان العرب» الكلمة بمعناها المتأخر (وتعني حرفياً ساحة ، صحن لمركز البيت) ، وأورد التعريف الآتي[١٢] :

---

(٩) الطبري ج ٤، ص ٤٤.

(١٠) ذلك ما أدركه Grabar جيداً، خلافاً لما أبداه Lammens من رأي: **Middle Eastern Cities** ص ٣٢. ولاسيما Massignon: مرجع مذكور، ص ٥٢.

(١١) الطبري، ج ٤، ص ٤٤.

(١٢) لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٤٤.

«المستوى من الارض مثل عرصة المربد صحن» .

والملاحظ أن اعتماد مربد البصرة يبدو مرجعاً رئيساً ، وهو الفضاء الكبير المستخدم كسوق للدواب ، وكملتقى للشعراء ، وهو ما يقابل الكناسة في الكوفة . ولنلاحظ أيضاً أن مفاهيم الفلاة ، والارض المنبسطة ، والمركز بالخصوص والتي نجدها عند ابن منظور للتعريف بالصحن ، تعبّر بصورة عجيبة عن الجوانب المتنوعة للمساحة المركزية ، الموجودة فعلاً بأرض منبسطة كما بفضاء صحراوي .

وقد أحيط هذا الصحن بخندق[١٣] فورا ، لكي لا يقع اقتحامه ببناية ما ، وبذلك يكتسي مناعة مقدسة أو يكاد ، ينبغي التساؤل عن كنهها ، ومن هذا الصحن بالذات - وهي الكلمة التي اعتمدها سيف - تشع المناهج الخمسة عشرة . وقد تحدد مفهوم الصحن بوضوح أخيراً ، فكان يشمل المسجد والقصر والاسواق :

«فكان الصحن على حاله زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل ليس فيه إلا المسجد والقصر والاسواق في غير بنيان ولا اعلام[١٤]» .

إن إقامة هذه المساحة المركزية كمركز للسلطة والدين والتجارة بصفة ثانوية لدليل على وجود نية تمدينية واضحة عند الحكام العرب ، لكنها تدل أيضاً على وجود خط إستمرار يرجع إلى العصور السالفة ، فيما يخص تاريخ إنشاء الحواضر . إن لويس ممفرد (Lewis Mumford)[١٥] محق في رأيه حين يقول : «إن المعسكر المحصن (يعني القصر) ، والمعبد داخل موقع يفصله حد مقدس عن الدنيا ، يشكل سمة مميزة لانشاء مدينة من المدن» . هذا ولا يمكن القول أن حدود المساحة تكتسي طابعاً مقدساً ، لأن الامر يتعلق بمجرد تحجير للبناء الخاص ، صادر عن السلطة .

---

(١٣) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥ .

(١٤) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥ .

(١٥) **La Cité à travers l'histoire** ، باريس ١٩٦٤ ، ص ٥٣ .

إن هذا المكان كان يتّخذ عامة شكل القلعة المحصّنة أو المدينة ـ الحصن في التقليد المديني ماضياً وتبرز هذه الظاهرة بتواتر أكبر عند العراقيين القدامى ممّا عند المصريين[١٦] وعند الرومان ممّا عند اليونان . هنا ، لا هذه المساحة ولا الكوفة بمجملها حتى عهد المنصور (١٥٥/ ٧٧٢) لم تحاطا بأسوار ، على أن الجامع والقصر حصّنا في الفترة الاموية . لكن يميل المرء إلى أن يجد في الطقوسية التي واكبت نشأة الكوفة وفي الوظيفة الثلاثية للمركز وأخيراً في رمزية التفرقة بينه وبين المدينة المدنية ، إلى أن يجد في هذا أقدم التصورات للنواة السياسية ـ الدينية التي عرفتها الانسانية كما بقايا شكلية ملفتة للنظر بصفة غريبة .

لقد كان بمكّة مركزها وهو الحرم المحتوى على الكعبة . وكانت له حدود (الانصاب) لا يمكن خرقها بل أضيفت عليها صفة القداسة والتحريم وقد جدّدها عمر وثبتها في مكانها. ومن جهة أخرى الطقوسية التي حفّت بامتلاك موقع الكوفة (التنزيل) والتي تجسدت في تلاوة كلمات قدسية ذات طابع جاهلي، نجدها منسوبة إلى النبي عندما حلّ بقباء وأصلها العربي واضح. لذا يمكن أن نعتبر أن العرب قبل الاسلام كانوا متملكين للاساليب الاساسية التي بفضلها تؤسس المدن والمعهودة بزمانهم، وهي مفهوم الفضاء المقدس ومفهوم المعبد (= المسجد) وعملية التخطيط والطقوسية الملائمة. إن هذه الاساليب العتيقة شاعت في كل العالم القديم. ولنضرب أمثلة عن مقدرة النماذج المدينية في التنقل والانبثاث من مناخ حضاري إلى آخر. لقد قيل أن العمارات ذات الطوابق من خاصيات النموذج الهلنستي بينما نجدها في بابل كما وصفها هيرودوتس ولربما استلف منها هذا الشكل المعماري ثم وقع استرجاعه من طرف الشرق. إن روما الأولية عرفت البوميريوم = pomerium وهو الفضاء المقدس الذي حجر عليه البناء[١٧]، أما الفوروم = forum المركزي فهو إلى حد بعيد مماثل للاغورا = agora التي تعتبر

---

(١٦) **La Cité à travers l'histoire**، ص ١٠٦ ـ ١٠٩ .

(١٧) Mumford، ص ٢٦٧ .

عنصراً معمارياً منبثق عن الحضارة اليونانية الاسيوية وعن مدرسة ميلي Milet بالتحديد[١٨]. ولا بدّ أن يكون النموذج الهلنسيتي قد أشاع البعض من مكوناته في الشرق القديم الخاضع للفرس آنذاك، وكذلك فإن النموذج الروماني، وهو الآخذعن تقليده الذاتي العتيق وعن الاشكال الهلنسيتية في آن، قد انبث في العالم الروماني وبث بطبيعة الحال هذه الأشكال[١٩].

سيكـون لنا رجـوع إلى مشكلة التأثيـرات على التصـور الاولي للكوفـة بمجملها ، لكن في خصوص المساحة المركزية الكوفية يبدو لنا أنه وجدت صيغة معممة ومعمول بها في كل مكان للتأسيس الايرادي للمدينة ، تبتدىء بتحديد الفضاء المركزي العمومي[١٩ مكرر] سواء كان قلعة أم لا . وهذا التقليد لا يمكن أن يقال عنه أنه بابلي أو هلنستي أو روماني أو ساساني ، إلا أن العرب استبطنوه قبل الاسلام وزاد استيعابهم له بعد أربع سنوات قضوها بالعراق منها سنة بالمدائن نفسها .

لكن المدائن كانت حاضرة قائمة الذات ، فلم تقدر على أن تكون أنموذجاً في هـذه المرحلة الاصليـة ، على أرض خـلاء . فإذا كـان المشيـدون الفـرس الساسانيون كروزبه[٢٠] حاضرين ، فلا يوجد سبب لاستبعاد حضور خبراء في التمصير معهم . والاهم من ذلك هو الدور الذي قام به بعض أشراف الحيرة في هذه المرحلة الاولى من ظهور الكوفة . فقد روى أن ما قدموه من نصائح كان حاسماً لاختيار الموقع[٢٠ مكرر] . وكما تأكـد في علم الآثار ، وخـلافاً لمـا ورد

---

(١٨) Roland Martin ,**Recherches sur l'agora grecque**، باريس ١٩٥١ .

(١٩) في خصـوص التأثيـر اليونـاني والرّومـاني على الفـرس في مجال المعـار، انظر: Ghirshman ,**L'Iran des origines à l'Islam**، ص ٣٠٩ .

(١٩ مكرر) Mumford ص ٢٦٧ ؛ Oppenheim، ص ١٤٦ و ١٤٧ .

(٢٠) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٥ ؛ كايتاني، **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٦٠.

(٢٠ مكرر) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ .

بالمصادر الكتابية ، فإذا صح أن المواد والتأثير المعماري الذي جاء من الحيرة ، كان قليل الاهمية ، فإن البذل الحيري كان مهماً على صعيد التصور المعماري . وهو ما يمكن أن نسميه اللحظة الحيرية في تاريخ الكوفة(٢١) . كان التصور الاولي عربياً إذا وتغذى بالزاد العربي الاولي كما بالتقاليد التمدينية القديمة الغامضة التي تسربت بعد إلى شبه الجزيرة . ووجد أيضاً وعلى الارجح تأثير فارسي ، وهو يتلون بلون غرب بلاد الرافدين ، بمعنى أن بابل أثرت فيه . وكان للحيرة أخيراً دور الوسيط فنقلت نظرة معمارية مزدوجة تركبت من عناصر هلنستية وفارسية ومن بلاد الرافدين وعناصر عربية(٢٢) . مما لا مراء فيه أن كل هذه العوامل مع إضافة التأثير اليمني(٢٣) ، تضافرت لتنير سبيل المنشئين وتزودهم قبل كل حساب بصورة المساحة المركزية . هذا وان الظروف الموضوعية التي كان يعيشها المهاجرون العرب يسرت الامور . كانوا يمتلكون دولة عسكرية مركزية تجر قسراً وجود فضاء للقيادة ، ومكان لممارسة السلطة ، وهو أمر لم يكن معمولاً به في مكة خلال العصر الجاهلي . وهم أيضاً مكتسبون لدين ، كان جوهرياً لوجودهم كأمة ، وهو يدخل في علاقة شبه عضوية بالقيادة السياسية العسكرية . لكن ، بما أن الاسلام حظر الخلط بين التجارة والصلاة ، فلن يكون المسجد معبداً متاجراً ، حسب التقليد العتيق ، وستتميز عنه السوق بالرغم من وقوعها في المركز(٢٤) . وهكذا ندرك المستقبل الذي كان يترقب هذه البنية الثلاثية للنواة المدينية ، التي ستحدد مرفولوجياً المدينة الاسلامية اللاحقة باكملها .

المسجد الاصلي :

لا فائدة من التذكير بالمناقشات التي دارت بين المستشرقين والمؤرخين

---

(٢١) محمد علي مصطفى ، مرجع مذكور ، ص ٤٥ .

(٢٢) راجع في خصوص الحيرة صالح أحمد العلي ، مرجع مذكور ، ص ٢٨ ـ ٤٤ .

(٢٣) راجع بحثنا بعنوان «اليمنية بالكوفة» ، في **JESHO** عدد ١٩ ج ٢ ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٧ .

(٢٤) Wirth، «Zum Problem des Bazars (suq, carsi)» في **Der Islam** عدد ٥١ (١٩٧٤)، ص ٢٠٣ ـ ٢٦٠ ، وعدد ٥٢ (١٩٧٥)، ص ٥ ـ ٤٥ .

المسلمين بخصوص فكرة المسجد ، طالما كانت المواقف مطبوعة بالعجز عن استقراء النصوص وإمعان النظر فيها . أما في العصر الحديث ، فقد اهتم غرابار (O. Grabar) بقضية مولد المسجد الاسلامي وتطوره[٢٥] . وقد يعاب على «غرابار» أيضاً ، أن بحثه عن «نمط مثالي» ، جعله يتنقل دون تحرج وفي نوع من الخفة من القرآن إلى ابن خلدون . إن أقواله يمكن أن تعتبر في آن صحيحة وخاطئة ، من وجهة دراستنا المونوغرافية كما من مجرد المنطق التاريخي من جهة أخرى . فمن البديهي أن القرآن يماثل بين فكرة المسجد وفكرة المعبد ، لأن المعبد كان المرجع العالمي في ذلك العصر . لكن ما لا يقل بداهة أن الاسلام الذي عرف بنفسه كدين جديد ، لم يكن له منذ البداية ، إلا أن يضفي على «المعبد» الاسلامي خصوصيته الاكثر صرامة . ويتحدث «غرابار» من جهة أخرى[٢٦] عن ظهور «مركز» مواطني = civic cnter بالكوفة والبصرة والفسطاط ، وهو أمر صحيح . لكنه يكاد لا يدرك فيه الجانب التقليدي والعادي ، لأن مركز النشاط المواطني لا يتعارض مع الخطط القبلية ، كما لا يتعارض المسجد المركزي مع مساجد العشائر إلا بقدر ما يتعلق الامر بدين جديد وجب غرسه ولربما وجد معهد ومركز للسلطة أيضاً ، لو تعلق الامر بدين قديم . والنقطة الثالثة والواجب دحضها إطلاقاً هي أن المركز وهو الشبيه بالفوروم (forum) كما يقول «غرابار» عن حكمة[٢٧] ، لا يماثل المسجد لا من وجهة الفضاء ولا من وجهة الوظيفة (وهذه فكرة أخذها عن لامنس Lammens) . بل هو يتطابق مع الصحن كافة ، كما ذكرنا آنفاً . وأخيراً فرأيه القائل أن المسجد ذاته بقي مدة طويلة فضاء ، أو أنه لم يصبح بناية قائمة إلا في العصر الاموي ، هو رأي صحيح ، إذا ما اعتمدنا بعض الاشارات الواردة في النصوص التي بين أيدينا ، وهو ليس كذلك

(٢٥) «الهندسة المعمارية لمدينة الشرق الأوسط من الماضي إلى الحاضر: مشكلة المسجد» في **Middle Eastern Cities**، ص ٢٦ - ٤٦ .

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢٧) مرجع مذكور، ص ٣٤ : «يسمّى هذا الميدان مسجداً عادة وسمّي مصلّى مرّة واحدة» يقول غرابار ذلك بالاستناد إلى الخطوات الأولى التي قطعتها الكوفة والبصرة والفسطاط .

حسب بعض الروايات الاخرى[٢٨] . فما تقوله هذه النصوص فيما يتعلق بالكوفة ؟

تقول ان المسجد كان بدون أروقة على كل جوانبه ، قبل إمارة زياد ، باستثناء جانب القبلة . فكان ممكناً مشاهدة دير هند من الصحن ، وباب الجسر في إتجاه الفرات[٢٩] ، وهذا يعني أنه لم تكن هناك جدران مرتفعة بكفاية ، لكن لعله وجد سياج من قصب أو جدار صغير من لبن على أكثر تقدير . إن الطابع البدائي للمسجد أي انعدام البناء أو قلته ، نستدل عليه أيضاً بأن سعداً هدمه بسرعة كبيرة ونقله إلى الجنوب قرب القصر ، بسبب سرقة بيت المال الذي كان ملحقاً بالقصر[٣٠] . أما عن تعليل عملية تقريب المسجد من القصر ، فهو أنه تقوم على المسجد حراسة تكون بالليل والنهار ، وأن حضور الحراس من شأنه أن يمنع تكرار مثل هذه الحادثة العارضة ، مما يفسر أن المسجد يلاصق القصر ، فشكلا بنايتين متلاصقتين . وسيحتل الموضع الأولي للمسجد بعد ذلك جانباً من السوق ، ويكون من نصيب باعة الصابون والتمر . وهذا ما يفسر عبارة سيف في هذا المضمار التي أراني أعود إليها :

«فأول شيء خطّ بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد،فوضع في موضع أصحاب الصابون والتمارين من السوق»[٣١] .

إن هذه المقولة عن تفتح المسجد ، وسرعة انتقاله بالفعل ، توجهنا إلى فكرة الفضاء غير المشيد ، ومن المعلوم أن المصادر تحدثت بخصوص البصرة عن

(٢٨) مرجع مذكور، ص ٣٥: «تحول المسجد إلى بناء بعد أن كان فضاء». وكان ذلك بين ٦٥٠ و٦٥٠، وهي المرحلة الثانية من تاريخ المساجد.

(٢٩) الطبري، ج ٤ ص ٤٧ . وجاء في روايات أبي مخنف المتعلقة بدير هند أنه يقع إلى الشمال الشرقي، قرب الجسر بالذات: الطبري، ج ٦ ص ٢٢ مثلاً. والشابشتي صريح في تحديد موقعه بالحيرة: الديارات، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ وياقوت أيضاً: معجم البلدان ٢ ص ٥٤١.

(٣٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٦ : صار المسجد ملاصقاً للقصر وكانت من قبل تفصلهما مسافة مائتي ذراع = ١٠٨ أمتار.

(٣١) الطبري، ج ٤ ص ٤٤ .

مسجد مشيد بالقصب[٣٢] . لكن ذلك لا يمنع لا محالة وجود قاعة مسقفة للصلاة (وهذا هو المعنى الذي تؤديه كلمة ظلة) تتجه إلى القبلة[٣٣] ـ مع العلم أنها حادت عنها قليلاً[٣٤] ـ . إن المصادر التي بين أيدينا لا تتكلم إلا عن الصحن وتصفه بأنه صحن غير مسيج أو قليل التسييج ، مما يتيح الإشراف على الجسر ودير هند . لكن الارجح أن هذه الظلة كانت موجودة منذ البداية ، وقد شيدت تشييداً خفيفاً بالقصب وحتى باللبن[٣٥]. وبعد أن وقع نقل المسجد ، وهدمه سعد ، بمعنى أنه قوض الظلة («أراغ بنيانه») ، أي بعد تحديد موقعه نهائياً ، قرر سعد بناء المسجد بناء صلباً مصمماً ، والمقصود حجرة الصلاة فقط[٣٦] . وهكذا وإلى حد الآن فإن نص سيف لا يتناقض مع نفسه إطلاقاً . لا بد أن تكون الظلة وجدت منذ البداية ، ثم تحسن بناؤها بعد ذلك ، ويحتمل أنها بنيت بالآجر ، وألحق بها صحن سيىء الغلق كان يفتح على الفضاء الخارجي ، لكنه كان لا محالة محدد الابعاد . ولذا فإن فضاء المسجد الاصلي ليس فضاء خالياً بل كان مفتوحاً من ثلاثة جوانب وغير مستكمل . والمرجح أنه بني من جانب واحد بناء سيئاً . وإني أقول «المرجح» لأنه افتراض لا تسمح به رواية سيف بصفة صريحة . بل بالعكس ، يحثنا على ذلك غموضه في هذه النقطة بالتدقيق ، إلى جانب المقارنة بين مختلف المصادر المتاحة لدينا ، والمصداقية التاريخية ، ومن هذه التوجهة ، يكون نص سيف متضاربا غير دقيق بصفة تامة . فقد أشار إلى الظلة الاولى قائلاً :

«وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخام كانت للاكاسرة سماؤها

(٣٢) فتوح البلدان، ص ٣٤١، على الأقل أثناء الفترة الأولى، في عهد عتبة.

(٣٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٤؛ Annali، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٥٨.

(٣٤) بما قدره ١٧٠ درجة: الجنابي، ص ١٤٤، الذي اعتمد الفحوص الأثرية لعام ١٩٣٨.

(٣٥) في عام ١٦ أو ١٧ هـ. بنى أبو موسى في البصرة المسجد باللّبن وغطاه بالقصب: فتوح البلدان، ص ٣٤٢. وقد أكد «كرسول» وجود النمط المعماري لبلاد الرافدين في البناء: مرجع مذكور، ج ١، ص ١٧ ـ ١٨، ويضيف أن سقف المسجد بالكوفة كان من خشب.

(٣٦) لو أن الظلة بنيت بناء صلباً منذ البداية بسقف على النموذج الشامي البيزنطي، فإنه ما كان من المتيسر هدمها وإعادة البناء على بعد ١٠٠ متر.

كأسمية الكنائس الرومية» .

وأضاف بعد قليل أن زياداً جلب أعمدة من الاهواز ثقبت وحشيت من رصاص . ثم وقع تمتينها بسفافيد من حديد ارتبطت بها مع السقف ، هذا السقف المرتفع الذي حملته[٣٧] . وهو يتكلم تارة عن دهقان من همذان وتارة عن روزبة ذاك البنّاء المعماري الذي كثيراً ما يرد اسمه ، ويؤكد أن هذا الاخير استخدم عَمَلة من عرب الحيرة النساطرة وهم العباد . إن الشبه بين هاتين الروايتين لمراحل متغايرة ليس بتمام الاكتمال ، لكنه ملفت للنظر . وهو يسمح لنا بتأويل المرحلتين الأوليين على أنهما اسقاط للمرحلة الاخيرة (فترة زياد) . ذلك أن المصادر الاخرى ، وهي قليلة التعرض لهذا الموضوع ، تنسب حادثة استيراد أعمدة الاهواز إلى زياد ، لكنها لا تتكلم البتة عن أعمدة من رخام في خصوص عصر سعد[٣٨] . يؤيد النص الموجود في **الفتوح** «للبلاذري» ، ما قاله «غرابار» ، وهو يتلخص في أنه يمكن للقبائل البناء من وراء العلامات . أما داخلها فإن سعداً ترك فناء (والمقصود فضاء عارياً) للمسجد والقصر[٣٩] ، هناك إشارة وحيدة إلى الاعمدة وهي قول البلاذري في نفس الكتاب : «وكان زياد يقول : أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة ومائة»[٤٠] . لكن لا بد من الانتباه إلى أنه يذكر في رواية أخرى أن اقتطاع أساطين الحجر من جبل الاهواز جد من أجل مسجد البصرة وفي فترة متأخرة نسبياً[٤١] . أما ياقوت ، فكان واضحاً في هذا الموضوع ، فقال إنه وقع جلب الاعمدة من الاهواز وصنعها ، في ولاية

---

(٣٧) الطبري، ج ٤، ص ٤٤ ـ ٤٦.

(٣٨) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٦؛ ياقوت، **معجم البلدان**: ج ٤ ص ٤٩١، يؤكد أن زياداً كان أول من بنى بالآجر وأنه أتى بالاساطين من الأهواز. ويروى ياقوت في ص ٤٩٢ من نفس الجزء، أن عبيد الله بن زياد هو الذي بنى المسجد بناء صلباً، وهي رواية تلتقي بما ورد في الأخبار عن ثورة مسلم بن عقيل حيث نرى جند ابن زياد يجوسون في ظلال المسجد على ضوء القناديل: راجع الطبري ج ٥ ص ٣٧٢.

(٣٩) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٥.

(٤٠) **نفس المصدر**، ص ٢٧٥. لا يتكلّم البلاذري لا عن أساطين ولا عن أي بناء زمن سعد.

(٤١) **نفس المصدر**، ص ٢٧٦.

زياد[٤٢] . إن كلّ ما أوردناه لا يناقض سيفاً بصفة واضحة لامراء فيها ، ويبقى نصّ سيف أكمل وأتم مصادرنا، إنّما يدب فينا الشعور بأن زياداً هو الذي منح المسجد جهازه المعلمي من كافة الوجوه . أما العنصر الوحيد المؤيد لرواية سيف فهو أن المرحلة الاولى بالنسبة للمسجد كما بالنسبة للقصر كانت تحت تأثير الحيرة ، في حين أن مرحلة زياد كانت فارسية بدون ريب . لو أضفنا إلى كل هذا ما هو معروف عن البصرة ، وأن هناك شعوراً ضعيفاً بالهندسة المعمارية العظمية عند العرب ، وهو افتراض صحيح ، لرجحنا ليس فكرة انعدام أي بناء للمسجد زمن سعد ، إنّما فقدان بناء شامل للمسجد يطمح إلى العظمة والاكتمال والانسجام المعماري .

القصر :

لنبدأ باستفهام علم الآثار . فهو يشهد بوضوح ، كما مر بنا ، على وجود مستوى سبق العصر الاموي ، دون أن نعلم هل أن العصر الاموي يبدأ مع زياد أو مع عبد الملك ، لأن المصادر المكتوبة تؤكد أن الخليفة عبد الملك هدم كل شيء وأعاد بناءه بعد ثورة مصعب[٤٢ مكرر] . فيمكن لذلك أن توافق الفترة الأولية ما قام به زياد كما قد توافق ما قام به السابقون له . لكن من هم ؟ هل هو سعد أم المغيرة ؟ لم يتحدث سيف عن المغيرة إطلاقا .

وتؤكد الحفريات الأثرية أن المستوى الاول يشهد بآثار خاصة بأسس وحدة أصلية واحدة ، كانت مربعة الشكل بقياس ١١٣ متراً و٩٥ على ١١٣ متراً و٨٦[٤٣] . إنها أسس لاسوار منسوفة ، لكن يظهر أن البنائين اللاحقين عادوا إليها ليشيدوا فوقها أسواراً جديدة ، لها نفس الابعاد تقريباً ، وهي توافق أبعاد الجدران الداخلية . وتوجد الأبراج وعددها عشرون بنفس المكان دائماً ،

(٤٢) معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.
(٤٢ مكرر) البراقي، تاريخ الكوفة، ص ٦٦ وما بعدها.
(٤٣) مصطفى، مرجع مذكور، ص ٦٠.

وتنغمس في آثار الأبراج القديمة وقد تساوى عددها بالضبط[٤٤] . نتعرف بمساعدة علم الاثار على هذه القلعة العظيمة بالنظر لهذا المستوى الأول ، إذ كان سمك جدرانها يتراوح بين متر واحد وثمانين سم ، ومترين ! أما المادة المستخدمة فهي الآجر بقياس ٣٦ سم × ٣٦ سم × ٩ سم ، لكن شكل اللبنات غير منتظم ، واستخدمت كذلك نصف الآجرة أو القطعة منها في بعض الأحيان ، والجبس كموثق للآجر ، أو أنه كان يمزج بقطع من الآجر لتبليط البناية . ولم تظهر في هذه الفترة أشياء أو مواضيع زخرفية([٤٤] مكرر) . وما نجده في الجملة هو هيكل وخطوط موجهة أساسية .

لكن ماذا تقول المصادر الكتابية في هذا الموضوع ؟

يتحدث سيف والبلاذري فقط عن القصر . ولا نجد عند البلاذري خبراً عمّا قام به سعد من بناء لا في الموضوع المحدد للمسجد ، ولا في الموضع المحدد للقصر داخل المساحة العمومية . وتنسب الرواية صراحة إلى زياد بناء القصر[٤٥] . وقد ورد بخبر فرعي قصير وجدّى أن سعداً أحاط قصره بالقصب وجهزه بباب خشبي[٤٦] ، يحتمل أنه جلب مع أبواب أخرى من المدائن . فمن الممكن إذن أن يكون القصر بقي فضاء عراء ، ومعسكر خيام الأمير ، وأنه كان شبه مركز القيادة على الطريقة البدوية . والأقرب إلى المعقول أنه ربما بني بالقصب بناء بدائياً ، فكان خصّاً ضخماً بين خصاص الناس المقيمين الكثيرة ، حتى زمن زياد . وفي هذه الصورة يبدو واضحاً لا محالة أن الأسس التي سبقت العصر الأموي[٤٧] ، من المستوى الأول للحفريات يرجع تاريخها إلى زياد وتنتسب إذن

(٤٤) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٤٤ مكرر) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٤٥) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٦ ؛ **Annali** قسم ٣ ج ٢ ص ٨٥٠. الحقيقة أن الدينوري يتحدث في **الأخبار الطوال**، ص ١٢٤، عن بناء القصر والجامع من طرف سعد. ولم يذكر خليفة بن الخياط شيئاً من ذلك، ج ١ ص ١٠٩.

(٤٦) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٧.

(٤٧) لا شيء يسمح لعلي مصطفى بالتصريح أن المستوى الأول يعود تاريخه إلى ولاية سعد. لم يكن =

إلى الفترة الاولى من الدولة الاموية . أما المستوى الأموي ذاته ، فيؤرخ فيما بعد سنة ٧٥ هـ / ٦٩٥ م .

كان سيف أكثر تفصيلاً . وهو يميل إلى إعادة بناء الماضي بواسطة الحاضر ، بصورة واضحة . فقد أدخل فكرة قصر أول ارتبط بالمسجد بواسطة نفق طوله ٢٠٠ ذراع (ما يقرب من ١٠٨ أمتار) بني بالآجر أصلاً ، وهو الآجر المنتزع من قصر ساساني كان يوجد بالحيرة[٤٨] ، ولقد ذكرنا أن بيت المال كان ضمن هذا القصر . ثم طرأت سرقة هذا البيت ، فتقرر هدم المسجد ونقله قريباً من القصر ومحاذياً له[٤٩] ، فأعيد بناء المسجد والقصر مرّة أخرى انطلاقاً من بقايا قصر ساساني بالحيرة[٥٠] . يورد سيف ذلك وكأنه يذكره للمرة الأولى[٥١] .

الواقع أن المسجد الحالي ملاصق لميمنة القصر في اتجاه القبلة ، بالصورة التي بينها سيف ، كما بقيت آثار لنفق من العصر الأموي ، إلا أن الوصل قد تم في المستوى الاموي المتأخر ، بالسور الخارجي للقصر ، ويمتد ضلعه على أكثر من ١٦٨ متراً[٥٢] . ومن المفارقة أن الآثار الوحيدة التي تبقت من المستوى الأول للحفريات توجد من جهة المسجد ، لكن في الحوزة الداخلية التي كانت تحدد محيطاً ضلعه ١١٤ متراً[٥٣] ، أي بتراجع يقدر بـ ٣٠ مترا ، بالنسبة إلى حائط المسجد ، ليس من شك في أن القصر الأصلي المشيد لم يكن يتجاوز الحزام

= قوله سوى افتراض مستنبط انطلاقاً من المصادر الكتابية . ألم يتحدث هو نفسه عن قصر أموي ثان ، لم تتحدث عنه المصادر التي بين أيدينا؟ مرجع مذكور ، ص ٤٧ .

(٤٨) الطبري ، ج ٤ ص ٤٥ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦ . راجع الخرائط الملحقة بالدراسة .

(٥٠) المرجع نفسه ، ج ٤ ص ٤٦ كايتاني يمرّ مرّ الكرام على هذه المراحل المتنوعة : **Annali** ، قسم ٣ ج ٢ ص ٨٥٨ ، ولم يحتفظ إلاّ بفكرة «الدار» كنواة للقصر اللاحق المبني انطلاقاً من آثار الحيرة . وقد شكك Reitemeyer أقوال سيف : مرجع مذكور ص ٣٤ .

(٥١) متناسياً أنه تحدث عن قصر سعد في اللحظة الأولى مما جعله يناقض نفسه .

(٥٢) الشكل الأول من دراسة محمد علي مصطفى و ص ٣٨ ؛ الجنابي ص ١٣٨ - ١٣٩ ، وشكل ١٤ .

(٥٣) ١١٣ متراً ، ٩٥ بالضبط ، من الشرق إلى الغرب : محمد علي مصطفى ، ص ٦٠ .

(٥٤) راجع تصميم الجنابي الذي نقل بالتدقيق تصميم محمد علي مصطفى .

الداخلي(٥٤) . وبما أن الزوايا الأموية الملاصقة للمسجد مازالت قائمة ، فمن المرجح أن حدود المسجد الحالي ، الذي تأجخر بناء جدرانه ، تعود إلى العصر الأموي ، مع أنها تتراجع قليلاً إلى الداخل بما قدره ٣ أمتار ، ٦٠ سم ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن اتساع القصر على حساب المسجد ، بل بالعكس ! لقد بني المسجد لاحتواء ٠٠٠ , ٤٠ شخص في ولاية سعد ، ووقع توسيعه في إمارة زياد ، بحيث صار يحوي ٠٠٠ , ٦٠ شخص(٥٥) . ولإنقاذ رواية السيف ، يكمن الحل الوحيد في التفكير في اتساع القصر بين السورين وعلى حساب المسجد الذي امتد في اتجاه الشمال ، فعاد بذلك إلى موقعه السابق . وفي هذا المعنى ، هناك مؤشرات قليلة وكثيرة الغموض . لكن ألا يقرب من المعقول أن نفكر بخصوص ما يقوله سيف ، في عملية إعادة بناء ذهنية ، قد تمت في وقت لاحق ؟ كانت مواد الحيرة موجودة فعلاً ، لكن النمط المعروف بالنمط الحيري ينتمي إلى الطبقة الأثرية الشائعة في العصر العباسي الأول(٥٦) ، الذي هو عصر سيف بالذات ، كما أن وجود الدهليز في واقع الأمر أمكن إسقاطه في الفترة الأولية . ويرجح كثيراً أنه وقع نقل المسجد غير بعيد عن القصر ، عندما أعيد بناؤه ، لكن لم يتلاصق الجهازان المتقاربان إلا في العصر الاموي المتأخر ، وذلك بزيادة السور الخارجي للقصر ، وهذا ما يفسر وجود الدهليز الذي كان يمر منه الوالي(٥٧) ، وهذا أيضاً إسقاط يرد إلى الماضي .

وتتفق النصوص الكتابية وعلم الآثار على تحديد موقع البنايتين وعلى أبعادهما الجملية(٥٨)ومحيطهما القريب (السوق والرحبة) . ويتفق سيف والبلاذري

(٥٥) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٩١ .

(٥٦) محمد علي مصطفى، مرجع مذكور، ص ٥٨ .

(٥٧) الجنابي، ص ١٤١ .

(٥٨) بخصوص المسجد: سيف برواية الطبري ج ٤ ص ٤٥، قدر طول الظلّة بـ ٢٠٠ ذراع أي ما يزيد قليلاً عن ١٠٨ من الأمتار. وهذا قياس لا علاقة له برمية السهم. لكنه مطابق لما توصلت إليه الاستطلاعات الأثرية من نتائج: ١١٠ من الأمتار لحائط القبلة، و ١٠٩ م. لحائط الشمال، و ١١٦ م. لحائطي الشرق والغرب. راجع في هذا الخصوص: **وثائق مديرية الآثار**، بغداد، ص ١٠ . الذّراع هنا لا يمكن إلاّ أن تكون الذراع السوداء المقدرة بـ ٤٥ سم: Hinz، مرجع مذكور، ص ٦١.

على القول أنه ترتب عن المحاولات المترددة في العصر الأولى، عمل منقوص تمثل في مسجد بدون أروقة، وقاعة صلاة بسيطة للغاية (كانت مبنية اما بالقصب واما باللبن). ولا يقل القصر بساطة عنها، إذ بني بهذه المواد ذاتها. ولعل الاقتباسات المستمدة من قصور الحيرة القديمة قد أضيفت مع باب خشبي كبير. وما تبقى من الأسس السابقة للعصر الأموي يطرح مشكلة حقيقية: هل كان ذلك في عصر زياد أم في عصر سعد؟ لكنّ الإطار كان مسطراً، وكانت الفكرة واضحة، هي تتمثل في توأمة ممتازة بين المعبد والقصر، وسط مساحة عمومية كبرى ما زالت منيعة عن البناءات الخاصة.

الرحبة والسوق والآري:

هناك ثلاثة عناصر أخرى تشكل المساحة المركزية. أولاً الـرحبة، وهي كلمة بقيت شائعة في لغة المدينة العربية المعاصرة[٥٩]، توحي بالإتساع، والمكان الخالي ما عدا بعض المناسبات، في الفضاء المديني. وهي ملاصقة هنا للقصـر والمسجد من جهة اليمين، في اتجاه القبلة (تقع في رسمنا يساراً). وقد بين سيف ذلك قائلاً:

«ووضع المسجد بحيال بيوت الأموال منه الى منتهى القصر يمنة على القبلة ثم مدّ به عن يمين ذلك الى منقطع رحبة علي بن أبي طالب عليه السلام والرّحبة قبلته ثم مد به فكانت قبلة المسجد الى الرّحبة وميمنة القصر»[٦٠].

وهذا يعني أنها تمتد على الجنوب الغربي من المسجد وعلى غرب القصر.

ماذا كانت تمثل الرّحبة؟ إذا ما صدقنا سيفا، فلا بد أنها كانت تحتل الزاوية التي يحددها الحائط الجنوبي للمسجد والحائط الموجود غـرب القصر. والـرّحبة

---

(٥٩) قارن برحبة الغنم في تونس. وقد لاحظ البراقي أن بـالمدن العـربية فضـاءات تسمّى صفوة، أو صفاوة، أو مناخة: التاريخ، ص ١٢٠.

(٦٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٦.

ظاهرة مدينية عادية تتمثل في ترك فضاء ما أمام البنايات العمومية، أمّا أن يقع الاختيار على مكان يتواجد فيه أو يتواصل المسجد والقصر، بمعنى المكان الذي يشتركان فيه، إن صح القول، فهو أمر طبيعي جدّاً.

إنه الفضاء المفتوح انفتاحاً كاملاً، وهو يذكّر بالساحة العامة (agora) عند اليونان، وبالميدان عند الفرس، وبالساحة العامة عند الرّومان (Forum) ويمكن أن يذكّرنا كذلك **بالساحة الحمراء** أو بساحة **تيان ـ أن ـ من**: هذه ظاهرة عالمية مستمرة بصورة ملحوظة عبر الزمان. وقد ارتبطت الرّحبة في المصادر باسم عليّ، لأن عليّاً كان يسكن فيها (في بيت من قصب، كما ذكرت احدى الروايات)، ولأنّه ترك القصر مدّة، ليس لأنه أسس الرحبة التي كانت سابقة له. وقد جعل منها ماسينيون فرعاً أو إفرازاً للقصر، وماثلها بالميدان، «الميدان الذي كان يفتح عليه القصر غرباً (بمصطبة مركزية كانت تعد خلال الاحتفالات الكبرى)، وقد تسمى أيضاً رحبة عليّ»[٦١]. والواقع أنه إذا كان للرّحبة أن تلعب دور المكان المخصص للاحتفالات العسكرية، واستعراض الجيوش، فإنها تظهر بالأخص امتداداً للمسجد. ولعلها صارت كذلك، لأن الشهادات التي وصلت الى علمنا متأخرة. وبالفعل، ظهرت رحاب المسجد في الحواضر الإسلامية الكبرى خلال القرن الأول والثاني الهجري. فكانت توجد بالمدينة رحبة القضاء للتحكيم الذي تم على يديّ عبدالرحمن بن عوف، بين عثمان وعليّ سنة ٢٣ / ٦٤٤، وقد كانت ملاصقة للمسجد[٦٢]. وفي سنة ١٤٥ /٧٦٢، جدت فتنة بالمدينة أيضاً، فأمر الوالي الرجال المسلحين الذين قدموا لنجدته بأن يترقبوا طلوع النهار ليشرعوا في قمع العصاة، وأن يحطوا الرحال بالرّحبة[٦٣]. وفي بغداد اجتمع بعض الأشخاص وقرروا الانتفاض في رحبة الجامع[٦٤]، داخل المدينة التي تميزت عن الأرباض في

---

(٦١) Massignon، مرجع مذكور، ص ٥١.
(٦٢) الطبري، التاريخ، ج ٤ ص ٢٣٧.
(٦٣) المرجع نفسه، ج ٧ ص ٥٥٤.
(٦٤) الطبري، التاريخ، ج ٩ ص ٣٥٨.

ذلك العصر (٢٥٢/٨٦٦). وقد أشير الى وجود رحبة بني تميم[٦٥] في البصرة أيضاً، ورحبة القصابين كذلك[٦٥]. وما يهمّنا أكثر هو ما ورد عند الطبري من إشارات متفرقة عن رحبة الكوفة. انّ الإشارتين الواردتين عنده عن المصطبّة[٦٦] تدلّان على أن هذه المنصة بناية ثابتة وأنّها قريبة من القصر، لا على أنها تقع في الرّحبة وهو افتراض لا غير. أمّا الرّحبة فقد وقع التلميح اليها بكامل الوضوح عند دخول شبيب الى الكوفة (٧٧/٦٩٦)، لكن دون أي تحديد لموقعها. وخلافاً لذلك، يتوفر لدينا نص ينير لنا السبيل جيداً بالنسبة لعصر لاحق[٦٧] (١٥٩/٧٧٦). فماذا يقول؟ يفيدنا أن الرّحبة التي تسمّى رحبة المسجد، كانت موجودة خارج المسجد، لكن بعد الأبواب مباشرة (ولعلها امتدت آنذاك الى الجانب الغربي، لأننا لا نتصور أبواباً تفتح على حائط القبلة). كانت تستخدم كمصلى، بمعنى أنها كانت موضعاً للصلاة في الهواء الطلق. فظهرت بمظهر المكان الملحق، وكامتداد للمسجد. ومع ذلك، فقد بقيت مستقلة خارجية عن المسجد حقاً. لم يكن لأي أحد حق إدخال رحائله اليها يوم الجمعة، ما عدا عيسى بن موسى الذي أقلق من أجل هذا الأمر، لكن لأسباب سياسية. ويصور هذا النص لنا دون شك فترة متأخرة، وزماناً ضاق المسجد فيه كثيراً على السكان، كما تغيرت فيه أمور عديدة في حياة الكوفة. والأرجح أن الرّحبة كانت ساحة واسعة في الأصل، محيطة بالقصر والمسجد وكانت تقوم بدور غير واضح في بداية الأمر، لكنها كانت لا محالة فضاء ضرورياً للمرور بين المسجد وخطط القبائل البعيدة عنه. فالنص الذي بين أيدينا واضح وهو يذكر أن «أفواه السكك» كانت تبدأ حيث تنتهي الرّحبة[٦٨]. هنا كانت تتقاطر أفواج الفرسان القادمين للصلاة، من جهة المسجد. ولا شك أنهم كانوا يربطون بها أفراسهم قبل الدخول الى المسجد، ولعل سلوك عيسى بن موسى الذي ينم عن روح امتياز وتكبر، أراد إحياء عمل

(٦٥) المرجع نفسه، ج ٥ ص ٥١٨ و ص ٥٠٦.
(٦٦) الطبري، التاريخ، ج ٦ ص ٤٧ وج ٥ ص ٢٤١. أخطأ ماسينيون في المراجع.
(٦٧) المرجع نفسه، ج ٨ ص ١٢٢.
(٦٨) الطبري، ج ٨ ص ١٢٢؛ وأنساب الأشراف، ج ٥ ص ٢٣٩.

قديم صار باليا بتطور الزمن. أما من جهة القصر، وعلماً بأنّ الرّحبة كانت تمتد الى الجنوب الغربي، فقد رجح المظهر العسكري السياسي، ونشر جهاز الحكم مباهجه بها. وعلى هذا، يتمثل دور الرّحبة إجمالاً في قطبين نفعيين جداً. ثم أن كفة المسجد رجحت بمرور الزمن، فلم تبق سوى رحبة المسجد، التي تحولت هي ذاتها الى مسجد.

أنّ المقارنة بمدينة بغداد في عصر المنصور، سوف تخولنا مزيداً من التدقيق في وظيفة الرّحبة، بحيث نتجاوز نص سيف. نجد في هذا المجال معلومات دقيقة عند اليعقوبي(٦٩)، والطبري(٧٠)، والخطيب البغدادي(٧١)، إضافة إلى بحثين كتبهما لاسنار (Lassner)(٧٢). يظهر بوضوح أن «المدينة المدورة» جسدت تمييزاً لمساحة مركزية كثيرة الاتساع ـ تشتمل على القصر والمسجد، وعمارة للشرطة ـ وحزامين للحماية والسكن ـ مع سوق في الطاقات في البداية. ان الرّحبة تبرز كأحد العناصر الأساسية للمساحة المركزية لأنّها تتطابق مع كافة الفضاء العاري الذي يحيط بالمسجد والقصر وتفصلهما عن الحزام السكني. وهكذا يصبح الشبه بالكوفة عجيباً ـ وسنعود الى هذا الأمر ـ وهو يسمح بتسليط النور على وضع الكوفة، انطلاقاً من بغداد والعكس، بفضل جملة من المقارنات. وبما أن تصميم الرّحبة كان أحسن ببغداد، وبما أنّه وقع إقصاء الأسواق من المساحة المركزية(٧٣)،

(٦٩) كتاب البلدان، ص ٢٤٠. يبدو أنّه مكان للرّحبة موضع مركزي، وأنها كانت محاطة دائرياً وعن بعد دون شك، بمساكن ودواوين.

(٧٠) التاريخ، ج ٧ ص ٦٥٢ ـ ٦٥٤.

(٧١) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٧٤ وما بعدها.

(٧٢) «The Caliph's personal domain» في **Islamic City** ص ١٠٣ ـ ١١٨. ومن المهم مقارنته بمقال جيد لصالح العليّ بنفس المجموعة، ص ٨٧ ـ ١٠١. انظر أيضاً: **The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages**، Detroit، ١٩٧٠.

(٧٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢. وضعت الأسواق في الطاقات الأربعة قبل أن يقع نقلها إلى الخارج بالكرخ. وقد أمر المنصور في ذات العملية بسد الأبواب التي تفتح على الرّحبة، وفتح أبواب أخرى في الفصيلات بين الطاقات: المرجع نفسه ص ٦٥٢. راجع أيضاً لأسنار، مقال مذكور =

فقد صارت أكثر اتساعاً، وأحاطت بفراغها ومن كلّ جانب بالمركب المركزي. وقد مر بنا أنه كان ينبغي التفكير في مدها بالكوفة أيضاً، الى كافة الواجهة الغربية من المسجد، حتى نهاية المساحة المركزية،[٧٣] (مكرر) وتمتد بعدها الخطط أي قطائع السكن. على أن الأسواق في الكوفة تحتل جهة الشمال داخل المساحة المركزية، فضلاً عن أن القطائع السكنية ستقرض منها نوعاً ما، وهي قطائع استثنائية وشخصية اقطعت لإشراف الناس[٧٤]، (اشترى عيسى بن موسى دار المختار، التي كانت ملاصقة للمسجد، وذلك لكي يتمادى في الذهاب اليه حسب مشيئته)[٧٥]. وهناك نقطة أخرى تشكل وجه شبه: لم يمش الناس في رحبة المنصور إلا سيراً على الأقدام. وقد روى الطبري[٧٦] والخطيب أيضاً[٧٧] حادثة وقعت لعيسى بن عليّ، ومفادها أن هذا الشخص وهو أحد أقرباء الخليفة كان مريضاً، فلم يقدر على قطع الرّحبة على طولها مشياً على الأقدام، لكي يصل الى القصر. وتدل هذه الحادثة بوضوح أن تحجير الركوب بالرّحبة صادر عن المنصور، وهو انطبق على الكوفة تبعاً لبغداد، وأن الركائب كانت تحط بالرّحبة في السابق فيما يخص الكوفة، على الأقل يوم الجمعة. وأخيراً، فقد تحولت بعد ذلك الرّحبة في بغداد الى مصلى[٧٨]، وقد تم ذلك منذ خلافة المهدي وربما قبل ذلك في الكوفة.

= ص ١١٢، فالرسوم المصاحبة لبحثه تضمنت مواضع متفرقة للرّحاب داخل مركبات الأبواب، بمثابة ساحات للخروج، لا غير. وسمّى الرّحبة الكبرى «Inner court» مما يبعث على اللبس. وقد اقتبس هذه الرسوم عن كرسوال وهزرفيلد (Hezzfeld).

(٧٣ مكرر) من الممكن تعريف الرحبة في الأول بكل الفضاء غير المبني ولذا تكون محيطة تماماً بالجامع والقصر ومحتوية على الأسواق قبل أن تبني ويتحدّد فضاؤها. فهناك اشارات إلى أن السوق الأولية كانت بالرحبة بمعناها الأشمل.

(٧٤) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٣١٠؛ الطبري ج ٦ ص ١٩ بخصوص دار عمرو بن حريث.

(٧٥) الطبري، ج ٨ ص ١٢٢. يفسر قرب دار المختار من المسجد موقف الشيعة المتأخرين الذين اعتبروا أن قبره كان موجوداً في احدى زوايا المسجد: البراقي، **تاريخ الكوفة** ص ٦١. يظهر أن مسلم بن عقيل نزل في دار المختار: **أنساب الأشراف** ج ٥ ص ٢١٤.

(٧٦) **التاريخ**، ج ٧ ص ٦٥٢.

(٧٧) **تاريخ بغداد**، ج ١ ص ٧٧.

(٧٨) ليس الأمر بديهياً تماماً في نص الطبري الذي يروي انتفاضة سنة ٢٥٢: **التاريخ** ج ٩

وهكذا نلحظ تفاوتاً في التطور، لكن أيضاً تماثلاً عجيباً في هذا التطور، وبذلك نكتشف كثيراً من الخاصيات للكوفة في بدايتها تظهر في بغداد في خلافة المنصور، شكلياً وعلى مستوى التصور(٧٩).

من الضروري أن نتساءل الآن عن مصدر الرّحبة. هل كانت من أصل بابلي أم هلينستي، أم ساساني، أم روماني بيزنطي، أو من جنوب بلاد العرب؟

لقد رأينا أنّه تشكل قبل ظهور الإسلام، نوع من الصورة المعممة للبنية المدينية حيث تجمعت كافة التقاليد الخاصة. وهو أمر صالح أساساً للمساحة المركزية، كما بالنسبة للعناصر المكونة لها (القصر والمعبد)، ولا بد أنّ الأمر يكون كذلك بالنسبة لساحة المعبد والقصر. ومن المعلوم أنّ مثل هذه الساحة كانت بصورة أدق، موجودة في المدن اليمنية، وفي المدن الساسانية أيضاً، وقد تحدثنا سابقاً عن البوميريوم (pomerium) وعن الساحة المركزية في المدن الرّومانية (forum)، مع أن المكان الأول يطابق بالأحرى فكرة الصحن. ومن المفيد التمعن في فكرة الأغورا (agora) التي انتشرت كثيراً في الشرق في ذلك العصر(٨٠). فماذا نجد في دمشق، المدينة التي تفيد المؤرخ، لأنّها تحملت الاستمرار في التقطع؟ نجد هنا أيضاً، في قلب المدينة، هذين العنصرين الحاسمين، نعني المعبد والقصر. لكننا نجد أيضاً الساحة العامة (الأغورا) التي غطتها البناءات الكثيرة، فكادت تمحوها، بسبب التغييرات الواسعة التي طرأت

ص ٣٥٨ . وعلى كل فقد صارت الرحبة مرتبطة بالمسجد ارتباطا عضوياً ، واستمدت اسمها منه ، وكانت واسعة جداً وشعورنا بعد قراءة متأنية أن الرّحبة استخدمت كمصلى . وقد شدد اليعقوبي تأكيده على هذه النقطة ، ولهذا الأمر اعتباره حيث ألف كتابه في نفس المدة تقريبا : كتاب البلدان ، ص ٢٤٠ .

(٧٩) سوف نعود إلى هذه النقطة الرئيسية، إذ لا نوافق العليّ ولا Lassner على رأيهما. ولنشر منذ الآن إلى نصيب أهل الكوفة في بناء الحاضرة الجديدة: أبو حنيفة الفقيه الكبير، راجع الطبري، ج ٧ ص ٦١٩، وابراهيم بن حبيش الكوفي، المرجع نفسه، ص ٦٥٣.

(٨٠) لنسجل فكرة لويس ممفورد عن انتشار النموذج الهلينستي حيث وقع تعميم الصبغة الهلينستية على الصعيد العالمي «كنموذج منمط للصناعة المسترسلة»: مرجع مذكور، ص ٢٦٩. ولا بدّ أن الفرس قد استبطنوا هذا النموذج.

عليها. وما ذكره اليساف (Elisseef) يدل دلاله عميقة على ذلك، وقد اعتمد سوفاجي فيما قال (Sauvaget): «يذكّر درب الرّحبة وهو السكة المنحرفة المجانية لأسفل التل (الذي يغطي الأغورا) بوجود سابق قديم لساحة مستطيلة أو مربعة الشكل، كانت تسمى رحبة خالد في العهد الوسيط. وقد احتفظ بذكراها الى اليوم في ساحة الديوانة...»(٨١). ولنلاحظ هذه الترجمة الممتازة التي ظهرت في اللغة والحجر في آن، والتي حولت الأغورا الى رحبة. ونسوق هذا على صيغة الإشارة والتلميح لا غير، لأنّه لا يمكن القول ان دمشق أثرت على الكوفة في بداية نشوئها(٨٢). قد أتيح لها ذلك كعاصمة للامبراطورية، لكن في عصر لاحق، خلال امارة زياد، وخلافة عبد الملك، وولاية خالد القسري. لكن لو أردنا الدخول بعيداً في عملية المطابقات، فمن يقدر أبداً أن يدلل على أن رحبة الكوفة قد تسمت باسم رحبة قبل العصر الأموي؟ أمّا في بلاد الرّافدين فالأحرى أنّ ينسب الى التأثير الهلينستي على السلوقيين والبارتيين، أمر تهيئة ساحة كبيرة حول القصر والمعبد على شاكلة الأغوار(٨٣) وهكذا تتتابع وتتشابه صور لذات العنصر الحضري، ولا تتشابه في نفس الوقت، لا سيما في غائيتها. لقد سبق لرحبة المنصور أن استهدفت الاتجاه المعلمي(٨٤)، وكانت ترمز الى المسافة التي لا تدانى

(٨١) Nikita Elisseef: «دمشق في ضوء نظريات Jean Sauvaget»، في The Islamic City، ص ١٧٠.

(٨٢) لا شك أن سيفا وصف الظلة الأولى (ظلّة سعد) بأنها كانت مسقفة بسقف من النوع البيزنطي، بمفعول اسقاط يعود إلى الماضي ويتجه اتجاهاً ثقافياً جامعاً: الطبري، ج ٤ ص ٤٥. لكنه لم يكن يتصور ذلك أمراً مستحيلاً، عندما كان بصدد تأليف كتابه وهو الرّجل الذي شاهد عياناً الكوفة خلال العصر الأموي الأخير.

(٨٣) ذكر ممفورد اعتماداً على أعمال معروفة، أنّه بالنسبة لليونان «كانت الأغورا منذ البداية، مخصصة للعلائق اليومية المتنوعة، وقد فصلت فصلاً تاماً عن سور المعبد.. وتمّ هذا الفصل بصورة أسرع مما كان عليه الأمر في بلاد الرافدين: ذلك أنّه لم تقع أبداً ممارسة التجارة والصناعة بإشراف المعبد، على الأقل بعد عصر هوميروس»: راجع ص ١٩٤ من La Cité à travers l'histoire.

(٨٤) ينبغي تمييزها عن الرحاب الصُغرى الكثيرة المحددة مواضعها في مركبات الأبواب بخصوص الرّحبة المركزية في بغداد التي تكاد تماثل الساحة العامة كلها: راجع كتاب البلدان، ص ٢٤٠؛=

والتي كانت تفصل السلطة عن الناس وتمثل الفراغ العميق الناتج عن خشية هذه السلطة ذاتها. في حين تقمّصت الرّحبة في الكوفة الأولى وظيفة الرّافد والمصب من الحزام السكني الى المركز، وشيئاً فشيئاً، وبمقدار تعاظم السلطة المفارقـة للوالي صارت لها وظيفة الحاجز بالنظر للجماهير الغفيرة المقيمة بالمدينة. فما القول إذن في وظائف الأغورا الكلاسيكية، ووظائف الرّحبة الإسلاميـة، إذا سلمنا بـوجود اقتباس ما؟ كان للأغورا اليونانية في الفتـرة العتيقة وظيفـة تجاريـة، وأضافت الأغورا في الفترة الكلاسيكية الى ذلـك، وظيفة سيـاسية. فـأصبحت الفضاء الحيوي للعلاقة الاجتماعية، ومكاناً للمداولات والمناقشات. لكن رحبة الكوفة، ورحبة بغداد بدرجة أقل، لم تكن امتداداً للسوق، ولا ساحة سياسية، ولا حتى مكاناً للمداولات: إنّ صمت المصادر العربية عن هذا الموضوع ناطق مبين. لقد كان القصر يجمع في قبضته قوة القمع والقرار، فكان في بداية الأمر يوظف الرّحبة اما لجمع رجاله، وإما لإظهار قوته عبر الاستعراضات العسكرية. أما المسجد، فكان يجمع طيلة القرن الأول الهجري، النقاش السياسي الديني، لا كاختيار أصلي متجذر[٨٥]، إذ كان موكولاً للتعبد قبل كل شيء، بل كعادة مكتسبة. كان النقاش يدور في المسجد والقوم جلوس، لا وقوفاً أو متجولين في الرّحبة. ثم وجدت بعد ذلك البلبلة الشفوية والمسلحة نقطاً للارتكاز في الجبانات[٨٦]، تلك الأشكال الأخرى المنبثة للرّحبة، كما في الكناسة ذلك المكان الرفيع الآخر لحرارة العلاقة الإجتماعية المستمرة.

السوق:

كانت السوق عنصراً أساسياً ثانياً في المساحة المركزية، الى جانب الرّحبة

= والطبري، التاريخ، ج٧ ص ٦٥٤؛ و Lassner **The Topography of Baghdad** ص ١٤٤.

(٨٥) هذا رأى لامنس (Lammens) الذي أنكر صبغته الـدينية. راجـع: **Etudes sur le siècle des Omayyades**، بيروت، ١٩٣٠.

(٨٦) راجع بحثي المذكـور سابقـاً، في **JESHO**، ومقالي «الكـوفة»، في دائـرة المعارف الاسـلامية، الطبعة الثانية.

وكانت مثلها محيطة بالمركب «المعلمي» المتكون من القصر والمسجد. وقد أسقطت منذ البداية على مخطط المدينة، بعد أن استنبطتها مخيلة المخـططين. إن السوق عنصر من الحياة الجماعية وجزء من المساحة العامة. كانت مستقلة وجهازاً قائم الذات متميزاً عن المسجد ـ خلافاً لتقاليد الشرق القديم. لكنها كانت قريبة منه وحدّد موقعها في الجوار المباشر للمسجد، هذا الجوار الذي استمر في كل بنية مدينية إسلامية، في حين أن القصر هاجر الى القصبات الخارجية أو الى محلات للإقامة في الضواحي. إن المهم في هذا المجال أن نؤكد تعمد تهيئة الموقع الخاص بالسوق[87]. فلم تنشأ السوق كإفراز لحاجيات التبادل والاستهلاك في المدينة، أي نشوءاً عفوياً، بل كان وجودها إرادياً محدد الموقع. وأن تكون بسيطة جداً أو حتى غير متميزة داخلياً في الأول، فلا يزيد هذا على أن يكون أمراً طبيعياً. الحقيقة أن عالم التجار كان موجوداً منذ ابتداء الفتح، متقفياً الجيش، متصيداً الغنيمة[88]. لكن هل نحن على يقين من إنشاء السوق لمثل هذا الصنف من المبادلات وحتى لهذا الصنف البشري، أي لتاجر الجيش، المضارب المغامر المتجول؟ إن السوق المركزية، كما سيظهر ذلك من خلال تطورها اللاحق، مكان للمبادلات ومكان للإنتاج. وقد أنيطت بها خدمة جماعة في سبيل التمركز والاستجابة لحـاجياتهـا الحيوية. وهنا أيضاً، كان عالم سوق الجيش مدعواً للاستقرار، وتكييف نشاطاته بنظام المدينة الجديدة، تماماً كما كان المقاتلون يتمصرون. اللهم إلا إذا كان تهاطل على السوق صنف آخر من التجار والصناع، صنف من غير المضاربين في الجيش، من المستقرّين الأصيلين، قدموا من المدائن أو من غيرها من البلاد، مختّصين، قنوعين بالربح القليل من نمط تجّار الدّكاكين. ونحن نعلم أنّ السوق ستمتلىء فيما بعد بالعبيد والموالي.

أما على صعيد التمصير، فإن التحديد الفضائي هو الذي يشد انتباهنا في

(٨٧) الطبري، ج ٤ ص ٤٧؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٨٨) صالح أحمد العلي، التنظيمات، ص ٢٦٣.

الواقع. لم يهتم بـالأمر سـوى مصدرين فحسب: همـا سيف[٨٩] واليعقوبي في «كتاب البلدان»[٩٠]. فلم يذكر البلاذري شيئاً بخصوص هذه الفترة التأسيسية، لكن بالطبع وردت إشارات متفرقة عن العصر الأموي، تـأتي في سياق الخبـر السياسي[٩١] (الطبري)، أو في طيّات التراجم لرجال الدين (ابن سعد)[٩٢].

وما يترتب عن كل هذه الأمور ويلفت نظرنا فوراً، أن السوق أو الأسواق لا بد أن موقعها كان الى شمال المسجد والى شرقية، محيطة بواجهتـه الشماليـة، وقاضمة من واجهته الشرقية، غير بعيد عن زاوية القصر الشماليـة الشرقيـة. ويمكن أيضاً التفكير مع الجنابي[٩٣] أنها كانت تقع شرقي المسجد وتبلغ الواجهة الشمالية للقصر. روى سيف خبراً جاء فيه أن صبر سعد قد نفد لتصاعد ضجيج السوق اليه وهو جالس في القصر يتحدث[٩٤]. كـما توفـر خبران متكـاملان، أحدهما لسيف والثاني لليعقوبي، القصد منهما تبرير لامتداد السوق بجوار الجهة الشمالية للمسجد مباشرة، حتى الحدود الشرقية الشمالية للصحن. وقد ذكرنا أن سيفاً تحدث عن نقل المسجد في اتجاه الجنوب، وبذلك توفر فراغ احتله باعـة الصابون والتمر آنذاك، كما قال[٩٥]. ولا يعني ذلك حتماً أن هذا الفضاء قد احتله الباعة في بداية الأمر. لكن هناك احتمالات وتخمينات في هذا المعنى. أما اليعقوبي فقد ذكر عبارة رئيسية[٩٦] أوردها حرفياً حفاظاً على ما اكتنفها من لبس: «وجعلت السوق من القصر والمسجد الى دار الوليد الى القلاّئين الى دور ثقيف وأشجع».

وما نجهله في هذه المعادلة هو دار الوليد. وباستقراء النصوص، تكون هذه

---

(٨٩) الطبري، ج ٤ ص ٤٥.
(٩٠) كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٩١) الطبري، ج ٦ ص ١٩ و ص ٣٠.
(٩٢) الطبقات، ج ٦ ص ١٣٦ و ص ٢٢٦.
(٩٣) مرجع مذكور، ص ٨٦.
(٩٤) الطبري، ج ٤ ص ٤٧.
(٩٥) الطبري ج ٤ ص ٤٤.
(٩٦) كتاب البلدان ص ٣١١.

الدار في قلب سوق القصارين[٩٧]، كعلامة معروفة تكان تكون استثنائية من حيث موقعها وضمن المساحة المركزية قطعاً، وقد أحاطت بها هذه السوق، لكن غير بعيد عن سوق السراجين[٩٨]. وباستثناء هذه الاعتبارات، فأين يكون موقعها؟ هل يكون بين المسجد والحدود الشمالية للمساحة، أم الى الشرق، أم الى الزاوية الشمالية الشرقية، أم الى الشمال الغربي؟ لا يمكننا الاختيار بين هذه المواقع. على أن معرفتنا بأن «دور ثقيف وأشجع» تقع الى شمال الصحن، بالاعتماد على قائمة توزيع القبائل المنسوبة الى سيف، مع اتجاه الى الشرق (ارجع الى الخارطة)، تجعل المشكلة تتمثل في معرفة ما إذا صممت السوق على شكل سوق ـ شارع حيث تتوالى الاختصاصات الواحدة بعد الأخرى، أو على شكل مركّب متشعب ينتشر على فضاء واسع. وبذلك تشكل العلامات التي وضعها اليعقوبي ـ وهي المسجد ودار الوليد والقلاؤون وخطط ثقيف ـ في الصورة الأولى مراحل تقع على نفس الخط. ونحن نعلم أن السوق الكبيرة، أو ما سيصبح كذلك تمتد على سكة مركزية طويلة، وهذه خاصية أساسية تميزت بها حواضر إسلامية عديدة. أما الصورة الثانية التي تكتسي في نظرنا صبغة أكثر منطقية، فتحدد بعلامات رسمها اليعقوبي وتتمخض عن فضاء ممتد مثلث الشكل أو مستطيله. وقد اعتمد ماسينيون هذا الحل بالذات بصورة ضمنية[٩٩]، وترجم قول اليعقوبي كما يلي: à partir du Qasr et du Jâmi, **d'un côté** jusqu'au Dâr Walid-b-Uqba, de l'autre jusqu'aux Qallâ'yin, et de **l'autre** jusqu'aux habitations de **Thaqif** et **Ashja**ᶜ».

وبما أن الخط الرابط بين بين المسجد والقصر وثقيف معروف (اتجاه شمال شمال شرقي)، فإن هناك نقطتين تتعارضان حتماً، الواحدة في الشمال الغربي

(٩٧) صارت في العصر العباسي «دار القصارين»: ابن سعد، الطبقات ج ٦ ص ٢٤؛ الطبري ج ٤ ص ٥٣٢ وج ٦ ص ٨٩.

(٩٨) أخبار الدولة العباسية، ص ٢٦٠.

(٩٩) مرجع مذكور، ص ٤٩.

والثانية في الجنوب الشرقي، لكن في مستوى مركز المساحة. فضلاً عن أن كلمة أسواق في الجمع تدل على بنية متفرعة ممتدة واسعة متنوعة، وهي لا تعبّر الا بصعوبة عن بنية مطولة بسيطة. ومن المعلوم أن مثل هذه السكك المتجهة الى شمال شمال شرقي كانت موجودة في الكوفة، وكانت تصل بين القصر والجسر، ثم في اتجاه السواد، مخترقة المساحة المركزية والخطط القبلية. ولعل السكة الرئيسية كانت «سكة البريد»، وهي الطريق البريدية الأساسية للاتصال(١٠٠)، قبل أن تكون سكة لحام جرير كذلك، كما قال ماسينيون(١٠١). وأخيراً، يؤكد سيف أنه لم يكن يوجد في بداية الأمر، في الصحن، سوى المسجد والقصر والأسواق(١٠٢) بحيث تتساوى السوق والكتل الفضائية الأخرى، ويكون قوله مؤيداً للتصور الخاص بالأسواق المفتوحة الواسعة الممتدة، أي الميدان المحيط بالمسجد، الذي يتقدم حتى القصر، ويتوغل حتى الشمال والغرب والشرق.

وكانت هذه الأسواق مغطاة بالحصر، في بداية الأمر (١٠٣). ولم يقع الشروع في بنائها إلا بعدما يناهز القرن (فترة خالد القسري)، وكان ذلك على قواعد متينة جمالية. فهل بقيت على وضعها القديم قبل ذلك؟ يمكن ترجيح ذلك الى حد بعيد لأن أبا مخنف يفوه بخصوص فترة المختار (٦٦ هـ / ٦٨٥م) بما يفيد أن الأسواق لم يكن بها بناء في ذلك الزّمان(١٠٤).

وعلى صعيد التنظيم وحسب، من المعلوم أن أماكن الباعة لم يقر لها قرار. لكن إذا احتل البائع مكاناً لأول مرة، فإنه يستمر يشغله كامل يومه، كما هو معمول به في المساجد(١٠٥). وهذا أمر يحملنا على القول ان التنظيم والتخصص

---

(١٠٠) انظر ما سبق.
(١٠١) مرجع مذكور، ص ٤٢ و ٤٥.
(١٠٢) الطبري، ج ٤ ص ٤٥.
(١٠٣) كتاب البلدان، ص ٣١١.
(١٠٤) الطبري ج ٥ ص ٢٥٨، ج ٦ ص ١٩ و ٣٠ و ١٠٦.
(١٠٥) الطبري، ج ٤ ص ٤٥.

في الأسواق كان معدوماً. وسوف يتحقق هذا الأمر في العصر الأموي[١٠٦].

الآري:

أما الآري، فقد ذكره الطبري مرتين[١٠٧]، كما ذكره اليعقوبي[١٠٨]، بحيث ان اتحادهما في القول يوحي بوقوعه في المساحة المركزية. الآري عبارة عن مرعى عمومي، بمعنى أن الدولة تملكه وتشرف عليه، وهو مخصص لخيل الجيش التي هي ملك للدولة لا محالة. وقد روى أنه توفرت ٤٠٠٠ فرس في خلافة عمر (هل كانت بيت المال هي التي وفرتها؟) تأهباً لقتال محتمل. «كان لعمر أربعة آلاف فرس عدّة لكون ان كان، يشتّيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته، ومن أجل ذلك يسمّي ذلك المكان الآري الى اليوم، ويربّعها فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة ممّا يلي العاقول فسمّته الأعاجم «آخُر الشاهجان» يعنون معلف الأمراء»[١٠٩].

كان منتجع الكلأ هذا يمتد على بضعة كلمترات كانت تفصل بين عالمين، كانت الكوفة تقع على الوصلة الرابطة بينهما، هما عالم البر، المتجه الى الجنوب والغرب وكان عالماً شبه صحراوي، وعالم الرّيف القريب من الفرات والمتجه شرقاً وشمالاً. ولا بد أن العاقول كان يقع شمالي الكوفة، من جهة الفرات، وخارج محيط المدينة. لكن أين الآرى أو مرعى الشتاء؟ يصعب علينا تصور حشر ٤٠٠٠ فرس في الزاوية الجنوبية الشرقية للمساحة العمومية، داخل فضاء جد محدود ترتفع مساحته الى بضع مئات من الأمتار المربعة. وبمقارنته بالعاقول، نميل في أوّل وهلة الى نقله الى الجنوب الغربي مما يلي دور السكن، حيث أن المساحة المركزية أحيطت بخطط القبائل من كل جانب، في اتجاه البادية المترامية حيث ترعى

---

(١٠٦) يبدو أن زياداً قد شجع على استقرار المواقع والتخصص في البصرة بصورة ما: أنساب الأشراف، قسم ٤ ج ١ ص ٢٣٩.

(١٠٧) الطبري، ج ٤ ص ٥٢.

(١٠٨) كتاب البدان، ص ٣١٠.

(١٠٩) الطبري، التاريخ ج ٤ ص ٥٢.

النوق التي شغلت اهتمام عمر كثيراً، ونحن ما زلنا نشاهدها الى اليوم. لكن أسباباً متعددة تدفعنا الى اعتقاد خلاف ذلك: علماً أن موضعاً محدوداً كان سبباً في ظهور اسم مكان، وكان ملاصقاً للقصر، ولم يجاور دور الكوفة مثل العاقول ـ الذي كان هو أيضاً يمتد على فضاء ضيق يحده الفرات ـ يرجح اليعقوبي بالخصوص رأينا الأخير حول هذه النقطة بجملة أوضح ما تكون حيث يقول:

«وكان فضاء عند المسجد(١١٠)».

ثم يضيف:

«وهو فضاء كانت فيه خيل المسلمين»(١١١).

وإذا ما صدقنا اليعقوبي، فيبدو أن عمر أقطع نصفه الى أبي موسى الأشعري والنصف الثاني الى جماعة من عبس(١١٢). وهذا يعني أن الآري لم يستخدم لفائدة الخيل إلا خلال السنوات الأولى من تأسيس الكوفة حيث شاع عدم الاستقرار، وحيث صمم كل شيء بالنظر للعمليات العسكرية في العراق والشام، فلم يذكر الطبري الآري إلّا عندما تعرض للنجدات التي وجهها أهل الكوفة الى حمص(١١٣). وما هو ذو دلالة أيضاً أن اليعقوبي رتب اقطاع الآري هذا بين جملة من الإقطاعات الأخرى التي وهبها عمر لكبار الصحابة، وهي إقطاعات صالحة لبناء دور تقع داخل المساحة المركزية(١١٤). في الإمكان أن يدور النقاش حول واقعها التاريخي، وفيما يخصني لا أعتقد أنه كان صحيحاً، نظراً لأن فكرة القطيعة تبدو استثنائية في خلافة عمر، في حين أن اليعقوبي يتحدث عنها وكأنها ظاهرة عادية متصلة بالخطط القبلية ذاتها. ومن الواضح أيضاً أن كل ما ينسبه اليعقوبي أو يكاد في هذا الميدان، الى المبادرة الشخصية وما يشبه المَلَكية عند عمر،

---

(١١٠) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(١١١) المرجع نفسه، ص ٣١٠.

(١١٢) المرجع نفسه، ص ٣١٠. المراد بالذات عشيرة حُذيفة بن اليمان.

(١١٣) الطبري، ج ٤ ص ٥٠ ـ ٥١.

(١١٤) كتاب البلدان، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

كان نتيجة لتطور طويل ظهر بعد ذلك. لكن الأهمية المتعلّقة بتحديد مكان الآري ضمن المساحة العمومية تكمن في كونه يرتبه عن خطأ ام لا، ضمن مجموعة الإقطاعات التي تمت بدون استثناء في المساحة المركزية أو في المدينة. وبذلك يكون الآري في الصحن تماماً، بمكان ما جنوب القصر والمسجد(١١٥)، يقع حسب المرجح في زاويتين بالجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وهو مقسوم الى نصفين. على أنّه من الصعب أن نعرّف وظيفة الآري بأنّه مرعى مفتوح، بل الأولى أن يكون مكاناً لتجميع الخيل. الواقع أن سيفاً لم يستخدم كلمة رعى بل استعمل (يشتّيها) لكي يكون دقيقاً(١١٦)، وقابلها بخصوص العاقول بكلمة «يرّبعها». إنّ المعجم العربي مرتبط بنمط الحياة الرعوية، فتمادى في واقع مغاير، هو واقع الفضاء الضيق الثابت الموظف الى أقصى حد. وبذلك يشكل الآري حظيرة للخيل تقع في المساحة المركزية كعنصر للتنظيم العسكري المدرج في الفضاء إدراجاً تاماً دقيقاً. (١١٧)

دلالة المركز:

قلنا إن الحركة الرمزية التي سطرت حدود المساحة المركزية لم تكن تتصف بشيء من القداسة، بل بشيء عريق في القدم. وهي التي دحرت الى ما وراء الصحن الحياة الدّنيوية المأنوسة لأبناء القبائل لكن هذه القبائل سرعان ما أعادت تشكيل الفضاءات الجماعية لها (الجبانات)، داخل الخطط الترابية، كما ابتنت مساجدها الخاصّة حيث كان يلتقي الأشخاص المنتمون الى نفس العشيرة. ذلك أن المركز يوحد، في حين أن الخطط تحافظ على التنوع العشائري والقبلي للنسيج

(١١٥) هذا ما يمكن استنتاجه من التحديد اللاحق لدار أبي موسى الأشعري (إلى الجنوب الشرقي)، ومسجد بني مخزوم من قبيلة عبس: الطبري، ج ٦، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(١١٦) الطبري، ج ٤، ص ٥٢.

(١١٧) كلمة آرى مأخوذة عن الفارسية آريات التي تعني «الحبل الطويل الذي يربط الماشية على خط واحد Dictionnaire persan - français, Desmaisons باريس ١٩٠٨، ج ١، ص ٦٠. ومن الواضح أن المقصود هنا هو الفضاء المسيّج حيث تجمّع الخيل. وقد بقي اللّفظ في اللهجات المغربية ليعني الاصطبل.

العربي. ومن الصعب في الحقيقة احداث معارضة تامة بين المركز الإسلامي والحزام العربي القبلي، لأن مساجد العشائر تكاثرت[118]، وبفضل ما بلغه التدين الفردي من تطور سريع. على أن الفكرة تفرض وجودها في البداية. ذلك أنه لم يكن في الأوّل لهذه الجموع العربية من الإسلام الا الاسم: فهي لا تشبه في شيء أمة المدينة التي استوعبت الروح والتعاليم الإسلامية. لقد تشكل ضميرها الإسلامي في الحرب وارتبط ارتباطاً وثيقاً بهويتها العرقية العامة، كما ارتبط أيضاً بمركز القرار في المدينة. فتمخض عن ذلك تأكيد الصلاة كمجموعة من الحركات التوحيدية التي تتجمع بفضلها أمة المقاتلين. وترتب عن ذلك أيضاً طابعها كفريضة مطلقة، لا لسبب ديني وحسب، بل كفعالية سياسية واجتماعية للإبقاء على لحمة شعب مشتّت في الأصل، لا سيما أنه استسلم للدعة نسبياً بعد وقعة القادسية. كان المركز مواطنياً بفضل المسجد، لأن الدين كان معاشاً كظاهرة جماعية أكثر منه كجملة من المضمنات الماورائية، وكان الحكم يدفع به دفعاً لكن الحكم كان سلطة تنظيم فحسب. إن انفصال المركز عن عالم السكن القبلي لا ينبغي فهمه بمعنى الحفاظ على سر من أسرار المعبد، ذلك أنه لم يكن في خدمة المعبد طبقة من الكهان تسيطر على شعب خانع. بل كلّ ما حصل أن هيىء للمقاتلة مكان للاتصال اما في الصلاة واما بالتجارة والمكان الذي نظم لهم فيه إطار وجودهم برضاهم. وبما أن المسجد هو ملك للجميع، فقد كان مركزاً أسمى، ومكاناً للالتقاء، فتحتم أن يبتعد عن الفضاءات ذات الخصوصية المتمثلة في خطط القبائل.

لا شك أنه وقعت تجاوزات لحرمة المركز. من ذلك اقطاعات منحت للأفراد، ولم تمنح للقبائل أبداً. ولم يقع ذلك في البداية قطعاً، كما كان يريد اليعقوبي أن يحملنا على الاعتقاد به[119]، ولم يفعل ذلك عمر يقيناً، لكن لعل

(١١٨) Grabar، مرجع مذكور، ص ٣٤.

(١١٩) كتاب البلدان، ص ٣١٨. لم يكن ذلك يكتسي صبغة عظيمة. ولم تكتس الظاهرة اتساعاً إلاّ في ولاية زياد: انظر ما يلي.

بعض ولاته في نهاية خلافته قاموا بذلك بصورة استثنائية. لقد بنيت دور في المساحة المركزية وهو أمر ثابت أو يكاد، ويزيد يقيننا بخصوص بعضها، وجدت فيها بعد داخل الأسواق. وقد أشير الى دار الوليد بن عقبة[١٢٠] ولعلها بنيت خلال ولايته (٢٥ - ٣٠) (٦٤٥ - ٦٥٠) في خلافة عثمان. كما نجد أيضاً دار عمرو بن حريث[١٢٠] (مكرر)، وعبدالله بن مسعود[١٢١]، وأبي موسى الأشعري[١٢٢] وغيرهم. وكانوا جميعاً من القرشيين أو من الصحابة، بمعنى أنهم كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام، وكانوا رسلاً لحكام المدينة يميلون للاتجاه المركزي ويعيشون خارج الخطط الجماعية، بفضل نسق القطائع الفردية، أكثر من نسق الخطط.

---

(١٢٠) الطبري ج ٦ ص ١٩ و ٣٤٦. يمكن التساؤل إذا هي لا ترجع إلى عصر زياد.

(١٢٠ مكرر) الطبري، ج ٦، ص ٨٩؛ ابن سعد، ج ٦ ص ٢٤، يتكلّم عن دار كبيرة؛ أخبار الدّولة العباسية، ص ٢٦٠.

(١٢١) البلدان، ص ٣١٠.

(١٢٢) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ وابن سعد، ج ٦، ص ١٦.



الفصل الثامن

بنية الفضاء الداخلي
الحزام السكني أو الخطط

إن نص سيف هو المصدر الوحيد الذي بين أيدينا[1]، وهو نص يصعب تأويله لكنه ثري. والغريب في الأمر أن ماسينيون أشار إليه[2]، واصفاً إياه بأنه «القائمة الوحيدة المتوفرة لدينا عن صفوف المساكن»، ومع ذلك فلم يعتمده في مخططه القائم أصلاً على ما رواه أبو مخنف بخصوص ثورة المختار (٦٦ - ٦٧/ ٦٨٥ - ٦٨٦) وثورة زيد بن علي، فيبدو مخططه وكأنه مخطط سبرى للعصر الأموي. هناك مشكل محير يفرض وجوده على النظر: بما أن المصادر لا تتحدث إلا ما قل عن تحوّل الخطط في العصر الأموي (أشهر التحوّلات جدت عند عبس[3] وتميم[4])، فمن المعقول أن نجد هيكل الكوفة في أول نشأتها من خلال صورة مقتطعة من العصر الأموي. لكن روايات أبي مخنف تتركنا في حيرة من أمر هذا التناقض الأساسي الموجود بين وفرة الجزئيات التوبوغرافية وغموض الاتجاه، وحتى غيابه. وما يخشى أن مواقع القبائل التي ذكرها تتعارض أحياناً بصفة تامة والتصور الذي طرحه سيف. فإما أن يكون هذا التصور خاطئاً، وإما أن تكون

---

(١) الطبري، ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) مرجع مذكور، ص ٤٤.

(٣) أكد سيف أن سعداً ترك عبساً بالمدائن، وأنه خصّ أفراد الحاميات والثغور بمواضع خلال فترة الاختطاط، لاسيما عبس والحمراء: الطبري ج ٤ ص ٣٤ و ٤٥. أما اليعقوبي فقد عين مواقع عبس «إلى جانب المسجد»: كتاب البلدان، ص ٣١٠. لم يكن المقصود إدخال تغيير على الاقامة داخل الكوفة، بل هو حضور متأخر.

(٤) أشار ماسينيون إلى هذا الانتقال وأرخه في ٣٧ هـ: ص ٤٧. الواقع أن سيفاً حدد موقع تميم في سنة ١٧ في الناحية الشرقية، ونحن نجدهم بناحية الكناسة في أخبار أبي مخنف.

رواية أبي مخنف خاطئة. ونلاحظ نفس الشيء عند مقارنـة هذا النص أو ذاك «بكتاب البلدان». إن التطابق إن وجد نادر قليل، وتتراكم الصعوبات في أكثر الأحوال.

ولا تنشأ هذه المصاعب عند المقارنة بين المصادر والعصور فقط . بل ان نص سيف ذاته يتضمن شيئاً منها ، فيما يرويه وما لم يروه ، في صميم الخطاب وفي خلفيته . لنبدأ بالتمعن فيه . وجدير بنا أن نورد الجمل الاساسية في حرفيتها :

«لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبي الهياج فأخبره بكتاب عمر في الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً مما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً إلا الذي لبني ضبة». (٥)

«ونهج في الودعـة من الصحن خمسة مناهج وفي قبلته أربعة مناهج وفي شرقيه ثلاثة مناهج وعلمها . فأنزل في ودعة الصحن سليماً وثقيفاً مما يلي الصحن على طريقين وهمـدان على طريق وبجيلة على طريق آخر وتيم اللات على آخرهم وتغلب ، وأنزل في قبلة الصحن بني أسد على طريق وبين بني أسد والنخع طريق وبين النخع وكندة طريق وبين كندة والازد طـريق ، وأنزل في شـرقي الصحن الأنصار ومزينة على طريق وتميم ومحارب على طريق وأسد وعامر على طريق ، وأنزل في غربي الصحن بجالة وبجلة على طريق وجـديلة وأخلاط عـلى طريق وجهينة وأخلاط على طريق .

«فكان هؤلاء الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك واقتسمت على السهمان فهذه مناهجها العظمى . وبنوا مناهج دونها تحاذى هذه ثم تلاقيها وأخر تتبعها وهي دونها في الذرع والمحال فيما بينها ومن ورائها وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن»(٦) .

(٥) الطبري، ج ٤ ص ٤٤.
(٦) الطبري، ج ٤ ص ٤٥.

إنها لصفحة كثيفة هامة ، وهي تتطلب شرحاً ضافياً . وسنعمل على توضيح عدة نقاط ، لكن هناك نقاطاً أخرى ستبقى غامضة إلى الأبد ، لقد استخدمت كلمة طريق في معناها العام بداية ، أي منهج ، وفتحة ، وسكة بما في ذلك المناهج الواسعة ، والمناهج الأخرى الأقل اتساعاً ، إلى أن نصل إلى السكك الصغرى . ثم ان الأمر تعلق بمقام القبائل ، فدلت الكلمة ذاتها على المناهج العريضة . وقد تحدث أبو مخنف في رواية ثورة المختار ، عن «الطرق العظمى»[٨] بالكوفة ، ويبدو أنها كانت المنافذ الكبرى التي أقامت بها القبائل على امتدادها . فأصبحت الكلمتان (مناهج وطرق) مترادفتين[٩] . وهذا لا يعني ما قصده ماسينيون من أنها صفوف المساكن ، وهو معنى غير شائع[١٠] . المقصود بالذات هي شوارع معلمة تفصل بين خطط القبائل بأنواعها ، وتسمح لكل قبيلة بالتحول إلى المركز ، عبر طريق خاصة بها حددت لها مسبقاً . وما جعل ماسينيون يخطىء في هذا الأمر اعتقاده أن الاستقرار الأول جد طبق النموذج البدوي المتمثل في اصطفاف الخيام ، وهو نموذج بقي معمولاً به في موسم الحج . لكن لا نجد شيئاً من ذلك في الصورة التي نحن بصددها ، ولو كان ذلك لفقد نص سيف كل تماسك . ونجد هذه الطرق ، سواء طابقت السكك أم لا ، مذكورة بالنسبة لفترات لاحقة وبوصفها شرايين للاتصال البشري ولتنقل الجنود الثائرين أو المؤيدين للحكومة داخل المدينة . بل نجدها أيضاً مذكورة في بغداد الجديدة ، مع اتساع يمتد من ٤٠ إلى ٥٠ ذراعاً ، محفوفة بالدكاكين والدور ، وقد روى أن المنصور أمر بهدم بعض منها ، محافظة على عرض الطريق المحدد مسبقاً[١١] .

---

(٨) الطبري ، ج ٤ ص ٢١ . كلمة تتضمن معنى أسمى بالنسبة للسكك .

(٩) تدل طريق على سكة حيث تصطف الدور وما هو منتظم «من بين الأزقّة»: الزبيدي ، **تاج العروس**، ج ١٠ ص ٤٣ . يبدو أن كلمة طريق عامة وأن المهج يرتب بالمرتبة الأولى بالنظر للعرض، ثم تدل السكة على صفوف النخيل . وأخيراً فالزقاق أضيقها جميعاً، لكنه سكة صالحة للمرور: **المرجع نفسه**، ج ٧ ص ٣٤٧ .

(١٠) **مرجع مذكور**، ص ٤٥ .

(١١) الطبري ، ج ٧ ص ٦٥٤ : **كتاب البلدان**، ص ٢٤٢ ؛ قال الطبري إنها ٤٠ ذراعاً، وذكر =

كـان لتخطيط الـطرق الكبرى من الاهميـة إضافـة إلى ترتيبـه التنازلي من ٤٠ ذراعاً[١٢] (قرابة ٢١ متراً ، ١٦) إلى ٣٠ ثم ٢٠ ثم ٦ ، ما جعل سيفاً يعرض الامور وكأن هذا التخطيط كان أول أمر صادراً عن عمر في شكل توصية شديدة الخطورة . أن يكون لعمر في هذا الموضوع آراء بمثل هذا الوضوح فهو أمر يصعب تصديقه ، ولعل سيفاً أسقط على عمر العمل الذي أنجزه المنصور بشـأن بناء بغداد . لكن علينا أن نتـذكر أن مخـططي الكوفـة ـ نعني سعداً وأبـا الهياج ، ومستشاريهم من الحيرة أو من فـارس أو من النبط ـ صمموا المـدينة في شكـل مجموعة هندسية عقلانية منفتحة . لكن هل خططوا لذلك مسبقاً ؟ ألا يليق أن نعتبر ذلك الأمر إسقاطاً حيث تحدث المؤلف عن شوارع متوازية ، تخترق الطرق الرئيسية وعن شوارع أخرى «تتبعها» ، وحتى عن أزقة ومناهج صغرى لا يمكن أن يخطط لها بالطبع مسبقاً . وهي تبرز بالذات في التراص المشط ، وفي فوضى التطور المقبل . ولا ننسى أن سيفاً مات فيها بين سنـة ١٧٠ / ٧٨٦ و ١٩٣ / ٨٠٩ ، بحيث يكون ألف كتابه بعد سنة ١٥٠ / ٧٦٧[١٣] . وهذا ويجب أن لا يبقى أي شك عن فتح شوارع عريضة في حزام السكن منـذ البدايـة ، سواء صاحبتها طرق ثانوية أم لا ، بصفتها العنصر الأساسي ، والعمود الفقري لنسق الخطط ، يمكن بفضله تحديدها وتعريفها ، وأيضاً بصفتها الصلة المثلى للاتصال بين الصحن والخطط ، والمركز المشتـرك حيث تهيؤ الحياة الاجتمـاعية العـربية الاسلامية الجديدة وخطط الوجود القبلي القديم ، وحتى الوجود العشائري .

كانت الشوارع الواسعة المستقيمة تنطلق من المركز المـربع نفسـه ، وهو

= اليعقوبي أنها ٥٠ ذراعاً. وقد استخدم الـطبري كلمة طـريق، واستعمل اليعقـوبي كلمة شـارع وهو يقصد المناهج الكبرى.

(١٢) من البـديهي أن الأمر يتعلق بـالذراع السـوداء التي تساوي ٥٤ سنتمـترا، ٤٠ : .Hinz، **Ara-bische Masse und Gewichte**، ص ٥٤.

(١٣) لا نعلم إلّا القليل عن حياة سيف: فؤاد سزكين، مرجع مذكور، ج ١، ص ٤٩٨؛ وذكر عبـد العزيز الدوري سنة ١٨٠ /٧٩٦ تاريخاً لوفاته: علم التاريخ عند العرب، ص ١٢١. وانظر مـا سبق حول تقييم ما قدمه سيف.

الذي يحوي ذاته مربعين هما المسجد والقصر . ونحن نميل إلى الاعتقاد أن شكل المدينة كلها كان مربعاً ، على شاكلة بابل[١٤] ، مع الفارق أننا إزاء مدينة مفتوحة وبدون سور عن قصد ، وأنا لا نعرف شيئاً عن نهاية المناهـج مع أننـا نعرف بدايتها . وقد أسقط ماسينيون على مخططه شكلاً دائرياً أحيط بخندق دفاعي . وإذا ما كان هذا الشكل موجوداً أبداً ، فلا يمكن أن يكون قد أقيم إلا في وقت متأخر ، لما تدخل المنصور وأمر بتشييد السور وحفر الخندق ، فضلاً عن أنه أعاد إلى الحياة النموذج الساساني الدائري .

الواقع أننا نتقدم في البحث بواسطة اللمسات والانطباعات وإقامة ما نزعم على الاحتمالات ، ولن يكون ذلك على أساس اليقين أبداً . هكـذا ندرك أن التماثل ليس كاملاً في تصور سيف . لماذا توجد خمس فتحات في الشمال ، وأربع في الجنوب ، وثلاث في الشرق ، وكذلك في الغرب ؟ وهـل أن نفس المسافـة تفصل نقاط انطلاق المناهج ؟ وإذا حددنا خطة إحدى القبائل بكونها تقع بين طريقين ، فستظهر إلى الشمال فضاءات ضيقة مستطيلة ، وخطط واسعة عريضة شرقاً وغرباً . لكن بجيلة وهمدان موجودتان في «الشمال» بالودعة ، كما أن دور وطلبات بجيلة[١٥] معروفة ، وقد ذكر اليعقوبي أن بجيلة كانت تستغل اقتطاعاً هاماً[١٦] ، جعلت منه كافة روايات أبي مخنف النقطة المرجع بالنسبة للمنطقـة الشمالية[١٧] . قلنا في المنطقة الشمالية . هل لنـا يقين في ذلـك ؟ أن مشكل الوجهة مطروح حيث ينبغي أن تكون القبلة هي المرجع ، علماً أنها تتجـه إلى الجنوب الغربي ، لكن هذا الاتجاه لم يحسب صحيحـاً (يقدر انحـرافها بـ ١٧

---

(١٤) هذا على الأقل ما قاله هيرودوتس. «كانت مدينة مرّبعة الشكـل، تعد مـائة وعشرين ستـاداً من كـل وجه»، وقـد أورده ممفورد، ص ١٠٣ ؛ أمـا Oppenheim، فهو يميـل إلى شكـل المعـين: مـرجع مـذكور، ص ١٤٦ ؛ وتصرّح M. Rutten في كتـابهـا **Babylone**، ص ٣٤، إن كـل المؤلفين اتفقوا على أن شكل المدينة كان مربع الزوايا.

(١٥) فتوح البلدان، ص ٢٥٣.

(١٦) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(١٧) الطبري، ج ٦ ص ٤٦ ـ ٤٨.

درجة) . إن المسافر الذي يعبر اليوم الفرع الغربي للفرات ، يسلك طريقاً تتجه إلى الجنوب الغربي[١٨] ، فيصطدم في الصميم بالجدار الشمال الشرقي للمسجد ، ووراءه القبلة، أي بشمال شرقي يكاد يكون شرقاً . ويمكن التساؤل هل أن مربع المركز لا يقع موقع القطر بالنسبة للفرات وكذلك بالنسبة للخطط القبلية ؟ وفي هذه الصورة ، فالاتجاه الذي يكون واقعاً إلى الشمال على سبيل الافتراض ، يصبح اتجاهه إلى الشرق ، وتكون القبلة غرباً ، والشرق شمالاً ، والغرب جنوباً . فهل هذا الذي حمل البلاذري على القول أن اليمن (يعني بجيلة والازد) استقرت في اتجاه الشرق ، وقد جاء ذلك الخبر في «فتوح البلدان»[١٩] ، ورواه كافة المؤلفين تقريباً[٢٠] ؟ هذا افتراض يصعب اعتماده حقاً ، لأن مؤشرات كثيرة جداً وردت في رواية الأحداث الموالية تبدو مناقضة له[٢١] . وحسبنا أن نعتمد الفكرة التي تقول ان المحور المركزي الذي تشكلت حوله المدينة في جملتها ، كان يتجه بصفة بارزة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، حيث كان الفرات إلى الشرق بصفة واضحة[٢٢] ، وقام مقام الحد الوحيد المعرف للكوفة .

وانطلاقاً من ذلك ، يمكن أن نتصور مخططاً نجومياً كما مخططاً مربعاً تماماً . فمن جهة ، تنتهي الطرق وتنفصل ، تاركة الفضاء للمساكن ، ثم تتوقف في

---

(١٨) الجنابي، خارطة رقم ١١ .

(١٩) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ .

(٢٠) مثلاً ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٩١ .

(٢١) انظر فيما يلي تحاليل للروايات عن ثورة المختار وشبيب. لكن مفهوم أهل اليمن يرتبط بالأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وقضاعة وخزاعة، في رواية أبي مخنف بخصوص ثورة حجر: الطبري ج ٥ ص ٢٦١ . لكن ينبغي تحديد موقع الأنصار والأزد وربما خزاعة وقضاعة إلى الشرق والجنوب الشرقي.

(٢٢) من الملاحظ على كل أن البلاذري وياقوت لم يحددا المنطقة الشرقية بصفتها منطقة تجانب الفرات. وحدد ياقوت خلافاً لذلك، في معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٩٢، موقع ثقيف «بين الماء ودار الامارة». ولعلّ الفرات اعتبر حداً يقع إلى الشمال الشرقي، لوجود الجسر وطريق المشرق، العابرين للنهر.

مكان ما ، ومن مزايا هذا المخطط سد الزوايا الفارغة التي اكتست أهمية نسبية . أما في الافتراض الثاني فإننا سنجد شوارع متوازية فيما بينها ، شاقولية بالنسبة لجوانب الصحن ، أي شكلاً يكتسي كمالاً هندسياً كبيراً . واعتقادي أن روح النص الذي نعتمده ، تؤيد الصورة الثانية ، بمعنى البنية البسيطة . ونصل إلى حل مشكل الزوايا نصف الحل بفضل العبارة التالية : «فكان هؤلاء (أي القبائل التي تم تعدادها) الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك» . فماذا يعني هذا سوى أن الفراغات التي خلفتها الزوايا وقد سدها ؟ متى ؟ هل تم الامر فوراً وبصورة عشوائية ، أم بعد مدة من ذلك ، لما تبين أن المخطط الأول غير ملائم ، فوجب تكييفه ؟ ليس الامر هاماً الآن ، بل المهم أن المناهج لم تسطر لكل الناس ، وأن المناهج والخطط المرتبطة بها كانت تشكل حزاماً أول ، سيتم من ورائه استقرار موجات الروادف ، في حين استقرت قبائل أخرى في الفجوات .

والغريب أن سيفا لم يذكر هذه القبائل في نصه في بداية الامر : كانت تلك حال بكر وحال طي بالخصوص . كأن الامر متعلق بامتياز يرتبط بالمتفعين الأولين بالخطط بصورة نظامية ، ثم ألم تشر مصادرنا إليهم فسمتهم أهل الخطط[٢٣] ، بمعنى الناس الذين تحصلوا على الاراضي بكيفية قانونية ومعهم أولئك الذين أقاموا قريباً من المساحة المركزية ؟

إن هذه الخطط مهيأة إلى أن تتحول إلى أشكال توبوغرافية على أقل تقدير ، وربما إلى أحياء حضرية بالمعنى الدقيق ، وإلى أن تسمى بأسماء القبائل مختلف الأماكن في المدينة (فيقال : ذهبت إلى كندة وجهينة[٢٤] . فصار مهماً جداً ذكر

---

(٢٣) ابن سعد، ج ٦ ص ٢٢١ ، في ترجمة صعصعة بن صوحان، من رفاق عليّ. وقد تحدثت كتب متأخرة في فقه الحنفية عن أهل الخطة واعتمدت روايات قديمة: السرخسي، ج ٢٦، ص ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢؛ والسمرقندي، ج ٣، ص ١٧٥.

(٢٤) مثلاً ابن سعد، ج د ص ١٨ ، ٢٦ ، العبارة واضحة جداً في فتوح البلدان، ص ٢٧٩ : «ويقولون جئت من حمراء ديلم كقولهم جئت من جهينة». راجع أيضاً: الطبري، ج ٦ ص =

مواقعها على خريطة . لكن هنا تعترض سبيلنا صعوبات هائلة . فما هو الترتيب الذي رتب عليه سيف القبائل التي روى أسماءها ؟ وهل ينبغي البدء يميناً أم يساراً ، أم من الوسط ؟ وعلى فرض أن نبدأ من اليمين ، وهو العنصر الخيّر بصورة تقليدية ، عنصر اليمن الذي يصطبغ بصبغة دينية ، فعلينا أن نتصور عند ذلك أن المخطط الذي حدد للقبائل أماكنها ، كان يدور سريعاً وعلى التوالي إلى القبلة ، وإلى الشمال الشرقي ، والشمال الغربي ، والجنوب الغربي ، وهو يواجه الوجهة المقصودة في كل مرة ، وهذا هو الأمر الأكثر ترجيحاً لأنه يجسم الطريقة التي بها يفكر سيف . لنعد إلى طريقته في الحديث عن الرامي الذي يبدأ يميناً ، ووصف وجهة المسجد : . . .

«ووضع المسجد يمنة على القبلة ثم مدّ به إلى منقطع رحبة على والرحبة قبلته» .

ثم :

«فكانت قبلة المسجد إلى الرحبة وميمنة القصر»[٢٥] . نجد ميمنة القصر من جديد ، لأن العلامة المرجع ترتبط باتجاه الصلاة . وهكذا يقع الاستناد إلى عنصر الميمنة بصفة واضحة . هل كانت الميمنة متنقلة ، تواجه الشخص الذي يطلق النبل ، ويأمر ، ويوزع كما ينبغي ، أو أنها كانت ثابتة بالنسبة للقبلة ثباتاً ضمنياً[٢٦] . هذان الافتراضان كلاهما راجح ، ويترتب عنهما مخططان مختلفان

= ٤٨ ؛ وكيع، أخبار القضاة، ٢ ص ٤٢٤ حيث نرى الشعبي يقطع جهينة ليقوم بجولته اليومية.

(٢٥) الطبري، ج ٤ ص ٤٦.

(٢٦) لا يمكن اعتماد القبلة بالنسبة للشمال، بل يمين الشخص المكلّف باقرار القبائل الذي يواجه الشمال، أي من الشرق إلى الغرب، سليم وثقيف وهمدان وبجيلة، الخ . . وخلافاً لذلك، يكون الأمر كذلك بالنظر للجنوب، ولذا ينبغي وضع أسد يميناً في اتجاه القبلة بداية . وبالنسبة للشرق والغرب، يكون المبدأ في وضع القبائل نزولاً في اتجاه القبلة . فمن المرجح أن هناك مزجاً بين هذين المرجعين (الميمنة والقبلة). إلاّ أنه لا يمكن التأكد من الأمر بصورة قاطعة، بالرغم من مطابقة مثل هذا التصور بصفة مجملة بما يمكن استنتاجه من روايات أبي مخنف (راجع الرسم) .

يمّسان بالخصوص مواقع سليم وثقيف . وهناك فرضيات أخرى منها أن القبائل التي ترد أسماؤها بالاول تحتل الموقع المركزي ، وأن الآخرين يقيمون على التوالي إلى اليمين واليسار ، وهذا مخطط ثالث ممكن. وأخيراً ، فماذا تعني العبارة التي هي أساسية والتي تؤيدها رواية من البلاذري : «واقتسمت على السهمان ؟» .

هل تعني إسناد خطتها لكل قبيلة ، بعد أن تحدد موضعها الاساسي في الشمال أو الغرب أو الجنوب ؟ وفي هذه الصورة ، فلن نقدر أبداً على رسمها بدقة على خارطة . وكل ما نعلمه أن هناك طريقاً كانت تفصل بين أسد والنخع ، وأن كندة مجاورة للنخع والازد أيضاً : هذا كل ما لدينا من معلومات واضحة إلى حد ما بخصوص الرقعة الجنوبية حيث نحس بنوع من الد ليم والتصفيف ، أما دون ذلك ، فإذا ما اعتمدنا فرضية تمليك الخطط عن طريق القرعة ، فإن الترتيب الذي ذكره سيف يفقد كل دلالة ، فنكون مجبرين على التمادي في ملاحقة الصدفة .

الواقع أن من الراجح كثيراً ـ وهذا من حسن حظنا ـ أن القرعة لم تفد القبائل ذاتها بقدر ما أفادت في توزيع العشائر والحسم بينها داخل الخطة القبلية ذاتها[٢٧] ، وربما توزيع الافراد أيضاً . إن بنية الجملة والسياق العام تحثنا على إعتقاد هذا الامر : «واقتسمت (الخطط) على السهمان» .

وبذلك يتشكل لدينا على أية حال تنظيم قبلي . وقد ذكرنا أن أفضل طريقة لتحديد مواقع القبائل ، هي أن توضع جنباً إلى جنب ، انطلاقاً من المركز ، وفي مواجهة كل جانب من اليمين إلى اليسار إلا في خصوص جانبي الشرق والغرب ، ففي اتجاه القبلة :

ـ جهة الشمال ، من الشرق إلى الغرب : سليم ، ثقيف ، همدان ، بجيلة ، تيم اللات ، تغلب .

(٢٧) لاسيما أن اليعقوبي أيد في كتاب البلدان ، ص ٣١٠ ، بما لا يدع مجالاً للشك ، الرّأي القائل ان كل قبيلة اختطت خططها بحضور قائدها .

ـ جهة الجنوب ، والشرق إلى الغرب : الأزد ، كندة ، النخع ، أسد .
ـ جهة الشرق ، من الشمال إلى الجنوب : الأنصار ومزينة ، تميم ومحارب ، أسد وعامر .
ـ جهة الغرب ، من الشمال إلى الجنوب : بجاله وبجلة ، جديلة وجهينة .

الحقيقة أن هذه الصورة للجغرافيا القبلية تفيد من بعض المعلومات التي ذكرتها المصادر الاخرى ، بالرغم من أنها تطرح مشاكل تخص رصف الواجهة الغربية . فسليم مثلاً تقع غير بعيد عن السبخة ، كما جاء في رواية أبي مخنف بخصوص المختار ، وتقع السبخة غير بعيد عن الفرات[٢٨] . وتتجاوز ثقيف وهمدان وبجيلة بصورة جد واضحة[٢٩] . اعتماداً لرواية ثورة المختار كذلك .

وكانت تميم تقيم شرقا قبل أن تتحول إلى الغرب . لكن إمعان النظر في أخبار أبي مخنف الخاصة بثورة حجر بن عدي يحمل على الاعتقاد أن هذه القبيلة لم تبتعد كثيراً عن كندة[٣٠] : هناك انحراف طفيف . . . أما بخصوص الجنوب فتتوفر معلومات رواها اليعقوبي[٣١] وهي تؤكد وتنكر في آن الترتيب القبليب كما رواه سيف . لكن كتاب اليعقوبي يخلط بين التغييرات التي طرأت منذ قرنين ونصف ، بروايات قديمة ، متعلقة بالتوبوغرافيا الأولية للكوفة ، ولذا ، يجب الاحتياط عند استعماله . فقد حدد موقع كندة بين جهينة وبني أود (من مذحج ، أي أقرباء النخع) ، وهو ما يطابق مخططنا[٣٢] ، مع العلم أن أسداً تقع بينهم . ليس هذا الامر محيراً ، كما أنه غير محير أن يخص بجيلة باقتطاع كبير ، حيث يماثل غلطاً بين بجيلة وبجلة وبجالة . وعلى النقيض من ذلك ، يحدد اليعقوبي مكان

(٢٨) الطبري، ج ٦ ص ٢٤ .
(٢٩) الطبري، ج ٦ ص ١٩ و ٤٨ .
(٣٠) الطبري، ج ٥ ص ٢٦٢ ، يقيم بنو العنبر إلى جانب كندة والنخع .
(٣١) كتاب البلدان، ص ٣١٠ .
(٣٢) لو لم يحدد اليعقوبي نفسه مكان الأود في المركز برحبة عليّ، بصفة استثنائية : **كتاب البلدان** ص ٣١٠ ، لوجب قلب التصور وتحديد موقع مذحج شرقي كندة ،وهذا الاحتمال لا ينبغي استبعاده بأية صورة كانت . ولذا وضعنا مخططاً ثانياً للقبائل (انظر الخارطة) .

الازد بين بجيلة وكندة ، وكأن الامر ظاهرة أصلية ، أي في اتجاه الغرب[٣٣] أو بالركن الجنوبي الغربي[٣٤] ، أي في موضع أسد . وهو الامر الذي قد لا يتفق وتصور سيف ، ولا وروايته السابقة ، ولا تؤيده روايات أبي مخنف الذي أفاض في الحديث عن الأزد ، لكن بدون أي تدقيق بخصوص مواضع دورهم . ولم ينج ماسينيون من اللبس والغموض، على الرغم مما بذله من جهد عظيم لتخيل الأمور وتجميعها وذلك لأنه حاول التوفيق بين هذه المصادر المتنوعة وتوحيد العصور ملحاً مع هذا على العصر الأموي . ولنقتصر فيما يخصنا على القاعدة الصلبة الواضحة لرواية سيف ، يضاف إليها الاستفهامات والشكوك التي أحاطت بها والتي تبرر وضع أكثر من مخطط بمواقع القبائل ، على أن يقع مواجهتها بعد ذلك بالتغييرات الحاصلة .

قطائع العشائر والتقلبات الأولى

إن ما رواه سيف هو مخطط أساسي دام قرنين . لكن ما هي متضمناته ؟

لقد مر بنا أن هناك خططاً كانت على شكل طرائد تفصل بينها سكك واسعة وتجمع بكل خطة قبيلة واحدة أو مجموعة متكونة من فرعين تابعين للقبيلة . وحدد تنظيم التخطيط الخطط وسلمها إلى أصحابها . هذا التنظيم من عمل السلطة ومستشاريها ، إذ لا يمكننا مجاراة اليعقوبي لما يقول : «فاختطت كل قبيلة مع رئيسها»[٣٥] عادة حول جبانة ما ، بصفتها نقطة مركزية للوجود القبلي ، وهي نقطة ماء أيضاً كما يظهر . وعلى النقيض من ذلك ، لا بد أن تدخل رؤساء

---

(٣٣) ورد خبر عند ابن الكلبي مفاده أن قسماً من الأزد أقاموا عند أبناء أختهم من بجلة : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٧٤.

(٣٤) نشعر بالضيق عند قراءة ما رواه أبو مخنف عن زيد حيث نستشفّ أن جبانة مخنف (الأزد) لا تبعد كثيراً عن كندة ، إلى الجنوب الغربي : الطبري ، ج ٧ ص ١٨٣ . وفي هذه الصورة يجب اعتماد المخطط الثاني أو الثالث . وهذان المخططان يتوافقان أكثر من المخطّط الأول مع ما عند أبي مخنف واليعقوبي .

(٣٥) كتاب البلدان ، ص ٣١٠ : لم تجر الأمور على هذا النحو إلاّ بعد أن سلمت السلطة الخطط .

القبائل كان نشيطاً ، لتهيئة الخطط من الداخل ، وتحديد مكان كل عشيرة ضمن المجموعة . وقد لعبت القرعة دوراً في هذا الموضوع كما تحكيم الرؤساء . لا شك أن الخطط الفرعية العشائرية هي التي أشار إليها النص باسم القطائع[٣٦] ، وفرضت السلطة أبعادها على شكيلة واحدة فيما يبدو (باستثناء بني ضبّة ونجهل سبب ذلك) . ومن الواضح أن الستين ذراعاً المذكورة تخص العرض ونفس الأمر بالنسبة للسكك والمناهج والازقة ، وقد صنف المؤلف القطائع في نفس المرتبة[٣٧] .

إذن تتسع قطيعة كل عشيرة إلى عرض ٣٢ متراً ، ٤٦ ، في حين أن طولها غير محدد ، وهي محاطة بنسق كامل من السكك والازقة التي يتضاءل عرضها تدريجياً والتي تقسم كل طريدة قبيلة . ولنتابع مرة أخرى سيفا حيث يقول :

فهذه مناهجها العظمى وبنوا مناهج دونها تحاذى[٣٨] هذه ثم تلاقيها ، وآخر تتبعها وهي دونها في الذرع والمحال من ورائها وفيما بينها» .

---

(٣٦) **لسان العرب**، ج ٨ ص ٣٨١: يحدّد الشافعي الطابع الوقتي للقطائع ويضاهيها بالأسواق بحيث أنه عندما يغادر شخص الموقع، يمكن لغيره أن يستقر بالمكان «كأبنية العرب وفساطيطهم فإذا انتجعوا لم يملكوا بها». القطيعة إذن هبة من السلطة لكن مرتبطة بالاقامة، ويمكن أن تصير دائمة في واقع الأمر. راجع أيضاً الزبيدي، **تاج العروس**، ج ٥، ص ٤٧٤ وما بعدها.

(٣٧) سيف في **تاريخ الطبري**، ج ٤، ص ٤٤.

(٣٨) الطبري، ج ٤ ص ٤٥. هذه كلمة جوهرية اطلاقاً، وهي تتحكم في فهم نسق الطرق وبنية الخطط القبلية وقد صاغ سيف جملته على النحو التالي: «وبنوا مناهج دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها». حاذى (صيغة ح ذ ى) تطرح عليها مشكلاً صغيراً في فقه اللغة. وهي تعني أصلاً (**لسان العرب**، ج ١٤ ص ١٦٩، ١٧٠): «حذا النعل: قطعها على مثال».

ثم يذكر **لسان العرب** كمرادف **آزى وقابل**، وكذلك عند الزبيدي الذي أورد آزى، ج ١٠ ص ٨٥. لكن إذا عبرت فكرة الموازاة بوضوح عن مقصودها، فليس الأمر كذلك بالنسبة لكلمة مقابلة المعبرة عن التواجه. وقد استعمل **لسان العرب** آزى وإزاء، ودعمه بفعلين هما حاذى وقابل: ج ١٤، ص ٣٢. فمن جهة نتبين في الموازاة معنى المجانبة، لأن المثال الذي يقدمه ابن منظور خاص بشخصين يتماشيان جنباً لجنب. لكنه من جهة أخرى بخصوص **إزاء وموازاة**، يقدم أمثلة عن المقابلة التي تتجسم مثلاً في مواجهة العدو. لكن عندما تتحدّد المعجم العربي بوضوح أكثر بفضل تقدم العلوم، لم يحتفظ المهندسون إلاّ بفكرة المجانبة في الكلمتين. راجع : =

كيف يتجسم كل ذلك في الواقع الملموس؟

لنفرض بداية أن كل طريق قبلية كبرى منطلقة من طرف المساحة المركزية، كان طولها ٣/٤ كم تقريباً، فالمسافة من الفرات إلى المسجد الحالي تعادل كيلومترا وربع الكيلومتر . وبما أن منطقة الفيضانات القريبة من الفرات لم تكن مأهولة ـ وعلى هذا يكون موقع السبخة بهذا المكان ـ فينبغي حذف طريدتين احداهما تقدر بـ ٢٥٠ متراً وتكون للصحن، والثانية للسبخة، وبذلك يكون العمق مساوياً لـ ٧٥٠ متراًـ إذ أن الكوفة في بدايتها لا يمكن إلا أن تكون مربعة الشكل وتماثلية، كما كانت البصرة مدة طويلة[٣٩]، وكما ستكون المدينة المستديرة التي بناها المنصور للمرة الأولى[٤٠]. وعلى هذا، كان يحيط بكل قبيلة طريقان طويلتان عرضهما ٢١ متراً، ٤٠، وطولهما ٣/٤ كم وكانت القبيلة تقيم على طريدة يختلف عرضها لا محالة بحسب عدد المناهج (٥ شمالاً و٣ شرقاً). فعلى وجه التدقيق، لم يكن لخطة همدان مثلاً أن تتجاوز عرض ٩٣ متراً في حين أن خطة تميم كان يمكنها أن تبلغ ٢٠٨ من الأمتار[٤١]. وبالنظر في هذا المثال الأخير فإننا نتصور سكة من الفئة الثانية (١٦ متراً) تقسم الطريدة قسمين في وسطها، وتوازي تقريباً المناهج على طول الخطة، أي ٧٥٠ متراً، ثم تنعرج حسب زاوية قائمة لتلتقي بمنهج تميم . فيتشكل أمامنا مستطيل طوله فقط يكون اعتباطاً، لكن عرضه

= Serre et Schmidt, **Lexique technique français-arabe**، ج ٢ ص ١٦٦٠؛ و Bla-chère, Chonémi, Denizeau، ج ١ ص ١٠٢؛ والمعجم الوسيط، القاهرة ١٩٧٢، ج ٢ ص ١٠٣٠. على أن الأمر يتعلق هنا بتطور في الدلالة من المفروض أن سيفا كان يجهله . والمرجّح إذن أن مؤلّفنا أراد التعبير عن الموازاة بالمعنى المقبول حديثاً. لكن شكا طفيفاً ما زال قائماً بخصوص وضعية عمودية ممكنة.

(٣٩) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤ كانت أبعاد البصرة في ولاية خالد القسرى (١٠٥ ـ ١٢٠) فرسخين على فرسخين، أي ١٢ كلمتراً على ١٢ كلمتراً.

(٤٠) من حيث تساوي المسافة بالنظر للمركز.

(٤١) ٢٠٨ أمتار بالضبط، نحصل عليها بطرح (٢١ م ٤٠) × ٣ من ٤٨٠ متراً (ضلع الصحن)، فتكون النتيجة ٤١٦ . ثم يقسم هذا الرقم على ٢ .

يساوي ٨٥ متراً[٤٢]. ولنستمر في تصورنا معتمدين سيفاً الى أبعد حد. نكون بذلك في حاجة الى سكة يكون عرضها عشرين ذراعاً - أي ١١ متراً - بمعنى سكة من الصنف الثالث تقع بعد المنهج والسكة المركزية. هذه السكة تقسم المستطيل قسمين في اتجاه الطول، وتفتح على حزام الوصل بين السكة الرئيسية والمنهج. إن القطيعة تتحدّد بهذه السكّة الثالثة وعلى هذا النحو تمتد قطيعتان ضمن المستطيل على عرض يقارب ٣٧ متراً، وهو يتجاوز قليلاً مع وقع تقريره[٤٣]. وتتجدد البنية ذاتها من الجانب الثاني من السكة المركزية. نجد قطيعتين هنا أيضاً، دون أن نعلم ما إذا كان الاتصال يتم في اتجاه المنهج المسند فقط أو أنه يرتبط بمنهج القبيلة المجاورة التي هي أقرب. وبذلك يصبح نص سيف واضحاً حيث تقع الدور «من وراء» شبكة السكة و(فيما بينها)، أي على جانبي السكك الثانوية[٤٤]. يبقى مطروحاً على النظر مشكل أخير هو مشكل الأزقة وعرضها ٧ أذرعة أي ٣ أمتار، ٨٠. لم يتحدث سيف عنها الا في البداية ضمن قائمة المصطلحات التي قررتها السلطة مسبقاً، لا في بقية النص، لكنّا نعلم من الروايات اللاحقة عن الثورات أن الأزقة كانت كثيرة. لكن هل كانت موجودة فعلاً من البداية؟ أم هي انبعثت من كثافة المساكن وتراكمها، وتضييق السكك، كي يوسع المجال الضروري للاتصال بالنسبة لكل مجموعة من الدور؟ الاتجاه النقدي الصارم يوجب علينا قبول فكرة تهيئة الأزقة من الأوّل، حيث أننا رضينا بكافة أقوال سيف. لكن على أية صورة تكون هذه الأزقة؟ هل كانت عمودية بالنظر لسلسلة المناهج الرئيسية، أو منحرفة، مشكلة بذلك مخططاً في هيئة رقعة، أم هي موازية لها تنظم وتشق

(٤٢) نحصل على هذا الرقم بطرح ١٦ متراً من الشارع الثانوي المنتصف، من ٢٠٨ أمتار، ثم تقسم النتيجة على ٢. يطابق هذا الرقم على سبيل التقريب ضعف عرض القطيعة كما ضبطها سيف، أي ٦٠ ذراعاً، على أن تقع اضافة الزقاق.

(٤٣) هناك فارق لا محالة قدره ٥ أمتار وزيادة. فلا بدّ أن قطائع قسم الجنوب كانت أكثر مطابقة للحجم المقرر من القطائع الأخرى. ولا بدّ أنها كانت خلافاً لذلك، أكثر ضيقاً في الشمال.

(٤٤) الواقع أن الأمر غير ثابت. فماذا يعني بقوله «من وراءها وفيما بينها»؟ لا يمكن أن يكون ذلك خلف المناهج الكبرى، بل وراء وبين السكك الثانوية المتقاطعة. بحيث تكون في شكل مستطيلات.

صفوف الدور المتواجهة أو كليهما في آن؟ لن نعرف ذلك أبداً، لكننا نتكهن أن هذه المدينة الكاملة الهندسة، الواسعة التهوية، سوف تتحول انطلاقاً من نقطة الضعف هذه، الى مدينة ملتوية غصّت بأهلها، وقد حصل ذلك جزئياً حين كان أبو مخنف يؤلف كتبه(٤٥) (فيما بين سنة ١٣٠ و١٥٠/٧٤٨-٧٦٧). على أننا نعلم أن دور الفترة المبكرة كانت صغيرة (لم تتجاوز ثلاث حجرات) فليس من المعقول أن تتكدس الدور في قطيعة لايزيد عرضها عن ٣٢ مترا . كان للعرب تقليد المعسكر ، وقد لاحظ فوق ذلك مخططوهم وعايشوا على عين المكان بنية المدائن الفضائية . فبعد قبول فكرة هندسية المظهر الأولى ، يبقى من المرجح أن الزقاق كان يقسم القطائع قسمين في اتجاه الطول ، مثله في ذلك مثل سلسلة السكك السابق وصفها . لكن ليس من شك في وجود أزقة عمودية لضمان الاتصال(٤٦) . وبذلك نصل أخيرا الى نسق حقيقي مرتب من المناهج الطولية التي عليها رصفت الدّور ، كما كانت الخيام تصف في مخيمات البدو ، الواحدة تلو الأخرى . وفي أدق طريدة من طرائد السكنى ، بمعنى نصف القطيعة عرضا بعد طرح الزقاق ، لاشك أن الدور أقيمت أزواجا ، مع فضاء طفيف فاصل ، أوأنها كانت متلاصقة لا غير . نجد نفس الشيء من وراء الزقاق ، وعلى النصف الثاني من الطريدة ، وقد ذكر الشيخ علي الشرقي في دراسته المنشورة بمجلة الاعتدال لعام ١٩٣٢ ما يلي :

« وكان العرب أول هبوطهم إلى العراق ينزلون الشواطىء من الريف والسواد ويبنون بشكل هندسي مكون من خيمتين خيمتين وإذا طغى النهر ارتفعوا عن الشواطىء ملتجئين إلى المخيمين الكبيرين البصرة والكوفة »(٤٧) .

إنه خبر ثمين مستمد على الأرجح من مدونة شيعية مجهولة لدينا . وقد نقله

(٤٥) هذا واضح تماماً في الرواية المتعلقة بثورة حجر بن عدى المزعومة : الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ . كان حجر مطارداً ، فكان الفتيان «يدلونه» عبر الأزقة لبلوغ النخع . هذا في سنة ٥١ هـ. لكن القضية برمتها ترمي إلى معرفة ما إذا كان أبو مخلف لم يسقط رؤية للكوفة المقبلة .

(٤٦) لابد أن تقاطع المناهج كان يتم على شكل زاوية قائمة لأن البناء كان من آجر ، كما في المدن القديمة في بلاد الرافدين . وعلى هذا النحو ، نصل إلى مخطط شبيه بالتبكة .

(٤٧) ذكره البراقي ، تاريخ الكوفة ، ص ١١٨ . هل أن « قرار البناء » الممهد لتخطيط المدينة الذي =

هذا الرجل أصيل النجف والمطلع على العوائد البدوية . ونحن نقتبس منه البنية التماثلية المتزاوجة للدور . ولنضف أنه كان لماسينيون تخمين باصطفاف الخيام ، لكنه افترض أنها كانت تراكب المناهج أو حتى تكونها ، وهو أمر لايمكن قبوله(٤٨) . وبخصوص عشائر همدان فقد تصورها الواحدة تلو الأخرى في نفس المنهج . أما تصورنا ، كما تمليه علينا صرامة نص سيف ذاتها فهو أن العشائر كانت تتوالى ، لكنها كانت تتواجه أيضا . كانت الدور تتوالى ضمن القطيعة الواحدة ، لكنها كانت تراكب ممرا ، هذا الممر هو الزقاق ، وهو أصغر الطرق ، وكانت الدور تقع على جانبي كل نسق الطريق قطعا ، كما هو الحال في كل مكان . لكنها لا تقيم عليها ، لاسيما الطريق الكبرى أو المنهج ، وهو عبارة عن فضاء خال ، صالح للفصل والمرور .

ما هو عدد قطائع العشائر بنفس الخطة القبلية؟ يرتبط هذا الأمر بعدد العشائر التي جاءت مع القبيلة، في بداية الفتح، وبعدد الأفراد داخل كل عشيرة. وقد طرأت تحويرات بالهيكل الشامل فور تنصيبه. ومن المعلوم ـ دائماً بصورة تقريبية ـ أن ٤٠٠٠ رجل من قيس حضروا وقعة القادسية (ضبة، هلال، سليم، غطفان، ثقيف): فتوزعوا على عدة خطط قبلية. وجاء ٣٠٠٠ من أسد ونفس العدد من تميم، و٢٣٠٠ من مذحج وحضرموت، و٢٠٠٠ من بجيلة(٤٩). لكن يتشعب المشكل برحيل عناصر من بكروضبة(٥٠) الى البصرة. والذي حصل

= تحدث عنه سيف شمل كافة الدور في واقع الأمر ؟ ألم يكن بالأحرى قرارا عاما انطبق على القصر والمسجد ودور الطبقة الارستقراطية ، لا على جمهرة المهاجرين ؟ المرجح أن هؤلاء قد استمروا على العيش تحت الخيام وفي خصاص من قصب . يذكر ابن سعد بكل تأكيد أن في خلافة علي (٣٦ هـ ـ ٤٠ هـ) « عامة الكوفة يومئذ لأخصاص » ج ٦ ، ص ٢٣٨ .

(٤٨) مرجع مذكور، ص ٣٨. كانت المناهج مبنية باللبن كما ذكر ماسينيون نفسه وعلي الشرقي، وكما أكده سيف خاصة، فذكر عبارة «بنوا مناهج». أن عبارة «جدران صغيرة من آجر» صالحة، لكنها توحي بفكرة الفصل الدقيق بين الخطط القبلية، وأن الخطط ذاتها محصورة بين المناهج.

(٤٩) راجع جدولنا.

(٥٠) كان رجال ضبة حاضرين بكثرة في وقعة الجمل إلى جانب أهل البصرة، الطبري ج ٤ ص ٥١٦ ـ ٥١٨.

بالكوفة هو هجرة أجزاء من قبائل متفاوتة الأهمية فلم تقع هجرة وحدات قبلية كاملة. لكن هل حصل ذلك بأقسام آتية من كل العشائر أم من بعض العشائر المتجانسة؟ لكي تكون لنا فكرة عن هذه المسألة، أحصينا وجود ١٠ عشائر من همدان في بداية نشوء الكوفة[٥١]. وللاطلاع، راجعنا كتب الأنساب فوجدنا أن بمذحج ١٧ عشيرة معروفة[٥٢] (لا بالكوفة، بل بصورة عامة)، وبكندة[٥٣] ٩ عشائر حسب المصادر المعهودة وما يفوق الـ ٢٠ عشيرة مستقرّة بالكوفة حسب ابن الكلبي. وتحصي بجيلة ٤ أو ٥ عشائر[٥٤]، خلافاً لتميم التي تركبت من أربعين عشيرة[٥٥]. وهكذا نرى أن النسب مختلفة جداً. فهل سنجد قطائع كبرى وقليلة العدد عند بجيلة[٥٦] وكثيراً من القطائع الصغرى عند تميم، وقطائع متوسطة عند مذحج وهمدان؟ إذا خضع جميعهم لمبدأ الهيكلة الطولية، في شكل شرائط، مع تحديد مسبق لعرض القطيعة، فمن المعقول أن تحتل القبائل الكثيرة العشائر، أوسع الخطط (خطط الشرق والغرب) ولعل المواقع المفتوحة من جهة أيضاً، حيث كان يتيسر التوسع الجانبي. ولا بد أن طول خطط العشائر بالخصوص كان متنوعاً، وقد بقي غير محدد على الأقرب بسبب تنوع العشائر. وبما أن بجيلة

---

(٥١) «اليمانية في الكوفة» مرجع مذكور، ص ١٥٨ ـ ١٥٩. الواقع أنه كان يوجد ١٥ عشيرة.

(٥٢) ابن حزم، الجمهرة، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧. كانوا حاضرين جميعاً تقريباً في الكوفة.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٤٧٧، منها ست أو سبع حاضرة بالكوفة. لكن ابن الكلبي في كتاب النسب نسخة الاسكوريال، بالخصوص ورقة ٢٤ إلى ٢٨ يحصي ١٤ مسجداً لعشائر كندة سوى المعروضة منها في المصادر الأخرى، وإذا زدنا على هذا العدد العشائر التي لم يذكر لها مسجداً بالكوفة وتقرر وجودها بها، فانا نصل إلى رقم يجاوز العشرين، علماً بأن هذا الرقم يعبر عن حالة القرن الثاني.

(٥٤) الجمهرة، ص ٤٧٤: هناك تردد بسبب وجود عشائر فرعية. ابن الكلبي يحصى ٩ عشائر، نفس المصدر، ورقة ٥٢ و ٥٣.

(٥٥) المرجع نفسه، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧. كانت بين تميم والرباب أوثق الصّلات. وحضرت سبع عشرة عشيرة بالكوفة، وأكثر من ذلك قليلاً بالبصرة (صالح العلي، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١). لكن الأمر لا يتعلق دائماً بنفس العشائر.

(٥٦) هذا ما أكده اليعقوبي بالنسبة لبجيلة: كتاب البلدان، ص ٣١٠ والملاحظ أن أخمس الكوفة انفصلت عن أكثر بجيلة، من كافة الوجوه.

تفرعت الى عشائر قليلة، فقد يكون من نصيبها ست أو سبع قطائع ضخمة، وستحافظ هذه القبيلة أكثر من غيرها على نسقها للطرق (وكثيراً ما ورد ذكره في الروايات السياسية اللاحقة). وعكساً لذلك، لقد استقرت تميم بخطة عريضة لكي تكون اقتطعت قطائع قليلة الطول وفي امكانها تصفيف أربع قطائع جنباً لجنب، في حين أنها لو استقرت شمالاً، فلن تتمكن الا من تصفيف قطيعتين قطيعتين. هذا ولم تكن كافة عشائر تميم حاضرة بالكوفة، ولا كل الذين شاركوا في وقعة القادسة، لا سيما بنو حنظلة الذين كانت عشائرهم كثيرة. فمنذ أن وقع التحول الى المدائن، اختاروا الإقامة بالبصرة[٥٧]. بقيت زيد مناة ومنها سعد، وتفريعاتها الكبيرة بصفة مذهلة إذ تحوي في الجملة خمس عشرة عشيرة على أقل تقدير. ثمّ إن خطة تميم تشتمل على مجارب. كلّ هذا يحفزنا على قبول تقسيم قصير للقطائع (٢٠٠ متر طولاً فقط)، أي قبول تراكم معين، وذلك يفسر أنه لم يكن لتميم جبانة معروفة، مما يبرر تنقلهم الى غرب الكوفة في بداية العصر الأموي[٥٨]. إن هذه الجولة في قضايا التعمير ترمي الى تسليط النور على البنية التوبوغرافية لمحيط الإقامة. يزيد ذلك من تشبثنا بفكرة أن توزيع خطط القبائل لم يتم صدفة ولا بواسطة قانون القرعة القديم، بل هو تعبير وكشف لمنطق كان سيئاً أحياناً. أما تخطيط القطائع فكان يخضع لقاعدة صلبة، بخصوص تحديد العرض وحسب، مثله في ذلك مثل نسق المناهج، فارضاً تشكيلاً وبنية ومظهراً عاماً. انه التشكيل الطولي، تشكيل البدو لصفوف الخيام، الذي انتقل الى الكوفة وتكيف بالكثافة البشرية، وانضغط على نفسه في الفضاء الضيق، فكان في آخر الأمر تنظيماً بديعاً.

على أن هناك نقاطاً هي محل شك بخصوص هذه النتائج. فمثلاً ليس ثابتاً

---

(٥٧) الطبري، ج ٣ ص ٥٩٠؛ صالح العلي، مرجع مذكور، ص ٨٦.

(٥٨) نظراً لكثرة عددهم، فقد هاجروا من الشرق إلى الغرب والجنوب الغربي مع ضبة. وقد ضايقت السبخة والفرات تطور المنطقة الشرقية في حين أن الغرب لاسيما الجنوب الغربي، تضمن امكانات أكبر للتوسع.

لدينا أن الزّقاق كان دائماً الخط القاسم داخل القطيعة، أو أنه كان كذلك أبداً. ففي وضعية مثل وضعية بجبلة القليلة العشائر ذات القطائع الكبرى المترامية في الطول والمكتسبة لخطة قبلية قليلة العـرض (واقعة في الشمـال)، يكفي المنهج الطولي من الصنف الثالث (٢٠ ذراعاً = ١٠ أمتار، ٨) لرسم الخط القاسم بين قطيعتين متواجهتين. ولن يكون الزقاق الإضافي في نفس الاتجاه زائداً عن الحاجة فقط، بل يكون غير قابل للبقاء. لكن أزقة بجيلة، كما أزقة ثقيف، وأزقة منطقة الشمال عامة، نجدها حاضرة كل الحضور في الروايات اللاحقة عن الثورات توحي لنا بشعور بالضيق والغموض. إضافة إلى أن هذه الروايات توحي ببنية عارضة للأزقة في اتجاه شرق ـ غرب تصل المناهج فيما بينها[٥٩]: فلا يمكن لهذا، التخلي عن فرضية الأزقة العمـودية في صنفي الخـطط، الخطط ذات القـطائع المتعددة حيث تدخـل الأزقة ضمن النسق الـطولي للمناهـج كما الخـطط قليلة القطائع حيث تكون الأزقة عارضة فحسب. فهل نتوصل من جديد الى مخطط مشبّك؟ لا، قطعاً، لأن المخطط المشبّك يفرض مسبقاً وجود وحدات ذات بعد متساو. لكن تشكيلة الكوفة في بدايتها تعارضه كل المعارضة. لا نجد في هذا المقام جزراً سكنية على الطريقة الرومانية، ولا كتلاً من العمارات على الطريقة الهلنستية. بل هناك تصفيف من صنف عربي.[٥٩] (مكرر) ولنبين أنـه لم يكن يعوزه الفكر الهندسي، ولا عقلانية التصور المتأثرة لا محالة بالتقليد البدوي. يظهر الفكر الهندسي في الخطط ومتفرعاتها، وفي القطائع، ويبرز في أهمية نسق الطرق التي اتسعت بصورة ممتازة، وانتظمت، واتجهت كلها الى المـركز، والتي يصب بعضها في البعض الآخر، والمنظمة لسيل البشر. وتلتزم العقلانية بإرادة التنظيم، وتبـرز في توزيع الفضاء الصالح للسكن على الأضلع الأربعة لمربع المـركز،

---

(٥٩) الطبري، ج ٥، ص ٢٦٢، وج ٦، ص ٢١.

(٥٩ مكـرر) قـارن بخصـوص خـطط القبـائـل وقـطائـع العشـائـر بـالكـوفـة المخـطط الـذي اورده Evans-Pritchard عن أوطـان قبـائـل بنغـازي لكن هنـا بصـورة مكـبرة، The Samûsî of Cyrenaica, Oxford، ص ٥٥ و ٩٤٩.

وإسناد الخطط للقبائل، وحتى تـوأمة القبـائل ضمن خـطة واحدة، وتفصيـل القطائع. هنا نجد كل شيء يخالف المدينة العفوية: انها مدينة منـظمة تنـظيماً مفرطاً، كأنها رسمت على الورق، لكن هذه العقلانية تتحقق في آن وتتقهقر في تشكيلة الخطط السّكنية المفصلة شديد التمفصل، هذه التشكيلة تخضع لروح شعب، وتقليد حضاري أصيل. وهي تكشف لنا عن عقلانية سياسية ـ ومعمارية ـ قصوى، لأنها تعتبر العنصر البشري على علاته. إذ كيف تمكن العرب البدو من التكيف بالتعايش الدائم في حين أنهم تعودوا الفضاء الفسيح، لو لم يعيدوا تشكيل بنية مأنوسة لديهم عربية صرف؟ لكن هذه البنية التي كانت نواة للتطور القادم، كانت تقع تحت عائق تضايق الفضاء الصالح للسكن، وما طرأ من صلابة على ترتيب القطائع، وهو ما يتضارب مع نسق الطرق المهوى جيداً ما عدا الأزقة مما أدى الى ظهور مصاعب فورية.

روى سيف أن الأعشار استقروا بهذا الحزام السكني[٦٠]، أي الوحدات الكبرى في معركة القادسية، في حين أن «مواضع» خصصت للمقـاتلين الذين كانوا يحرسون الثغور، وقد غابوا عن الكوفة (لا سيما عبس)[٦١]. لكن ها أن الروادف بدؤوا يتوافدون، وقد كانوا من المهاجرين الذي جاؤوا حديثـاً، على كرتين متواليتين، منذ خلافة عمر[٦٢]. وضاق المكان على المقيمين الأوائـل في الحال، وذلك دليل على أن الخطط حددت بصفة كبيسة، وأن فضاء السكن كان كثيفاً عموماً الى حد الشطط. وقد تبين فوراً أنه كان لا يكفي، وما شعب الوضع كثيراً أن العرب لم يكونوا يتصورون أي تجمع للسكن خارج إطار العشيرة والقبيلة عموماً. وأدى هذا الى إدخال التحويرات والتنقـلات والمبادلات، في مستـوى العشيرة والقبيلة. فإذا ما تكاثر المهاجرون الجدد المنتمون الى عشيرة أو مجموعة من العشائر المستقرة سابقاً، فإنهم يجذبون اليهم أبناء عمومتهم الذين يتخلون عن

(٦٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.
(٦١) المرجع نفسه، ج ٤ ص ٤٤.
(٦٢) المرجع نفسه، ج ٤ ص ٤٥.

دورهم ويلحقـون بهم حيث يقيمون[٦٣]، أي خـارج فضـاء الخـطط، وربمـا بالأطراف أو في الفجوات الكبيرة. من البديهي ان هذا قـد حصل لاستحـالة التوسيع من فضاء السكن وقد حصره نسق الطرق ولأنّ عرضه محـدود، ولأنّه يتفرع الى قطائع أو خطط غير قابلة للاتساع ـ نظراً لوجود عشائر أو قبائل أخرى مجاورة وهي بصورة قسرية محددة ـ فتظهر بمظهـر الوحـدات الثابتـة الصلبة أو الأراضي القبلية التي لا يمكن عبورها. وخلافاً لذلك، حيث يكون الروادف قليلي العدد، فإن رجال عشيرتهم يجلبونهم اليهم اما بالتضايق وإخلاء مكان لهم، بعد مراجعة تهيئة فضائهم، وإما بإقرارهم في مكان المغادرين إذا أسعفهم الحظ وكانوا من أجوارهم[٦٤]. فهل كانت تنقلات من الصنف الأول تبين سبب اقامة أحمس، احدى عشائر بجيلة الكبرى، قريباً من الجبانة[٦٥]، بحيث أقـاموا بعيـداً عن مجموع القبيلة، وأنّ تميماً وأسداً وعبساً تجمعوا في الطرف الغربي[٦٦]، أي من جهة الكناسة[٦٧]، حيث يوجد مجال أوسع للانتشار؟ نحن نجهل قطعاً تفاصيل هذه التحركات التي يمكن أن تفسر الخلاف المحير جداً، بين بنية الاستقرار الأولى كما رواها سيف، والتوبوغرافيا غير المباشرة التي جـاء ذكرهـا في تواريـخ الثورات اللاحقة. لكن بالرغم من التغييرات الطارئة، فإن المخطط الأول في روحه كما في اسقاطه الفضائي، بقي الإطار الأساسي لوجود الكوفة وتطورها، والرّسم الذي انطلق منه بناء المدينة ونشوؤها.

---

(٦٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.
(٦٤) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٥.
(٦٥) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٦٦) المرجع نفسه، ص ٣١١.
(٦٧) كتاب الأغاني، ج ١٥، ص ١١٠؛ Massignon، مرجع مذكور، ص ٥٣.



الفصل التاسع

التخطيط والتطور اللاحق

ستنمو الكوفة فعلاً وسيكون نموها موفقاً. كان التخطيط الأول بمثابة النواة التي عملت على إملاء الاتجاه الذي سيكون عليه التطور المقبل. إلا أنها كانت نواة شديدة الهيكلة. أن تكون الكوفة نموذجاً للأمصار فهذا مما لا يدخله الشك: الأمصار أي ذاك الجيل الأوّل من التجمعات العربية التي قامت خارج بلاد العرب، فتجشمت دور المراكز العسكرية والسكنية الكثيفة، وكانت قطباً للتعريب في البلاد التي أقيمت بها كما للأسلحة، ولأسلمة العرب قبل غيرهم. ولكن وفوق هذا، هل كانت الكوفة نموذجاً للمدينة الإسلامية المقبلة كما شكلت مظهرها في العصور الموالية، وكما حافظت عليه الى حدود زمن قريب منا؟ أي ذلك النمط الأصلي المتعلق بخصوصية المدينة الإسلامية من وراء تنوعها في المكان والزمان. هذا سؤال ينبغي لا محالة طرحه بمتضمناته المتعددة. وهذا واحد منها يخص الى حد بعيد بنية الفضاء الذي نجتهد محاولين الإحاطة به. لقد أتيح لشكل المدينة العربية المعهود في العصر الذهبي وما والاه، أن يظهر بصفة مكثفة وغير منتظمة وملتوية وفوضوية. كان مكتظاً بالأزقة والسكك الصغرى الضيقة. فمن كان يتحمل أعظم مسؤولية في هذا التغيير، أهو التطور التاريخي اللاحق، أم البنية الأصلية الفضائية في المدينة العربية؟ ان ما يهمنا في هذا المقام هو التخطيط الأولي، فما عسى أن تكون اختلالاته الممكنة؟

الأمر الثابت أن هذا التخطيط كان منتظماً أكثر ما يكون الانتظام وكان

بمقدوره أن يخلّف حاضرة منشرحة، هندسية الشكل، لـو وقع الاستمـرار في مراقبتها مدة نموها، كما كان الأمر عند نشأتها، ولو استمرت تنمو بموجب اتجاهها الأول، وهو اتجاه الطول، بمعنى أن يكون هناك امتداد لا نهاية له، لا ان يكون هناك تكديس. ولا نستبعد ان يكون وقع التطور بالطريقتين معاً. فقد تطورت الكوفة في اتجاه الغرب على امتداد كيلومترات كثيرة،مع العلم أن الناس انهمكوا في ملء النواة الأصلية (المركز والخطط) الى حد الضغط. ومع هـذا فلا يمكن أن تتسبب ظروف النمو المقبل وأسلوبه وحدها في التطور الفوضوي إذا ما حصل مثل هـذا في الكوفـة. رأيي أنه ينبغي العـودة بصفة مـطلقة الى هـذين العنصرين الأوليـين، نعني وجود الأزقـة وما كـان من نقص هيكلي في المسـاحة الصـالحة للسكن. يشكل الزقاق قطعاً جزءاً من جهاز المناهج، الا أنه كان أكثر اندماجاً بالفضاء الصالح للسكن، لأنه يفتح على الدور ويقسم القطيعة قسمين. فكان دوره هاماً فيما سيكون للكوفة من مظهر بحيث صار بمثابة السكة المعهودة التي اندمجت حقاً بالنسيج السكني، ولعله بقي العنصر الوحيد من جهاز المنـاهج، باستثناء المنهج الكبير. لكن الزقاق لما كان عليه من ضيق، كان مع هذا منتظماً وغير قابل للضغط. وعلى ذلك، فقد استمر قائم الذات، في حين أن المناهج الأخرى الطولية قضمت وألحقت الى أقصى حد بالفضاء السكني. ومن المعلوم ان المنصور قمع هذه النزعة في بغداد، أي نزوع الأهالي الى تجاوز المناهج الكبرى، فهدم الدور التي خرجت عن الطرق[1]. ولذا، هناك دفع طبيعي أو ما يشبه ذلك يتجه من مناطق السكن الى فضاءات الاتصال. وسبب ذلك رقة القطيعة والخطة بصورة عامة، كما بسبب ما فرض من تحديد على عرض القطيعة، مقتبس من عرض المناهج. وهذا جعل منها نوعاً من الطريق التي لم تتسع إلا قليلاً، وجعل من الخطة القبلية بتمامها بنية تتناوب فيها السيور الخالية والسيور العامرة. وبقدر ما كانت النظرة كبيرة في نسق الطرق، فإنها قد صغرت في نسق القطائع، كأن

---

(١) الطبري، ج ٧، ص ٦٥٤.

الطرق تفوقت على القطائع، كما تفوق الفضاء العمومي على الفضاء الخاص: هذا تعبير عن استخدام جماعي للفضاء من مجموعة تنشر حياتها خارج البيوت. ولا أعتقد أنه يجب اعتبار تصور الحزام السكني بمثابة ثنائية معينة، بين نسق الطرق المستمد من اشكال هلينستية من جهة، ونسق المساكن الذي يكون بذلك عربياً صرفاً، حيث ان أسلوب الحياة بالذات يوجب وجود وتحقيق التنقل بصفة ميسرة.

لقد اتضح لدينا ان القطيعة لا تكفي لقبول مزيد من السكان. فهي مصممة لإيواء وحدة بشرية هي العشيرة، ولذا كانت اقطاعاً جماعياً يستبعد الملكية الفردية، فانتصبت إطاراً ملزماً لاستقرار كل فرد من أفراد العشيرة. كان إذن الفضاء الاجتماعي كما الفضاء المادي للقطيعة، يضغط عليها في سبيل الضيق. ومن هنا نجد في الأساس البذرة لكي يتجه التطور المقبل الى صنف مديني ضاق ضيقاً مشطاً، بسبب تطور انعكاسي تماماً ابتلع فيه الفضاء السكني نسق الطرق فارضاً وجهه المعتم في كل مكان. ويمثل هذا الأمر انتقاماً موجهاً الى المنهج مصدره القطيعة. لم يتحول الزقاق الى طريق غير نافذ أو الى سكة ملتوية، بل ان نقص وأحياناً مجرد فقدان الفتحات العرضية في التصميم الأصلي، هو الذي نشأ عنه كثير من الطرق الجانبية بكيفية غير منظمة حتماً. وقد تحدث سيف بالفعل عن مناهج كانت تتوازى ثم «تتلاقى»، وتحدث عن أخرى «تتبعها»، وعن الدور «فيما بينها ومن ورائها». يجب الاعتراف أن هذه الفقرة بإمكانها ان تحملنا على تأويل مخطط الكوفة تأويلاً مخالفاً لماذكرت،أي كمخطط متقاطع حيث تتلاقى السكك، مفصلة بذلك قطائع مربعة الزوايا . وحتى في هذه الصورة حيث يقع تصحيح الاتجاه الطولي الذي اعتقدنا اكتشافه، فإن عناصر المشكلة تبقى قائمة، يعني وجود خطط فرعية للعشيرة محصورة في شبكة من المناهج، وغير قادرة على التمطط إلا إذا قضمت هذه الشبكة وبذلك يكون الساكن حبيس فضائها الملموس.

إنّما سقنا الكلام عن مشكل النمو والتطور، ضمن سياق تكّون الكوفة،

لكي نطارد فعلاً التصدع الذي بموجبه تنفصم بنية منتظمـة متسعة منشـرحة، ولعلها تقلب في القرون المقبلة. وهي من أمهات مشاكل المدينة الإسلامية وكثيراً ما تعرض إليها المستشرقون لكن بصفة غير مرضية.

الباب الثالث

الاستشراق والمدينة الاسلامية



الفصل العاشر

من النظام إلى الخلل

بالرغم من وجود أدب استشراقي وفيرعن المدن الاسلامية فلم يتساءل إلا علماء قليلون عن المشكل المتعلق بمعنى هذا التطور ومسبباته ، ربما لأنهم لم يتمعنوا في أوضاع الامصار . ذلك أنهم كانوا يفضلون دراسة العصور اللاحقة . وإذا ما شعروا بوجود تناقض بين المدينة الأولى للعصر المبكر ، المدينة المفتوحة المنظمة ، والمدينة الثانية المتكدسة الملتوية وغير«المنظمة» ، يعللون ذلك بمفعول التطور وحده ، لا ببنية المخطط الاصلي إبداً . فكيف تم الانتقال من النظام إلى الخلل ؟ هذا سؤال طرحه على أنفسهم باحثون منهم X. de Planhol [1] ، وR. Brunschvig [2] ، و Wirth [3] . لم يفسر ذلك Planhol ، بل اقتصر على

(١) "Le paysage urbain de l'Islam" في مجلة ، ص 122-132

(٢) "Urbanisme medieval et droit musulman" في مجلة Revue des Etudes Islamiques عدد 15 (1947) ، ص (127-155) .

(٣) "Stru k turwandlungen und En twicklungstendenzen der orientalischen Stadt" في Erkunde عدد 22 (1968)،ص 101-128 ، "Zum Problem des Bazars (suq,carsi)

Versuch einer Begriffsbestimmung und Theorie des Theorie des traditionellen Wirths- chaftszen trums der orien talich- islamischen Stadt",

في Der Islam عدد 51 (1974) ، ص 203-260 وعدد 52 (1975) ، ص 6-46

"Die orientalisch Stadt, Ein Uberlick aufgrund juhguer Forschungen Zur mater- iellen Kultur" في Saeculum عدد 26 (1975) ص 45-94 .

"Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problematiqye face au changement",

بحث مقدم لندوة تونس عن المدينة العربية في 1979 منشور في La ville arabe dans l'Islam. تونس 1982 ، ص 193 وما بعدها

تأكيد الأمر . وبإستثناء بعض التخمينات المهمة ، فقد عكس مسعاه تماماً أصناف التصورات الاستشراقية كافة عن المدينة الاسلامية ، وهذه التصورات ينبغي إمعان النظر فيها جيداً . قال إن الاسلام المبكر عرف الشوارع المتسعة : «نسب حديث للرسول قوله إنه يجب أن يكون لعرض السكك ٧ أذرع على الأقل (ما يقرب من ٣ أمتار ، ٤٠) ، وهو فضاء يتنافر وتلاقي دابتين مثقلتين بالاحمال . وقد اعتمد عمر هذا العرض بالنسبة للسكك السوية في البصرة والكوفة ، ثم أنه في بغداد كان عرض الشوارع يبلغ ٢٠ ذراعاً (ما يقرب من ١٠ أمتار) فكانت تفصل كتل الدور وعمقها ٣٠ متراً . . . وقد ظهر شاغل ممتاز للتنظيم ، ونظام صارم ، وتصميم حازم التخطيط ، حتى في عدة منشآت مدينية إسلامية في بدايتها[٤]» . ثم أضاف أن «اختلال المخطط في المدن الاسلامية هو في أكثر من الحالات ، واقع مكتسب وليس واقعاً أصلياً» ، وأن الامر لا يتعلق «بنقص جذري» ، بل بالاحرى بتطور لا حق يمكن أن يعزى إلى فقدان التنظيم البلدي فقط . هذه حجة منقوصة لأنه لم يمتنع على الدولة تحمل المهام البلدية الهامة ، كما فعل عمر بالنسبة للكوفة ، والمنصور بالنسبة لبغداد ، كما أنها حجة واشية دافع عنها الاستشراق القديم مدة طويلة ، وقد صارت محل اتهام في العصر الحديث ، لأنها تستند إلى مثالية المدينة اليونانية ومدينة العهد الوسيط وتعرف المدينة الاسلامية لا بما هي ، بل بما ليس فيها .

ومع أن روبار برشنفيغ (R. Brunschvig)درس تطور التمصير الاسلامي من خلال مصادر الفقه ، فقد كان شعوره حاداً بالعناصر الحضارية التي ينبغي إعتبارها لشرح هذا المظهر الملفت للنظر في المدينة الاسلامية : تصور الأسرة المنطوية على نفسها[٥] ، ونوع من التسامح القريب من الاهمال تجاه المبادرات الفردية[٦] . الشيء الذي جعل الأولوية للبيت على الطريق العمومية

---

(٤) مرجع مذكور ص ١٢٣ .
(٥) مرجع مذكور، ص ١٤٠.
(٦) المرجع نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٤ .

التي تواصل قضمها بسبب إمتداد البناءات ، في حين أن الخرابات والاماكن المفتوحة كل الفتح كانت متراكمة فضلاً عن ذلك يقول[٧] : «إن الطريق العمومية سيئة الحماية ، والتسامح يتجه إلى من ينمي الملكية المبنية ، ولو كان ذلك على حساب الساحات والسكك» . هذه ملحوظات صحيحة قطعاً ، لكن ما هو سبب عجز السلطة عن العناية بالطرق والمحافظة عليها، بينما كان هذا الشاغل قائماً في القرن الأول والثاني من الهجرة ؟ لعل الدفاعات العميقة هي التي طفت على كل إرادة تنظيمية لدى السلطة التي تنشىء وتؤسس ، ثم تفشل في الصيانة . كانت دفعات ديمغرافية ، وتصاعدات لنزعات ثقافية ما زالت حية (النزعة البدوية والشرقية وغيرهما)، وتنظيم الحضارة الاسلامية ذاتها في إطار المدينة أي نشوؤها البطيء داخل بعض المدن الرئيسية بالذات . لا يوجد أي شك في وجوب طرح قضية الترابطات العميقة الخفية والتطورية أيضاً ، بين نمط الحياة كما تكون بفضل سلسلة من الخيارات والالغاءات ، وبين الشكل المديني ، كما يتقولب حول أقوى متضمناته . وبقدر ما تكونت الحضارة الاسلامية في المدينة ، فقد انتهى بها الامر إلى إضفاء وجه معين يشكل هذه المدينة بالذات ، ويتمثل في البنية الالتوائية ، وتفوق المخفي وبالتالي إنغلاق الدار ، وتخصص الاماكن العمومية وتحديد مواقعها بالمركز ، وإنقسام المدينة إلى أحياء في فترة لاحقة .

إن المشكل المطروح فضلاً عن ذلك يتعلق بمعرفة هل أن ما تطور في اتجاه الفوضى كما قيل [٨] ، لا يعبر على العكس من ذلك ، عن نظام ما ، هو مغاير لنظام الهندسة الواضحة ، كما يعبر عن نظرة جمالية بدأنا نشعر بها اليوم ، وعلينا أن نسرع بحمايتها من غائلة الدهر . ولا فائدة من الافاضة في القول في هذا الباب ، لكن كان مهماً تصحيح عدة فرضيات مسبقة نشرها الأدب التاريخي الخاص بالمدينة الاسلامية .

---

(٧) المرجع نفسه، ص ١٥٤ .

(٨) Planhol، مرجع مذكور، ص ١٢٥ ، Wirth، «Die orientalische Stadt»، ص ٦١ وما بعدها.



الفصل الحادي عشر

مدينة بدون ذات

هل هي مدينة إسلامية ؟ هل من يقين في هذا المضمار ؟ هذا تساؤل مطروح من طرف الاستشراق ويعلل بالتصور الآتي : بما أنه اتضح وجود فترتين في تاريخ هذه المدينة ، فترة أولى أمددها بعضهم إلى القرن الحادي عشر تكون تميزت بشبهها بالعصور القديمة اليونانية والفارسية والبابلية والبيزنطية، فيستنتج أن المدينة الاسلامية طالما اتسمت ببعض الاستقلالية في مؤسساتها، وبكونها منفتحة واسعة في مخططها ، وبما أن هذه التشابهات والاقتباسات والتأثيرات واردة ، فالرأي أن هذا المدينة لم تكن إسلامية(٩) : وجملة القول ، فإن الاسلام لا يصبح إسلامياً كما قيل ، إلا في عصر متأخر . إن الاسلام الأولي المقاتل والعربي ، كذا الاسلام المعتد في العصر العباسي ، ذاك الاسلام المتردد بين قطب استبطان المحيط الثقافي وقطب المقاومة ، في حركة جدلية قوية ، يفقد صفته الاسلامية والمدينة من وراء ذلك . وهكذا ، فلا يمكن لأية حضارة أن تنسب إلى اسمها إلا حين تنهي بناء ذاتها ، لا في مرحلة التكون ، حتى لو تبين أن هذا التكون تم عن وعي وعمداً . وأحسن من ذلك ، يحدد كيانها الأول بالمؤثرات الحاصلة ، لا بنصيبها من الخلق والابداع .

---

(٩) «Claude Cahen» الحركات الشعبية والاستقلالية المدينية في آسيا الاسلامية في العهد الوسيط»، مجلة **Arabica** ج ٥ (١٩٥٨) ص ٢٢٥ - ٢٥٠، وج ٦ (١٩٥٩) ص ٢٥ - ٥٦ و ص ٢٢٣-٢٦٥ :يلح Cahen على فكرة استرسال الماضي قبل الاسلامي . ويعرض أو يعود إلى فكرة الاسلام بصنفيه. ويختم Ira Lapidus دراسته عن «المدن الاسلامية والمجتمعات الاسلامية المنشورة ص ٧٣ في **Middle Eastern Cities**، فيؤكد بوضوح أن «المدن كانت وحدات جسدية لا كيانات اجتماعية موحدة ومحدّدة بصفات اسلامية مميزة».

نزع فيرث (Wirth) أيضاً ، وبكيفية أخرى ، الصبغة الاسلامية عن المدينة الاسلامية ، فجعل منها مدينة شرقية . كان واعياً بانتظام الشكل في البداية ، وهو أمر صحيح مهم ، وإبختلاله في النهاية ، تبعاً لاسلوب النمو على رأيه ، لكنه يتقدم شوطاً أبعد من ذلك ويقوم بالتنظير، إن رغبته في ابراز خصوصية المدينة الاسلامية تنته به الى حرمانها من أي طابع إسلامي[10]. يمكن تلخيص مظاهرها المميزة فيها طرأ على المخطط من قلب عجيب، وفي ظاهرة الزقاق غير النافذ- وهي خاصية لتنظيم الفضاء تعكس سلوكاً معيناً للجماعات البشرية -» لا نجدها في مدن العصور القديمة الكلاسيكية ولا في مدن العهد الاوروبي الوسيط» ، وتكون مشتقة من الشرق القديم ، ومن هذه المظاهر أيضاً الدار ذات الصحن الداخلي ، وهي ارث شرقي ، والتنوع الاثني للاحياء وبالخصوص وجود السوق. ويرى «فيرث» أن الخاصيات الاربع الاولى ليست ابتكارات إسلامية، بل هي عناصر شرقية لا تتميز إلا بالنسبة للتقليد الكلاسيكي أو الأوروبي ، والسوق فقط إبداع ثقافي إسلامي[11] . على أن «السوق (البازار) بصفتها مركزاً تجارياً يعمل بمقتضى مبادىء إقتصادية عقلانية ، هي مؤسسة لها أضعف الصلات بالاسلام كدين» ، يقول «فيرث» مسترسلاً في تفكيره دون حرج ، جامعاً بين الافكار الاستشراقية المسبقة والفرضيات المسبقة كما يجدها عن «فابار»[12] . ليست هذه المدينة إسلامية لأن أغلب خاصياتها مستمدة من المدينة الشرقية . فهل نسميها لذلك شرقية ؟ لا ، حيث «إذا إعتمدنا الآثار المادية والتوثيق المختص بهندسة العمارة، فإنه يبدو معقولاً العدول عن عبارة «مدينة شرقية» وأخيراً فإنها ليست مدينة عربية[13]. إنها مدينة بدون اسم، لا ترتبط بأية

---

(١٠) «Die Orientalische Stadt»، مرجع مذكور، ص ٨٧.

(١١) «Zum Poblem des Bazars»، في **Der Islam**، عدد ٥٢ (١٩٧٥) ص ٣٩؛ «Die Orientalische Stadt» في **Saeulum**، ص ٨٣؛ و «Villes islamiques, Villes arabes, Villes orientales»، مرجع مذكور، ص ١٩٨ .

(١٢) المرجع الأخير، ص ١٩٨ .

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٩٨ .

حضارة معينة . ويختم «فيرث» تدليله دون أن يستنتج فكرة ما ، لأنه بقي حبيس تصوراته الذهنية ، فهو يرى جيداً أنه حتى باسناده عناصر شكلية إلى التسلسل الشرقي فإنه يستحيل ، من الوجهة الاثرية ، مماثلة هذه المدينة الفاقدة لكل اسم بالحاضرة الشرقية . الحقيقة أن نقطة الضعف تكمن بالنسبة لكافة هذه المساعي ومنها مسعى «فيرث» كما مسعى من سبقه وبسبب مفارقة هائلة ، في التصور المسبق العنيد للاسلام كدين صرف وجديد إطلاقاً ، ويكاد أن يكون مثالياً ، في حال أنه قام بداهة على أرضية تاريخية ملموسة مزجها ، وشكلته هي بـدورها . وجملة القول ، يكمن هذا الضعف في العمى تجاه الامتدادات والانقطاعات التي تؤسس مجرى التاريخ بالذات .

انطلق المحللون من هذا الوضع ، فجمعوا الفرضيـات والمتناقضـات ، إضافة إلى إصدار أحكام تقييمية ضمنية وصريحة . ومن الغريب أن «فيرث» أعلن أن العصور الكلاسيكيـة القديمـة والعهد الـوسيط لم تعرف السكـك الصغرى والازقة[١٤] ، مع علمنا أن روما عرفتها[١٥] . كـما أنه من الغـريب أن تكون السوق مقتبسة حسب Planhol من «الطاقات» اليونانية الرومانية[١٦] . إن هذا المؤلف يجد نفسه في تناقض بين ميلين ، يؤديه أولهما إلى إضفاء عنصر سلبي معين على الحضارة الاسلامية لصفته سلبياً ويؤديه ثانيهما إلى إنكاره عنهما إذا كان هذا العنصر يعبر عن ابتكار أصيل . فهو مثلاً يلح عـلى فكرة انفصـام المدينـة إلى أرباض[١٧] ، وهذا غرض معروف ينطلق منه للتدليل على ما هناك من نقص في

---

(١٤) بحث مـذكـور : «Die Orientalische Stadt» ، ص ٤٥ ومـا بعدهـا ؛ وبحثه المـذكـور في **La Ville arabe dans l'Islam** ، ص ١٩٥ .

(١٥) **Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité, Léon Homo** ، باريس ، طبعة جديدة عام ١٩٧١ ، ص ٣٧٠ : يشير إلى الأزقة الضيقة («angiportus») ويقـول انها «لم تكن سوى أزقة أو طرق غير نافذة في الغالب» .

(١٦) مرجع مذكور ، ص ١٣٢ . ولعلّه اخذ هذه الفكرة عن Sauvaget .

(١٧) المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .

اندماج المدينة الاسلامية . ثم لا يلبث أن يؤكـد مباشـرة بعد ذلـك أن هذا الانفصام لم يبتكره الاسلام لأنه كان حياً جداً في المدن خـلال العهد الـوسيط (يقصد المدن الاوروبية)[١٨] . هذا وبما أن كل استمرار تاريخي جغرافي ، وكل خاصية موروثة أو مقتبسة تعادل النقل ، فمن المهم أن يوحـد هؤلاء المحللون مواقفهم ، ويتأكدوا من كون العنصر «المنقول» هـو من الشرق القـديم ، من فارس أو من التقليد اليوناني وإلا فلن تتبقى سوى إرادة عنيدة للاستنقاص ، إذ لم يعد المقصود إبراز التسلسل . فمثلاً هل أن الدار ذات الصحن الداخلي المفتوح ، يجب ربطها بالشرق القـديم (Wirth) [١٩] ، أم بفارس أم بـالتقليد اليـوناني (Planhol) ؟ المسعى المعرض به في هذا المقام ، ينقلب على نفسه : فيصير أعمى أمام تيارات انتقال صور الحضارة بين الشرق واليونان ، ويتجه إلى ثنائية حيرى (الشرق ؟ أم اليونان ؟) وبذلك يتيه في التناقض لأنه يريد الافـراط في تفريـد التقليد الكلاسيكي دون سـواه . الحقيقة أن هذا النقد المنهجي يتجـاوز قضية نشوء الامصار التي تشغلنا في هذا المقام .

---

(١٨) مقال مذكور، ص ١٣٢ .

(١٩) بحث مذكور، ص ١٩٦ وما بعدها.

الفصل الثاني عشر

المدينة العفوية والمدينة المنشأة

وينكشف غرض آخر يتجه إليه الاستشراق ، علاقته أكثر مباشرة بدلالة التخطيط : نعني محور المدن «المنشأة» والمدن «العفوية» التي قال عنها غرونيباوم (Grunebaum)[٢٠] إن «المستشرقين الفرنسيين المتخصصين في تاريخ المدن ، ولعون به» ، لكن لم يمنع هذا أن فرض المحور المذكور وجوده على المدارس الاستشراقية الاخرى . وقد سبق لجورج مارسي (Georges Marçais) أن حدد القضية[٢١] ، وكذلك ادمون بوتي (Edmond Pauty)[٢٢] . يعرض جورج مارسي تعريفاً ضيقاً إلى أقصى حد للمدينة المنشأة ، حيث تكون الكلمة - المفتاح هي عمل من محض إرادة شخص أو عمل اعتباطي[٢٣] . وتتضمن كلمة «اعتباطي» معنى تحقيرياً ، على أن هذا الامر لم يمنع التقليد الاستشراقي كافة تقريباً من اقتباسها ، والغريب أن مؤرخاً أكثر كلاسيكية إن صحّ القول ، نعني P. Lavedan لا يقبل مثل هذا التقسيم المتسم باليبس ، مؤكداً أنه «ينبغي اعمال الفكر الدقيق أكثر من التعويل على التفكير الهندسي ، للتعرف على هيمنة أحد الشكلين على الآخر»[٢٤]. ان الفكرة الاساسية التي تستند إليها النظرية

---

(٢٠) Von Grunebaum، «The structure of muslim town» في **Islam. Essays in the nature and growth of a cultural tradition** لندن، ص ١٤٤ .

(٢١) «تصور المدن في الاسلام» **Revue d'Alger**، عدد ١٠ ج ٢، ١٩٤٥، ص ٥١٧ - ٥٣٣ .

(٢٢) «المدن العفوية والمدن المنشأة في الاسلام»، **Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger**، مجلد ٩، ١٩٥١، ص ٥٢ - ٧٥ .

(٢٣) مرجع مذكور، ص ٥١٧ .

(٢٤) P. Lavedan، **Géographie des villes**، باريس ١٩٣٦، ص ١١ .

الاستشراقية هي أن المدينة «المنشاة» تشكل استثناء في تاريخ الاسلام، لأنه من النادر أن سبق تصورها أو تصميمها. إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة، بل لصالح الأمير. وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقراً للقصر، وترتبط بوجود أسرة حاكمة، أي أنها تكون مؤقتة ومفتعلة بالضرورة[٢٥]. فماذا يكون مصير المصر مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، من رؤية الأمور هذه؟ هو مدينة عفوية أو مدينة منشأة «لغرض استراتيجي» فقط، لا لسعادة المجموعة. وهكذا، وبقدر ماكانت هذه الامصار مجرد معسكرات في بداية الأمر، و«مخيماً»، وبقدر ما تطورت في مرحلة ثانية إلى مدن تملك الصفات الاساسية للحاضرة، فلايمكن لهذا التطور ان يكون ثمرة لارادة اصلية بل نتيجة للمحيط والظروف أي للعفوية.

فلم يُقصد إنشاء مدينة معينة لذاتها، بل المعسكر هو المقصود بالذات[٢٦]. وقد صلّب جورج مارسي وجهة النظر التي كان أبداها في مقاله، ضمن رسالة وجهها إلى روتي حيث يتساءل «هل من الممكن الكلام عن إنشاء عندما تنشأ المدينة عن معسكر...؟ هناك مستوطن عسكري سابق: لكن ليس المعسكر مدينة وليست الخيام دوراً. وأضاف قائلاً: «إن هذه المقرات العسكرية التي تجمع حول قائد العمليات الاقليمية مصالح الحامية والمنشآت شبه القارة لا يمكنها، بأية حال، تمثيل إرادة أصلية لارساء قواعد مدينة»[٢٧]. وزاد قوله[٢٨]: «هناك آخر الأمر... رباطات ومعسكرات وحاميات «أنشئت» قرب المدن القديمة. كما نجد أحياء «منشأة» يقيم فيها الامراء. وقد انبثقت عنها تجمعات سكنية تكونت من الاستمرار في تعمير الاحياء التي تولدت حولها. وتميزت دون منازع بطابعها

(٢٥) Georges Marçais، مقال مذكور، ص ٥١٩: لكن المشكل مطروق هنا مع تحفظات؛ راجع بالخصوص: Pauty، مقال مذكور، ص ٥٨ ـ ٦٥. وقد أجمل Grunebaum على أحسن وجه وجهة النظر هذه في **Essays** ص ١٤٤.

(٢٦) Pauty، ص ٦٠، و ٦١ و ٧٤.

(٢٧) Pauty، مقال مذكور، ص ٦١.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٦٤.

العفوي» .

ومهما كان الامر ، وسواء كانت المدن منشأة أو عفوية ، فإن العمل التمديني الاسلامي محكوم عليه مسبقاً ، مع بعض التخفيفات عند الاخوين مارسي[٢٩] ، وبصورة فظة وردت عند Puty Planhol ، حيث لا تتطور المدينة العفوية من العشوائية إلى النظام في هذا المقام ، خلافاً للنموذج الاغريقي - الروماني - الاوروبي . واذا ما وجدت مدينة منشأة « فإنه يحصل تعتيم هيأتها الاولية »[٣٠] .

من المؤكد أن هذه الرؤية كانت محل مراجعة وتدقيق أحياناً، مثلاً من قبل هنري تيراس (Henri Terrasse)[٣١]، لكنها ما لبثت أن فرضت شبكتها على بعض التحاليل اللاحقة، لا سيما التحاليل الأنجلوسكسونية. لم يقم Von Grunebaum سوى بإجمال وجهة نظر المدرسة الفرنسية، مضيفاً عليها موافقته

---

(٢٩) لا ننسى أن مقال W Marçais المعروف وعنوانه «L'Islamisme et la vie urbaine»، الذي كان في الأصل بحثاً مؤرخاً في ١٩٢٨، وأعيد نشره في تأليف بعنوان **Articles et Conférences**، ص ٥٩ - ٦٧، هو الذي انطلق في البحث في هذا الاتجاه. كانت نظرته دقيقة ذكية بالنسبة لذلك الوقت وبالأحرى رصينة. وقد سجل «المفارقة» الواردة في نجاح التمصير الاسلامي، والجهد الخلاق وكونها وقعا بمساعدة مجموعة بشرية كانت من الرحل أصلاً، وقد حاول تفسير هذه الظاهرة بالتأطير الذي حصل بفضل العناصر المستقرة من الحجاز كما بالمثل الأعلى الجماعي للاسلام. وسيعود الاستشراق اللاحق كله إلى هذه الفكرة الأخيرة منسقاً إياها، كما وقع العود إلى استخدام صفة «الاعتباطي» بالنسبة للمدن المنشأة. الواقع أن ماكس فيبر (Max Weber) عبر عنها تعبيراً تاريخياً أقوى حيث يطرح الاسلام الأولي كاسلام محارب وسياسي وجماعي، خلافاً لاسلام العصور الموالية حيث تظهر العاطفة الدينية الفردية، وخلافاً أيضاً للاسلام في الفترة المكية الذي ينعته بأنه «دين اخلاقي يستهدف النجاة»: : **Eco-nomie et société**، الترجمة الفرنسية، ١٩٧١، ج ١ ص ٤٩٧ . وقد أخذ المستشرقون عن **Max Weber** تعريفاً محدداً للغاية لمفهوم المدينة يتوقف عند شخصيتها السياسية الادارية : م. فيبر Weber، **La Vile**، ترجمة فرنسية، باريس ١٩٨٢، ص ٢٩ و ٣٨، بحيث تكون المدينة ظاهرة أوروبية محضة وهذا ما انفكّ يوحي به ماكس فيبر.

(٣٠) Planhol، مقال مذكور، ص ١٢٥ .

(٣١) ذكره Pauty، ص ٥٣، ملحوظة ٣، وهو يرى أن «المعسكر الذي صار مدينة ينتج عنه مدينة منشأة، إذا بقي تنظيم المعسكر حياً في المدينة».

المترددة[٣٢]. وقد تجاهلها Goitein مقراً بأن الفسطاط الذي عمّر فوراً زمن الفتوح، صار مركز إشعاع للتعريب اللغوي كما للمبادلات التجارية[٣٣]. أما A. Hourani فهو يحاول التخلص من الرؤية القديمة التي تنفي عن الإسلام وجود حياة حضرية حقيقية، وهو لا يقوم سوى بالتذكير بإشكالية المدن المنشأة والمدن العفوية، ملطفاً من حدتها كثيراً[٣٤]. لكن ما راعنا الا و«لاسنار» يعتمد فكرة عفوية الأمصار، ويعرضها عرضاً يبدو غريباً من طرف مؤلف أمعن النظر في نشوء بغداد، لكنّه لم يدرك حقّاً كل الإدراك قرابتها من الكوفة الأولى. بل نجده خلافاً لـذلك يعـارض بين نمـو الكوفـة والبصرة من جهـة وبين نمـو بغداد من جهـة أخرى[٣٥]. ففي الحالة الأولى نكون أزاء مدن عفوية، وفي الحالة الثانية نكون ازاء مدينة منشأة. ذلك أن الأمصار بصفتها مدناً للحاميات في بداية الأمر، لم تكن «مبنية حسب تصميم مسبق». كانت «مستعمرات عسكرية» تتميز بسرعة نموها الأول، ولعل ذلك النمو تم «دون شعور واقعي بالعناصر الشكلية للتخطيط» (إن العبارة الإنجليزية المطابقة City-planning تكتسي فيما يتعلق بالكوفة، وضوحاً كبيراً لتضمنها فكرة التخطيط). ويضيف أن الاستقرار الدائم ما لبث أن تحقق، واستبـدلت بطرق التمـوين الأسـواق، كما نشـأ تنظيم صنـاعي، لكن كل ذلـك تم على صفة المدينة الخارجية التي تحيط شيئاً فشيئاً بالمعسكر الأصلي وتغمره. يبدأ

---

(٣٢) مرجع مذكور، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣٣) Goitein، «القـاهرة: مـدينة اسلاميـة عـلى ضـوء وثـائق الجنيـزة»، ضمن كتـاب Lapidus, **Middle Eastern Cities**، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٣٤) A. Hourani، «المدينة الاسلامية على ضوء أحدث البحوث» ضمن **The Islamic City**، ص ص ١٠. هو يلخص نظريات Pauty جاعلاً من الطابع العفوي للمدينة الاسـلامية انتصـار القوى الاستمرارية في المجتمع على الحكم الزائل.

والملاحظ أن Lapidus اعتمد انكار الطابع الاسلامي عن المدينة الاسلامية: مـرجع مـذكور، ص ٧٤.

(٣٥) «The Caliph's personal domain»، ص ١٠٣، وقد أعاد نشره بعد أن أدخل عليـه بعض التغيـيرات في تـأليف مـذكـور، **The Topography of Baghdad in the early Middle Ages** ص ١٣٨.

الزخم من المركز وتقع دفعة من الداخل نحو الخارج. ان نمو المصر يظهر هكذا بمثابة السلسلة من «المراحل المتعددة للتولد العفوي»، وليس نتيجة «تنفيذ لمخطط منتظم»[٣٦]. وهكذا فإن هذا التصور قد اقتبس الكثير من أفكار Pauty، إذ يتضمن الإنقسام بين المعسكر والمدينة اللاحقة، وفقدان كل تصميم سابق، ونعت هذه المدينة اللاحقة بأنها «عفوية»، حيث تكون برزت وراء النواة الأولى بحركتها الذاتية، وبكيفية فوضوية، كما أنها لا تخضع للمراقبة. لكن الجديد عند «لاسنار» أنه يلح على اتجاه الحركة التي تكون هنا داخلية ـ خارجية، فيجعل منها تحولاً للمركز. لماذا؟ لأنه يريد قلب ذات الحركة فيما يخص المدينة المستديرة، فتصبح خارجية ـ داخلية، تنطلق من الأرباض المؤقتة التي أقامها جيش البنائين في اتجاه المدينة المستديرة ذاتها. ويرى «لاسنار» أن جمهور العمال المشتغلين في بناء المدينة الجديدة قد أفرزوا مدينتهم الخارجية قبل الانتهاء فعلاً من المدينة المستديرة، وتحت أسوارها بالذات. كيف ذلك؟ في شكل مركب مديني بصدد التوسع، بمقابره ومساجده ومؤسساته المستقلة[٣٧]. وبذلك يكون قد سبق الكرخ، وعلينا أن نقول انه الكرخ الأول، مدينة السلام. وتصطدم هذه النظرة بشهادات المصادر كما سنرى ذلك، وسلسلة التواريخ التي تقترحها نفس المصادر. لكن المهم الآن أن نؤكد هذا التعارض، الذي أبرزه المؤلف، بين تكون الكوفة وتكون بغداد، حين قلب اتجاه النمو الأول.[٣٨] وهنا يكمن التضارب، إضافة إلى أن التصور الذي اقترحه لنشأة الكوفة كان خاطئاً. ذلك أن هذا المؤلف جعل من المدينة المستديرة مدينة منشأة بصفة ممتازة من جهة، قد وقع تصميمها بصرامة مسبقاً، وكأنها قدت في قالب أسقط على الأرض كما قال الجاحظ، وهو يجعل منها من جهة أخرى امتداداً لمدينة عفوية سابقة للمدينة الأولى. وإذا ما صدقنا «لاسنار» فإن مدينة المنصور تفقد كثيراً من مظهرها الإرادي لا سيما انه وصفها

(٣٦) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٣٧) The Topography of Baghdad، ص ١٤٠.

(٣٨) The Topography of Baghdad، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

كمنتوج «لتطور بدأ من الخارج الى الداخل (oustide-in)[٣٩]. وإذا استقرت المدينة الحقيقية ـ مدينة السكان والأسواق والعسكريين والصناع والتجار ـ خارج الأسوار من أول وهلة، فماذا يبقى بالداخل سوى مركز إداري، أي «ملكاً خاصاً للخليفة» شبيها نوعاً ما وفي خاتمة المطاف بحامية الكوفة؟ وأين يكمن أيضاً تطور الداخل بواسطة الخارج، إذا ما خطّت المدينة المستديرة مسبقاً، وحصرت فضائياً، فكانت فعلاً لا تقدر إلا قليلاً على النمو؟ وعندئذٍ، هل يتعلق الأمر بمصر معكوس؟ يكفي القول ان المركز كان موجوداً تماماً في المصر وأن كل دفع ممكن صدر منه ـ وهو أمر يبدو لنا بديهياً ـ وأن نعيد الى الجادة معنى تطوره لكي تصير بغداد صنوا للكوفة، طبق مقدمات «لاسنار» نفسه .لقدأنشىء مركز هنا وهناك، وتحول الى مدينة حق ـ مدينة عفوية ـ بفضل امتداداته المتنامية. لكّن هذه المقدمات خاطئة، لا سيما بخصوص الكوفة.

والحق ان كافة المواقف المشار إليها سابقاً والقابلة للمحاجة بالنظر للأمصار الأخرى، يتبين خطؤها قطعاً بالنسبة للكوفة. فيمكن عند الضرورة الصاق مفهوم «المدينة العفوية» بالبصرة فعلاً، لا بسبب الثنائية المتصورة بين المعسكر والمدينة المقبلة، ولا كذلك بسبب تطور ما خارجي مستقل عن المصر البدائي ومنعكس عليه، بل بالأحرى لأن البصرة خلافاً للكوفة، ظهرت بصفة عفوية نسبياً، متواضعة في الأصل، وانبعثت انطلاقاً من حافز على الهجرة جدّ لدى قبائل البحرين. لم تؤسس البصرة بفعل عمل مصمّم ومسترسل من طرف السلطة بل هي ظاهرة متفرّعة وبالكاد هامشية وظاهرة ما زالت غامضة. فضلاً عن أن في البصرة يدرك هذا التطور البطيء الذي تم على مراحل، من الخيام الوطيئة الى خصاص القصب التي ترفع أثناء الحملة. وقد وصفت المصادر بوضوح أول مسجد في البصرة على أنه مخطط بكل بساطة لا غير، وأنه لم يقع بناؤه ولعله أحيط بسياج من القصب. واذن فليست ظروف البصرة هي ظروف الكوفة حيث استقر

(٣٩) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

أكثر الجيش الفاتح الذي انتصر في معارك القادسية والمدائن وجلولاء: وهي مجموعة ملحاحة متماسكة تطالب وتتحصل على رعاية السلطة. فيمكن فعلاً الإشارة الى عفوية نسبية في البداية بخصوص البصرة. ولم يتردد كايتاني في الإشارة الى هذا الأمر[٤٠]، مقارناً بين البصرة التي «تولدت من ذاتها، ولضرورة في نفسها»، وبين الكوفة التي ظهرت «اعتباطاً» وبإرادة شخص. وقد أدرك Reitemeyer ذلك الأمر جيداً[٤١]، وجاراه Creswell[٤٢]. لكن بالنسبة للكوفة لا مجال لطرح قضية العفوية لا حسب تصوّر Pauty، ولا كذلك Lassner، وهما المشتركان في خلفية فكرية تقّر بالفصل الجذري بين مجرد معسكر مصطنع «إرادي» بدوي النمط وغير منظم لكونه لم يصمم مسبقاً، وبين مدينة تطورت من ذاتها بعد ذلك بمفعول المحيط، فكانت واقعاً آخر. ذلك ان ما عايناه انطلاقاً من تحليل دقيق للمصادر شيء آخر تماماً. ظهرت عملية لتخطيط الفضاء، وتوزيع الكتل الفضائية بين مركز سياسي ديني وبين حزام للسكن، وتهيئة مرتبة لمناهج الاتصال. ذلك كان التخطيط الذي جاء بعد عملية التمصير مباشرة أو يكاد، والتمصير مفهوم يستند الى مشروع إقرار مجموعة بشرية في تجمع سكني مهما كان شكله. ولا نرى هنا ما يشبه المعسكر[٤٣] على طريقة البارث أو الرومان أو الساسانيين أو حتى العرب لمجرّد أن تعمير الكوفة تم بواسطة الجيش. إذ لا يمكن وصف هذا الجيش بمفاهيم معهودة كأن نقول بأنه جيش نظامي دائم، وجهاز لدولة وجدت قبله، ينفذ سياستها التوسعية. لقد تعلق الأمر بعناصر قبلية كاملة، هاجرت بأسلحتها، وأمتعتها ونسائها وأطفالها وكان لهم حرية الاختيار

---

(٤٠) Caetani **Annali dell' Islam,**، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٣٤.

(٤١) Reitemeyer **Städtgrundungen der Araber im Islam,**، ص ١٥ .

(٤٢) Creswell، **Early Muslim Architecture**، ج ١، ص ١٥ .

(٤٣) قبل أن يظهر التفكير التمديني الحديث بكثير، وحتى قبل وليام مارسي، انتشرت فكرة المعسكر في الفكر الاستشراقي. وقد جزم بذلك Caetani، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٤٣، مؤكداً الأمر ومعتمداً Mu"ller بنفس الصفحة، وهو الذي عرّف الكوفة كمعسكر كبير تحول بعد ذلك إلى مدينة، وجيش الكوفة كجيش يتركب من الاحتياطيين (Reserveheer).

ومعنى التملك وشخصية خاصة. ولم تقم الدولة إلا بتنظيم هذه العناصر، فعرضت عليهم بناء المستقبل. ولماذا تعتبر الكوفة معسكراً، حتى في فجر إنشائها بالذات، وحتى قبل الشروع في التخطيط، في حين يقصد بالمعسكر الهيكل العسكري المتحصن المتأهب للدفاع، وفي حين أن العراق خضع كل الخضوع منذ ما يزيد عن سنة، وأن العرب أقاموا في الأثناء بالمدائن التي لم تكن معسكراً في شيء، مع أنها كانت أقرب كثيراً من قواعد العدو، أي التراب الإيراني ذاته؟ حقّاً لم ينو عمر تسريح المقاتلين العرب، بل بالعكس كان يريد المحافظة على هذه القوة الضاربة لاستبقاء العراق وإنهاء فتح الشام في آن واحد. لكن سنة ١٧ كانت بالأحرى سنة الانفراج، وتنظيم المكاسب، وإقامة هياكل المستقبل، ولم تكن سنة تجميع القوات العسكرية استعداداً لعملية معينة. لم يكن الوضع ينبىء بالخطر. وكان المقاتلة العرب ينتشون بنصرهم دون أن يسرحوا، وهم في راحة أو يكاد. إنّما همّهم الوحيد أن يجدوا موطناً للاستقرار و«داراً للهجرة» ووطناً، ويحققوا حلمهم في الإستقرار، بمعنى أن يعودوا الى الحياة المدنية. إلا أن الخيار العسكري بقي قائم الذات، كما وقعت المحافظة دون شك على العادات المكتسبة منذ وقت قريب في التنظيم العسكري الذي يشكل إطاراً تنضبط داخله جموع المقاتلين، ولذا فمن المعقول تصور وجود كوفة أولية ـ الكوفة خلال الشهور التي سبقت التخطيط ـ تنشأ طبق مقاييس تتقاسمها الصبغة العسكرية والصبغة البدوية، ولا نعلم عنها الا القليل. وتكون الكوفة إذّاك في هذه المرحلة الانتقالية السريعة جداً، منظمة حسب تنظيم مرن للمعسكر ولكن دون صرامة الجيوش خلال الحرب، وكي يكون الأمر مخالفاً لذلك على أرض عراء؟ ـ وأيد عمر المشروع، ثم وقع تجاوز هذه الصيغة عاجلاً إذ ظهرت رغبة ملحة في الاستقرار، أبداها المقاتلة، فحل دور التخطيط سريعاً. على أنه لا يمكن التحدث بالنسبة لهذه المرحلة الأولى المحددة زمنياً، عن إرادة تعمدت «إنشاء» معسكر، بل كانت إرادة في إقرار جموع المهاجرين على المكان، أي على الأراضي التي استولوا عليها، بمقتضى عدة خيارات أساسية هي: التجمع والقرب من بلاد العرب. أما الأمور الأخرى،

يعني صيغة المجموعة السكنية، فقد ترك الأمر لرغبات القاعـدة. وصادف أن اختارت صيغة التجمع المدني، أي تجمع الفضاء المبني المهيىء الوظيفي المتلاصق الذي يكون ملكاً لهم ولا يصطبغ بصبغة حضارة أخرى. يجب إطلاقاً تسجيل هـذه الرغبـة في التخلي عن نمط حيـاة الترحـال، وهذه الجـاذبية القـوية نحـو الاستقرار، وهما خاصيتان تظهران عند المهاجرين في كل العصور. انها الحاجة الكبيرة الى الهدوء والمشاركة الاجتماعية. وبهذا فإن عمر لم يرد «إنشاء» معسكر أو مدينة، بل كان «يشير» فقط (ان كلمة شعبان Shaban جاءت في محلهـا هذه المرة)[٤٤]، بنقطة للاستقرار والتجمع، على أناس حرضهم على الرحيل خارج بلاد العرب، فـما لبثوا أن اختـاروا الإطار المـديني. وسواء كـانت مادة البنـاء المستعملة آجراً ـ الذي كان تقليدياً في بلاد الرافدين ـ أو قصباً، فذلك أمر لا يهم كثيراً. المهم أن تعوض هذه المادة الخيمة، فتشكل رمزية الاستقرار. لكن الأهم من ذلك هو أن يأتي التخطيط بعد تقرير البناء، ويتضمن التخطيط جيداً فكرة الـ «Planning» أي صورة المدينة المرسومة على الأرض، حتى لو رفضنا أن العرب بكّروا بالبناء الصلب، وأنه وجب ترقب ولاية المغيرة بضع سنوات أخرى. وقد اتفقت المصادر إما على طرح تزامن التمصير والتخطيط وإما على اسبقية التمصير على التخطيط بصورة طفيفة، وهو رأي سيف الذي زاد فكرة البناء بصفة قطعية. وتوحي لنا المصادر أيضاً بتصور إرادة واضحة صادرة عن سعد ومستشاريه: منهم أبو الهيّاج الأسدي، ونصارى الحيرة، والفرس. فتم على الأقل تحـديد المـركز السياسي الديني طبق تقنية معينة، وأحيط بخندق، وأقرّت حول ذلك العشائـر والقبائل. ووضع داخل المركز مركب المسجد والقصر، مع أنه كان بدائياً، وإن لم يشيد أو أن بناءه كـان متواضعـاً. وهكذا وضعت الأجهـزة الأساسيـة للمصر وتحددت نهائياً طبق توجيهات دقيقة: إنه خلق لا مراءفيه تم عملياً من أول وهلة. وسوف تمتلىء الكوفة بداية من هذا التصميم الحاسم وحتى الثابت القّار لحياتها

(٤٤) أمير المؤمنين = «first counsellor»، في **Islamic History**، ج ١ ص ٥٧.

المقبلة. فليست الكوفة معسكراً تحول ببطء الى مدينة (وبصورة أخرى لم يأت هذا التحول من الخارج، وهذه فكرة مجانبة لا تقبل بتاتاً)، بـل مدينـة مخططة مفصلة تحسن بناؤها بمقتضى تصورها الأول. هذا أقل ما يمكن لأوجز الأخبار أن تفرضه على اهتمامنا. بل يرى سيف كما ذكرنا سابقاً، أن المدينة بمعناها الكامل قد أقيمت في زمن سعد، بمناهجها وخططها السكنية وأسواقها وقصرها المشيد وقاعة الصلاة بالمسجد، الخ . . . إن التقليد الاستشراقي يخطّىء عادة سيفاً[٤٥]، لكن دون أن يخلو الأمر من تناقض، لأنه يستمد منه كثيراً من الأخبار والحجج. وقد سبق أن دحض «كرسول» «فلهاوزن» و«كايتـاني»، الذين اعتبـرا الغلوة (رمية السهم) قياساً لضلع المسجد، واعتمد جميعهم رواية سيف والبلاذري أيضـاً. وبصورة أدق، أن سيفاً هو الذي أتاح «لكرسول» تصور تصميم المسجد، حتى أنه يتقدم بنقاش حول سقف الظلة والنمط الهندسي الذي يستند إليه[٤٦]. ويرى Reitemeyer أن رواية سيف تسقط واقعاً لا حقاً، لم يوجد إلا في إمارة زياد، وأن المسجد الأول كان بناية بدائية، بناها العرب بمفردهم[٤٧]، وهو أمر غـير مستبعـد. ويوحي مـا ورد عند سيف من تنـاقضات وتضعيفـات، كـما قلنـا، إسقاطات ترد الحاضر الى الماضي، لكن أكثر فيما يتعلق بالبناء أو إنهاء البنايات منه فيما يتعلق بالتخطيط ذاته. ما هي القاعدة التوثيقية التي يستند اليها كرسول[٤٨]، وأية حجة منطقية يعتمد ليصرح أن عرض السكك يجب تأريخه في إمارة زياد؟ فمن جهة يعترف أنه كان يوجد بداية خمس عشرة سكة ـ منفذ لم يذكـرها إلا سيف. ومن جهة ثانية ينسب تقرير عرضها الى زياد في حين أنه يبدو المساس بنسق الطرق صعباً بعد ثلاثين سنة من انشائها، دون خلخلة تنظيم السكن بصورة

(٤٥) Wellhausen، **Skizzen und Vorarbeiten**، ج ٦، ص ٧٣، Reitemeyer، **Städtegründunger**، ص ٣٤ و ٣٥.
Creswell، **Early Muslim Architecture,** ج ١، ص ١٧.
(٤٦) مرجع مذكور، ج ١، ص ١٨.
(٤٧) مرجع مذكور، ص ٣٤ و ٣٥.
(٤٨) **Early Muslim Architecture**، ج ١، ص ١٧.

خطيرة. وما نريد تقريره هو أنه لا يخول للمؤرخ رفض رواية سيف الثمينة ما لم يكتشف اسقاطاً واضحاً جداً أو تضارباً فادحاً ضمن الرواية، أو مع أغلب المصادر الأخرى. التخطيط إذن كما تحدثنا عنه طويلاً، حصل فعلاً اثر الإنشاء وبميزات لا تنفك تثير إعجابنا إذا ما فكرنا في سرعة الحركة، ووضوح التصور، وروح التنظيم. لكن السرعة ليست لتفاجئنا، وقد جدت في مرحلة تاريخية مشبعة بالمبادرات، مفعمة بالقرارات، تبعث على الخلق بصورة عالية، مغطية مسارها على وتيرة لاهثة. يوجد في البنية الداخلية للكوفة الأولية كما ثبّتها التخطيط جانب واسع من الابتكار السريع، وجانب من الإرث المتلقي جاهزاً من عمل الرسول (كان الرسول يخطط ويقطع القطائع في المدينة وفي غيرها، كما جاء في الأثر[٤٩]. ويوجد جانب استيعابي في مجال التمدين في بلاد العرب وعلى حواشيها، وكذلك جانب من استبطان التصورات الثقافية الخارجية - لكن ما هي هذه التصورات؟ - ولنلاحظ تفوق التخطيط في هذه الفترة التكوينية على الهندسة المعمارية ذاتها التي سيأتي دورها فيما بعد. وتبدو الكوفة في الحركة العامة لتاريخ التمدين بمثابة الحلقة الأولى من سلسلة هائلة من الإنشاءات جدت في القرن الأول والثاني من الهجرة، وفي بلاد الرافدين أكثر من غيرها. ومن المؤرّخين من فكر في مقارنة هذه الظاهرة بإنشاءات الإسكندر وخلفائه[٥٠] التي هي علامات على المسيرة الساحقة للفاتح العظيم. وهي مقارنة أكثر سداداً مما يعتقد، لو أدركنا، بعيداً عن فكرة «العمل التحضيري» أو «إرادة التمدين»، السبب الأساسي الذي من أجله قام هذا العمل غداة فتح كبير هنا وهناك أي عند اليونان وعند العرب. لقد تعلق الغرض بإقرار شعب أجنبي، وبتأسيس نقط استيطان هي بمثابة العلامات للهلينية

---

(٤٩) لسان العرب، ج ٨، ص ٢٨١.

(٥٠) Maurice Lombard، «التطور المديني خلال العهد الوسيط المتقدم» في **Annales, Economie, Société, Civilisation**، عدد ١٢ (١)١٩٥٧، ص ٧ - ٢٨.
أعيد نشره في **Espaces et Réseaux du Haut Moyen Age**، ص ٤٧ - ٧٢؛
راجع أيضاً: **L'Islam dans sa première grandeur**، باريس ١٩٧١، ص ١٢٢.

والعروبة. وهكذا، فإن الرجوع الى الماضي يفرض نفسه لنحاول تحسين إدراكنا للصورة الأولى التي كانت عليها الكوفة ـ ذلك النموذج الأصلي ـ وأيضاً للبيئة التاريخية التي انصهرت فيها. وهنا يحق القول أننا بإزاء قضية تاريخ شمولي أكثر من أن تكون قضية تمصيرية أو معمارية.

الباب الرابع

التأثيرات والجذور
من بابل إلى مكة



الفصل الثالث عشر

قوى الماضي
الشرق والهلينية وامتداداتهما

إرتبط تكون الكوفة فعلاً فضاء وزمناً ، بتقاطع المؤثرات والتقاليد المتراكمة . الحقيقة أن ما هناك من مقارنات دالة بين المدينة الاسلامية والمدينة الشرقية تصلح خاصة للفترة اللاحقة ، حين تكون المدينة الاسلامية قد أنهت بناء ذاتها على كافة الاصعدة . والحقيقة أيضاً أنه لا يمكن إلا مقارنة مرحلة ما من تطور المدينة الاسلامية بمرحلة أخرى من تطور المدينة الشرقية ، مثلاً بغداد في القرن الرابع هـ / العاشر م . وبابل زمن هرودوتس . على أن الفترة الحاسمة بعد تجاوز التبوغرافيا في مسيرة حياة مدينة ما ، هي فترة انشائها ، لا سيما إذا تعلق الامر بحاضرة أم مثل الكوفة ، وأن يصاحب هذا الانشاء تحول حاسم في التاريخ .

لا يفوتنا أن نلاحظ أن فجوة ألف سنة تفصل الكوفة عن بابل الامبراطورية الجديدة ـ وهذا قصير في حياة الشرق ـ وكذلك مسافة فضائية تعادل ٩٠ كيلومتراً[١]. إنه لجوار ممتاز في رمزيته ، وما يلاحظ بصفة رئيسية وبنفس الكيفية ، التأثير المهيمن في ذلك العصر لمركب سلوقية ـ المدائن ، وهو خلق يوناني ثم بارثي ، فيه تبلورت كافة الخطوط البارزة للشرق ، أو ما تبقى منها . كان التأثير الهلنستي الذي جسمه بقوة السلوقيون ، وكانت روما وبيزنطة ، وكان الساسانيون الذين أعادوا تنظيم بلاد الرافدين[٢] . هذه طبقات متعددة إذن ،

(١) كتاب البلدان، ص ٣٠٩؛ Le Strange، ص ٧٠ ـ ٧١؛ Caetani، **Annali**، قسم ٣، ص ٨٣٣ ـ ٨٣٦.

(٢) **Realencyclopädie der Classisichen Altertums Wissenschaft,** ≐

لكنها تحركات أيضاً ، واستمرارات واضحة وانفصامات . كان ضرورياً تذكير القارىء بهذه الخلفية ، لفهم ما كان عليه الوضع في ذلك العصر ، وما حدث بعد ذلك .

تعددية الشرق ووحدته . إرث العصر الاول

يشتمل هذا الشرق المعتمد في وصف الحاضرة الاسلامية ، وعكسه ، على العصر المتقدم جداً ، مقر الديمومة الطويلة ، مؤسس النماذج ومنها أكملها تعبيراً ، أي بابل الاخرة ، ويشتمل أيضاً على الفترة الاخيرة التي دشنها الغزو الفارسي . على أن ما يلاحظ على الصعيد الجغرافي هو ما اتصفت به مصر من خصوصية ونوع من انقسام داخل الشرق المركزي ، بين عالم الشام الاكثر جدة والذي يتقبل كل ما يرد عليه ، وعالم بلاد الرافدين العريق في القدم ، وهو مهد تهيأ فيه النموذج الشرقي .

لنتمعن في الشرق المركزي القديم ونقارنه بمصر . قيل إن مصر كانت تنعم بالراحة وتوحي بالأنس ، وتحب الحياة إلى حد تمد يدها في الموت . كان محيطها أقل شدة من محيط بلاد الرافدين ، فشيدت حواضر مفتوحة فاقدة للاحزمة المحصنة وفي عصر متأخر . وقبل أن تشرع مصر في بناء المدن ، كانت لا تتوقف عن تشييد المقابر التي كانت أعمق رمز للطموح المصري[3] .

أما ببلاد الرافدين وهي عالم الالهة المرعبة الكونية ، وأرض أنشأت المدن

= Pauly-Wissowa مجلد ٢٩، ص ١١٠٦ ـ ١١٤٦؛ Openheim، مرجع مذكور؛ **Cambridge**، ج ٦، ص ٤٢٩ ـ ٤٣١، ٥٠٥ ـ ٥١٥، ٥٥٦ ـ ٥٥٨؛ ج ٧، ص ١٥٥ ـ ١٦٤، ١٨٣ ـ ١٨٩، ١٩٤ ـ ١٩٦.

Social and Economic History of Hellenistic World, Oxford, 1941, (تابع) Rostovtzeff، ج ١، ص ٧٧ ـ ٩٠، ٤٢٢ ـ ٤٤٠، ٥٣٠ ـ ٥٣٣؛ و ج ٢، ص ٦٦٤ ـ ٦٦٨، ٦٩٥ ـ ٧٠٢، ١٠٤٤ ـ ١٠٥٣، ١٢٣٠ ـ ١٢٣٨؛ و N. Pigulevskaja،

Les villes de l'Etat iranien aux époques parthe et sassanide, Paris . ١٩٦٣

(٣) Mumford، ص ١٠٥ ـ ١١٢.

كمراكز للعظمة والحرب ، فقد كان أسلوب الحضارة المدينية يتميز بالترتيب وشدة القمع والنظام والتخطيط والمركزية . فما كان قانون حمورابي سوى تنظيم دقيق للعلاقة البشرية بكيفية بوليسية أو يكاد ؟ «كانت المدينة سجناً يضيق الحراسة على سكانه» : هذا رأي Lewis Mumford[٤] .

فمن المعقول بعد هذا ، أن نقبل بثنائية النماذج الاصلية . لقد أمكن للنموذج الفرعوني أن يؤثر على الحضارة المنوية ثم على أسلوب المدينة الاغريقية[٥] وتمادى النموذج الخاص ببلاد الرافدين في بغداد فضلاً عن ذلك ، على عين المكان ، بغداد المزدحمة بالبشر والمحاطة بسوربن مضاعفين ، والخاضعة لحراسة مشددة فرضها قهر الخليفة ثم السلطان . لكن ما يهمنا حقاً هو إبراز نمطين مثاليين للمدينة ، انطلاقاً من التجربة المصرية وتجربة بلاد الرافدين . الاولى كنمط المدينة المنفتحة الهندسية المتحررة في مظهرها ، البسيطة في تخطيطها ، والاخرى كنمط المدينة المغلقة المتشعبة الملتوية[٦] . لكن ألا تخفي هذه الرؤية التي تجسمت على هذا النحو في موقف مؤلفين من الغرب ، جانباً من «الثنائية» ، وتمجيداً للهلينية يعتمد المركزية العرقية بصورة مقنعة وبواسطة تمجيد الحضارة المصرية ؟

(٤) مرجع مذكور، ص ١١١ . كتب Mumford صفحات جيدة حيث كانت توصف ارض الرافدين بأنها أم المدن في كل صفحة: مرجع مذكور، ص ٥٤ - ٧٣، وتعرض إلى صلات المدينة بالحرب في بداية نشوئها، ومظهرها المرضي التقهقري الذي فرضه طوق التنظيم والارهاب، طبق نموذج «خلية النحل». وقد استوحى رأيه من Hocart ولاسيما من Henri Frankfort.

(٥) يعترف هرودوتس بالتأثير المصري على تكون الحضارة الاغريقية. فكان متقدماً على المؤرخين الغربيين في القرن التاسع عشر، وهم المتمسكون بالطابع الفريد للهلينية، كاسقاط حقيقي للمركزية الأوروبية. وكان M. Jastrow أول من قال بفرضية تأثير سومر وبابل على الأسطورة والعلم اليونانيين: **The Civilization of Babylonia and Assyria** فيلادلفيا، ١٩١٥ . وهو ما سمي بالنظرية البابلية الشمولية أو panbabylonisme.

(٦) روج Wooley لفكرة أن الحاضرة في الشرق الأوسط اليوم، في نواتها التقليدية، تعكس بنية المدينة القديمة في بلاد الرافدين. وقد شاعت عند غيره، منهم Oppenheim. ولم يعمل Wirth إلّا على اقتباسها لافراغ المدينة العربية من كل أصالة خلاقة. وبالنسبة لـ Ernst Bloch، يمثل المعمار الفرعوني أصل ونمط البعد الهندسي في نقاوته الذي يصل إلى الكمال في الأهرام، وهو ينعته بـ «يوطبيا بلّور الموت» ويعارضه بالـ «يوطبيا الغوطية» التي تمثل شجرة الحياة: **Le Principa Espérance**، ترجمة فرنسية، ج ٢، باريس ١٩٨٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

على أن هذا لا يمنعنا من المقارنـة الموحيـة بين الكـوفة الاولى الهنـدسية الحـرة المتفتحة ، وبين بغداد ربيبة الكوفة إلى حد بعيد، وحتى الكوفة العباسية الحبيسة في أسوارها والتي تسلط عليها القمع والارهاب . وبذلك ينبغي الرجوع كثيراً إلى الوراء ، أي إلى أقدم طبقات التقليد المديني ، لا أن نقابـل فقط بين الهلينيـة والاستشراق (المقصود هنا المبدأ الشرقي لا علم الاستشراق) ، كما يقع في أغلب الاحوال .

بابل .

كانت بابل التجسيم الاعلى لنموذج بلاد الرافدين ، فقـد أجملت كافـة المكاسب الحضارية للشرق المركزي في صفائه ، إن صح القول ، فبدت حلقة حاسمة للبحث عن التسلسلات . ينبغي استنطاق بابل في ذاتها وفي ما يدور في فلكها أيضاً ، أي سبار و نبور وأرك، وبعيداً كركوك ، وحتى المدن الاشورية مثل اشور وخرسباد[٧] . على أن بابل الجسدية ذاتها تبقى المحور المشع ضمن هذه الكوكبة . وفي العصر التاريخي الذي ظهر خلاله نبوخذ نصّر ، يتجه التفكيرإليها عندما يدور الحديث عن الحاضرة الشرقية الاصلية . كانت مربعة الشكل ـ مثل الكوفة والبصرة على الاقرب ـ واسعة الشوارع المرتبة . وكانت تستخدم اللبن والآجر[٨] ، كانت أيضاً المدينة ـ المعبد ، حيث يقوم اسجيل بدور أساسي ، لها أراضيها الخاصة ومخازن حبوبها (لنذكر دار الرزق بالكوفة) ، وقاعدتها العقارية التي لم تكن بابل لتعيش بدونها[٩] . وفي بابل ذاتها وفي المدينة من النمط البابلي

---

(٧) Roztovtzeff، مـرجـع مـذكـور، ج ١ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ؛ Pigulevskaja، ص ٣١ ـ ٣٣ و ٣٩ ـ ٤٧ .

(٨) M. Rutten، ص ٣٤ ومـا بـعـدهـا؛ Altheim، **Weltgeschichte Asiens**، ج ١، ص ١٥٣ .

(٩) **Cambridge Ancient History**، ج ٦، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ ؛ Pigulevskaja ، ص ٢٤ و ٣٧ . يشـك Oppenheim فقط في صحـة هـذا التصـور إلى حـد مـا : **Mesoptamie** ، ص ١٤٢ ، ولاسيما في **Middle Eastern Cities** ، ص ٦ . يبقى المعبد المركز الاقتصـادي الكبير .

عموماً ، عناصر تشبه أحياناً ما نجده بالكوفة ، وتشبه أحياناً أخرى ما يوجد بالبصرة وببغداد ، وذلك على مستويين ، المستوى التبوغرافي ومستوى الوظيفة المدينية ، حسب مراحل زمنية متوالية . لقد ثبت مثلاً وجود البنية المثلثة - أي المدينة والربض والرصيف[١٠] بالنسبة للبصرة خاصة ، حتى القرن الثالث / التاسع تقريباً . وخلافاً لذلك ، فإن عرض الشوارع ، والتخطيط حسب الاتجاهات الاربعة ، واستقامته ، تظهر بوضوح أكبر ضمن المقارنة بالكوفة الاولية التي يمكن مقابلتها عند ذلك بالمرحلة الاولى من تطور الحاضرة البابلية[١١] .

إن بابل التي وصفها هيرودوتس مندمجة فعلاً بالامبراطورية الاخمينية ، لكن لم يمنعها هذا من الظهور بمظهر الوريثة للحضارة الشرقية القديمة ، قبل أن يقضي عليها أرتخشتا (Artaxerxes) . ولا بد أنها حافظت على أهم الخاصيات التي كانت لها في عصر نبوخذ نصّر . ويتجه التفكير إليها حين نشير إلى نمط المدينة الشرقية بنية مقابلتها بنمط المدينة اليونانية الذي روجه الغزو المقدوني[١٢] . ويرجع إلى بابل أو المدن التابعة لها - سبار وارك لكي تتاح المقارنات الانطباعية بالمدينة الاسلامية المقبلة كالتواء السكك المعزو إلى عنف الشمس ومشكلة الاسواق ، لكن دون أن نعرف هل كان هذا تشابها اساسياً أم هو استعادة لنفس العناصر الوظيفية . ان بابل مثلت في آخر أيام مجدها النقطة الاكثر هيكلة في الامبراطورية الاخمينية[١٣] ، فضلاً عن أنها تقمصت مع مصر أرق شكل حضاري . وبالرغم من التغييرات الكثيرة التي جدت في عصر الفرس - مثلاً في القانون الجنائي والمدني - فقد بقي الهيل الاقتصادي الاجتماعي

---

(١٠) Oppenheim ,«Mesopotomia,land of many cities» لدى لابيدوس، مرجع مذكور، ص ٦.

(١١) Mumford، ص ١٠٠ ؛ Oppenheim، مرجع مذكور، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ Albert Champdor، **Babylone**، باريس ١٩٥٧، ص ٦٥.

(١٢) Rostovtzeff، ج ١، ص ٤٢٧ و ٤٣٥ ؛ وج ٢، ص ١٠٤٥ وما بعدها.

(١٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ٧٨ - ٨١.

جيد التأطير ، وقام عليه القساوسة ورجال الدواوين والتجار والصيارفة . وقد أشـرفوا عـلى كتلة الفلاحـين المستغلين الرازحـين على أرض بـابل بـالذات . واستمرت التجارة الكبرى على ماهي عليه . لقد كان النموذج البابلي مشعاً إلى حد بعيد على مدن بلاد الرافـدين في الشمال وعـلى الشام ، بفضـل جاذبيتـه الحضارية ، وأساليبه البنكية وحركيته التجارية ، فكان يضع سمته على بنية المنظر المديني ، كما حصل في كركوك مثلاً[١٤] .

إن هذا الانتشار الذي طرأ على كل مكان من الشرق المركزي لعنـاصر مقتبسة من بابل ، هو ظاهرة رئيسة تسمح بالبحث عن بقائها في المدينة الاسلامية كما في الحضارة التي أفرزتها .

ومن المعلوم أن العصر الهلنستي تسبب في تدهور بابل . فقد فقدت بابل دورها كعاصمة وحاضرة مركزية[١٥] عنـد نشوء سلوقيـة . ونهبها أنتيغـون في ٣١٥ ـ ٣١٤ ق . م ، وكـان النهب الثاني بعـد قليـل في حكم سلوقـوس الاول[١٦] .

فأصبحت بابل مدينة مستضعفة مفككة ، وفقدت قوتها المالية والعقارية لكنهـا كانت من أنـدر الحواضـر الهامـة التي نجت من نظام المـدينة اليـونانيـة (Polis) ، فبقيت مدينة شرقية صرف . كانت سنة ٢٧٥ ق . م . هي السنة التي نقل خلالها سكان بابل بكليتهم إلى سلوقية ، فكان عاماً حاسماً في تاريخ مدن بلاد الرافدين[١٧] . فقدت بابل سكانها ، كما أنها فقدت قاعدتها الزراعية لأن ما

---

(١٤) Rostovtzeff، ج ١، ص ٧٩؛ Pigulevskaja، ص ٤٤ ومـا بعدهـا؛ ويرى Oppenheim أنه من المناسب أن نعارض بين النموذج الآشوري لبـلاد الرافـدين العليا ونمـوذج السهل، عـلى الصعيد التبوغرافي الصارم، بمعنى أن نقـابل آشـور بأور: مـرجع مـذكور، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . لكنه استثنى وضع بابل في العصر الكلداني.

(١٥) Pigulevskaja، مرجع مذكور، ص ٣٣.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٣٤.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٣٦. يبدو أن Rostovtzeff لم يطلع بما يكفي عـلى هذا المـوضوع، فـاقتصر على إبراز دور حماية معابد جهـة بابـل، الذي قـام به السلوقيـون: مرجـع مذكـور، ج ١، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

أقطع لها من أراض وكذلك لبورسبا وكوثى إنتزع منها بأمر ملكي . عندئذ تصاعد النواح الاكبر لبابل . ذلك أن موتها الجسدي الذي ترتب عن هذا الامر لم يكن موتاً طبيعياً ، ولا تحطيماً ذاتياً ، بل إغتيالاً نفذه السلوقيون . هذا الاغتيال وقع في سبيل الحفاظ على الهيمنة الامبراطورية المستندة إلى الهلينية أكثر مما كان عملاً تحقق باسم الهلينية ذاتها . وعادت إليها الحياة قليلاً بعد ذلك ، في عصر أنطيوكوس ابيفانوس ، لكن بالخضوع المؤسساتي إلى النوذج اليوناني ، واستقرار جالية إغريقية مقدونية ، وتشييد مسرح ومقر لتعاطي الرياضة ، وتعيين وال (Stragegos) على رأسها(١٨) . الواقع أن أبيفانوس كان يريد إدماج بابل في الهلينية ، درءاً لتصاعد الاستشراق على صعيد الامبراطورية كافة ، وقد بدأ يغمر العنصر الهليني . وكان لبابل من الحركية ما جعل الهيلينية تصبح مستوعَبة سريعاً جداً من طرفها بعد أن كانت مستوعِبة في هذا المجال . فتلقب الاغريق بأسماء شرقية وتعودوا بعوائد بابلية واستعملوا أشكال العقود والمعاملات المصرفية البابلية ، بينما كانوا هم العنصر الديناميكي المتبوع في المواطن الاخرى ، أي في شبكة المدن الهلينية التي أقامها السلوقيون . وهكذا ، فإن بابل التي كانت في النزع الاخير ، وكادت أن تلفظ أنفاسها ، والتي غربها عن ذاتها نظامها الجديد ، حصلت على نصر ثقافي في الهلينية ، في انتظار أن تظهر من جديد القوى الاستشراقية المدحورة في كل مكان ، من الشام إلى خوزستان ، حين صارت الامبراطورية في حالة تفكك .

هناك إذن في روح بابل شيء يشبه الاستماتة الفائقة، وقدرة ممتازة على المقاومة . فماذا صارت هذه الروح حين مرت بها التغييرات التي خضع إليها الشرق المركزي ؟ أودع ميراث بابل الثقافي في بلاد بابل ذاتها ، وانتشر واستبطن في بلاد الرافدين كافة ، وتقدم حتى شمال الشام ، ولا بد أنه بقي بصفة خاصة في

---

(١٨) Cambridge Ancient History، ج ٧، ص ١٨٨ .

(١٩) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٨٩ .

المركب المديني الشامل لسلوقية والمدائن ، حيث ان سكانها نقلوا نقلاً واسعاً ، وحملوا معهم حضارتهم كلها . كانت سلوقية المؤسسة الهلينية الكبـرى في بلاد الرافدين[٢٠] . وصارت حقاً حاضرة للجزء الشرقي من الامبراطورية ، مفسحة صدرها لكل تيارات الشرق الكبرى . أما طيسفون ، فقد كانت إنشاء بارتيا ، ورمزاً لنهضة العالم الايراني ، لكنها ارتبطت لا محالة بسلوقية التي نقلت لها بقوة الاتصال أوسع جزء من ارثهـا خصوصاً حين مالت الكفة في العصر الساساني لفائدة طيسفون التي أصبحت القطب التمديني ومركز القرار. فمن البديهي أن قابلية بابل للخلق استبقيت بالمدائن وفي المقـام الاول ، تقاليـدها في الهنـدسة المعمارية والتمصير ، لكن كل هذا بصفة متسترة عنيدة ، ولعل تشريق الفرس تشريقاً عميقاً ـ أو إعادة تشريقهم ؟ ـ ينبغي البحث عنه عبـر هذه الـظاهرة ، وكذلك انتقال هذا الطابع إلى الفاتح العربي . كانـت إقـامة الجيش مـدة عام بالمدائن[٢١] بمثابة تجربة للحياة المدينية قطعاً ، واتصال أول مديد بنمط المدينة ـ الحاضرة حيث كانت تتجاوز عناصر بابلية وهلينية وفارسية . لكنها كانت فترة قصيرة جداً ، وكانت المدينة مستوفاة إلى درجة قصوى لا تسهل استنباط التصور اللازم لانشاء حاضرة جـديدة : فتسـربت المؤثرات البـابلية بكيفيـة أكثر بطئاً وغموضاً في بناء الحضارة الاسلامية بالكوفة والبصرة وبغداد في وقت لاحق . ذلك أن المصادر تتحدث بوضوح عن ممصرين من الحيرة أو من الفرس[٢٢] في هذه المرحلة الاولى . لكن إذا قبلنا أن إرث بابل إندمج بالتقاليـد الساسـانية ، في طيسفون ذاتها ، فذلك علامة على اتجاه يمكن أن يظهر بوضوح أكبر في الرقعة الجغرافية التابعة لبابل القديمة ، بالكوفة والحيرة . فترتب عن هذا الامر أصلاً تلك البنية المربعة الشكل في مخطط الكوفة التي ليست بالمستطيلة كما في سلوقية بهر سير ، ولا بالمستديرة كما في طيسفون .

(٢٠) المرجع نفسه، ص ١٨٧ ؛ Rostovtzeff، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ؛ Pigulevskaja، ص ٦٢ .
(٢١) أو ثمانية عشر شهراً حسب بعض الروايات: الطبري، ج ٤ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢٢) رَوْذَبة أو رُوذْبِهْ كان من همذان: الطبري، ج ٤ ، ص ٤٨ .

الحقيقة أن بابل ليست سوى الوجه الرمزي للشرق . وأن أتينا على ذكرها ، فانما ذكراً للمدينة الشرقية بصفتها تصوراً متماسكاً للفضاء ، وتقليداً ما زال حياً ، وهناك نقطتان تسمحان بتثبيت آرائنا في هذا الموضوع ، هما قضية المركز وقضية السكك .

تحدث Wooley عن مساحة مقدسة (Temenos) مخصصة للمعبد منذ أن ظهرت المدينة السومرية[٢٣] . لكن Oppenheim [٢٤] زاد الامر توضيحاً في مثل هذا الميدان الذي بقي من أكثر الميادين غموضاً وأكثرها تضارباً . يرى Oppenheim أنه لم يوجد «مركز للمدينة بالمعنى المضبوط يتشكل من القصر والمعبد وساحة السوق» بالسهل الغريني لبلاد الرافدين أي ببلاد بابل بل أنه يوجد خلافاً لذلك فاصل دال بين المعبد والقصر فتتركز حياة القصر بالابواب (راجع باب المدينة المستديرة حيث مقام الخليفة)[٢٥] . لكن ينبغي استثناء بابل العصر الكلداني حيث تمت الصلة بين القصر والمعبد بتأثير آشوري . فاتضح أن هذه الصلة التي جعلت من ذينك العنصرين وحدة مدينية مركزية هي ظاهرة مصدرها أعلى بلاد الرافدين ، وأن مفهوم القلعة آشوري النشأة . هناك المعبد والقصر ملتحمان مادياً ويقعان في سياج محاط بسور وحيد[٢٦]، مطرداً الدور إلى الخارج ، ما عدا بعض المساكن التي كانت تسد الفجوات بالداخل ، والتي أتاحت لهذا المركز أن يعرف باسم المدينة ـ القلعة . وما يلفت النظر أن نبوخذ نصر حاكى النموذج الاشوري المختلف كثيراً عن النموذج البابلي القديم، لكنه فعل ذلك وصححه تصحيحاً كبيراً تمثل في عدم ارتباط القصر بالمعبد ارتباطاً مباشراً[٢٧] .

(٢٣) في أور: **Historyof Mankind**، ج ١، ص ٤٢١ .

(٢٤) مرجع مذكور، ص ١٤٢ ـ ١٤٦ .

(٢٥) «كان للأبواب . . . وظيفة أخرى هي وظيفة «المركز»: Oppenheim، ص ١٤١ ؛ M. Rutten ص ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢٦) لم يقع فقط إزاحة الفصل بينهما، بل إنها «شكلا وحدة مدينية تحتل موقعاً مركزياً»: Oppenheim، ص ١٤١ . على أن القلعة في آشور ذاتها، كانت جزءاً من التحصينات .

(٢٧) كان القصر يقع على السور، في حين أن معبد مردوك كان في المركز: Oppenheim، ص ١٤٦ .

توجد وجوه شبه تفرض نفسها على الفكر، عند المقارنة بالكوفة، لكن ينبغي الإحتياط في ذلك. نلحظ بالكوفة تمييزاً بين المركز السياسي الديني والمحيط الصالح للسكن، ووجود مركب يشمل المسجد والقصر مشكّل لوحدة فريدة مترابطة مادياً وتكون إذن بحسب النمط الآشوري. لكنّ هذا المركز لم يشكل قلعة في العصر الأول حيث لم يشيد أي سور، ولا حتى في العصر الأموى حيث حصل فعلاً تحصين للمسجد والقصر، الا أنه كان لكل منهما سور خاص به. إن المساحة العمومية كما أوضحناها كانت تشمل الأسواق والرحبة والآرى. وكان يحدها في بداية الأمر خندق، لكنها لم تحظ بسور أبداً، إذ لو كان لها هذا الحزام لاكتست طابع المدينة ـ القلعة، مثلما كانت بغداد في عصر المنصور. وحين عزم هذا الخليفة على بناء سور بالكوفة في سنة ١٥٥/٧٦٢، أحاط هذا الحزام بالمركز وبجانب كبير من مساحة السكن، فشكل بذلك «مدينة» من النمط الإسلامي، بمعنى مدينة تامة لا تتميز الا عن أرباضها. إن ما تبقّى بالكوفة من تقاليد آشورية[٢٨]، نقلتها بابل الجديدة، يتمثل بالخصوص في تجاور المعبد والقصر الملتحمين هنا في وحدة أو يكاد، أكثر مما كان في بابل، لكن المحتفظين معاً بفردية خاصة بكل منهما. ومن جهة أخرى، تحدد موقع هذه المساحة العمومية في المركز الهندسي دائماً، بالكوفة أولاً ثم في كل مدينة إسلامية بعد ذلك. قد يقع أن القصر ينفصل عنها، ويقام بالحوائط ويسمى بالقصبة أو القلعة[٢٩]، لكن لم ينفصل أبداً لا الجامع ولا الأسواق. وأحسن من ذلك: أن الجوار العضوي للمسجد والأسواق المسقفة المتخصصة، وموقعهما المركزي هو ما سيتبقى من مفهوم المساحة العمومية كالسمة الأكثر خصوصية للمدينة الاسلامية، حين سيشتد عودها في العصر الكلاسيكي. بل أن هذه السوق المركزية المتضخمة

---

(٢٨) لعلّه يحسن أن نوجه نظرنا بأكثر تمعن إلى أعلى بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى وخاصة هاترا في عصر البارت التي كانت مستديرة لا محالة، لكن تضمّنت مدينة داخلية مربعة الشكل: Oppenheim، ص ١٤٦.

(٢٩) حيث نجد رجوعاً إلى النمط الآشوري.

ابتكـار إسلامي، إذ ثبت أن السـوق في بـلاد الـراقـدين كـانت أهميتهـا محـدودة باستمرار، فضلاً عن أنها كثيراً ما كانت مندمجة بالمعبد[٣٠].

النقطة الثانية الواجب توضيحها تتعلق بـالسكك: يضـع المؤلفون في أكـثر الأحوال مقارنات بين المظهر الملتوي للمدينة الإسلاميـة المتأخـرة، وبين الأزقـة، والسكك المسدودة في مدن بلاد الرافدين[٣١]. لكن يبدو جيداً وبعد إمعان النظر في واقع الأمور، أن السكك الكبرى في المدينة الشرقيـة القديمـة «كانت تـنـزع إلى اكتسـاب عـرض منتـظم والتـلاقي عـلى زاويـة قـائمـة تقـريبـاً»، كـما يقـرّره Oppenheim[٣٢]، وذلـك بـالـرغم من وجـود الأزقـة المسـدودة وخـلافـاً للرأى الشائع، يبدو أن انتظام شبكـة الطرقات في أور كما في بـابل يفـوق إلى حد بعيـد المنعـرجات الـموجودة بهـا لكن هذين الصنفـين من السكك متـواجـدان. وهـذه مشابهة أخرى مع الكوفة في أول عصرهـا كما هي مـع بغداد الأولى. ولعله ينبغي البحـث عن تسلسل ما، على مستوى بنية الدار بالذات، هذه الدار المطبوعـة هنا وهناك بتفتحها على الوسط، رغم أننا نجهل كل شيء عن الدور الأولى بالكوفة.

وبـذلك نـرى وجوب الحـذر في معالجـة مسألـة الجذور الشرقيـة للكـوفـة بـالخصوص، والمـدينة الإسـلامية عمـوماً. ليس أمـراً واضحاً كـل الوضـوح أن أحسن كيفية لمقاربة المدينة الشرقية تخيلاً، أن تعرض على النظر المدينة الإسـلامية المتأخرة، سوى بنوع ما من الحدس يكون له مثـل التلاشي والعنـاد الموجـودين في شـذى البخور السـومرى،بـل أحرى أن تستعـرض مـدينـة القـرن الأول والثـاني الهجري ـ كالكوفة والبصرة وبغـداد وسامـراء ـ التي زالـت زوال سابقتهـا الشرقية واقتربت منها بمـا يستبعد أكـثر وينتظر أقـل. اقتربت منهـا باعتـماد جديـد لتقاليـد

(٣٠) حتى Wirth قبـل بذلـك: «Orientalische Stadt»، ص ٨٣ ـ ٨٩. وتدل كلمـة «سُكَـو» في الأكادية عـلى السكة والشـارع. راجع: سعيـد الأفغاني، أسـواق العرب، بـيروت ١٩٧٤، في موضوع تقاليد الأسواق عند العرب.

(٣١) منذ أن ظهر كتاب Wooley **Excavations at Ur:**.

(٣٢) Oppenheim، ص ١٤٩، لكنـه قبـل أيضـاً بفكـرة «التـواء السكـك والأزقـة»، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

الهوامش الحضارية المتأخرة زمنياً ـ تقاليد آشورية وبارتية ـ وبفكرة تخطيط المدينة ذاتها، وبمواد البناء، والطابع الهندسي للطرق، ومفهوم المركز السياسي الديني، أكثر مما يكون باعتماد الأزقة والسكك الملتوية أو سياج الدار. وعلى كل فلن يكون ذلك عن طريق جماهير الأسواق الملونة. إن الاستمرارية التي تربط الشرق بالإسلام، لم تكن مقصودة لذاتها أو واعية. كانت استمرارية في الأشكال والتقنيات والتصورات. ومن المفارقة أنها فرضت نفسها على مشروع قطيعة تامة مع الماضي: استمرارية مستميتة تنبض باصرار على امتداد الاف السنين من الحضارة. حضارة جرت آثارها من الجنوب إلى المركز، ثم نحو الشمال. وعادت إلى المركز، ثم تحولت إلى الشرق. ولم تقدر على محوها ألف سنة من الذل. لقد عرف العرب الفرس، واحترموهم، وحاكوهم، لكنهم تجاهلوا الشرق القديم حقاً، ومحوا منه كلّ أثر للضمير التاريخي. على أن الشرق في شكل متنكر ومتغير، مكتسباً لمضامين جديدة، حاضر في العمل الحضاري الخفي الذي قام عليه الإسلام، هو حاضر في مخطط الكوفة، وفي الاعتقاد في قوة النص المدون، وفي تقاليد الكتاب والعلماء، وفي تشعبات الفقه، وفي المدونات الكبرى للحديث، في مذهب التصوف كما في التشيع. إنه مثال عجيب على امتصاص بعيد عن كل تطابق لن نقف أبداً على سر مساره. ما أبعدنا ههنا عن مجرد تنزيل الإسلام منزلة الشرق.

تأثير الهلّينية.

لقد أحكمت الممالك الهلينستية سيطرتها على ميدان سوف يكون بعد ذلك مرتعاً للفتح العربي ـ باستثناء الأناضول. احتل السلوقيون بالخصوص موقعاً مركزياً في الشرق، فكانت امبراطوريتهم تشمل، في بداية الأمر، الشام وبلاد الرافدين وايران كله، ثمّ تراجعوا أمام النهضة الإيرانية التي جسدها البارتيون، لكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بميدياً (Médie) وخوزستان (Susiane) وبلاد فارس

ذاتهـا، فضلاً عن بـلاد الـرافـدين[٣٣]. ولا منـازع أن قلب امبراطوريتهـم بقي وسيبقى الشام، إلى أن يحين وقت سقوطهم[٣٤]. أما بخصـوص بلاد الـرافدين ذاتها، فالسؤال المطروح والواجب طرحه وصوغه كما يلي هـو: إلى أي حد تسرب التأثير الهلينستي بـدءاً بدائـرة الحياة المـدينية؟ هـل خلف آثاراً بـاقية؟ من اليسـير الإحاطة بهذا المشكل، لكن الإجابة المرضية غير ممكنة إلا إذا استعـرضنا الخلفيـة التاريخية لما كان عليه الاستيطان الهليني في الشرق.

خلافا للعرب والفرس، المجاورين مباشرة للشرق الواقع بين الشام وبـلاد الرافدين، فإن السلوقيين وهم المتعلقون عاطفياً بالهلينية، لم يعتمدوا على الشعب اليوناني ككل للمسك بزمام امبراطوريتهـم الشاسعة. وربمـا لأنهم لم يجدوا يـونانـاً بجوارهم، أو بلاد مقدونياً، ولم يعتمدوا الا على مجموعات مهاجرة صغـرى[٣٥]، فقد لجأوا إلى إنشاء المدن (Poleis) حيث أقروا عنـاصر يونـانية مقـدونية. كـانت نقطاً يستندون إليها ، وجزرا للهلّينية تدعم هيمنتهم . وهكذا فإن ما بذلوه من جهود جبارة في إنشاء المدن يدخل ضمن خطة سياسية مهيأة[٣٦]، أكـثر مما يتعلق الأمر بميل إلى التمصير يجب ترضيته، أو حتى مشروع حضاري، كما ارتآه مـدّاحو الهلينية من النمط القديم ومنهم Jones[٣٧]. وهذا لا محالة هو وضـع كل مشروع امـبراطوري، بمـا في ذلك الاتسـاعية الامـبراطوريـة العـربيـة، لكنّـا نجـد هنـا امبراطوريـة بعيدة عن قـواعدهـا البشرية. إن مـا يلفت النظر عنـد الرجـوع إلى خارطة المنشـآت الهلينية، هـو كثرتهـا في آسيا الصغـرى والشام حيث يمكن ذكـر انطاكية العاصمة السياسية، وآفـامية (Apamée) المـركز العسكـري، وسلوقية في

---

(٣٣) Rostovtzeff، ج ١، ص ٤٢٩ - ٤٣٠؛ **Cambridge Ancient History**، ج ٧، ص ١٥٧ - ١٥٩؛ A.H M. Jones **The Geek City from Alexander to Justinian,**، أكسفورد ١٩٤٠، ص ٣٠ - ٣٦.

(٣٤) Rostovzeff، ج ١، ص ٤٣٧.

(٣٥) **Cambridge**، ج ٧، ص ١٥٧.

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٦١.

(٣٧) مرجع مذكور، لاسيا ص ٣١ و ٣٢ حيث يقول ان الشرقيين كانـوا يريـدون استيعاب الهلينيـة لأنهم كانوا «خجلين» من ثقافتهم «المتأخرة العتيقة».

بياريا، واللاذقية (Laodicée) مقر التجارة، لكي ندرك ما كان من قوة للاستقرار المديني[٣٨]. وقد تمّططت الشبكة في بلاد الرافدين وامتداداتها إلى الجنوب، وقلت كثافة الحضور الهلّيني، وتناقص عمقه أيضاً. وقد ذكرنا أن بابل اصطبغت بالصبغة الهلينية السطحية في عصر متأخر، وخلافاً لذلك فإن سلوقية تحولت إلى مركز نشيط للهلينية الشرقية. فكانت مقراً للحاكم العام بمنطقة الشرق، وأشرفت هكذا على الميدان الإيراني كله. كانت حاضرة مركزية حقيقية[٣٩] عامرة بعدد هام من السكان الذين كانوا خليطاً من الأغريق والمقدونيين والشاميين واليهود والبابليين المنقولين. وقد توفرت لها الأجهزة الاساسية الخاصة بالمدينة الأغريقية Polis في إطار المملكة الهلينية، وهي فوق ذلك تجسد وترمز أكثر من أية مدينة أخرى، إلى مفهوم المدينة كنقطة لارتكاز أية هيمنة أجنبية. وذلك لأنها منشأة شبه معزولة في محيط شرقي صميم، باستثناء السوس (Suse) التي كانت بعيدة عن المركز، وبابل في عصر أنطيوكوس ابيفانوس. ومع أن بلاد الرافدين كانت احدى الولايات المركزية في امبراطورية السلوقيين، ومع أنها كانت مقراً لسلوقية ذاتها، فإنها لم تقبل التأثير الهليني بنفس القوة التي كانت له في الشام. لكن لا مجال لنكران بقائه مدة طويلة، أو نكران آثاره في عصر البارتيين.

وقد اعتبر البحث التاريخي الغربي مدة طويلة أن الهلينية المنتقلة إلى الشرق حتى خراسان كانت حركة «تحضيرية» قوية أخرجت آسيا الصغرى من بربريتها كما أخرجت الشرق من وضعه البالي. إن الأغراض العزيزة على الامبريالية الأوروبية في القرن التاسع عشر تكاد توجد كلها عند مؤرخين من صنف صانفورد (Sanford)[٤٠] وجونس بالخصوص، وقد أُسقطت على ماض يبعد عشرين قرناً. وهي الهلينية كمبدأ ثقافي فتي حديث متفوق، وفكرة مثاقفة

(٣٨) **Cambridge**، ج ٧، ص ١٥٧ - ١٦١.

(٣٩) Caetani، **Annali**، قسم ٣، ج ٢، ص ٨٣٦؛ **Cambridge**، ج ٧، ص ١٨٧ - ١٨٨، Pigulevskaja، ص ٦٢ - ٦٣، التي اعترضت عن حق على الفكرة القائلة بأن هناك أفولاً تاماً بعد سنة ١٦٥. أما كتاب Pauly و Wissowa، فلم يشر إلى سلوقية إلاّ بصورة طفيفة.

(٤٠) Sanford، **The Mediterranean World in Ancient Times**، نيويورك ١٩٣٨.

الأهالي، واستكمال مؤسسة البوليس (المدينة)، الخ . . .[٤١]. وبذلك تكون هذه الهلينية معادلة للحضارة الأوروبية المنتصرة.

وقد اتسم قول Rostovtzeff بهدوء أكبر، مع أنه لم يستخدم مثل سابقيه الا المصادر اليونانية والرومانية وهو ماشهرت به N.Pigulevskaja[٤٢]. ومع أن Rostovtzeff اطلع على نتائج حفريات Doura-Europos، فهو يعترف بالجهل الذي تتخبط فيه إزاء حركتي انتشار الهلينية والتمدين، وقد أقحم بشدة التمييز بين المدينة الشرقية والمدينة اليونانية، معترفاً بعد هذا بوجود تشابهات بينهما لا يمكن تفسيرها[٤٣]. إن هذا التحفظ الأخير أساسي وهو يخفّف من حدة المعارضة بين الشرق والهلينية. ففي مستوى التبوغرافيا بداية حيث توجد هنا وهناك نفس الغاية التنظيمية، ثم في مستوى المؤسسات حيث يسلّم بدرجة معينة من الاستقلال للمدينة الشرقية، وقد بات الأمر مقبولاً عادة بالنسبة للمدينة الهلينستية. لكن هل كانت هذه المدينة حقيقة من نمط الـ Polis[٤٤]؟ من الواضح أنه وقع احياء الأجهزة اليونانية القديمة ومنها الـ Ecclesia (جمعية الشعب). لكن هذا الإحياء الذي استفاد منه العنصر اليوناني المقدوني خاصة، هل كان سياسياً أم ثقافياً؟ هل كان يعمل بكيفية ديمقراطية، أم كان مجرد تقمص لرمز ثقافي؟ لا يخلو الأمر من تناقض حيث ان المتمسكين بالهلينية يعتبرون هذه المؤسسات أمراً مصطنعاً في حين أن N.Pigulevskaja التي تنازع مبدأ تفوّق الهلينية معتمدة المصادر السريانية معيدة الاعتبار بعد Spengler إلى الروح الشرقية التي لا تقهر، تظهر وكأنها تعتقد في جديتها واصفة إياها بمزيد من التفاصيل[٤٥]. وكأن الندم قد انتابها، فتخلصت إلى القول إنه لايمكن استنقاص التأثير الهليني. ولاشك أن

(٤١) **The Greek City**، مرجع مذكور، ص ٣٢ - ٣٧ و ٣٩ - ٤٣.

(٤٢) مرجع مذكور، ص ٢٠.

(٤٣) مرجع مذكور، ص ١٠٤٥ - ١٠٥٢ من ج ٢.

(٤٤) **Cambridge**، ج ٦، ص ٤٣١.

(٤٥) Pigulevskaja، مرجع مذكور، ص ٢٣ - ٢٨ : كان لسلوقية والسوس، نظام الـ polis ولم تكن بابل كذلك.

لديها ما تبرر به قولها . ذلك أنه من وراء الصراع المبسط الذي افتعل بين الشرق والغرب والذي طالما ما عتم قضية الهلينية . وتجاوزا للمفاهيم الضمنية للمثاقفة واللقاح والرفض وتفوق مبدأ على آخر ، يتحتم الإلحاح على الواقع الجوهري للعبة السياسية العسكرية . لقد تشكلت امبراطورية ثم تفككت . لم تكن لها ايديولوجيا راسخة قوية ، وامتدت على فضاء جد متسع في فترة زمنية جد قصيرة . وبعد هذا ، فمع أن الشرق يستند إلى بنى متينة من الحضارة ، غقد انفتح لكي تتسرب إليه المؤثرات اليونانية واحتفظ في الأعمال بآثارها . وكان هو بذاته يعيش في الداخل تغييراً عميقاً ، رافضاً الأشكال الأكثر ظهوراً للماضي الأكاديمي ، لكنه سيتمادى في الخضوع للسيطرة الخارجية . ليس مقصودنا من طرح قضية تقلبات الهلينية في الشرق إشعال خصومة جديدة في تاريخ الحضارات بالرغم من أهميتها بالنسبة لمستقبل الإسلام وبالرغم من المقارنات الموحية كثيراً بين العروبة والهلينية . إنما نسعى إلى تفجير سلسلة من المقابلات الواهية بين الشرق والهلينية ، بين المدينة الشرقية والمدينة اليونانية(٤٦) ، بين مبدأ الخضوع هنا ومبدأ الاستقلال هناك ، وتلك المقابلات بين العفوية والخلق ، وبكلمةٍ ، تفجير غشاء كامل من الفرضيات المسبقة .

كيف نترجم ذلك على صعيد المحسوس؟ منذ البداية، تفرض المقارنة نفسها بين شكلين للتمدين والهجرة. الهجرة العربية هي التي أوجدت الفتح، ولم تكن مجرد نتيجة له. وبسبب قرب العرب الفاتحين من رصيدهم البشري، فإن استيطانهم كان يتصف بكثرة العدد وقوة التجمع، ولم يكن مشتتاً مبعثراً. انفصلت الأمة الفاتحة في العراق، انفصالاً صريحاً عن الأهالي المحيطين بها. وأقام العرب تجمعاتهم الكبرى في بلاد الرافدين لا في الشام، خلافاً لليونان، فضلاً عن أنه لم يكن لهم نموذج تبوغرافي أو مؤسساتي مسبق للحياة الحضرية.

فآل الأمر إلى تعايش جد غريب بين المدينة والقبيلة التي كانت نابضة بالحياة عند العرب بينما لم تكن سوى أمر مفتعل وربما أثر عند اليونان. لماذا وفق

(٤٦) فصل Rostovtzeff بوضوح بين النموذج اليوناني والنموذج الشرقي، ج ١، ص ٨١.

الإسـلام حيث فشلت الهلينية؟ لأنـه جمع بـين المبدأ الـديني الذي لا يّمحي وبـين الهوية الثقافية المتينة، والتنظيم العسكري الجيد، ولأنه حافظ عـلى هذه العنـاصر الثلاثة في أمصاره القليلة. وخلافاً لذلك، فقد كان مستعداً لتقبل وانتقاء سلسلة النماذج الحضارية المودعة في الشرق، بما فيها الهلينية. وتم العمـل بهذه الانتقـائية في تخطيط الكوفـة. لكن الإسلام وجـد أخيراً الأسلوب الـلائق به بعـد قرن من ذلـك. إن العرب الـذين أتـوا مـع سعـد لم يكـونـوا يمتلكـون المخـطط الجـاهـز لهيبوداموس الذي أبدع بميلي (Milet)، مع أنه في الحقيقة يعود إلى زمن غابـر[٤٧]، إذ كان ابتكاراً للهلّينيـة الأيونيـة وليست الأتّيكية، وقـد نشره خلفاء الإسكنـدر. ولعلهم اطلعوا على ما تبقى من المخطط المشبّك بسلوقية - بهرسير وحتى في بابل، أو في السوس بالنسبة لأهل البصرة. ولنا أن نوضح القول أكثر من ذلك ونتسـاءل إلى أي حـد يندمـج مخطط هيبـوداموس في الثقـافات - بـالمعنى الأنثروبـولـوجي - الشرقية، بما فيها ثقافـات مشارف بـلاد العرب[٤٨]؟ ولـذا يجدر بنـا التساؤل عن إمكانية غـامضة تتمثـل في الأصل الهليني للشـوارع الكبرى بـالكوفـة. حيث إذا رضينـا بالتـأويل الثـاني لروايـة سيف - أي أن الشوارع الـرئيسية كـانت تقطعهـا شوارع ثانوية قطعاً عمودياً - نكـون قد تحصلنـا قطعـاً على تخـطيط هيأتـه رقعة أو شبكـة. ومهما كـان الأمر، وفيـما يخص مسـاحـة السكن فـلا يتعـارض النمـوذج

(٤٧) **History of Mankind**، قسم ٢، ج ١، ص ١٧٦؛ نـاقش Oppenheim تأثـير «الأورارتو» على المخطط المشبك: ص ١٥٠ - ١٥١.

(٤٨) تسرب التـأثير الهلينستي وصبغتـه الرومـانية إلى امـبراطـوريـة البـارت وبقيـا في الامـبراطـوريـة الساسانية: راجع في خصـوص بلاد مـا بين النهـرين، Oppenheim، ص ١٥١؛ وقد وافقت Pigulevskaja على أن «دخول اللغة اليونانية والتقاليد الهلينية إلى المدن الشرقيـة كان عميقـاً»، ص ٨٤. انظر أيضاً: Ghirshman، ص ٢٧٨ و ٣٠٩ من كتـاب **L'Iran des origines à l'Islam**، وانظر خاصة: **Parthes et Sassanides** (مجموعـة **Univers des Formes**، ج ٣). وقد أثار D. Schlumberger النقاش حول هـذا الرأي معتبـراً أن الفن السـاسـاني تحرر من الهلينية وقام في جملته على العودة إلى المصادر الأخمينية والشرقية، رغم قبـوله بـوجود الـطابع الهليني في فن البارت. راجع «Sur l'origine et sur la nature de l'art des Sassanides» ص ٥٦٧-٥٧٧، مـن **VIII. Congrès International d'Archéologie classique** (المؤتمر الدولي الثامن لعلم الآثار الكلاسيكي).

الشرقي والنموذج الهليني، بل إنهما يتشابهان كما رأينا ذلك، ولعلهما يمتزجان في رؤية واحدة للفضاء هيأها المخططون طبق حاجات التنظيم العشائري العربي أو تنظيم المعسكر. فأدى ذلك إلى تصفيفات وشرائط متمددة. أما عن المركز المقتبس من الأسلوب البابلي الجديد والآشوري، فنجد الرحبة تقابل الأغورا الهلينية التي حافظ عليها الحضور البيزنطي.

وهكذا نصل إلى فكرة الالتحام المعماري، إلى لغة مشتركة نجدها في الحجر أو الآجر نشأت في كلية العالم القديم. وعندئذ، إذا كان نموذج الدار العربية المقبلة بابلي الأصل، فيمكن القول أنه هليني لأنه غطى إلى حد بعيد المساحة الهلينستية. مثله مثل القوس الذي انتقل بعد الإسكندر، من بلاد الرافدين إلى قلب العالم اليوناني. وكالآجر ذاته الذي مر إلى الشام، فيما أن الشام بلد الحجر أصلاً وأساساً[٤٩].

فارس وروما وبيزنطة

الحقيقة الواضحة التي ينبغي التذكير بها دائماً، أن الانساق الحضرية تتبادل التأثير وأن ليس هناك نسق مديني بحت. فهل أن انتظام المخطط ظاهرة شرقية أم أنها ظاهرة هلينية، أو على الأقرب مجرد خاصية لكل مدينة تنشأ دفعة واحدة؟ سؤالان ينبغي طرحهما قبل أن تصبح الكوفة إمّا حاضرة شرقية وإما حاضرة هلينية. نجد بمصر القديمة مخططات مشبكة بها شوارع رئيسية تقطعها شوارع ثانوية. ومن الممكن أن هذا الرسم هاجر إلى الشام، وتواجد مع رسوم أخرى، واستمر في النشاط بمكان آخر، ثم رجع إلى مصادره بعد أن دخله التغيير. ومن الوجهة المعمارية، «إذا كانت فكرة الـ Polis استمدت شيئاً من تجمع الدور حول القصور الميسنية»[٥٠]، فلعل انتظامها اللاحق صدر عن اتصالات بعالم الأناضول

---

(٤٩) **Cambridge**، ج ٦، ص ٥٥٨ وما بعدها.

(٥٠) **History of Mankind,** Luigi Paretti، ج ٢، م ١، ص ١٧٧ .

ربطتها اليونان. لكنّ أثينا مثل روما، احتفظت بتشكل متراكم فوضوي استمدته من أصولها[٥١]. وهـو يتميـز عن مـظهـر الحـواضر الهلينيـة التي تغـذت من مهـد المؤثرات الأناضولية.

فمن المناسب الا نبالغ في عمل هيبوداموس الرائد الـذي لم يعمل الا عـلى استكـمال تقليد معـماري وجده عـلى عين المكـان، حتى في عمله الممتاز الـذي هو Priène[٥٢]. وما يلفت النظران الأغريق والرومان لم يبنوا مدنهم النموذجية الا في المستعمـرات، تلك الحواضر المنتـظمـة المنسقـة[٥٣]. ذلـك اما لأنهم تمكنـوا في الخـارج من استيعاب أسهـل للتقاليـد الأجنبية، وإمـا لأن صورة المعسكـر كانت عالقة بهم فيما يخص الرومان، وإما لأن كل خلق جديد يخضع لمنـطقية هنـدسية. وتنطبق هذه الدوافع الثلاثة بصورة فريدة على العرب الذين خـرجوا من بـلادهم وبنـوا الكوفـة الأولى: التهيؤ للتقبـل، وصورة المعسكـر (لا بالمعنى الـذي جعل المعسكـر يتحول من ذاتـه إلى مدينـة، كما رأينـا ذلك)، وجـدة الإنشـاء. لم يكن مخططوهم يشعـرون أنهم كـانـوا يصنعـون البـابـلي الجـديـد والهليني والفـارسي والروماني، لكنهم غـرفوا، غـير واعين، من تـراث من أفكار دون أن يكـون لهم تصور مرئي واضـح. ولربمـا يتم استيقاظ الجـانب الأكثر مسخـاً من الماضي ويتم رجوع العتيق إلى الوجـود، حين يخلق الجـديد إذ هي فـرصة لا تعـوض بالنسبـة إليه، ليرجع بقوة. فجدت الوثبة فوق العصور الساسـانية في اتجـاه بابـل وربما في اتجاه الهلينية، وقد امتزجتا امتزاجاً مبهماً ضمن تراث مشترك. هكذا فعل الرومان الذين خطـوا مدنهم بالمحراث تخطيطاً شعـائريـاً[٥٤]، إذ كانـوا يرددون دون علم بـه، تقليداً اتـروسكيا نـابعاً من أعـماق الجذور الشرقيـة لهـذا الشعب[٥٥]. فمن

---

(٥١) Mumford، ص ٢٥٨.

(٥٢) Léon Homo، مرجع مذكور، ص ٢٩؛ يرى أريسطو أن هيبوداموس هـو الذي ابـدع تقسيم المدن: السياسة، ج ٢، فصل ٨.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٢٦ وما بعدها.

(٥٤) Mumford، مرجع مذكور، ص ٢٦٧.

(٥٥) Léon Home، مرجع مذكور، ص ٢٤؛ ويرى Ernst Bloch، مرجع مذكـور، ص ٣٤١، =

الممكن ان احتفظت الجزيرة العربية بفضل اتصالها بالشرق بمحاولات عتيقة تخلى الشرق نفسه عنها، وذلك بالتدقيق لوضعيتها الهامشية عنه.

إن الفرس والرومان شعبان وريثان. لقد اعتمدوا أصلاً نماذج مهيئة في بوتقة الحضارات التي خضعت لهم، لكن دون أن يخلو ذلك من زاد أصيل. من هنا انتشار هذه النماذج انتشاراً ممتازاً، ومن هنا جدت تركيبات وانحرافات. لكن لم يقع اللحاق بالركب أبداً. حين صمم الفرس القاهندز - يعني القلعة المركزية المحصنة - وأبدعوا فيها، فقد مددوا بذلك في النموذج العتيق الأشوري - البابلي - الجديد في السوس كما في همذان، وفي اصطخر كما في بابل التي جددوا بناءها، لكنهم عدلوا في طيسفون وفي درابجرد عن الشكل المربع لفائدة الشكل المستدير المستمد من ارثهم بالذات، أو من ارث «الأورارتو»، أو لعل الأمر تعلق برجوع النمط المصري أو الشامي الأناضولي. وكذلك الرومان فانهم روجوا في الشرق نموذج المدينة الهلينية التي صارت مثالهم الأعلى[٥٦]. لكنهم لم يوفقوا أبداً من أن يجعلوا من روما حاضرة مكتملة نظيفة مضاءة[٥٧] متسقة، كما كانت أنطاكية. إن انتظام المدن الرومانية خارج ايطاليا مقتبس من التقليد الهليني في الشرق، ومن التقليد الأتروسكي في العالم الغربي. وعلى هذا النحو لم يقم الفرس والرومان كل في ميدانه بعمل ابتكاري أساسي، بل كان عملهم تركيبيا وبصورة ما عملاً تشويهيا للنموذجين الأصليين الشرقي والهلينستي.

لكن ينبغي الاعتراف أنه لم يقع في الوضع الروماني، الا نادراً، فرض مخطط السكك من كاردو (Cardo) وديكومانوس (Decumanus) فوق المدينة الهلينية مع المسخ الذي يتبع لذاتها. كانت المدينة الرومانية في أنطاكية كما في الإسكندرية،

= «أن المعمار الرّوماني أخذ عن الأتروسك الصبغة الهندسية الكوسمية.. وبعد قرن من Vitruve رجع المعمار الروماني إلى التراث الهندسي الكوسمي للأتروسك».

(٥٦) Mumford، مرجع مذكور، ص ٢٥٦ وما بعدها.

(٥٧) Léon Homo، مرجع مذكور، ص ٥٨٢.

بخاصياتها وتسمياتها المحددة، تقع إلى جانب المدينة الهلينية دون التأثير فيها[٥٨].
أما بأعلى بلاد الرافدين وهي منطقة حدود وساحة للقتال فانا نلحظ وقوع تخريبات تتلوها انشاءات على الأسلوب الروماني. فهل أن التصور الروماني للمدينة بصفتها شكلاً جسدياً سما هنا وهناك إلى مرتبة النموذج القادر على أن يعتمد على نفسه وينتشر خارج الإمبراطورية؟ مثلاً في بلاد بابل، وبصورة أوسع في الإمبراطورية البارتية؟ ليس في هذا السؤال تمويه كما يظهر لأول وهلة، نظراً للقرب الزمني، ولأن الشحناء بين امبراطوريتين لا تستثني المبادلات الحضارية (مثلاً: الحمامات التي اقتبسها العرب عن الساسانيين الذين اقتبسوها بدورهم عن العالم الروماني البيزنطي في رأي وليام مارسي)[٥٩]. ولا ننسى أن الحيرة التي يسرٌ طابعها العربي انتقال المؤثرات الخارجية إلى الكوفة، لم تكن مرآة للحضارة الفارسية فحسب، فقد انخرطت ضمن خط عربي اتصالي امتد حتى الشام عند الغساسنة، وهذا الخط كانت التسربات الرومانية البيزنطية فيه أكثر أهمية من المفعول الساساني ذاته، مما أدى إلى عملية تنصيرية قوية في الحيرة ذاتها.

إنه لا يمكن رد التأثير الروماني على الكوفة إلى المظهر الشعائري للتخطيط، رغم ما هنالك من تشابه في الشكل، لأن مصدر هذه التشابهات مورده عندئذ الارث المشترك الغابر، ارث الشرق القديم الذي نقلته التقاليد الأتروسكية إلى الرومان، بل بالأحرى يمكن ردّه إلى المعمار. فإذا وافقنا سيفاً على أن الصورة الهندسية المعمارية الأولى للمسجد كانت قائمة منذ البداية، فمن المهم أن ننتبه إلى ما قاله في هذا الموضوع. لقد تحدث عن أعمدة جلبت إمّا من الأهواز وإمّا من الحيرة، واصفاً بالخصوص سقف قاعة الصلاة الذي شبهه بسقف «الكنائس الرومية»[٦٠]. لا شك إنه يمكن تسفيه هذه التوضيحات وردّها إلى عصر لاحق شهد استيعاباً أفضل لكلية الارث الشرقي من طرف العرب، وبذلك تتأخر

---

(٥٨) **Le monde et son histoire,** Meulot، راجع خارطة أنطاكية، ج ١، ص. .
(٥٩) **Articles et Conférences**، ص ٦٦.
(٦٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

القضية نصف قرن. لكن تثير هذه الروايات وتوحي بإمكانية جديرة بالنظر لم يتردد «كرسول»[٦١] في درسها، وقد سبقه إلى ذلك «لامنس»[٦٢] الذي يرى أن المقصود به عند سيف تصاوير جدارية وفسيفساء ذهبية على الطريقة البيزنطية. ويوافق كرسول على وجود التأثير البيزنطي لكن بشكل آخر غير شكل الفسيفساء على الحجر. ينبغي البحث عن النموذج حسب رأيه، في الصنف الكنسي من كنائس شمال الشام تلك التي استعمل فيها الخشب كمادة لبناء السقوف المستقيمة المستطيلة لا السقوف المقببة أو التي كانت على شكل القبة. ولعل هذا النمط المعماري يكون انتشر في شمال بلاد الرافدين عند قدوم الجيوش البيزنطية. ثم أورد «كرسول»كمثالٍ، الرصافة التي يعود تاريخ الكنيسة الجامعة فيها إلى القرن السادس م، وسرجيوبوليس، وحلبية. لكن لا يكشف لنا كيف انتصر هذا النموذج في بلاد بابل، ولا كيف أصبحت هذه البلاد تابعة، من بعض الوجوه على الأقل للمعمار الشامي، كما جد في الجزيرة. ويكون سقف الظلة حسب رأيه من خشب، أقيم مباشرة على الأعمدة وبدون أقواس، ولم يكن شكله مقبباً. وهذا يستثني التفكير في النموذج الخاص ببلاد الرافدين المتضمن لسقف من لبن مخلوط بالقصب، كما في نينوى وخورسباد، وكما أيدته المصادر بالنسبة للبصرة الأولية. فهل أن المؤثرات الرومانية أو بالأحرى البيزنطية توقفت في مستوى الحيرة والكوفة، ولم تتقدم أسفل من ذلك؟ في الحقيقة، حتى لو شككنا في واقع هندسة معمارية جديرة بهذا الاسم في الكوفة المبكرة، فإن مصادرنا تؤكد على وجود تأثير بيزنطي معين يخص الكوفة، وهي صامتة عن البصرة. وبخلاف ذلك، كانت صريحة إذا نسبت للبصرة مسجداً، إمّا من النمط الذي قد ينتسب إلى بلاد الرافدين[٦٣]، وإمّا من النمط العربي البدائي، وهي تسكت عن هذا في خصوص

(٦١) مرجع مذكور، ج ١، ص ١٧ ـ ١٨.

(٦٢) «Ziad b. Abihi, vice-roi de l'Irak» في **Rivista degli Studi Orientali**، ج ٤، (١٩١٢)، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٦٣) «بنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الامارة باللبن والطين وغطاهما بالقصب»: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٢. ها نحن قربنا كثيراً من نموذج نينوى وخورسباد الذي أشار إليه Creswell. على أنا لا نجد ذلك بالنسبة للكوفة عند البلاذري ولا عند الطبري.

الكوفة. ومهما كان الأمر، وإذا صح أن وجود تيار من المبادلات بين بلاد بابل والشام يفرض نفسه على انتباهنا، فإن المؤثرات الرومانية ـ اليزنطية التي لا شك في حضورها(٦٤)، بقيت ضعيفة في تعابيرها المباشرة. وأكثر أهمية من هذا دون شك الدور الذي قامت به هذه المؤثرات في نشر المثال الهليني أو في المحافظة على مثاليته كمرجع معماري، لكن أيضاً وبالخصوص في نشر مفهوم المدينة المنشأة باعتبارها المكان الأقدر على دعم أية هيمنة امبراطورية جديدة.

لا ريب أنه يوجد من الجانب الفارسي تلك الإرادية التمصيرية(٦٥)، التي ورثها العرب والتي كانت من الأسباب الجذرية لإنشاء الكوفة. لكن الكوفة ـ وهذا الفارق مع بغداد ـ لم ترد أن تكون حاضرة امبراطورية متجهة بكل قواها إلى التعبير عن العظمة الملكية لنفسها، كما جرى الأمر بالنسبة للسوس واصطخر والمدائن. إنما خضعت مثل المدينة الفارسية إلى سلطة مركزية ممتدة على تراب شاسع، وأقحمت في شبكة إدارية لم تتغير، هي شبكة الكُوَر الساسانية. إن هذا المظهر الذي اتخذته الكوفة كمتصرفة في تراب محدود،(٦٦) يمدد الواقع الفارسي ويناقض واقع الاستقلال النسبي الذي كانت عليه الحاضرة الهلينستية.

وبعد، فلا أسلوب التخطيط، ولا بنية الفضاء الكوفي الأول يبدوان مقتبسين شيئاً من الأرث الفارسي. مع أن ما كان اكثر وضوحاً من غيره هو الحضور الساساني. كان أشد تأكيداً في النصف الشرقي من العراق ـ سواد دجلة أو أقليم ديالا(٦٧)، لكنه بارز أيضاً في منطقة الفرات، عبر أسماء المكان وقيس

---

(٦٤) الظاهر أن ريح الشمال تصل إلى بلاد بابل لكنها لا تبلغ الجنوب.

(٦٥) راجع حول هذا المظهر من السياسة الساسانية: Pigulesvkaja، ص ١٨٦ وما بعدها.

(٦٦) Aubin، «عناصر لدراسة التجمعات المدينية في ايران في العهد الوسيط» في **The Islamic City**، لاسيا ص ٦٨ ـ ٧١. لكن تأثير الكوفة كان شاسعاً فيما يتعلق بالعمليات العسكرية.

(٦٧) R Mc Adams **Lands Behind Baghdad; a History of settlement on the Diyala Plains,** ، شيكاغو، ١٩٦٥.

الأراضي وشبكة القنوات، ومن خلال وجود إنشاء فارسي مثل الأنبار[٦٨]. من الممكن ومن الواجب قطعاً أن نقبل بوجود جانب كبير من الوساطة الفارسية في نقل التصورات البابلية والمقاربات الهلينسيتة للظاهرة المدينية، لا أن نقبل المسعى الفارسي الصرف لهندسة الفضاءات. لقد كانت الكوفة مربعة الشكل فعلاً، غير مستديرة مثل درابجرد وأصفهان،وحتى المدائن التي عرفها العرب وحدها في ذلك العصر. لكن بخصوص ما اقتبس من الفرس في المعمار فإن ذلك يظهر فوراً للعيان. فقد ذكر أن الأحجار جلبت من الأهواز (خوزستان) لنحتها أعمدة عالية (إن هذه الظاهرة فارسية صرف تعود إلى عصر الاخمينيين)[٦٩]، وأنها حملت سقفاً مسطحاً ،دون تقويس، وهذا يسترعي الانتباه،ففرض على «كرسول» صورة الأبدانا (Apadana). وكان المهندسون من الفرس وقد ورد اسم رئيسهم، وهو من همدان اسمه روزبه بن بزرجمهر، وقيل أيضاً أنه صمم المركب الموحد للمسجد والقصر. صحيح أن سيفاً نفسه لم يقبل خبر نقل الأعمدة من الأهواز، الا بخصوص إمارة زياد. لكن مشاركة «بنائين من بنائي فارس»[٧٠]، كما يقول حرفا،أمر مؤكد بالنسبة للعصر الأوّلي. أما لاحقاً وفي العصر الأموي، فسيظهر الإيوان[٧١] البارتي ـ الساساني كواحد من العناصر الأساسية لبنية القصر، وهو ما أيدته الحفريات بكل وضوح.

---

(٦٨) كانت منطقة الكوفة منطقة البهقبا ذات الثلاثة التي نظمها أو أعاد تنظيمها الساسانيون.

(٦٩) رجع إليها الساسانيون: Schlumberger، مرجع مذكور، ص ٥٦٧ وما بعدها.

(٧٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٥: استخدم المرمر في المرحلة الأولى لا الحجر. هذا طابع هليني سيمّحي في مرحلة البناء النهائية بخاصية فارسية صرف. فهل أن الطابع الفارسي ظاهرة متأخرة؟

(٧١) راجع Schlumberger، مرجع مذكور، ص ٥٦٩، بخصوص الايوان، وهو انشاء بارتي اقتبسه الساسانيون. ولاحظ نفس المؤلف أن المعمار المقبب الذي عوض السقف المسطح، ابدعه البارت وأثراه الساسانيون. كما أن التغليف بالجبس المنحوت الذي صار «ستارة معمارية حقيقية» سوف يستخدم في قصر الكوفة. إلاّ أن Schlumberger يلح على الطابع الهليني القوي جداً، باستثناء النقاط المذكورة، على فن البارت. وهو يلح أيضاً على مظهر «النهضة» في الفن الساساني الذي يعود هكذا إلى الأصل الأخميني، وخلف ذلك إلى الأصل الشرقي لبلاد الرافدين. فهل أن ارث الشرق الذي تلقاه الاسلام مرّ عبر النهضة الساسانية؟

الفصل الرابع عشر

الارث العربي القديم

يبدو لنا أمراً بديهياً أن كل ما من شأنه أن يشكل تكون الحضارة العربية الإسلامية وهياكلها، ينبغي أن يعتمد قطبين، على الأقل خلال الأربعة أو الخمسة قرون الأولى من فترة الانطلاق. أما القطب الأول فهو العالم الشرقي الخارجي حيث تطورت هذه الحضارة، وأما القطب الثاني فهو عالم العروبة الداخلي الذي منه تحدرت. لقد سبق أن ألمحنا إلى النقطة الأولى، وها نحن نشرع الآن في فحص الموضوع الثاني.

لقد نزعت لفترة طويلة الرؤية التقليدية الأوروبية والإسلامية معاً، إلى تصور الحضارة العربية ـ والمدنية أيضاً ـ وكأنها منبثقة مباشرة ومكتملة من بلاد العرب لكي تفرض وجودها على العالم الشرقي، في حين أن المعرفة الأوروبية وبدرجة أقل، الصورة الذاتية التي كوّنها العرب المحدثون قد تطوّرت منذ حوالي قرن في اتجاه يبرز المؤثرات الخارجية غير العربية، سواء كانت نصرانية في المجال الديني، أو فارسية في المجال الحضاري، أو هلينية وهندية في المجال الثقافي. وعلى هذا النحو وقع تفضيل عَمَلِ المحيط على عمل المعطى الوراثي. ولعلّه ينبغي اعتبار هذا الأمر عزماً على التقليل من الحصيلة العربية الأهلية أو على حل الغيرية العربية الإسلامية، من وجهة النظر الأوروبية. أما من الوجهة العربية الحديثة، حيث يبقى التصوّر القديم مهيمنا لا محالة، عند ظهور اغراء الاتجاه الإيراني والبابلي والهليني، فذلك دون شك استجابة لرغبة ترمي إلى إخراج

الكيـان العربي الإسـلامي من عزلتـه التاريخيـة وإنقاذه من «الـبربريـة» حيث يقع ربطه بتقاليد ثقافية كبرى، وتبرير وجوده، ومنحه عزة. لكن لم يمر كثيراً على اتجاه البحث التاريخي من جديد وبمنظورات مغايرة تمـاماً، في طـريق تَعْمَلُ عـلى تحليل الواقع العربي الجاهلي بغية مزيد من الإحاطة بتولد الإسـلام على الصعيـد الديني كما على صعيد مؤسسات الاجتماع والدولة. ألم يكن الرسول قرشيـاً نشأ وتـرعرع في بيئة مكة قبل كل شيء؟ ألم تكن الدولة بالمدينة دولة عربية قبل كل شيء؟ وهل كـانت بـلاد العـرب تتّصف بـالفـوضى كـما قيـل؟ ألم يكن بهـا مـدن، وتيـارات للمبادلات، ومؤسسات وسلوك أخلاقي (Ethos) ، وديانة موحدة أو يكاد؟ وحين تشكلت بعـد ذلك الحضـارة العربيـة الإسلاميـة الكلاسيكيـة، فهـل كـان كبـار المؤسسـين الثقافيـين حقاً من المـوالي والعجم قبل غـيرهم، وأن الثورة العباسيـة كانت من فعل فرس خراسـان؟ لقد تـأثر البحث من الجـانب العربي قـطعاً بتيـار القومية. ولما تقنع بقناع الأيديولوجيا، فقد نزع إلى تيار عـروبي تاريخي شمـولي، حين أراد مثلاً تعريب تاريـخ الشرق كافـة منذ البـداية. أمـا من الجانب الغـربي فكان الأمر يعني فتح اتجاهات جديـدة للبحث، وقع إهمـالها لحـدئذ، أو صرفهـا حكم مسبق معاد للعرب. ولـذا فهي اتجاهـات تمر عن طـريق رد الاعتبار للعـالم العربي القديم، لكن ذلك يدل بالخصوص على شاغل العلمية أكثر ما يكون حدة ووضوحاً. وكأن هذا الأمر بمثابة العودة إلى بديهية الأشياء وبسـاطتها. وتـبرز هذه البديهية بقوة كبيرة في كل ما يمس الإسلام الأول: أي تولد الرسالة، وبناء الدولة في المدينة، والهياكل القبليـة، والنزاعـات السياسيـة التي وجدت في القـرن الأول الهجري. أما بخصوص بنية المدن العربية خارج بلاد العرب ويعني ذلـك عنصراً من عناصر الحضارة المادية والإنسانية أيضاً، فإن التسلسل يرد إلى المهـد الأصلي، ويمكن أن يظهر أكثر إبهاماً وأكثر عرضة للتقييم، لكنها لا محالة نسبة ثابتة مبـدئياً. كان للعرب مدن في شبه الجزيرة منذ البدايـة، وبالأخص قبيـل ظهور الإسـلام. كـانت هذه المـدن قد انـدثرت مـع العرب الأوائـل، وكانت هنـاك مدن بـاليمن والحجاز والمدن الثغور في الشمال والشرق. هذا من جهة ،ومن جهة أخرى كانت

هذه المدن تظهر بمظهر ثانوي في الوجود العربي ـ وهو مشكل مطروح فعلاً ـ إلى جانب الظاهرة الرعوية مثلاً. في حين أن الدولة والحضارة والقوة كانت متمركزة في بلاد الرافدين بالمدينة. أما من حيث حجم النمو والإشعاع فبالإمكان أن تقارن الكوفة والبصرة وبغداد ببابل ونينوي والمدائن،والأكثر من أن تقارن بصنعاء ومكة والمدينة. لكن هل يقضي الحجم على الشكل وأكثر من ذلك على الجوهر الثقافي، لا سيما في المرحلة الأولى حيث لم تنفصم الوشيجة بالوطن الأم ولم يمكن امتصاص النماذج الأجنبية سريعاً. لقد أشرنا الى فرضية بقاء المعسكر البدوي ضمن بنية قطع العشائر السكنية، بمعنى تأثير خاصية للتجمع غير المديني على بنية مدينية. وهو دليل على أهمية الخلفية العربية كافة، لا المدنية فحسب، لمزيد من إدراك تولد الكوفة. فإذا كان هنا مبرر وفائدة في أبراز العناصر الأساسية لميراث الشرق بصفته بيئة استقبلت الكوفة، فلا أقل من البحث عما يمكن أن تكون العوالم العربية المختلفة المتوالية أو المتجانبة، قدمته في مجال التقاليد المدينية أو طرائق التجمعات البشرية، وكمعنى نوعي للفضاء، وتجربة أو مؤسسات، وحتى من وجهة المنطق الثقافي الأكثر انغماساً في الحواضر العربية الكبرى.

السابقون للعرب والغرب الأوائل والعرب

الواقع أن ما اكتشفته الرواية التاريخية العربية المدونة، هي فكرة «العرب الأوائل»، لكنها شوهتها وعكست معناها، لأنها اقتصرت على الميدان اللغوي. لا شك أن ما رواه القرآن من أن اسماعيل كان جد العرب[1] مع أنه لم يكن هو نفسه عربياً، وكان يتكلم السريانية في البداية، وأنه قد تعرب لغوياً وتزوج في

---

(١) راجع القرآن الكريم سورة « البقرة » ، ١٢٤ ـ ١٢٩ .

نفس الوقت امرأة من جرهم[٢] كانوا من العرب الحقيقيين البائدة، أو من العرب العاربة حسب الرواية ـ لا شك أن ذلك ساعد الرواية التاريخية، وبذلك فهي قد شرعت في موضعه الماضي المتمثلة في الختن المؤسس للجديد والناقل للقديم بمعنى الوسيط[٣]. لكن قصة اسماعيل تبلور الذكرى أو الشعور بعروبتين وقع فك رموزهما عكسياً. ويمكننا الافتراض أن العرب العاربة كانوا فعلاً السكان الأصليين الذين سبقوا العرب، وقد عرفهم معيار ترابي هو معيار السكان الأوائل لشبه الجزيرة. كان العرب المستعربة يمثلون القادمين الجدد [٤] أي المهاجرين، الغرباء عن أرض شبه الجزيرة لكنهم كانوا يتحكمون فعلاً في العناصر الثلاثة التي حددت العروبة على الدوام، الا وهي العرق واللغة وحياة الترحال، هم بالتأكيد الذين عربوا شبه الجزيرة. لقد ترجمت الرواية العربية عن الغربة الترابية بمفهوم لغوي وبعكس المعطيات جعلت من السابقين للعرب عرباً أوائل، وأحسن من ذلك لقد جعلت منهم العرب الحقيقين الماسكين باللغة في حين أصبح العرب أنفسهم برابرة تلقوا هذه اللغة من الأوائل بوحي الهي [٥] (عن طريق اسماعيل) أو بالتلقين مع وجود فكرة خفية توحي بالانفصام العرقي. ولذا

---

(٢) السيرة ص ٥، ٥٠، ٥١، المروج، ج ٢، ص ١٦١ ـ ١٦٣؛ الأزرقي أخبار مكة ص ٥٧، وما بعدها؛ ابن سعد، جـ ١، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) لقد اعتبرت جرهم انهم ورثة اسماعيل. وخلافاً لذلك، فإن قصيّ بالنسبة لمكة والدّمون بالنسبة للطائف أصبحا وريثين لكونهما من الأنساب.

(٤) «جزيرة العرب»، دائرة المعارف الاسلامية ط/٢، Coskel - A. Gromann. مادة «عرب»، نفس المرجع. أما Grunebaum فإنه يلمح إلى الموضوع تلميحاً خاطفاً جداً، **Arabica** V, «The arab unity before Islam»، ١٩٥٥، ص ٩.

(٥) ابن سعد في الطبقات جـ ١، ص ٥٠ يقول أن اسماعيل كان أول من تكلم العربية إذ كان القوم يتكلمون العبرية قبل ظهور الأنبياء؛ راجع المروج ج ٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٤. ويرى ابن خلدون، التاريخ ج ٢، ص ٤٦ ـ ٤٧، إن قحطان كان أول من تكلم نقلاً عن جرهم، وهو يدعو جرهم العرب العاربة أو الجيل الأول، واليمنية المستعربة أو الجيل الثاني، وأبناء اسماعيل الجيل الثالث أو «العرب التابعة للعرب»؛ راجع الأزرقي ج ١، ص ٨٦.

فبما أن السكان الأصليين كانوا السكان الأولين لما سوف يصبح «أرض العرب» بصورة ممتازة بمعنى افرازها الأصيل، فإن القادمين الجدد من العرب منحوهم العروبة الحقة، عروبة العرق واللغة، وبذلك فقد قاموا بنقل الاصالة الترابية إلى الاصالة اللغوية مزيفين هويتهم العربية ذاتها التي كانت حقيقية وحدها. ولا يمكن في التحليل الأخير اعتبار العرب العاربة من العرب الأوائل، الا إذا قبلنا بوجود هجرة أولى، ذلك أن هذه التسمية ينبغي أن تنطبق على العرب الأولين أو على المهاجرين وأجدادهم وأقاربهم القادمين من الخارج أي من الشمال حيث وجدت آثار لذلك بالنقوش المسمارية.

لقد ذكر علماء الإنساب أن مخلفات السابقين للعرب أي العاربة انصهرت في العرب الأوائل المستعربة [٦]. فقد تعرّبوا وفقدوا في الوقت نفسه هويتهم الجماعية وبنفس الصورة استثنى أولئك النسابون قحطان أقدم جد لليمنيين، واحتفظوا بكهلان جد البدو أي عرب اليمن كعنصر من ذرية اسماعيل ومن العرب المستعربة، لكن يعتبرونه أحياناً من العرب العاربة [٧]. وعلى هذا، ففي الإمكان المخاطرة بفرضية مفادها أن اليمنية الأصليين لم يكونوا عرباً عريقين لغوياً وأنه ينبغي اعتبارهم بقايا للسكان الأصليين في شبه الجزيرة [٨]، أي من السابقين للعرب، الذين بقوا على عين المكان في حمى تضاريس الجبال، أو أنهم دحروا إلى الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد العرب. أن لغتهم «الحميرية» أو

---

(٦) المروج، ج ٢، ص ١٦٧.

(٧) رأي ابداه مؤلف بحث «جزيرة العرب»، دائرة المعارف الاسلامية، ط ٢

(٨) يقول Von Grunebaum، بحث مذكور، ص ٨: «لما يشعر عرب الشمال في العصر الجاهلي بتمييزهم عن عرب الجنوب، فإن هذا الشعور يعكس الفرق الحالي في المسكن واللغة والدين وربما في العرق». لكن إذا امكن لنا مجاراته، ص ٩، في تقدير مفاده أن العرب البائدة يمكن تمثلهم بالسكان الأصليين يعني الأهالي، فليس صحيحاً أن الرواية العربية اعتبرتهم بصفة عامة من اليمنية. راجع أيضاً Chelhod، مرجع مذكور ج ١، ص ٣١. أما عن الحضور البشري في العصر الحجري القديم والحديث، راجع بحث Roger de Bayle des Hermens في كتاب Chelhod, **Arabie du Sud,** ج ١، ص ١٨٥ وما بعدها.

اليمنية القديمة، مع أنها قريبة من العربية، فهي تختلف عنها [٩] كما تختلف تماماً كتابتهم عن الكتابة العربية المشتقة من النبطية أي فعلاً من عالم الشمال، مهد العرب الأوائل. وهناك تفرع ثنائي في النقوش اليمنية، ضمن نفس القبيلة كقبيلة همدان، يفصل بين الأحمور والعرب، أو بين الهجر والعرب[١٠]. وإذا كان التمييز الثاني يحيل إلى صنف العيش، فإن التمييز الأول لعله قادر على إدخال معنى عرقي. من المؤكد جداً أن القبائل العربية البدوية سلطت ضغطاً منذ وقت طويل وبصورة متزايدة خلال القرنين السابقين للإسلام، وذلك لتعريب اليمن [١١] ثقافياً ولغوياً. كما أنه تم بصورة عكسية وعلى صعيد الشعور الانتمائي، طبع نفس هذه القبائل بالطابع اليمني. ان التاريخ النوعي لليمن، وخصوصيته الحية، وقوة النزاعات التي نشبت مع قيس في العصر الأموي[١٢]، كل ذلك يعود إلى الماضي البعيد جداً ويمكن تعليله بالفارق العرقي الأصلي. لكن من الصعب الإحتفاظ بهذه الفرضية، نظراً للقرابة اللغوية الدالة على أصل مشتركة لكنه بعيد، بمعنى أنه تفريع انطلق من الرحم الشامي المسمى سامياً أو أمرهيا والذي سوف نسميه ع رب كما سيأتي بيانه. ان الفارق بين اليمن والعرب ناتج على الأرجح عن تطور طويل منفصل. على أنه من المحتمل أن هناك زادا أصلياً متبقياً في الجانب الغربي من اليمن، بتلك الأرض المجهولة التي لم تخلف لنا أية نقوش. يعني ذلك إن ما تبقى وجد عند الأمم التي لم تساهم في التاريخ اليمني لكونها مادة بشرية متبقية مسترقّة، خاضعة، متوحشة[١٣]. لا شك أن كل ما

(٩) C Contini-Rossini, **Chrestomathia arabica meridionalis epigraphia**، روما، ١٩٣١. لكن المعجم الجديد الخاص باليمنية القديمة والعربية الذي نشره محمد الغول يدل على ما بين اللغتين من شديد القرابة.

(١٠) الحديثي، أهل اليمن في صدر الأسلام، ص ٦٧.

(١١) مذحج وقبائل اخرى، لا همْدَان. فقد استقرت قديماً وطبعها الطابع البدوي بعيد. أرادت مذحج طرد الفرس في حين عقدت همْدَان حلفاً معهم، وهذا تمايز دال: راجع الرازي، تاريخ مدينة صنعاء، ص ٣٧ ـ ٣٩.

(١٢) هشام جعيط، بحث مذكور، ص ١٧١ ـ ١٧٤.

(١٣) ياقوت، المعجم ج ٥، ص ٤٤٢ يحدد مواطن جرهم الأولى في «تهائم اليمن»، ويمكن أن =

سبق ذكره هو من قبيل النقاش النظري حيث أنه لا يستند إلى أية حجة موثوقة متعلقة بهجرة أجناس ناطقة بالعربية إلى بلاد العرب، فضلاً عن أنه وقع شرح ما قدمته الرواية العربية من معطيات. لكن هذا الأمر يدل على أن المؤرخ الحديث إذا ما افتقد المصادر الأثرية الجادة، فهو يبقى مرتبطاً وحتى تابعاً للجهاز التقليدي، سواء توخى موقف القبول السلبي، أو الشك أو التخيل التأويلي. على أننا نؤسس مقولتنا على مزدوجة من المفاهيم كثيرة الفعالية، نعني السكان الأصليين والمهاجرين، وهي مزدوجة مستنبطة بداية من جملة من الحالات التي جدت في سير التاريخ الإنساني.

إذا ما جدت هجرة للعرب الأوائل إلى شبه الجزيرة، للاستيلاء عليها إن صح القول فلا بد أن دخول الإبل[14] إلى المنطقة خلال الألفية الثانية، قد يسر الأمر، ونتج عن ذلك تعمير جديد مكثف، وحتى «ترحيل» إذا ما قبلنا بوجود هجرة في الاتجاه المقابل خلال العصر الحجري الجديد، انطلاقاً من «بلاد العرب» من سلالة الأمم المعروفة بأنها سامية[15].

لقد ظهر العرب الأوائل في التاريخ خارج شبه الجزيرة سنة ٨٥٣ ق.م من خلال النقوش المسمارية التي ورد بها أن العرب جند يبوجلب ١٠٠٠ من الإبل

= نستنتج أيضاً هذا الأمر من عدد الرقيق الضخم، ومن استرقاق جموع كاملة داخل المجتمع، ومن التمييز بين الفلاحين العاملين والرقيق الذين يشكلون فئة معينة بين السكان حتى ظهور الإسلام. إنه أمر يمكن مقارنته بنظام مدينة سبارتا العتيقة والكلاسيكية. راجع بهذا الخصوص محمد حميدالله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٥١، حيث ذكر أن «الرقيق» يشكلون فئة متميزة عن «العمال». والملاحظ أن ذا الكلاع كان يملك رقيقاً يبلغ عددهم ١٢٠٠٠، راجع **الإصابة** ج ٢، ص ٤٢٨. ومن البديهي أنه يمكن أن يكون مصدر هذه الظاهرة ناتجاً عن تطور داخلي.

(١٤) M Rodinson **Mohomet,** ص ٣٢، **The Camel land, R.w. Bulliet and J. chelhod,**

(١٥) H. Winckler **The wheel Al torientalische forschu,**
اقتبس عنه Caetani في **Annali** ج ٢ قسم ٢، ص ٨٦١ وما بعدها.

من بلاد أرِبِ لمقاتلة الأشوريين بمعركة قرقر[١٦]. وانطلاقاً من هذا التاريخ وعلى امتداد الألفية الأولى، فقد دون علم الأسماء ١٤٦ أسما مصدرها العرب الأوائل، الأمر الذي يدل على تسرب هام مسترسل إلى بلاد الرافدين. لكن يبدو أن تسعة أسماء فحسب يمكن تصنيفها بلغة العرب الأوائل، بمقتضى أضمن معيار، نعني المعيار الصوتي[١٧]. انفردت المصادر العربية للرواية التاريخية بنقل أسماء للإلهة، منها أوال وازر[١٨]، وقد وجدت تلك الأسماء بين الأسماء الأمورية في بابل بالنسبة لعصر النصف الأول من الألفية الثانية. ويوجد أيضاً إسم مناة الذي يرجع إلى منطقة حرّان. وقد وصف أشخاص عديدون بأنهم: «عـ ـ ر ـ ب ـ ا ـ ا» أو عـ ـ ر ـ ب ـ ي ـ و»، دون أن يتسموا بأسماء عربية، وذلك يعني من بين ما يعني أنه وقع استيعابهم وليس ضرورة أنهم كانوا غير عرب من حيث الجنس، لكنهم ينتمون إلى الرحل[١٩]. على أن العبارة في اللغة الأكادية تحيل على مفهوم يخصّ نمط العيش أكثر ممّا تحيل على مفهوم عرقي[٢٠]. فيمكن وصف الأراميين أو أي شعب يقيم بالشمال الغربي الذي سوف يعرف ببلاد الشام، بأنهم «عـ ـ ر ـ ب ـ أ ـ أ» إذا ما وقع تصورهم بمثابة الرحل وهذا يعني أن العرب وحدهم قد تمادوا في حياة الترحل، وأن أولئك الذين تمادوا من بعد على هذا النمط من الحياة قد تعربوا. هذا وحتى في الزمن الغابر وجدت عرقية عربية حددتها الأداة اللغوية، ووقع على سبيل التيسير أو تجاوزاً توطينها بمنطقة الجنوب الغربي السامي

---

(١٦) راجع A. Grohmann و W. Caskel مادة «عرب» في دائرة المعارف الإسلامية ط ٢،
Ran Zadok, "Arabians in Mespotamia during the late-Assyrian.
Z.D.M. Chaldean, Achaemanian and Hellenistic periods...1981, . ص ٥٧

(١٧) نفس المرجع، ص ٨١. على أن مؤلف هذا البحث لم يعتبر عربية صرفاً سوى الأسماء التي مصدرها «الجنوب الغربي السامي».

(١٨) نفس المرجع، ص ٥٠.

(١٩) نفس المرجع، ص ٨٠ حيث نجده يؤيد الراي المعاكس.

(٢٠) Ran Zadok بحث مذكور ص ٤٤. وهو يعتمد عدة مؤلفين منهم Montgomery و Eph'al وغيرهما، وكلهم جادون في إنكار كل صبغة عرقية وبالتالي كل استمرار تاريخي على مفهوم «عرب».

وذلك نظراً لهيمنة الآرامية على الشمال الغربي[٢١].

ان المطابقة بين المفهوم «عربي» والترحل بقيت حية حتى اليوم. هناك نقوش سبئة[٢٢] تعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد، تحدثت عن وجود «عرب» بصفتهم رحلاً. وهناك كتابات متأخرة أقوى دلالة، وهي تقسم القبائل اليمنية إلى «أحمور» و«عرب» استناداً إلى نمط العيش قطعاً. ويجب أن يلاحظ بخصوص القرآن أنه لا يستعمل أبداً الإسم الموصوف عرب، وبذا فهو لا يسمي العرب في مجموعهم أبداً مستعملاً إسماً مشتقاً هو أعراب للدلالة على البدو[٢٣]، ومستخدماً صفة عربي نعتاً لغوياً فحسب. إن استخدام كلمة عرب من قبل المصادر التي تلت ظهور القرآن واعتمدت أحاديث الرسول وأقوال الخلفاء الراشدين لا سيما عمر[٢٤]، تنطبق دون ريب على قبائل الرحل، لا على كل العرب بصفتهم مجموعة عرقية، مع أن الشعور بالانتماء العرقي أو بالهوية الثقافية كان شديداً قبيل ظهور الإسلام، ولعل ذلك كان أشد عند الرحل منه عند سكان المدن، كما بين ذلك فون غرونوبوم (Von Grunebaum)[٢٥]. وبعد مرور وقت طويل، وتجاوزا القرون الثلاثة الأولى حيث تطابقت العروبة مع المدن والدولة والأمبراطورية والدين، ندرك أن هناك عوداً واضحاً إلى التطابق بين عرب ـ ولا حتى أعراب ـ وبين

---

(٢١) نفس المرجع، ص ٥٤. لكن أسماء العرب الأوائل في الشمال (ص ٧٦ ـ ٧٩) كانت موجودة كثيراً، كأهالي ثمود وتيماء. وقد فحص Nöldeke الأسماء النبطية مشدداً القول على أنهم «عرب خلص» رغم أنهم كانوا يتكلمون بسهولة الآرامية: بحث «النبطيين» «دائرة المعارف» ج ١.

(٢٢) A. Grohmann و W. Caskel، مادة «عرب»، دائرة المعارف ط ٢، عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية**، ص ١٨، خالد العسلي، «العرب في النقوش القديمة»، **مجلة العرب**، مجلد ٥، ١٩٧١، ص ٤١٠ وما بعدها.

(٢٣) قرآن، «سورة الحجرات» ١٤، «سورة التوبة» ٩٧ و ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠١. ليس الحكم سلبياً دوما لكن المقابلة المتجاورة بين كلمتي اعراب وأهل المدينة، (١٠١)، ملفتة للنظر. أما الوصف اللغوي فيظهر في كلمة معروفة هي «قرآن عربي» سورة طه، ١١٣.

(٢٤) الطبري ج ٥، ص ٤١، البلاذري، الفتوح ص ٢٧٥. إلا أن الدوري يذكر كلمة عرب وردت مرتين بمعنى مجموع العرب: مرجع مذكور، ص ١٩.

(٢٥) Grune-Baum، بحث مذكور، ص ٦.

الـترحل، كـما هو الشـأن في مقدمـة ابن خلدون[٢٦]. كانت اللغـة المغربيـة التي سبقت فترة الاستعمار تقابل بين عربي وبلدي، علماً أن عربي يدل على المترحل أي ذاك الذي يتمثله الذهن رجلاً من الريف أي غير المدينة فيقابـل به رجـل المدن. فباستثناء عصر الفتح والأمصار، هل كانت المدينة طيلة ما يزيـد على ألفي سنـة، على طرفي نقيض مع العروبة؟ ثم لِمَ هذه المـداومة بـالخصوص عـلى المطابقـة بين مفهوم يبدو عرقياً لغوياً نعني عرب، ونمط عيش الترحل؟

الهوية العربية والترحل والمدينة:

لقد عاش العالم الشرقي أكثر من كل فضاء آخر، جدلية قوية بين التحضير والترحل. كان التحضير ذاته منسوباً إلى المدينة الواحة ولنموذجها الموجود في بلاد الـرافدين. والمحتمـل أن المدينـة في التمثل كـما في اللغة، كـانت تحتل الصـدارة بالنظر للقرية، وهو ما يفسر غموض لفظة قرية، وسنعـود إلى توضيـح ذلك. ان بلاد الرافدين المركز الممتاز، ومقر التحضير للمدن والممالك، كانت تعارض بشدة عالم الحواشي الصحراوية، عالم الرحل المختلطين بصورة مبهمـة، وكانت تخضـع باستمرار لضغط ذلك العالم الذي كانت تدركه من حيث اشتداد تميزه عنها، نعني الترحل، دون تمييز عرقي أو لغوي. كان الأشـوريون والبـابليون يمنحـون تسمية «عـ ـ ر ـ ب ـ ا ـ ا» لكـافة العنـاصر المحيطة بهم والـذين يتكلمون لغـة سـاميـة غربية، مع العلم أن المحدثين يرون أن «العربية الخالصة» أو عربية الأوائل كانت تتميـز عن لغات الشـمال الغربي الأخـرى، كالأراميـة. لكن لمـاذا هـذه التسميـة بالذات دون غيرها؟ من المحتمل أن كافة الساميين غرباً مثلوا في وقت ما، أي في الألفية الثالثـة، مجموعـة واحدة من الشعـوب وربما شعبـاً واحداً، وحـدته في آن اللغة ونمط العيش وقد أدرك في نـزاعة مـع عالم بـلاد الرافـدين أن الترحـل يحدد هويته أساساً. وبالفعل، كانت هذه المجموعة البشرية تسمى «عـ ـ ر ـ بـ أـ أ»أو

---

(٢٦) التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦١، ج ١ ـ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

«عـ ـ ر ـ ب ـ ي ـ و» كـما جاء في الـرواية الأكـادية . وكـانت تسمي هي نفسهـا بـاسم مقارب انـطلاقاً من ذات الجـذر (ع ر ب) . ولعل الاسم المـولد (ع ب ر) Eber، وIbrim (عـبريم) يكون يعني انقـلابـاً حـرفيـاً ، من ع ر ب إلى ع ب ر، وهو تعليل أكثر دقة من ذلك الذي يلجأ إلى عبور ميثـولوجي لنهـر الفرات، ومنـه اشتق جذر (ع ب ر) الذي يعني شق وقـطع . أما تسميتهم بـ «سـاميي الغرب»، فلم يعد أبداً سوى اتفاق وضعه العلم الأوروبي في القرن التـاسع عشر، انـطلاقاً من المصطلحات الواردة بالتوراة، واستشهاداً بالزاد اللغـوي المشترك . أن مفهـوم (ع ر ب) أكـثر استحسانـاً، وهو يشعـر بواقـع لغـوي وواقـع يـرتبط بنمط عيش الترحل . على أن هذا المفهـوم يستبعد «سـاميي الشرق» الذين يحيلون إلى مـرحلة سابقة مشتركة ـ على فرض إنها وجـدت أبداً، والـذين ينفصلون إنفصالاً عميقـاً عن الآخرين بسبب التحضير في شكله القروي والمدني . لقـد شكلت صيغة ، (ع ر ب) و (ع ـ ر ـ ب ـ أ ـ أ) و (عرب) الشكل الأول الذي اتخذه العـرب الأوائل ، وجذع الشعوب المعروفة بأنها سامية غربية ، وهي تشترك في نمط العيش واللغة وربما الدين . وقد انحدر عنهم بعد ذلك العبرانيون والفينيقيون والأراميون والعرب ذاتهم الخ . . . بواسطة التمييـز التدريجي وعن طـريق الهجرات . أن الموطن الأصلي نفسه الذي يقع في الجنوب الشرقي من الشام أو بين الشام وبلاد الرافدين ، لابد أنه عاش تطوراً لغوياً ، وتفريعاً بين عربية الأوائل وبين الأرامية ، وهـذا مثال متـأخر . لكن هـذا التطور لم يكن لـه من الوضـوح بحيث يدركـه الأشوريون والبابليون الذين تهادوا في التعرف عليهم بواسطة نمط عيشهم . حتى أنهم فسحوا هذا المفهوم لكل بدوي حتى لو كان نسبه الجغرافي بعيداً . لكننا رأينا أنه كان يوجد في البداية مجموعة لغوية أيضاً . لقد وضع المحدثون مميز « العربي الخالص » باسماء الإعلام ، بمعنى من الجنوب الغربي ، أي يمني ومن المحتمل جداً أن عربية الأوائل الحديثة التي انحدرت منها لغتنا العربية ، قد تميزت في وقت متأخر عن الجذع المشترك ، كما أنه ، يحتمل أن يكون العرب الأوائل من آخـر مرحلة للتطور أو من جاء بعدهم ، قد حافظوا على تسمية المجموعة كافة لأنهم تمادوا في الترحل .

أما في الموطن الأصلي، فقد بقي مفهوم عرب هو أيضاً ينطبق على البدو، وعلى كافة الجماعات اللغوية بدون تمييز. وعلى هذا تسمى العرب الأوائل لغوياً، وقد فقدوا صفتهم البدوية ظاهراً، مثل الثموديين والنبطيين، لا عرباً بل بأسماء محدودة نوعية[٢٧]. لقد برزت الهوية العربية القائمة على اللغة ضمن الفضاء الشامي، قبيل ظهور التاريخ الميلادي وتأكدت خلال القرون الثلاثة الموالية. والظاهرة المفارقة أنّ هذا البروز ارتبط بالمدن، والإمارات والدول التابعة للثموديين[٢٨] واللحيانيين قرب العَلاء والحِجر، ودول النبطيين قرب الحجر وبصرى وسلخد والبتراء بالخصوص. والنبطيون هم الذين ضبطوا اللغة بواسطة الكتابة.

إن المطابقة بين مفهوم عرب وترحل لا يفسر فقط بوجود صلة في الواقع، بل بواقع وتمثل تاريخيين يعودان بعيداً جداً إلى الماضي. وقد تأيدت هذه المخلفات بكون أكثرية العرب المتميزين لغوياً سواء كان ذلك في شبه الجزيرة أو بجنوب الشام، تمادوا في توخي نمط عيش الترحل. ولا شك أنهم استوعبوا كل أولئك الذين كانوا رحلاً مثلهم من بين الاعراق الأخرى، فكان كل مترحل يتعرب لغوياً وينضم إلى الإطار القبلي. وبقيت القبيلة ونمط العيش الرعوي يحتلان الأولوية بالنسبة للمدينة. وكانا يصوغان بشدة الذهنيات والقيم، وكانت المدينة تظهر في نظر العرب بمثابة الظاهرة المكتسبة الاستثنائية. وهي تُفقد الشخص عروبته إذ تخلصه من بداوته. وهي تصنف المجموعة المدينية في إطار النماذج الخارجية، وتغير من الذهنيات، لكن القيم قليلاً ما تتغير عموماً الا ببطء، وتبقى

(٢٧) دائرة المعارف ط ١، مادة «نبطيون» و «ثمود»، مادة «العربية» في دائرة المعارف ط ٢. الواقع أن التاريخ الحديث المدون هو الذي يسميهم كذلك، عملاً بالكتابات الأكادية والكلاسيكية والقرآنية. راجع «Bilan des études Mohamediennes» بقلم M Rodinson، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢٨) نفس المرجع ص ١٨٦ ـ ١٨٧، W Caskel في «The Bedninization of Arabian, **Studies in Islamia cultural History»** ورد ذكر مدينة الحجر في القرآن صراحة (سورة الحجر ٨٠).

اللغة بطول الوقت، ينتابها بعض التغييم. وهذا من شأنه أن يفسر الثنائية البارزة باليمن .بين« احمور » و «عرب»، وتواجدهما لا محالة ضمن وحدة قبلية فريدة،هذا في صورة ما إذا لم نقبل بالفارق العرقي الأصلي. وهو أيضاً ما يوضح التعارض بين قريش من جهة ومجموع القبائل أو العرب[29] أو بين المهاجرين والانصار والاعراب. تجري الأمور وكأن المدينة تفرز هوية جديدة، هوية ثمودية وهوية الانباط، وهوية اليمن بأنواعه، وهوية قريش كما هوية «أهل القرى»، وبعد ذلك هوية أهل الكوفة وأهل البصرة. لكن هذه الهوية الجديدة تندمج في هوية أوسع هي هوية اللغة والدين والقيم. وهي تزيد اتضاحاً كلما اقتربنا من ظهور الإسلام. ومن المتناقضات أنها هوية في آن شديدة القوة، وهي من أقوى الهويات التي ظهرت في التاريخ. وكثيرة الضعف، سريعة التفتت. وهو أمر يعود إلى أن الواقع الموضوعي لهذه الهوية العربية الواضحة المتأكدة العنيدة لا يجد صدى في شعور مؤكّد بالذات. إن الترحل نمط عيش خصوصيته مفرطة بالنظر للنموذج القروي المديني للحضارات المستقرة المهيمنة على صعيد التاريخ. وهو ذاته مبدأ ثقافي بالمعنى الأنثروبولوجي خاضع مكيف بالطبيعة وغير خاضع للعالم التاريخي، وهو ما يفسر مقاومته وهامشيته الأساسيتين.

لقد صنعت المدن الظاهرة التاريخية عند العرب مهما كانت هذه المدن منسابة قليلة العدد في خضم عالم البدو. أما الزاد الثقافي، فمصدره المادة البدوية، وهو في آن مقبول ومرفوض، ممجد وممقوت.

التلاحم بين المدن والقبائل :

يتعارض هذا التصور بشدة مع تصور الحضارات المستقرة، حيث يتبين أيضاً في هذا المقام أن المدن تستمد مادتها البشرية من معشر الفلاحين ولا تقتبس

---

(٢٩) راجع مثلاً الجاحظ «كتاب البلدان»، ص ٤٦٦، حيث نجد قريشاً من جهة والعرب جميعاً من جهة أخرى في موازاة أو تعارض.

منهم قيمها الثقافية الواعية. تحتفظ المدن باحتكار المجال الثقافي في حين أن بقاء القبيلة أساسي في عالم البدو. ولكن القبيلة تتميز كوحدة ممتلكة لكيان ذاتي، الأمر الذي يفسر عدوانيتها الثقافية. فهي تعمل وكأنها كائن سياسي قائم لا محالة على مبدأ آخر غير مبدأ الدولة. وتفرز في ذاتها قاعدة للسلطة، وفكرة السلالة في البيت، وتمييزاً اجتماعياً بين الأشراف والضعفاء. في القبيلة هناك كهان، وأسياد[٣٠]، وحكام النزاعات، وخطباء وشعراء، ونواة للفروسية، وأخيراً حماية كافة أفراد القبيلة من الاغتيال بواسطة مؤسسة الأخذ بالثأر. أما بنية القبيلة من الداخل فهي عبارة عن مجتمع سياسي يعني منظم. وهي مهيكلة أيضاً تجاه الخارج بقدر ما تسير كوحدة متجانسة، لا سيما في الحرب. لعلّ هذا ما يفسر أن بلاد العرب ـ باستثناء حالة إليمن القديم خاصة ـ لم تقدر أو لم ترد أن تتحد بصورة عفوية تحت راية مبدأ الدولة، حيث كانت تتركب من أجهزة سياسية تكيفت بواقع البيئة . وعبثاً جدت محاولات بوسط بلاد العرب لبسط النظام الملكي. وقد وجب أن يظهر الحدث الإسلامي كظاهرة استثنائية لترتفع بلاد العرب إلى الحياة التاريخية لكن بصورة جعلت المغامرة تتجاوز سريعاً جداً إطارها ومصيرها. مع العلم أن الإسلام نتاج الحياة المدينية. وهذا دليل على أن المدينة وحدهاوربمانوعاً واحداً من المدينة، كفيل بتصور المصير السياسي الذي يتجاوز آفاق القبيلة. لكن بمساعدة الحدث الديني وبفضل التلاحم الذي كان قائماً عند ظهور الإسلام بين المدينة والقبيلة، أي عالم الحضر وعالم الترحل أو ما شابهه.

لقد كان هذا التلاحم موجوداً منذ البداية، لكنه تأكد بواسطة التجارة والدين. لا يحدونا الشعور اطلاقاً أن قبيلة الرحل كانت العدو اللدود للمدينة، عند متابعة سير كافة تاريخ العرب في بلاد العرب وخارجها. في البتراء والرها وحمص، حيث تولي العرب أمر مدينة ما، لم يسلكوا سلوك المدمرين بل كانوا منظمين وحاكمين مشيدين، دون قطع العلة فيما يبدو، بالعالم الخلفي لصحراء

(٣٠) **Lammens, L'Arabie Occidentale avant l'hégire,** p. 106 suiv.

الرعاة والمقاتلين. كانت البتراء وتدمر ومدن العرب الأوائل في الشمال تظهر بمظهر معلمي. لمدن حقيقية. وكانت فيها يبدو تعيش عيشة الموانىء المخصصة للقوافل، دون أن تعدل عن الخيار الرعوي[٣١]. ولم يقض على هذه المدن هجوم ما حق قدم من عالم الرحل، بل بسبب نوائب البيئة. وكذلك الأمر عند طبع اليمن بالطابع البدوي[٣٢]. فلم يكن ذلك سبباً في انهيار اليمن بصورة واضحة على الأقل، بل كان السبب في اضطراب السلطة فعلاً، والتحولات الطارئة على المسالك التجارية وانهيار نسق السدود، والغزوات الأجنبية، غزو الحبشة ثم الفرس. بل خلافاً لذلك الشعور أنه جد تعايش انتهى إلى ما يكاد يكون صهراً بين الأحمور والعرب لكن مع الحفاظ على الثنائية القديمة ولنذكر في هذا الصدد وضع همْدَان فهو بليغ[٣٣].

لقد سبق أن نظرنا في وضع الحيرة وفي النسق المتوازن الذي نجحت في إقامته، وفي هذا المقام أيضاً لم تفقد الحيرة دورها بسبب البدو، بل بسبب قرار اتخذه الملك الساساني.

وها نحن وصلنا الآن إلى البحث في وضع مدن الحجاز، مكة والطائف ويثرب. هنا وفي مكة بالخصوص، بلغ التلاحم مستوى ممتازاً. لقد تميز القريشيون من جهة عن البدو المجاورين لهم من حيث الذهنية ونجحوا في كسب هوية خاصة وضعتهم إلى جانب الآخرين أو فوقهم. لكنهم أنشأوا من جهة

---

(٣١) دائرة المعارف ط ١، «مادة ابباط» (Nabatéens); M. Rodinson، «Bilan des études mohamédiennes», **Revue Historique**، مجلد ٢٢٩، جزء ٤٦٥، يناير مارس - ١٩٦٣، ص ١٩٠.

(٣٢) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص ٣٧، الحديثي، مرجع مذكور، ص ٨٧ وما بعدها، J. Chelhod, problèmes d'authropologie culturelle sud-arabe in **L'Arabie du Sud**، ج ١، ص ٣٧.

(٣٣) ابن سعد، **الطبقات** ج ٦، ص ٢٤٦، الرازي مرجع مذكور ص ٣٤ - ٣٧، الحديثي، مرجع مذكور، ص ٦٨ - ٧٠ - ٨٩، هشام جعيط (Les Yamanites a Kufa au 1er siècle de l'hégire, p. 24.

أخرى شبكة من الاحلاف مع القبائل، وهي عبارة عن جملة من المصالح التجارية المتبادلة، تأسست بموجب الايلاف[٣٤]، كما أنشأوا روابط دينية بفضل منطقة مؤسسة الحرم[٣٥]، بحيث أنهم كانوا يظهرون بمظهر المسكين بزعامة حقة على الأقل في مستوى غربي بلاد العرب. ومن الجائز فتح النقاش في طبيعة هذه الزعامة وامتدادها في الفضاء. تبرر التجارة والدين هذه الزعامة لكن كل شيء مرتبط هنا بتقييمنا لما بلغته التجارة والديانة من قوة. لم توفق قريش في أن تحشد ضد الرسول سوى القبائل المتحالفة والمنتسبة إلى منطقتها ـ كنانة وأهل تهامة وغطفان أيضاً[٣٦] لكن الحقيقة أن اشعاعها امتد على بلاد العرب كافة، وكان كافياً بالقدر الذي جعل إسلامها واعتناقها الإسلام ان يجر جانباً كبيراً من شبه الجزيرة إلى الدخول في الدين الإسلامي. كل هذه الأمور تعني أن مكة ومحيطها من الرحل سواء كان كبيراً أو صغيراً، كانا يعيشان ضمن بنية من المبادلات والتشارك وتقديس هذا المحيط لذاك الدين.

كانت مكة قطعاً في حمى من كل عدوان عربي بفضل وجود الحرم. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للطائف ويثرب. إن هاتين المدينتين أي الطائف جنوباً ووجهتها اليمن[٣٧] ويثرب شمالاً ووجهتها مدن العرب الأوائل الغابرة، تيماء، ودومة والحجر بعد ذلك والتي كانت تجاور سلسلة تجمعات وادي القرى، لم يكن

(٣٤) M. F. Kister,«Mecca and Tamim», **JESHO**, 8 (1965) pp. 118 - 121

(٣٥) R. B Serjeant, «Harem and Hawtah», **Mélanges Taha Hussein,** p. 50 suiv.; M F. Kister, «Some reports concerning Mecca from Jahiliaya to Islam», JESHO, XV, 1972. pp. 66-67; H. M. T. Nagel, «some considérations concerning the preislamic and the islamic foundations of the authority of the caliphate», in **studies on the First century of islamic society,** 1982, pp. 177 - 180, 187 - 188 لقد عاد F. Donner إلى هذه الآراء وأخطأ بخصوص مفهوم «المنصب» حيث أسقطه على بلاد العرب في العصر الجاهلي: مرجع مذكور، ص ١٥ ـ ٣٤ ـ ٣٧.

(٣٦) ابن اسحاق، السيرة، ص ٦٧٠ ـ ٦٧٣، **Mohamet à Médine** ،W. M. Watt ص ٥٢.

(٣٧) لعل الدمون وهو يمني من حضرموت، هو الذي بنى السور: البلاذري، الفتوح ص ٦٧، ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ص ٩، Lammens، **Taif** ص ٢٠٦، وموجود كذلك في دائرة المعارف ط ١ مادة «الطائف».

لهما من الحصانة ما كان لمكة. لكن المصادر لا تشير الا نادراً بخصوصهما، إلى غزو البدو لهما باصرار منظم. على أن إغراء الغزو كان موجوداً ونوعاً من الضغط يسلطه عالم الرحل على هاتين المدينتين، فكان على الطائف أن تبني سوراً احتماء من هجمات الرحل المجاورين[٣٨]. وتدرعت يثرب والواحات المجاورة بالأطم[٣٩]. وقد كانت رغبة غطفان في الإغارة على المدينة هي التي دفعتها إلى الانضمام إلى قريش ضد الرسول خلال غزوة الخندق[٤٠]. الا أن عدوانيتها كانت رخوة بالفعل. الواقع أن التلاحمات من كل القبائل التي جدت في الطائف كما في يثرب، كانت أقوى من النزاعات. فكما كان الأمر بين قريش وكنانة، بدت ثقيف منتمية إلى تجمع الرحل الكبير الذي قادته هوازن والذي أمدها بحماية حربية[٤١]، مع الرضاء بهيبتها الحضارية. لم يكن في هذا المجال أو في غيره خضوع رضخت بموجبه للقوة المقاتلة ضمن علاقة خنوع وحماية، كما سيجد ذلك في المستقبل بأماكن أخرى، ضمن العلاقات القائمة بين الرحل والحضر.

وهكذا كانت المدينة قادرة على الدفاع عن نفسها فعلاً. إذ كانت تختزن العدوانية القبلية، وكانت تحتفظ لحدئذ بالفضائل القتالية، متفوقة على الآخرين بفضل دبلوماسيتها واشعاعها الاقتصادي فكانت تسحر الألباب بقدرتها على التنظيم. أما القبيلة، فلم توفق أبداً في مواصلة الجهد الحربي الطويل النفس. فكانت عدوانيتها تتجه بالأحرى إلى قبائل أخرى الأمر الذي نتج عنه التلاحم بالمدينة التي تَفصلها عنها مسافة الاحترام. إنه احترام يعود دون شك إلى زمن بعيد، إلى التقليد الموروث عن تاريخ الشرق كافة، الذي فرض المدينة كمركز للسلطة والقدسية والحضارة من بابل إلى اليمن. وهو الذي كان يغذي عند

---

(٣٨) ياقوت، المعجم ج ٤، ص ١١.

(٣٩) المرجع نفسه ج ٥، ص ٨٢ ـ ٨٨، السمهودي، وفاء، ج١، ص ١٩٠. Lammens مرجع مذكور، ص ١٨٤.

(٤٠) ابن اسحاق، السيرة، ص ٦٧٣.

(٤١) كما جد بحنين، ابن اسحاق، السيرة، ص ٨٤١ ـ ٨٤٢.

القبائل شعوراً بالنقص ومطلب التلاحم بالرغم من قوتها الحربية. حتى ولو أن يثرب لم يمكنها الادعاء بأية هيبة ناتجة عن التجارة والدين، فقد كانت تساندها قدرتها على المبادلات المغذية بفضل زراعتها، وعلى هذا فقد كانت تؤكد هي أيضاً ضرورة وجودها تجاه عالم الرحل المحيط بها. فنجم عن ذلك ارتباط عدة جموع بها، كجهينة ومزينة بصلات الحلف الشاملة أو الشخصية[٤٢]. ولذا سوف ينتقل التلاحم في بداية ظهور الإسلام كما انتقلت الصلة المتمازة بين قريش وكنانة. وسوف تبرز عند قيام الخطط الأولى بالكوفة والبصرة (أهل العالية)[٤٣]. وللروح التعاقدية من عميق الرسوخ في حياة الحجاز في العصر الجاهلي وربما في بلاد العرب كلها، ما جعلها تفرض وجودها حتى على الفارق الديني والعرقي، كما تشهد بذلك عرى الولاء شديدة المفعول، التي كانت تربط اليهود بالأنصار[٤٤].

الحقيقة أن الحجاز كان بعيداً عن مناطق القبائل الكبرى الراعية للابل في وسط بلاد العرب وشرقها، مثل تميم وأسد وطي وبكر. أمّا القبائل الشديدة المراس بالحرب المقيمة في الشام ـ جذام وبلي وكلب فكانت تعيش تابعة للغساسنة أو للدولة البيزنطية، وكانت متجذرة في عالم آخر. على أن تميماً كانت تشرف على شعائر الحج[٤٥] فكانت مسؤولة عن حماية الأسواق حول مكة وبالحرم نفسه،

---

(٤٢) ابن اسحاق، السيرة، ص ٤٣٤: ٤٨٥ ـ ٥٦٠ ـ ٦٠٩ ـ ٦١٠ ـ ٧٧٥. اتحدت جهينة مع الخزرج في معركة بعاث، واتحدث مزينة مع الأوس كما قال M. Watt **Mohamet à Médine**، ص ١٠٦. ووضع الانصار ومزينة بالكوفة في نفس الخطة: الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

(٤٣) كانت كنانة والأحابيش تشكلان مع جديلة قيس سبعاً ضمن الأسباع الأولى بالكوفة وقد انضم إلى ذلك عناصر من قريش دون شك: الطبري، ج ٤، ص ٨٤. ويوجد في البصرة بخمس أهل العالية، مزينة وثقيف وخزاعة وقريش الخ... صالح العلي، التنظيمات، ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٤٤) كانت قينقاع حلفاء، للخزرج وقريظة موالي الأوس: السيرة، ص ٦٨٨. لقد تدخل عبدالله ابن أبي لقائده قينقاع في حين الخزرج استاؤوا لتقتيل بني قريظة، فحاولوا كل سبيل لانقاذهم، وهي معروفة لأبي لبابة السيرة ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧.

(٤٥) Kister «Tamim» Mecca and، ص ١٤٦ وما بعدها، ص ١٥٣.

ولعلها انتسبت إلى الحمس(٤٦) عن طريق بعض عشائرها. وبما أن كلباً كانت متحالفة مع تميم، فقد انضمت إلى سلسلة التحالفات القرشية الخاصة بالتجارة الكبرى(٤٧) ويبدو جيداً أن خثعما وطيا وحدهما لم تعترفا بقدسية الحرم في شبه الجزيرة، باستثناء اليمن الذي بقي عالماً منفرداً(٤٨). وهكذا كانت علائق التبادل والتحالف والحماية بين قريش وعالم الرحل، تمتد إلى ما وراء الحجاز ذاته. لم تكن العلائق القائمة بين المدن والقبائل علائق قوة ولا حتى هيمنة، بالمعنى الواسع. لكن فيما يخص الحيرة ربما كان لقبائل الرحل شعور بالسيطرة كما يرى (Kister) (٤٩). لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمكة حيث يمكن في رأيي الحديث عن نفوذ أدبي على أقصى تقدير. لكن هذا النفوذ الأدبي عرف كيف يستند إلى قدرة عسكرية قابلة للحشد. وعند قدوم وقت القتال ـ وهو أمر استجد بالنسبة لشبه الجزيرة تأييداً للرسول أو ضده في البداية، ثم لفرض نظام الدولة على بلاد العرب كلها، فإن العنف المنظم كان مصدره المدن، لا كافراز عفوي، بل بمفعول إرادة علوية. لقد استندت القوة الضاربة للرسول نفسه إلى التلاحم القائم بين العالم القبلي والنواة الحضرية(٥٠)، وكما وقع في الماضي القريب زمن التلاحم بخصوص الحيرة والغساسنة. وهكذا تحافظ المدينة على قدرتها التنظيمية المحركة لمادة الرحل وتؤسس هذه القدرة على الوحدة الواقعية كما الكامنة لعالم بلاد العرب، إنها وحدة موضوعية قامت على اللغة والقيم والدين ـ دين

---

(٤٦) المرجع نفسه ص ١٤١، اعتمد المحبر لابن حبيب. إلا أننا لا نجد في أي مرجع آخر، لا في السيرة ص ١٢٧ ـ ولا عند ابن سعد، الطبقات ج ١، ص ٧٢، ولا في كتاب البلدان للجاحظ، أو تحقيق العلي ص ٤٦٧، ذكراً لعشائر تميم في أهل الحمس.

(٤٧) Kister, «Mecca and Tamim»، ص ١٢٨.

(٤٨) الجاحظ، كتاب الحيوان ج ٧، ص ٢١٦ ـ ٢١٨. وقد أضاف عشائر قضاعة.

(٤٩) Kister, «Mecca and Tamim» ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٥٠) رأي عبر عنه بوضوح ابن اسحاق في وصفه لجيش الرسول في واقعة الحديبية: «المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب»: السيرة ص ٧٤٠، **Mahamet à Médine** M. Watt، ص ١٠٢ ـ ١٠٣. إن القبائل التي التحقت حقاً بصف الرسول قبل مد الرحل الكبير، كانت جهينة ومزينة وغفاراً وأسلم وخزاعة.

العرب[٥١]. وهي الوحدة التي وقع الإصرار على التكتل بها ولو بصورة غير كاملة، غَيْر التلاحم القائم بين المدن والقبائل.

إنّما لا يجب أن ينسينا هذا التلاحم الانفصام الأساسي لنمط العيش، حيث ان المدينة تظهر في آن كمكسب للإنسان، وكناقل للعالم الخارجي التاريخي. والأمر الجديد أن هذا الانفصال كان الشعور به في الماضي البعيد بمثابة التعارض الذي لا يمكن التغلب عليه، وأنه وقع التخفيف منه خلال فترة ما قبل ظهور الإسلام مباشرة، بفضل المدن الجديدة بالحجاز. وهذه ظاهرة هامة جديرة بالعناية. لقد برزت هذه المدن من الداخل. وهي ترجمة عن عالم بلاد العرب الداخلي. وذلك خلافاً لمدن العرب الأوائل في الخارج، وللمدينة الحدودية الخاضعة للأجنبي مثل الحيرة، وخلافاً أيضاً لمدن اليمن القديمة - شبوة وتمنع ومأرب وظفار وحتى نجران[٥٢] - التي تلقحت بلقاح حضارة أخرى مغايرة تماماً، والتي عرفت كيف تسمو بتميزها تجاه العرب البدو. لكن يحتمل أن وضع صنعاء لم يكن على ذلك النحو، وهي مدينة أخرى جديدة في اليمن الذي تم تعريبه منذئذ أو كان بصدد التعريب العميق، والذي تأكد دورها بقدوم الأحباش والفرس خاصة[٥٣]، وقد كانت موطناً لهمدان.

مفهوم واقع المدينة في بلاد العرب

حتى ولو قبلنا بتعايش المدينة مع شكل معين من الترحل، في المدن النبطية

---

(٥١) Kister في «Some reports concerning Mecca»، **Studies**، ص ٦٥، Von Grunebaum، فصل مذكور، ص ١٥.

(٥٢) المسعودي، مروج الذهب ج ٢، ص ٢١١، ابن رسته، الاعلاق، ص ١١٣، السيرة، ص ٢٣ Strothmann «San'a» دائرة المعارف، ط ١، الحديثي مرجع مذكور، ص ٤٦ - ٧٣ - ٧٤، M Rodinson (ص ٨٠ - ١٨١)، «Bilan des études Mohammediennes»، في **Rev. Hist.** L'Article du Sud، ج ١، ص ٥٩ وما بعدها و «L'Arabie du Sud chez les auteurs classiques»

(٥٣) الرازي، مرجع مذكور، ص ٥٣٧، السيرة، ص ٤٥.

والثمودية، فإن مفهوم المدينة يفرض مسبقاً التحضير. لكن التحضير في حد ذاته لا يفرز تلقائياً المدينة، مع أن الإقامة والإستقرار ضمن سياق بلاد العرب المترحلة، خارج اليمن، ينزع إلى التحول إلى تجمع مديني أو شبه مديني. ولذا، فالقول بأن التحضير في بلاد العرب خلال العصر الجاهلي كان متفوقاً على الترحل كما فعل Donner[55] وإن الواقع المديني بقي هزيلاً"[54] يعادل التصريح بما هو تناقض كبير، الواقع أنه لا شك قط أن عدد الرحل كان يتجاوز الحضريين، حتى باعتبار اليمن، كما يتبين ذلك من بنية الجيوش العربية الغازية[56]. وبنفس الكينونة يكون وهماً التفكير، انطلاقاً من تجربة الشام مع العرب الأوائل، في أن بلاد العرب كانت متمدّنة أولاً ثم غمرتها بعد قليل موجة «البدونة»[57]. الواقع أنه إذا تمتعت الظاهرة المدينية بأقدمية محترمة في بلاد العرب بأنواعها، لا سيما في القطبين القصيين نعني الشام واليمن، فانها تعود في جملتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، الا أنها ظاهرة ثانوية بالنظر للترحل.

وهو يظهر على كل بمثابة بروز متأخر بالنظر لكبريات حضارات الشرق والبحر المتوسط التي كانت تحد عالمه. هذا وأن الترحل نفسه لا يمكن وصفه بالمقابل المطلق لحياة الاستقرار والمدينة، لأنه استكمل نظامه بمرور الزمان ولأن

---

(٥٤) Donner مرجع مذكور، ص ١١ و ١٦.

(٥٥) نفس المرجع، ص ١٥.

(٥٦) انظر فيما يلي عرضاً للقبائل التي حضرت واقعة القادسية. كانت تتعايش بالشام قضاعه واليمنيون والقيسيون: شعبان، مرجع مذكور، ص ٤٢ وما بعدها. كان اليمنيون في البداية خاصة العرب منهم، كقبائل عك والسكون ومذحج، يفوقون عدداً القيسية الذين كانوا أوائل الفاتحين. ثم جدت في فترة لاحقة هجرة قيسية قوية أدت إلى ظهور توازن في عدد الجماعتين. قيس كان أكثر القواد في صفين في قيس بجيش معاوية: الطبري، ج ٥، ص ١١ - ١٢، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٠٦ - ٢٠٧. وكانت جموع قيس بامرة الضحاك في مرج راهط يعدون ٦٠٠٠٠ رجل، وكانوا قطعاً أكثر عدداً من الجيش المقابل الذي اشتمل على جموع من غسان وكلب والسكون: البلاذري، أنساب الأشراف ج ٥، ص ١٣٦.

(٥٧) ذكر ذلك Rodinson، بحث مذكور، ص ١٩٠، نقلاً عن W. Caskel.

القبائل كانت متموضعة موطنة[٥٨]؟

بعد رفع هذا اللبس يعود بنا السؤال إلى نفس الإشكال دائماً: إلى أي حد كانت مدن بلاد العرب مدناً حقيقية؟ ما هي مقومات تحديد التمدين عند العرب؟ ما هو حضور المدينة ووزنها في الوجود التاريخي العربي؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة يتضمن وجوباً بعدي الفضاء والزمان، أي أن يؤخذ بعين الاعتبار تحديد المواضع كما في مختلف العصور التاريخية. لقد عرف عالم بلاد العرب من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثالث والرابع بعده، عرف تمديناً ممتازاً بقطبيه الشمالي والجنوبي، أي الشام واليمن، تتخللهما بالوسط بلاد العرب الصحراوية. لقد عاش وسط بلاد العرب من القرن الرابع إلى القرن السادس، نمواً شاملاً بالمعنى الواسع، وتهيكل ونظّم قدراته البشرية، وحدد لنفسه لغة وثقافة وهوية وأفرز مدناً خاصة به فيما كانت مدن الشمال والجنوب تندثر أو تترك مكانها لنوع آخر من المدن بحيث جدت انهيارات وكذلك تحولات وتنقلات وانشاءات. كانت هناك في المرحلة الأولى مأرب وصرواح وقرنو (تعرف اليوم بمعين) ونشان (تعرف اليوم بالسوداء) وتمنع وظفار وشبوه جنوباً[٥٩]؛ وتيماء وديدان وبصري والبتراء وتدمر والحجر شمالاً. أما في المرحلة الثانية فهناك مكة والطائف ويثرب[٦٠] والقاو[٦١] والقطيف[٦٢]؛ لكن أيضاً صنعاء[٦٣] ونجران وعدن، وكذلك

---

(٥٨) راجع البكري، المعجم ج ١، بخصوص مواطن القبائل.

(٥٩) C. Robin، بحث مذكور، ص ٢٠٨ - ٢١٢.

(٦٠) تأكد ذكر يثرب في كتابة مسمارية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد (يَثْرِبُ)، لكنها لم تقم بدور تاريخي إلا في نسق المرحلة الثانية...

(٦١) عبد الرحمن الأنصاري، قرية الفاو، الرياض، ١٩٨٢.

(٦٢) في البحرين غير بعيد من الدارين. وهجر: الطبري ج ٣، ص ٣٠٤: ياقوت، معجم البلدان ج ٤، ص ٣٧٨، وفيه ما يدعو إلى التفكير أن القطيف لم تصبح مدينة الا في عصر متأخر لكنها كانت اقليماً أصلاً. ولعلها تقهقرت في الواقع في العصر الإسلامي، بسبب ارتداد قسم من بكر ثم عادت إلى البروز في عصر متأخر جداً. وكانت لها صلات وثيقة بالحيرة.

(٦٣) أنشأ السبئيون صنعاء في القرن الأول ق.م. وكانت عاصمتهم الثانية: راجع C. Robin، بحث مذكور، ص ٢١٢. ولكنها لم تصبح المدينة الهامة باليمن إلا في عصر متأخر، أي في القرن السادس.

الجابية والحيرة. لقد وافق التطور التاريخي، إلى حد بعيد، انتقال مراكز الثقل إلى فضاء مغاير ثقافياً، لكن المناطق الحضارية العربية القديمة كانت تحافظ على حضور ما وهيبة ما. ولا يسع أي انسان أن يقول أن مكة كانت تتفوق على الحيرة أو صنعاء، حين شرع النبي في نشر رسالته، فمن وجهة نظر صرفٌ للحضارة المدينية، كان هناك تفوق واضح للحيرة. على أن مكة تقمصت مبادىء الجدة والقوة التاريخية والروحية، وكانت تساهم في حركية دفينة وتختزن سراً عظمة مصيرها.

إن هذه الفضاءات المختلفة، وهذه الزمنية المتنوعة لا تطمس إطلاقاً الوحدة ولا الاستمرارية. لقد تأثر اليمن بالشام، إذ كانت علائقه التجارية بالشام عميقة مستمرة[٦٤] وقد استمد من العالم الشامي وبلاد ما بين النهرين تصوراته المدينية والحضارية، ولوّنها بعبقريته الخاصة. وكانت القوافل تعبر بلاد العرب على كامل امتدادها، لربط الصلة بأقصى قطبين لها، متجاوزة منطقتها الصحراوية، ومحافظة على معنى تضامنها أو على واقعه بالأحرى. لقد ربّى اليمن نفسه وأدمج في حضارته المدينية كثيراً من العرب الرحل[٦٥] وأعادهم إلى الشام حين بدأت تظهر بوادر التقهقر. وقد اعتمد الغساسنة ومناذرة الحيرة النموذج اليمني الأصلي لتشييد شكل عربي من المدينة ـ الدولة. ويظهر خيط الاستمرار بصورة أكثر دقة في كل ما بثه اليمنيون جنوباً والثموديون والنبطيون واللحيانيون شمالاً، في وسط بلاد العرب، من تصورات ثقافية وعلى رأسها شكل التمدين وفكرته، والحس التجاري وحتى الآلهة[٦٦]، وفي بعض الأحيان بمسافة زمنية تقدر

---

(٦٤) C. Garbini، بحث مذكور، ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٦٥) الأدبيات وفيرة في خصوص هجرات عرب اليمن إلى الشمال. لكن الملاحظ أن ابن حزم جعل مجموع العرب ينحدرون من أجداد ثلاثة، هم عدنان وقحطان وقضاعة، مؤكداً أنه لا توجد صلة بين بلاد قضاعة واليمن: **الجمهرة**، ص ٧ ـ ٨.

(٦٦) يبدو أن عمرو بن لحيّ قام بدور الوسيط في هذا المجال وجلب من الشام الإله هبل وجلب الأصنام من عند عمالقة البلقاء: **السيرة**، ص ٥١.

بالألف سنة. إن وحدة عالم بلاد العرب من حيث الفضاء والزمان، تظهر في ذلك النزوع إلى عدم قبول التيارات الحضارية الا عبر رشح ذوي القربي مهما كانوا بعيدين فضائياً. أما في التقليد التاريخي فإن المرجع ينصب على مجال الدول والمدن والحضارة في قطبي الشام العربي[٦٧] واليمن. وجاء في الحديث أن بعضاً من أبناء سبأ معتبراً كجدّ قد «تشاءموا» وغيرهم قد «تيامنوا»[٦٨]، وبظهور الإسلام، دخل اليمن في الدين بصورة طبيعية. وهكذا يظهر البعد القومي ـ الثقافي للإسلام ظهوراً قوياً. وكذلك الأمر بالنسبة لاستعداد اليمنيين والعرب الدائرين في فلك الشام، أي ورثة الحضارة المدينية، للدخول في المشروع الديني والتاريخي للأقرباء الذين كانوا سابقاً من رحل وسط بلاد العرب، وللتعايش مع أبناء القبائل الكبرى الضاعنة سالفاً والتي أصبحت ممدنة، وذلك في الكوفة والبصرة والشام وهذا دليل على الاستعداد الإستثنائي للوحدة في كافة عالم بلاد العرب عند ظهور الإسلام، حيث نضج هذا التأهل خلال ألف سنة من التاريخ. لكن ذلك يعني على صعيد التجربة المدينية، أن العرب أصبحوا يتبادلون التدّرب بحيث يمكن الحديث بالنسبة لهذه الألفية، عن تجربة عربية للمدينة، بالرغم من التجزيئات الفضائية والزمنية. إن التدفقات الحضارية الخارجية وقع استيعابها في الشام، ثم انتقلت إلى اليمن، ومن اليمن إلى الشام رجوعاً، ومنهما معاً إلى الحجاز. لكن وفضلاً عن ذلك، وبالرغم من هذا التضامن الذي التحمت به المناطق المختلفة لبلاد العرب، فإنه يمكن ويجب الحديث عن تجارب نوعية، لأن المدينة تعبير عن التربة، وعن تقليد خفي، وعن أرث ثقافي أقليمي محلي وهي الصورة المحلّية للرؤية الكوسمية والتجربة التاريخية والسياسية والاجتماعية. إن العلاقة بالخارج لا تمر عبر رشح الثقافة الشقيقة فحسب، لكن أيضاً بواسطة الاقتباس المباشر، كما هي حال اليمن في علاقته

---

(٦٧) وهو ليس الشام المركزي بل الحواشي الصحراوية.
(٦٨) الرازي، مرجع مذكور، ص ٤٩٩.

بالهيلنية .وما يكون في المقام الأخير ليس دائماً تراكماً لماض طويل، لوجود جانب كبير من الحذف والخلق والتكيف بالواقع الفضائي والزمني. وفي الجملة، فإذا لا يمكن تصور مكة بدون هذا الماضي فهي ليست تتويجاً أو تراكماً. لقد تطورت مدن الحجاز ارتباطاً بالانهيار اليمني، وارتباطاً بالموت البطيء أو العنيف الذي نزل على المدن العربية القوافلية بحواشي الشام، وكان لها أن تقتبس الكثير من هنا وهناك. لكنها بقيت أساساً نتيجة للعالم الخاص بها، عالم وسط بلاد العرب، والحجاز بصورة أدق.

إن أقدم المصطلحات العربية تعبر عن مفهوم المدينة بكلمة قرية، لا بكلمة مدينة أو مصر. وكلمة قرية يعبر عنها في الفينيقية بقرت، وفي العبرية بقيرات، وبالسريانية بـ Qerè [٦٩]، ويقابلها باليمنية كلمة قريبة جداً من العربية وهي قرية [٧٠]. وقد استعملها القرآن مراراً في المفرد والمثنى والجمع دلالة إما على المدينة عامة [٧١]، وامّا على مدينة معينة مثل مكة والطائف [٧٢] وسدوم [٧٣]، ونينوي [٧٤] أيّ مدينة أخرى كبيرة أو صغيرة. أما في أقدم الروايات التاريخية العربية فقد حافظت هذه الكلمة على هذا المعنى: فالقرية هي المدينة [٧٥]، وأهل القرى هم سكان المدن لا سيما مكة ويثرب والطائف ويقابل القاري بالبادي [٧٦]. وحتى نعت

---

(٦٩) الوهيبي، مادة «قرية»، دائرة المعارف الإسلامية، طبعة ثانية.

(٧٠) لسان العرب ج ١٥، ص ١٧٧ وما بعدها.

(٧١) قران، سورة الأنفال، ١٦، سورة الزخرف، ٢٣، سورة سبأ، ٣٤. لكن بالنسبة لسبأ استعملت كلمة بلدة، سورة سبأ، ١٥ . ولا يتعلق الأمر بمجموعة من الأهالي المستقرين كما ادعى لامانس (Lammens) في **La cité arabe de Tā'if** ص ١٨٣ .

(٧٢) «القريتين»: قرآن، سورة الزخرف، ٣٠.

(٧٣) قرآن، سورة الأنبياء، ٧٤ .

(٧٤) قرآن، سورة يونس، ٩٨.

(٧٥) راجع الطبري ج ٣، ص ٢٩٨ .

(٧٦) لسان العرب، ج ١٥، ص ١٧٨ .

قروي كان يعني مدينياً في الأصل[٧٧].

أما كلمة مدينة، فقد وردت في القرآن بصيغة مدائن في الجمع واستعملت مفرداً دلالة على يثرب[٧٨]، وقد وردت أيضاً اسماً للجنس[٧٩]. وينبغي ترقب القرن الثاني لكي تعود إلى السطح التسمية في عبارة مدينة السلام، ونهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، لكي يبرز بوضوح مفهوم المدينة، في بغداد كما في الكوفة، بصفتها تمييزا للمركز المديني الأصلي المحاط بسور عن الأرباض، وعن الامتدادات خارج السور[٨٠] وباستقراء معاجم الفصحى التي دونت الأصول القديمة، نجد أن كلمة مدينة لا تطابق قطعاً تصور المدينة الحديث، بل لها مفهوم «الحصن الذي يبنى في أصطمة الأرض»[٨١]. وهي كلمة تشمل أيضاً الأرض نفسها. ورأيي أن كلمة مدينة لعلها تعني حصناً أو بصورة أدق المدينة ـ الحصن، وكذلك فهي مدينة بها حصن أو بناءات محصنة. كانت تلك صفة المدينة المستديرة، وكذلك وضع يثرب المدرعة في داخلها بالأطم. ولم يكن الوضع كذلك بالطائف وهي «قرية» وعرفت بهذا النعت، لكنها أحيطت بسور. ولذا فإن قرية ومدينة لم تتميزا من حيث الحجم، بل بالوظيفة ونمط التمدين، فللمدينة اتجاه دفاعي، وهذه هي نوعيتها ودورها، خلافاً للقرية التي تجسم الخيار المديني المعتاد، لا سيما الخيار المدني والتجاري والديني وخيار التجمع البشري الكثيف

---

(٧٧) المرجع نفسه ج ١٥، ص ١٧٨.

(٧٨) قرآن، سورة التوبة، ١٠١ ـ ١٢٠، وسورة الأحزاب، ٦٠

(٧٩) بنفس المعنى الذي «لقرية» فيما يظهر، وهو المعنى الوارد بالآية ١٣ والدال على نفس المكان: قرآن، سورة يس، ٦٠. وقد سها F. Buhl عن ذلك، كما سها عنه أن القرآن استعمل مراراً لفظة يثرب وليس مرة واحدة كما يقول بحث «المدينة»، دائرة المعارف طبعة أولى.

(٨٠) راجع ما يلي،

(٨١) لسان العرب تحت مادة «مدينة» ج ٥، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ حيث ذكر ما يلي: «الحصن في أصطمّة الأرض»، «كل أرض يبنى بها حصن في أصطمّتها فهي مدينة». بخصوص أصطمّة راجع تاج العروس ج ٨، ص ٣٦٧.

وهنا تكمن مفارقة نظراً لقلب الدلالة في الكلمتين، مع أن كلمة «مدينة» ارتبطت دائماً بفكرة المركزية والدفاع. لقد سمحت تجربة العرب الفاتحين في العراق بأن يكتشفوا مفهوم القرية كتجمّع ريفي بحيث تطور معنى كلمة قرية من مفهوم المدينة إلى مفهوم القرية، ويحتمل أن ذلك جدّ منذ القرن الأول. هذا وأن الحجاج نفسه الذي وصف باللغة البدوية العتيقة الصميمة بأنه كان أفصح «قروي» بمعنى مديني، لأنه كان ينتسب إلى الطائف أو لأنه أقام في مصري الكوفة والبصرة[82]، روى عنه أنه خاطب الاعلاج المهاجرين إلى الأمصار عندما أطردهم منها قائلاً: «من كان له أصل في قرية فليخرج اليها.»[83] المقصود في هذا المقام بالذات قرى السواد، وقد عرّفت بهذا المعنى في مصنفات الفقة[84] والروايات التاريخية التي ظهرت في القرن الأول[85]. وقد اكتست هذه الكلمة صبغة تعميمية بداية من القرن الثالث[86]. وعلى هذا فقد أصبح مصطلح (مصر) المستمد بالذات من التجربة التي مرت بها أمصار العراق، أصبح يدل على المدينة لا سيما المدينة الكبيرة[87] التي كانت تدرك كوحدة شاملة، في حين أن كلمة «مدينة» حافظت على معنى تحديدي». فما هو السر في هذا الانزلاق في الدلالة من معنى قرية ـ مدينة إلى معنى قرية ـ بلدة؟ هل ينبغي اعتبار ذلك بمثابة تأثير للغة الأرامية التي كانت شائعة بالعراق في ذلك العصر والشرق كافة، أو أن الأمر يتعلق بما هو أشد عمقاً؟ هل فكر العرب أن أبعاد مدنهم الموجودة في العصر الجاهلي كانت

---

(٨٢) لسان العرب ج ١٥، ١٧٨.

(٨٣) الطبري ج ٦، ص ٣٨١

(٨٤) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٠٢.

(٨٥) الطبري ج ٥، ص ٨٣ وج ٦، ص ٦٦ و ٣٦٤.

(٨٦) المرجع نفسه ج ٨، ص ٥٤٧ و ج ٩ ص ٥٢٣ و ج ٦، ص ٥٤٣٦؛ البلاذري، الفتوح ص ٢٨١؛ لسان العرب ج ١٥، ص ١٧٨.

(٨٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٤٠، ٦٤١، ٧١٦، ٧١٩، وقد سبق لأبي يوسف أن استخدم الكلمة في معنى مدينة عموماً: مرجع مذكور، ص ١٠٦.

تعادل أبعاد قـرى البلدان المفتوحـة. وأن تصورهم للفضـاء المديني قـد تضخم. وأخيـراً أن تجربتهم المـدينية في شبـه الجزيـرة أصبحت لاغيـة؟ ليس ذلـك بـأمـر مستحيل إذا ما فكـرنا في مـا كان عليـه التمصير في المـدينة العـربية الجـاهلية من ضعف. كـانت يثرب ركـامـاً من القـرى - الـواحـات، وكـان الـطائف متشبعـة بالزراعة الجبلية، وحتى مكة نفسها فقد كانت تمارس الرعي. لكن مـع هذا كـان لهـذه المنشآت خـاصيات مـدينية واضحـة من جهة أخـرى. فضلاً عن أن اليمن عاش التمييز بين المدينة والقرية التي كانت تسمى بيتـاً[٨٨]. على أنـه كان لتسميـة بيت دلالة مخالفة تماماً في شمال بلاد العرب، إذ كانت ترمز إلى الخيمة المقدسة سواء كانت متنقلة أم ثابتة[٨٩]، أو كانت، تعني المعبد المقدس كما في الكعبة أو الأسرة خاصة الحاكمة في معناها الواسـع. لكن هذه الـدلالة لايمكن اعتبـارها للدلالة على واقع القرية الجديد. نظراً للتفوق الساحق الذي كان لتصورات شمال بلاد العرب. الواقع أن العرب في القرن الأول قد أسقطوا مفهوم القرية على عالم العجم، مع استنقاص منهم له، واستعانوا بمصطلحات مغايرة تماماً هي المصر في العراق، والفسطاط في مصر، والقيروان في أفريقية، للدلالة على التجمعـات العربية المحضة خارج بلاد العرب، التي كانت تترجم عن واقع جديد بالنسبة لما كان عندهم، ولما وجدوه، وبالنظر لبنى تصوراتهم. وكانوا يتمسكون كل مرة بلبس بين الاسم النكرة والاسم العلم، كما هو الأمر بالنسبة للمدينة.

الحقيقـة أن القرآن بقي الـوثيقة العـربية الأوليـة الوحيـدة التي تمكنت من الارتفاع إلى مستوى المفهوم والتعميم في كافة الأمور وليس بـالنظر للواقـع المديني فحسب. كان القرآن يعمم دائماً الخصوصي، وهذا ما يكسبـه قيمة وتـأثيراً دائـماً

(٨٨) استشهد J. Chelhad، مرجع مذكور، ص ٣٠ بـ Beeston.

(٨٩) كما هو شأن سندار بالنسبة لبكر، غير بعيد عن الكوفة المقبلة: مادة «كعبة»، دائرة المعارف الاسلامية، ٢١.

كنص مقدس كوني الاتجاه. فهو يسمو عن الملموس بكل تساميه. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للفكر العربي العادي في العصر الجاهلي الذي كان خاضعاً للخصوصي.

ينبغي أن يضاف إلى ذلك دون شك بروز أمرين مستجدّين بخصوص ظاهرة المدينة في مدة الفتوحات، يتمثلان في الاتجاه العسكري الواسع المدى وادماج الرحل. لقد كانت المدينة لحد ذلك العصر في نظر العرب، زراعية وتجارية ودينية ومدنية بالتالي، حتى ولو كانت قاعدة للدولة في اليمن. والمحتمل أنه لما كسبت يثرب هذا النهج الهجومي كان ذلك مدعاة لأن تسمى بـ «المدينة». وكانت من جهة أخرى-المدينة بالمفهوم الحديث قي الجاهلية تواجه بقوة عالم الرحل، رغم التلاحمات، أي عالم العرب أو الأعراب كما جاء في القرآن نفسه الذي ميز في آية واحدة أهل المدينة والأعراب[٩٠]. وقد انفتحت المدينة «للعرب» بعملية الفتح، إلى درجة أن الأمصار صممت لفائدتهم أساساً، وهذا ما يفسر أن ازدواجية المعنى وصعوبة الاحتفاظ بكلمة «قرية» التي امتزجت مدة طويلة في الماضي بانفصام وجب التغلب عليه.

الميراث المديني

ما عساه أن يكون انتقل إلى الكوفة من التجارب المدينية المتعددة التي جدت في بلاد العرب؟ يجب التذكير هنا بأن الصفوة الحاكمة كانت من الحجاز الذي توفر لديه أحدث تقليد وأشده حيويةأيضاً، والمتفتح زيادة على ذلك بصورة واسعة على مؤثرات الشام. وكان اليمنيون كثيرين بالكوفة.

حقاً لقد انقرضت حضارتهم، لكنها خلّفت آثاراً واضحة، فضلاً عن

---

(٩٠) قرآن، سورة التوبة ١٠١.

المدن حديثة التطور كصنعاء ونجران. وأخيراً، فقد عرف البدو أنفسهم أشكالاً من التجمع مثل المحلّة لا يستبعد أن انتقلت إلى المحيط المديني. وقد تبيّن أن المصادر كانت تفضل مؤثرات الحيرة وفارس عندما تتصدى لشرح التمصير المديني النابع بصفة إرادية من النخبة الحاكمة. وسوف ننظر في ما اقتبسه اليمنيون بوضوح من تراثهم مثلاً فيما يتعلق بالجبانات. لكن عندما نعتبر الطابع الشديد الذي طبع به العرب في كافة المجالات الحضارة العربية الإسلامية، فلا يسعنا الا البحث عنه في الكوفة الناشئة، دون أن نقدر على قياس مداه مسبقاً.

كان اليمن القديم قد عرف هندسة معمارية متطورة بصورة ممتازة وقد قيل أنها برزت تامة الصفات مكتملة منذ البداية[٩١]. فكانت السدود والأسوار والمعابد بحجرها الجميل المربع منتشرة على الجانب الشرقي المتجه إلى الصحراء، في مأرب كما في معين وفي صرواح كما في شبوة. كان بالمعبد الكبير معبد اشتر، بمعين مدخل فخم بأعمدة رفيعة زواياها مربعة (القرن الثالث قبل الميلاد)[٩٢]. وكان بمعبد صرواح شكل مستطيل للسور وأبراج كبيرة في الزوايا[٩٣]. وقد وصفت الدار اليمنية بأنه كانت تتركب من دكة قوية بنيت بالحجر، قد أقيم عليها بناية من عدة طوابق، متركبة من هيكل له روافد من خشب قد عبىء باللبّن[٩٤]. وهي تتميز عن الدار التي ظهرت شمال بلاد العرب والتي كانت واطئة وممتدة ومنفتحة على الداخل[٩٥]. وقد وردت إشارات في خصوص الكوفة عن مساكن أقيمت على اتجاه الارتفاع[٩٦]، كما أن المسجد والقصر كانا يستندان إلى أبراج

---

(٩١) G. Garbini، مرجع مذكور، ص ٢٢٨.
(٩٢) المرجع نفسه، ٢٣٢.
(٩٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٣.
(٩٤) C. Robin، مرجع مذكور، ص ٢١٨.
(٩٥) **La Cité arabe de Tā'if**, H. Lammens ص ١٨٤.
(٩٦) الطبري ج ٤، ص ٤٤.

كبـيرة بالـزوايا.

لا نـزاع في أن الشغف بالبنـاء كان مـوجـوداً في اليمن القـديم، شغف الخلق والتشييد الذي لم يكن ليفقـد تمامـاً، حتى لو ارتبط بـرمزيـة السلطة القـائمة عـلى التملك، ولم يفقد هـذا الشغف باليمن ذاتـه في الفترة الحـديثـة من تـاريخه حيث يشهـد بعتق مساكن جميلة مـرتفعة بـاللبن . ومن بـاب أولى فقـد تمادى ذلك في صنعاء خلال العصر الذي تلا الجاهلية فوراً.

كانت صنعاء مدينة قائمة الذات آنذاك وكانت عاصمة « للأبناء » ولهمدان وأنصارهم أو حلفائهم [٩٧] . كانت صنعاء مبنية بالحجر أصلاً [٩٨] . وكانت لحصن عظيم ممتلكة هو غمدان[٩٩] الذي هدمه الفاتحون المسلمون . وقد ورد ذكر جبانتها وبيعتها وأسواقها وقصورها (وهل كانت قصوراً بالمعنى المعهود الآن أم حصوناً ؟) وكذا رحبتها[١٠٠] . لقد أنشأها السبيئون فيالبداية عندما كانـوا على قاب قوسين من الأفول[١٠١] . لكن لاشك أنها احتفظت بما يمكن الاحتفاظ به من الطموح التمديني والمعماري لليمن القديم ، وأن هذا الارث انتقل إلى الكوفة ، الارث الذي اقتبس الحجاز فيها بعد قسطاً منه . وزيادة على اقتباس الجبانات فما من شك في أن دُورَ طبقة الأشراف قد استوعبت النموذج اليمني مع أن اليمن قلّد في العصر الإسلامي الكلاسيكي النموذج العراقي المتكامل بعملية مد حضاري يستند إلى فكرة الوحدة الثقافية المنبثقة عن المركز أي دار الخلافة ، كما حصل في صنعاء

---

(٩٧) الرازي، مرجع مذكور، ص ٣٧.

(٩٨) ابن رسته، **الأعلاق** ص ١٠٩، وهو يقول بالحرف الواحد: «أكثر بنائها بالجص والآجر وسائرها حجارة منهدمة» وواضح أن الحجـارة المنهدمـة هذه من بقـايا المـاضي بينما يكـون الجص والآجر مستـورداً من الأنماط السـائدة في الحضـارة العربيـة الإسلاميـة بدءاً من القـرن الثاني ومـرجعها العراق.

(٩٩) الرازي، ص ٢٠ ـ ٢٦ : **مروج الذهب** ج ٢، ص ٢٠٨.

(١٠٠) الرازي، ص ٧٧، ٧٩، ٩٠، ٩٦، ٥٩، ٣٥.

(١٠١) C. Robin، مرجع مذكور، ص ٢١٢.

بتعويض الحجر بالآجر المطبوخ والجبس[١٠٢] . بداية من أي تاريخ قامت دور الإشراف بهذا الاسترجاع الحضاري ؟ منذعصر زياد وماتلاه وعلى الأرجح في زمن الجيل الثاني من المهاجرين ، حين بدأت ترتسم استعادة الهوية اليمنية ، تلك الهوية التي اصطبغت بالطابع الميثي والتي ازدوجت بميل جديد إلى الإفراط في الرقة . وبينما رمت العاطفة اليمنية المشوبة بالشعور النضاح بالعز بقواها . خلال النصف الثاني من القرن الأول في النزاعات السياسية التي نشبت بالقيام ضد قيس والتي كانت السلطة الأموية تحركها[١٠٣] ، فقد اندفعت هذه العاطفة بالكوفة في المشروع الشيعي الناشىء ، كما أنها عبرت عن ذاتها في الأعماق وبصفة خجولة من خلال وعي حضاري مواجه للجفاء البدوي ، جفاء البدوي ، جفاء تميم وأسد[١٠٤] . وهكذا عاد إلى السطح بقوة الإنشقاق القديم .

مكة

كانت مكة «أم القرى» ويعني ذلك حرفياً أم المدن. وقد سميت يثرب كذلك «أم القرى» الملتصقة بها[١٠٥] ويدل هذا المفهوم على المركزية والتفوق. من

---

(١٠٢) ابن رسته، **الأعلاق**، ص ١٠٩.

(١٠٣) هشام جعيط، مقال مذكور، ص ١٧١ وما بعدها.

(١٠٤) نفس المرجع، ص ١٧٤ وما بعدها؛ الرازي، ص ٦، ابن سعد، **الطبقات**، ج ٦، ص ٢٧٨ ، الذي ذكر أن ابراهيم النخعي كان يستنكف من بقاء العادة البدوية بالكوفة التي أبقت على الشعر الطويل المكشوف والمظفور وكان يتحدّث إبراهيم عن جفاء أسد وتميم. ونرى على العكس أن الشعبي، نفس المرجع، ص ٢٥٢ ، كان يتعمم «بعمامة حمراء» من صنع يمني. ويجب التذكير بأهمية الصناعة اليمنية خاصة في السلاح والنسيج وبقائها باليمن وخارجه في الكوفة مثلاً ـ مدة طويلة، مثلاً في القرن الرابع : البغدادي، **الخزانة** ج ١، ص ٣٨٢. وهو دليل على استمرار إحدى قواعد الحضارة اليمنية القديمة. أن هذه الحضارة لم تتغذ من تجارة البخور فحسب، لكن من الصناعة والزراعة المائية أيضاً. إنما من الممكن أن تكون الصناعة نتاج تطوّر متأخر بالنسبة للتجارة.

(١٠٥) السمهودي، وفاء، ج ١ ص ٨ إلى ٠

الممكن أن تكـون مكة قـد مثلت نواة لتجمـع تجـاورت فيـه البلدات والأربـاض والمنشـآت المستقرة المحيـطة المرتبـطة بالمعـابد. ومن الممكن أيضـاً أن عبـارة «أم القرى» ترمز إلى التفوق على مدن غربي بلاد العرب وتدل على فكرة المـركز الـذي يتجه إليه الجميع(١٠٦).

هناك عدة خاصيات ترسم فوراً شخصية مكة. إنها حرم أو بالأحـرى هي تقع في حرم. وهي مقر للكعبة. وتتم شعائر الحج المقدس حولها لا بـداخلها وهي الشعـائر التي يجب تفـريقهـا عن العبـادة المخصصـة للبيت(١٠٧) وهي مكيـة صرف ومركزة على الكعبة. هذا اتجاه ديني مميـز وهام ومؤثـر، ولا شك أنـه يسبق البقية ويسيطر عليها، أي الإقامة المدينية والنشاط التجـاري. والملاحظ أن مكـة بصفتها مدينة، أنشأت حقاً أو تشكلت مع بروز دور القريشيين وبفضل ما قام بـه قصي من عمل، وهو شخصية تقع فيها بين الأسطورة والواقع التاريخي. إن قريشاً بصفتها مجموعة بشرية شديدة التـماسك، وكشخص جمـاعي ـ لا يقال بنـو قريش أبداً ـ تمثل روح هذه المدينة. فإذا كان الحرم الفضاء المقدس الواسع ـ ٦٠ كلمتراً في ٢٠ كلمتراً في أقصى امتداد له ـ(١٠٨) هو الذي يسيطر على المجموع ويحيط بـه، فإن مكة بالذات تمثل فضاء مدينياً مادياً متميزاً بيتها الخاص بها أي الكعبـة. وقد منحت قريش لمكة الشخصية المعنوية، فجعلت منها مـدينة بالمعنى المؤسسي، ذات هوية متميزة بقوة فائقة.

لقـد كتبت أبحاث مفيـدة جـداً منـذ عشرين سنـة عن مفهـوم الحـرم(١٠٩)

---

(١٠٦) **لسـان العرب**، ج ١٥، ص ١٧٨، الـذي يفسر ذلك بـأن أهـل القـرى يؤمـونها أي يتجهـون إليها». لكن عبارة «أم الكتاب» تعني في **القرآن**، سورة **الزخرف**، ٤، نواة الكتاب وقلبه.

(١٠٧) الأزرقي، ج ١، ص ١٢٦، يـاقـوت ج ٥، ص ١٨١؛ Kister, **Mecca and Tamim p. 139**.

(١٠٨) الأزرقي ج ٢، ص ٦٢، ١٣٠؛ السـيرة، ص ١١٨؛ **معجـم البـلدان** ج ٢، ص ٢٤٤ ومـا بعدها.

(١٠٩) انظر ما سبق وأبحاث Nagel, Kister و Serjeant.

والمقصود به أرض مقدسة محرمة ينتفي عنها العنف إزاء كل ما هو حي فهـو أرض سلام مهيأة لقبول القبائـل للحج والأسـواق ينقذ مكـة من كل عـداء حربي. إن الحـرم مؤسسة لبـلاد العـرب بقيت حيـة حتى عصر الـرسـول، وهـو ليس مكيـاً فحسب. فقد جعل الرسول نفسه من يثرب حرماً[١١٠] كما في مسيلمة متنبيء بنى حنيفـة «ضرب حرمـاً باليـمامة»[١١١]. إنها مؤسسـة مرتبـطة بدين الـوثنية في اعمق مظاهرها،وفعاليتها واضحة في بروز المدن وحمايتها ونموها طالما هي تبعدها بالذات عن العنف. إنمـا للحرم المكي وضـع ممتاز لأنـه متجذر في الـزمن الغابـر، وزاده قـداسة إجمـاع كاد أن يشمـل كافـة الناس في بـلاد العرب، وقـد فخّم قـدسيتـه عنصران متميّزان تمثلا في الحـج و (العمارة أو العمـرة حسب القرآن)

كانت مكة حقاً المدينة العربية بالمعنى الممتـاز، وهي مهد الـوثنية والاسـلام عـلى السواء ونـواة النخبة المقبلة. لكنهـا كانت أيضـاً المدينـة الاستثنـائيـة التي لا تداني، وقد جعل منها التاريخ المدون اللاحق المتأخر، نموذجاً الهياً يعود إلى الزمن الكوسمي[١١٢]. ونحن نجد حتى شخصاً مثل سيف وهـو الإخباري المتقـدم حين يصف الكوفة في نشأتها في هذا الصّدد يقـول: «وكذلـك كانت المسـاجد مـا خلا المسجد الحرام، فكانوا لا يشبّهون به المساجد تعظيماً لحرمته»[١١٣].

هـذا وما من شـك في أن اللاشعـور الجماعي للنخبـة الحاكمـة الإسلاميـة الأولى قد استبطن البنى والأشكال وكل مـا جد قـديماً سـواءً في ذلك من تجـربتها المكية أومن مقامها فيما بعد بالمدينة. صحيح أن القريشيين كانوا قلةبالكوفة ذاتها لكن المؤسس سعد بن أبي وقاص كان بذاته قرشياً مكى الأصل مهاجراً إلى المدينة

(١١٠) حراماً حسب عبارة السيرة، ص ٣٤٣، Serjeant، بحث مذكور ص ٥٠؛ وقد جعل Nagel من الحرم ظاهرة مؤسساتية انطلقت منهاالأمة،بحث مذكور، ص ١٨٠.

(١١١) الطبري ج ٣، ص ٢٨٣.

(١١٢) الأزرقي ج ١، ص ٣١ وما بعدها.

(١١٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

شبيهاً بذلك بعمر المدبر الرئيس لتخطيط الكوفة حسب ما ورد في الروايات. فماذا عسى أن ينعكس من ذلك على الكوفة؟ لقد ورد مثلاً أن صحن الكوفة حدد برمي السهام ونحن هنا نلحظ أن في حياة قريش الجماعية المشحونة بالمقدسات كثيراً ما كان يعتمد على القداح، وهو رمي شعائري للسهام[114] وإذا كان القرآن حجر ذلك من وجهة المقصد الديني، فقد استمرّ الفعل كحركة مجرّدة بصفته تقنية لتحديد الفضاء وقياسه. ولا بد أيضاً من التفكير في أن الفضاء المركزي ذاته، قد حدّد بهذه الصيغة منه تسلل القبائل. وهو بالآخر فضاء عمومي ديني قد يكون اقتبس هذه الصفة في آن من الحرم والمسجد الحرام.

لقد طرح عمل التحريم الجاهلي قبل كل شيء كعمل لتحديد الأرض والنهي عن العنف[115]. صحيح إنه نزع المظهر القدسي عن الكوفة وكان الصحن فضاء متقلّصاً، ولم يكن واسعاً محيطاً كما كان الحرم في العصر الجاهلي، لكن الحركة الأولية بقيت محافظة على صفائها والمسجد الأصلي بصفته فضاء، مركزياً غير محاط يسترجع معاً الانفتاح[116] ومركزية المسجد الحرام المكي. أما بخصوص فضاء السكن، فإنه لا بد من التذكير بما لفكرة الاختطاط ذاتها من أهمية. ويبدو أنها مسعى شرع فيه قصي بمكة وهو الجد الممدّن، وقد استكمل ذلك أبناؤه. انه مسعى ارادي للتصميم والإنشاء وتوزيع وتنظيم للفضاء الذي قسم إلى أرباع هي أرباع مكة، وهو المسعى الذي نجده بالكوفة كعمل يبدو وكأنه شيء معهود مأنوس. ولا بد أن الدار أي المسكن الخاص قد اقتبست في وقت ما، كما قلنا، شيئاً من النموذج اليمني المطبوع بالترف والمبني في اتجاه الارتفاع. لكن من الأقرب أن في البداية وفي أكثر الأحوال، الدار الأكثر شيوعاً وانتشاراً في الكوفة، كانت نسخة عن المثال الموجود في شمال بلاد العرب بمكة،

---

(١١٤) الأزرقي ج ١، ص ١١٧ - ١١٩.

(١١٥) الطبري، ج ٣، ص ٢٨٣: «ضرب مسيلمة حرماً باليمامة ونهى عنه».

(١١٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٨؛ الأزرقي ج ٢، ص ٦٨.

وهو فضاء مربع مفتوح في وسطه[١١٧]، يفتح على حجرات وهو المثال الموجود بالطائف، والذي نجده على شكل أوسع وكحصن في أطم يثرب، وهو يتّصل فوق هذا بأقدم نموذج للدار ببلاد الرافدين.

الطائف

كانت الدور بالطائف أيضاً مسطحة حسب ياقوت[١١٨]، فيما أن لامانس (Lammens) يصفها بأنها بيوت مرتفعة دون تقديم الدليل، وهو يقابل بين «ضعف المعمار في مكة» والحصون السميكة المتنوعة بالطائف[١١٩]الواقع أن ما يميّز هذه المدينة هو سورها،[١٢٠]لكن لعل الطابع المديني كان أكثر استكمالاً وأكثر تطوراً بالطائف مما كان عليه بمكة. فضلاً عن أن الطائف تميزت عن مكة بزراعتها الجبلية الغنية[١٢١]، الأمر الذي حمل قريشاً على جعلها تدور في فلكها إلى حدّ ما[١٢٢].

من المعلوم أن زياداً كان من ثقيف. وأنه من أكبر المشيدين في البصرة والكوفة[١٢٣].

وهذا لا يعني اطلاقاً أنه استوحى ذلك من مدينته الأصلية، لكن لعله احتفظ منها بهذا الميل إلى التمدين يضاف إليه مراسه لفارس. ولنضف أنه إذا اعتمدت الطائف، خلافاً لمكة، على الزراعة، فقد كانت تمارس أيضاً التجارة

---

(١١٧) «Mecca and Tamim», Kister، ص ١٢٦ : كان مثالاً دائراً ثم صار مربّعاً، ولم يظهر هذا الشكل الأخير إلا في النصف الثاني من القرن السادس م.

(١١٨) معجم البلدان ج ٥، ص ٩: «بيوتها لاطئة».

(١١٩) **La cité arabe de Tāif,** ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(١٢٠) فتوح البلدان، ص ٦٦ - ٦٧؛ معجم البلدان ج ٤، ص ٨.

(١٢١) نفس المرجع، ص ٩ - ١٠؛ Lammens «الطائف»، دائرة المعارف / ١.

(١٢٢) فتوح البلدان، ص ٦٧؛ Kister، بحث مذكور، ص ٩.

(١٢٣) لا ننسى أن ثقيفاً كان لها خطة هامة بالكوفة حيث كانت تقيم ذرية الدمون النسيب المؤسس: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨ الذي روى هذا عن ابن الكلبي.

والربا[١٢٤]، وعلاقتها في ذلك وثيقة بقريش[١٢٥]، وكانت تساهم في الأسواق مساهمة نشيطة[١٢٦]. والطائف مدنية دينية أيضاً ومقر لعبادة اللات، قد كانت أدمجت في نسق الحمس المكي لكن لا يبدو انها كانت حرماً لأن الرسول هو الذي منحها هذه الدرجة في العهد الذي أعطاه لأهل الطائف[١٢٧]، ولأنها إذا اتخذت سوراً فلكي تعد أسباب الدفاع المادية عن كيانها لانعدام الحرمة عنها بالذات.

المدينة:

كانت «المدينة» واحة متنوعة المساكن منتثرتها[١٢٨]، ومصدر اسم يثرب[١٢٩] يرجع إلى النواة المدمجة[١٣٠] التي امتدت إلى المجموع كافة وارتدت بعد ذلك إلى مجرد مكان معروف[١٣١]، ولم يكن المظهر المديني بارزاً قبل مجيء الرسول، ويبدو جيداً أن دوره التمديني كان حاسماً. فحيث هو استقّر في أرض فارغة خواء[١٣٢] برز المركز وصار فيما بعد «المدينة» ذاتها خصوصاً بالمعنى الحديث[١٣٣]، وكان اليعقوبي صريحاً في هذه النقطة حيث بين أن الرسول جمع حوله «الناس» الذين كانوا قبل ذلك «متفرّقين». فأصبحت المساكن متلاصقة بحيث أصبح ذلك

---

(١٢٤) فتوح البلدان، ص ٦٧: «كان أهل الطائف أصحاب ربا».
M. Watt, **Mahomet à la Mecque,** pp. 177 - 180

(١٢٥) نفس المرجع، ص ١٧٨ - ١٧٩ لا سيما مع مخزوم، يمكن أن يكون أشد اعتداء تعرض له الرسول قد وقع بعد أن زار الطائف ولان تشابك المصالح جعل من دعوته خطراً، Kister، بحث مذكور، ص ٩، يشير إلى ادماج ثقيف في الحمس.

(١٢٦) Lammens، مرجع مذكور، ص ٢٠٦ وما بعدها.

(١٢٧) Kister، مرجع مذكور، ص ٦.

(١٢٨) M. Watt ج ٢، ص ١٣ ووفاء ج ١، ص ١٩٠.

(١٢٩) تسمية قديمة: Fr. Buhl «المدينة» دائرة المعارف ١.

(١٣٠) وفاء ج ١، ص ٨ - ١٠. لم نتمكن من الرجوع إلى كتاب أخبار المدينة لعمر بن شبة الذي نشر مؤخراً بالمدينة.

(١٣١) نفس المرجع ج ١، ص ١٩١ وج ٢، ص ٧٤٧.

(١٣٢) يستعمل السمهودي كلمة «مربد»: وفاء ج ١، ص ٣٢٢ وما بعدها.

(١٣٣) اليعقوبي، البلدان ص ٣١٣ و F. Buhl، بحث مذكور.

مدينة[١٣٤] أي مكاناً يتّسم بتلاصق الأبنية وبكثافة السكن ومفهوم «الناس» هنا يعني المهاجرين أولاً وبالذات[١٣٥]؟ الا أنا نجد أيضاً عناصر من الأنصار تطوعوا بالانتقال تقرباً من الرسول[١٣٦] وكانت النقطة المحورية لهذا المركز الجديد المسجد وداره الخاصة وقد تشكل منها مركب متلاصق[١٣٧] وهو مكان التجمع الدائم والمقر الديني وقلب السلطة كلما زادت بروزاً ونمواً، حتى أصبح المركز روح هذا التجمع البشري الذي كان مائعاً في السابق. لقد حدد هذا المركب بالخصوص نموذجاً لكافة الحضارة الإسلامية. إنه نموذج المسجد أولاً، الذي سيخطط طبق المثال النبوي مع بعض التغييرات، لكن المهم أيضاً بالنسبة للكوفة أنه سيلعب دوراً نموذجياً للتجاور بين مقر الحكم (التي عرفت بدار الإمارة بعد ذلك) والمسجد، أي مكان العبادة وتجمع المؤمنين. والملاحظ أن الأمر يتعلق بوحدتين فضائيتين متميزتين لكنهما متلاصقتان، وبوظيفتين مختلفتين لكنهما متصلان عميق الاتصال، لكن الصّلة في عصر الرسول كانت أشد قوة. وأما في الكوفة والبصرة ودمشق، فقد صار التمييز بين القصر والمسجد أكثر وضوحاً. لقد استقر مركز الحكم في عصر الرسول بالمسجد ذاته وكانت الدار متوجهة إلى الحياة الخاصة للنبي بينما كان الحكم بالكوفة يمارس أيضاً في المسجد، لكن بصفة أهم في القصر حيث تتجمع الأموال والقوى. وهكذا تواجد بالكوفة العامل السياسي والديني في نوع من جدلية التواصل والإنفصال في حين أن الوحدة كانت تامة زمن الرسول، مع تفوق المسجد على الدار. وعلى كل فإن التسلسل من «المدينة» إلى الكوفة يظهر بوضوح كبير، ويبدو هكذا أن الاستناد إلى عصر الإنشاء «بالمدينة» أكثر بلاغة وأكثر وضوحاً قطعاً، من الاستشهاد بالمثال البابلي ـ الجديد الذي يبرز

(١٣٤) نفس المرجع ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(١٣٥) وفاء، ج ١، ص ٧٣٤ وج ٢ ص ٧١٧.

(١٣٦) أو من المسجد كما فعل بنو سلمة الذين رحلوا بطلب من الرسول: وفاء، ج ١، ص ٢٠٣.

(١٣٧) السيرة ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨: كان المسكن بطابقين: فتوح البلدان ص ٢٠؛ وفاء ج ١، ص ٣٣٥ ـ ٣٤٠؛ M. Watt، ج ٢، ص ١٣.

بصفة خاصة في التحصينات وفي الشعور بالقوة والرفعة، وليس أبداً في عنصر التصور الأساسي.

وعلى هذا، فلا يندرج تأثير «المدينة» الإسلامية خارج بلاد العرب وبالتالي على الكوفة الا قليلاً في تأثير يثرب الجاهلية، التي كانت عبارة عن سلسلة من الواحات المبعثرة. بل أنها تندرج أساساً في عمل الرسول ذاته، المؤسس لدلالات حاسمة ولأعمق رمزية للمدينة المسلمة التي جعل منهاهيكلاً إسلامياً مؤسّساتياً لا مدينة فحسب، بل مدينة بالمعنى السياسي (Politeia)

واتماماً لهذا التصور، يحسن بنا الإشارة إلى أسواق «المدينة» التي نقلها الرسول: فلعل نقل سوق بني قينقاع[١٣٨] قد جد في اتجاه المركزية، لكن الأرجح مكة حيث كانت الأسواق بمثابة المعارض. لهذا فانها لعبت دور النموذج بالنسبة لسوق الكوفة ويصعب في هذا المقام تقييم العمل التجديدي الذي قام به الرسول : فلعل نقل سوق بني قينقاع[١٣٩] قد جد في اتجاه المركزية، لكن الأرجح هو وجود عزيمة تنظيمية ستبقى فيما بعد وهي ظهرت بعد في مَأْسَسَةِ سوق يثرب القديم[٥٩].

والملاحظ أيضاً وجود تعددية الأسواق[١٤٠] بيثرب وهي ظاهرة ستبقى في أية مدينة إسلامية، ووجود تقليد واضح لعله تأتي من الحضور اليهودي بخصوص ظاهرة السوق المدينية كمؤسسة دائمة تغذي الحياة الإنسانية اليومية. صحيح أنه وجد سوق داخل مكة، لكن الأمر الأهم هو قيام السوق ـ المعرض خارج مكة والتي لها دور كبير في اقتصاد القوافل العابرة لبلاد العرب. والذي لا يقبل الشك أن الرسول فرّق بوضوح بين التجارة[١٤١] والصلاة أي بين السوق والمعبد مخالفاً في

(١٣٨) وفاء، ج ٢، ص ٧٤٧.

(١٣٩) نفس المرجع، ج ٢، ص ٧٤٧، فتوح البلدان، ص ٢٨.

(١٤٠) وفاء، ج ٢، ص ٧٤٧. كانت هناك بطحاء أيضاً، وهي عبارة عن سوق للدواب على شاكلة الكناسة: نفس المرجع ج ٢، ص ٧٥٤.

(١٤١) W. Heffening، مادة تجارة، دائرة المعارف / ١ ولعل هذا التمييز يرجع إلى الفرس.

ذلك تقليد الشرق كافة. فضلاً عن أن الإسلام مدّن السوق العربية بأن أقامها في قلب المدينة ذاتها، مع العلم أن السوق الخارجة عن المدينة الجاهلية قد بقيت، وسنرى أنها بقيت بالكناسة في الكوفة وبالمربد في البصرة.

وهكذا نرى كيف أن الحضارة العربية التي شكلت المدينة فيها المحور المشع، مدينة للزاد العربي الخاص الذي توفرت فيه التقاليد المدينية والتراكيب المتينة الصلبة، كما هي مدينة للعمل الخلاق الذي قام به الرسول. هذا العمل النبوي الذي استمد بدوره كثيراً من الثقافة الخاصة والمحيطة به، ثقافة قريش أولاً، لكن أيضاً ثقافة كافة الجهات في بلاد العرب. إن القرآن الكريم نفسه يشكل الذاكرة العجيبة للأمة العربية. إذ استرد الماضي كله، ماضي سبأ كما ماضي الحِجْر لكنه تجاوزه بواسطة رؤية كوسمية إلهية لتاريخ البشرية. وهكذا ندرك ظهور إرادة عنيدة في الوجود وجهداً يتجه إلى الحضارة وتياراً توحيدياً، من العرب الأوائل إلى اليمنيين، ومن اليمنيين إلى عرب الجاهلية.[١٤٢]

صحيح أن هذا العالم مثله مثل العالم اليهودي من قبل، كان هامشياً بالنظر لمراكز القوة في الشرق. لكنه لذلك أسقط على السماء حرمانه، فصعّد هذه القوة الشرقية ليسلمها بعد ذلك بين يدي الله، ثم جلبها إلى الأرض من السماء لكي يعيد صوغ مدينته الأرضية انطلاقاً من تلك السماء وذلك بنفس الأماكن، غير بعيد عن بابل وآشور والمدائن حيث انبسط جبروت الإمبراطورية مدة طويلة.

(١٤٢) لقد فهم ماكس فيبر جيداً هذا الاشكال: سوسيولوجية الدين في الاقتصاد والمجتمع، ترجمة فرنسية، ج ١ ص ٤٤٦.

الباب الخامس

التمدين والاستقرار . الذروة التاريخية

|٥٠ ـ ٨٠/ ٦٧٠ ـ ٧٠٠|



الفصل الخامس عشر

المجهود المعماري في عهد زياد

(٥٠ ـ ٥٣/ ٦٧٠ ـ ٦٧٣)

اكتسبت الكوفة وجهها الحقيقي في العصر الأموي، وجه المدينة التي تشكلت بشكل ورثته عن أول بادرة للتخطيط. هذا ولم تتسرب الا أشياء قليلة جداً من العصر السابق الذي دام عشرين سنة بعد موت عمر[1] المعلوم أن الضغط الديمغرافي قد استفحل أمره وأن المدينة ـ المعسكر عاشت فترة من الغليان والاضطراب[2]، فشاركت مشاركة نشيطة في مقتل عثمان وفي معركتين عظيمتين هما وقعة الجمل ووقعة صفين. لكن لا شيء أو يكاد يمكن استشفافه في المستوى المديني.

وخلافاً لذلك، فقد تشكل القصر والجامع بشكلهما النهائي، خلال ولاية المغيرة وإمارة زياد. هذا أمر ثابت بالنسبة للقصر بحيث ان إعادة بنائه خلال العصر العباسي لم تكن في واقع الأمر سوى عملية تجميلية أو ترميمية، وقد أكد علم الآثار الأمر، مميزاً بالخصوص فترتين جدتا خلال العصر الأموي[3]، بحيث

---

(١) راجع بحثنا: «اليمنية في الكوفة» ص ١٤٨ وما بعدها: مادة «كوفة»، في دائرة المعارف الإسلامية، طبعة ثانية، بخصوص الاخبار القليلة عن التوبوغرافيا. كما توجد معلومات متفرقة في تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٧٣ مثلاً، وج ٥، ص ٦٠ و ٦١ و٨٣ و ٩١.

(٢) الطبري، ج ٤ ص ٢٧٩ وما بعدها: Shaban، مرجع مذكور، ص ٦٠ ـ ٧٨:
M. Minds «Kūfan political alignements and their background in the midseventh century A. D. «**International Journal of Middle Eastern Studies**, 2 (1971) ص ٣٤٥ ـ ٣٦٧.

(٣) محمد علي مصطفى، «Preliminary report on the excavations in Kūfa during the third Seasons» **Sumer**, 1963. ص ٣٧ وما بعدها.

يبدو أن الكوفة قد تطورت على مرحلتين متوالتين قبل سنة ١٠٠ وبعدها[٤] كما يمكن أن نتساءل عما إذا كان القرن الطويل الممتد من سنة ٤٠ هـ. إلى ١٥٥ من الهجرة ـ وهو تاريخ إقامة الخندق والحزام[٥] ـ لم يشكل وحدة زمنية كبيرة لأن الأجهزة الأساسية لم تتغير ولأن نفس المناخ الحضاري كان يحيط بالمدينة. لكن أدخل العباسيون الأوائل تغييرات جزئية كثيرة تبرر لا محالة الانفصام الذي أكده علم الآثار بالنسبة للقصر، بالرغم من استحالة تقديم تاريخ دقيق يحدد بداية المستوى العباسي[٦].

أصبحت الكوفة بعد هذه التغييرات، مجموعة مدن أميرية محيطة بحاضرة مدنية مركزية كبرى: مدينة ابن هبيرة، والهاشمية شرقاً، والرصافة إلى الجنوب الغربي، والكوفة الحقيقية بالمركز[٧] في حين أن الكوفة بقيت وحدة مدينية إلى نهاية العصر الأموي.

ومن المعلوم أن أوائل المؤرخين الذي تحدثوا عن الكوفة، ألفوا كتبهم في العصر العباسي، سواء كان سيف أو أبو مخنف[٨]، أو اليعقوبي والبلاذري بعد ذلك. وقد داخلتنا الحيرة مما كتبه المؤلفان الاولان[٩] حيث كانا مخضرمين عاشا العصرين، واعتمدا أحياناً التغييرات الطارئة على التوبوغرافيا وذكرا ذلك[١٠].

---

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٥) الطبري، ج ٨، ص ٤٦؛ البلاذري فتوح البلدان، ص ٢٨٧، لم يذكر سوى الخندق.

(٦) يمكن تحديد نهاية العصر العباسي الأول في سنة ٢٠٠ هـ. تقريباً: مصطفى، بحث مذكور ص ٦٣: شيد القصر العباسي بعد هدم القصر الأموي.

(٧) الطبري، ج ٧، ص ٦١٤ وما بعدها؛ البلاذري، ص ٢٨٥.

(٨) مات أبو مخنف في ١٥٧ هـ. ويرى ماسينيون، بحث مذكور، ص ٤٥ أن روايات أبي مخنف تشتمل على أسماء مكان صبغتها إيرانية (مثلاً لحام جرير). وتؤرخ هذه الصبغة إلى ما بعد عام ١٣٢ هـ. «كتب أبو مخنف رواية الأحداث بعد سنة ١٣٢ هـ، بعد أن نقح أسماء المكان».

(٩) اتهم Reitemeyer سيفاً بأنه أسقط على الماضي معلومات من عصره الذي هو العصر العباسي: مرجع مذكور، ص ٣٤ ـ ٣٥؛ راجع أيضاً Wellhausen، **Skizzen**، ج ٦، ص ٣ ـ ٧.

(١٠) مثلاً: «تركناه قد نزل عند مسجد القصّاص، يعنون مسجد أبي داود في وادعة، وكان يعتاده رجال أهل ذلك الزمان يقصّون فيه».

أبو مخنف في تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٤٨. يقصد عصر المختار بقوله: «في ذلك الزمان».

وشعورنا لا محالة أنهما يصفان الكوفة العباسية[١١] بعد أن اقتصرا على زيادة بعض الاحتياطات حتى يكون الأمر مقبولاً.

يبقى الموضوع صعباً إلى أقصى حد لو رمنا التوفيق بين ما ذكرته هذه المصادر الأربعة الرئيسية، نعني سيفاً والتخطيط الأولي الذي عرضه علينا. وكذلك أبا مخنف الذي يرسم إطاراً توبوغرافيا ثرياً وغامضاً في آنٍ، يصف من خلاله ثورة المختار[١٢] (٦٦ - ٦٧/ ٦٨٥ - ٦٨٦)، وثورة زيد بن علي[١٣]، اضافة إلى البلاذري في فتوح البلدان[١٤]، واليعقوبي في «كتاب البلدان»[١٥] الذي مزج بين القديم والحديث، وخلط بين الأخبار التاريخية والملاحظات المقتضبة. أما مخطط ماسينيون، فإنه يورد أصلاً رواية أبي مخنف بخصوص المختار، متيحاً بذلك اقتفاء أثره عبر الثنايا التي مر بها، ومدمجاً أيضاً عناصر اقتبسها من اليعقوبي، وهو يخلط بين العصر الأموي والعصر العباسي. فضلاً عن أنه لم يأخذ بعين الاعتبار التصور الأولي الذي وضعه سيف، فالتبس عليه موضوع التعريف بالقبائل، كما غابت في مخططه أسماء السكك والشوارع، وتحددت مواقع الجبانات تحديداً تقريبياً لكن لم يبعد كثيراً عن المعقول. الحقيقة أن ضبط تخطيط

(١١) أشار أبو مخنف إلى سكة البريد خلال ثورة زيد حيث قال أنها كانت تمر قرب ديار أرحب وشاكر، وعشائر همدان التي أقامت في الشمال: الطبري، ج ٧، ص ١٨٦. فهل كان يعني سكة البريد المتجهة إلى دمشق أم تلك التي وجهتها بغداد؟ أما البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٤، فيحدد موضع السكة بالكنيسة القديمة الراجعة لأم خالد القسري، وكأن الأمر يتعلق بفتح سكة جديدة. لنا أن نقول إن أبا مخنف يشير إلى السكة العباسية. ثم لماذا يستخدم كثيراً عبارة «دخل الكوفة» أو «خرج من الكوفة»؟ كما ورد عند الطبري مثلاً، ج ٦، ٢٩: «حتى يدخل الكوفة من قِبل الكناسة»، وكأن الكوفة محاطة بحزام وأن الكناسة كانت تقع خارج هذا الحزام في عصر المختار.

(١٢) الطبري، ج ٦، ص ١١ - ٦٦ وص ١٠٤ - ١٠٧.

(١٣) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٨٠ - ١٩١.

(١٤) **فتوح البلدان**، ص ٢٧٤ - ٢٨٧.

(١٥) كتاب البلدان، ص ٣٠٩ - ٣١١: عرض (ص ٣١٠) خطط الكوفة وكأنها متأتية من خلافة عمر. لكن يسود الشعور بأنه يسقط ملاحظاته الراهنة ويوضحها أحياناً، وقد فعل ذلك بخصوص همدان فقال عنهم تفرقوا في الكوفة.

دقيق للكوفة على خارطة بصفة عملية نعتبره أمراً مستحيلاً ، أي الكوفة في العصر الأموي ، لغموض المعلومات الواردة في المصادر . على أن محاولة ماسينيون تبقى صالحة نسبياً ومفيدة يمكن أن نحاول استكمالها وتصحيحها أيضاً دون أي أمل في الوصول إلى وضع رسم ناجز نهائي يقترب ولو قليلاً من المخطط النهائي الواضح .

لقد تم كل شيء وكأن الروايات استخدمت مجموعة من العلامات الفضائية التي هي القصر والجامع والسبخة والفرات والكناسة والجبانات الرئيسية، لاستعراض الجو الحضري وبث الحياة في المدينة وإعادة إحيائها، أكثر مما هو لتوجيهنا أو إرشادنا. فاما أن يكون أبو مخنف قد ألف لأناس كانوا على معرفة جيدة بالكوفة، فأغفل لذلك عدة أمور، واما أنه عمل على أن يتيه القارىء. فوزع في نصوصه علامات توبوغرافية على طريقة القصاص ـ حتى يضفي مصداقية أكبر على ما يكتب. وشعورنا أن نفس هذه العلامات كانت تتكرر دون تغيير، في كنف الغموض دائماً، واستمر الأمر قرناً ونصف القرن ـ منذ ثورة المختار إلى ثورة ابن طباطبا[١٦] (١٩٩-٢٠٠/٨١٥-٨١٦). فترتب عن ذلك أنه توفرت قائمة لا يستهان بها من أسماء المكان ـ ذكر ماسينيون ١٢٥ اسما[١٧] ـ وإنه يمكن لنا استكشاف ووصف الوظائف الخاصة بالأجهزة الرئيسية في المدينة، وتخيل الجو الذي كان سائداً فيها، لكن ليس تحديد مخطط محكم مفيد. ومع هذا فقد كانت هذه المدينة تطفح بالحياة في الماضي، وهو ما يحثنا على إعادة بنائها داراً داراً وسكة سكة، وعلى مستوى الفكر متحدين الزمان ومستبدلين بعلم الآثار الميداني علم الآثار المستمد من التآليف المروية. هذا ويتكون ميداننا مثل ميدان الواقع من شظايا ممزّقة وعلينا الاقتناع بالقليل.

---

(١٦) الطبري، ج ٨، ص ٥٢٨ وما بعدها.

(١٧) بحث مذكور، ص ٥٧، مؤكداً أن الطبري ذكر ١٢٥ اسماً في الكوفة وذكر البلاذري ٥٠ اسماً، ووردت ١٠ أسماء في كتاب الأغاني وحده. لكن ماسينيون لا يذكر كل أسماء المكان في بحثه.

بناء القصر والمسجد

كشف علم الآثار عن العصر الأموي الأول الذي بدأ في أمارة زياد وقد تضافرت المصادر الأدبية على التأكيد على الجهود التي بذلها في مجال التمصير والتنظيم. إنما حين نتمعن في تاريخ الطبري بين سنة ٤٥ و٥٣/٦٦٥ - ٦٧٣[١٨]، لا نجد أبداً أثراً لتشييد مسجد البصرة والكوفة، ولا حتى أثراً لبناء القصر. لكن نجد فيه كل ما يساعد على إدراك ذلك، بمعنى أن هناك مسعى لتأكيد السلطة وهيبة الدولة. وهنا ينبغي اعتماد كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري [١٩]، والروايات القديمة التي ذكرها سيف والمتعلقة بالكوفة في بداية أمرها[٢٠]، وياقوت[٢١]، حيث أشارت هذه المصادر جميعاً إلى ما يتعلق بالمسجد، مهملة القصر بصفة واضحة. حتى بخصوص الجامع، فقد دار الحديث عن إدخال تحسينات بزيادة الأعمدة ونشر الحصى في الصحن، والتوسيع فيه، أكثر ممّا دار الحديث عن البناء الصلب، ونستثني من ذلك إشارة قيمة وردت عند البلاذري: «ثم ان المغيرة بن شعبة وسعه وبناه زياد فأحكمه وبنى دار الامارة»[٢٢] ولم يذكر الطبري شيئاً بخصوص القصر، ولم يقل ياقوت شيئاً أيضاً. وباستثناء الخبر العابر الذي جاء ذكره عند البلاذري، فقد أيّد السياق التاريخي كله خبر إعادة بناء مركب القصر والمسجد بصفة شاملة من قبل زياد. لقد وسع زياد بالفعل توسيعاً عظيماً من مسجد البصرة فبناه بالآجر والجبس، وغطى السقف بالخشب الثمين[٢٣]. وبعد أن نقل موضع القصر من الدهناء إلى أن جعله ملاصقاً للمسجد، بناه كذلك بناء صلباً لكن باللبن فقط[٢٤]. ولا يتحدث أي خبر موثوق به عن إعادة بناء قصر أو

---

(١٨) الطبري، ج ٥، ص ٢١٦ - ٢٩٠.

(١٩) فتوح البلدان، ص ٢٧٥، وما بعدها؛ نفس المرجع بخصوص البصرة، ص ٣٤١ وما بعدها.

(٢٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢١) معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٢.

(٢٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٥: تشير كل الدلائل أن ذلك قد جد خلال ولاية المغيرة الثانية (٤١ - ٤٥) كما يؤيده السياق، لا خلال الولاية الأولى، كما ظن ماسينيون.

(٢٣) فتوح البلدان، ص ٣٤٢. وقد روى عنه ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢٤) نفس المرجع، نفس الصفحة، وبنى الجسر بعد ذلك خلافاً لما وقع بالكوفة.

مسجد الكوفة بعد زياد، واستمر الوضع كذلك حتى نهاية العصر الأموي. روى البراقي دون غيره أخباراً متأخرة وأكّد قوله أن عبد الملك هدم القصر سنة ٧١ هـ . (مما يثبت أنّ القصر كان موجوداً)، وبنى قصراً آخر مكانه[٢٥] واعتمد في قوله على الدياربكري[٢٦] ، وعلى سبط ابن الجوزي[٢٧] . تعرض الطبري[٢٨] والبلاذري[٢٩] مطولاً لمقام عبدالملك في الكوفة ، ولم يذكرا ولو كلمة عن هذا الهدم الذي لا يصدق . وتؤيد الأمور الرأي القائل أن مسجد الكوفة وقصرها سواء بسواء كانا من عمل زياد.، وقد اتصفا بمظهر معلمي متكامل حين شاهدهما الناس في القرن الثاني الهجري (سيف مثلاً)[٣٠] ، إلى أن بقيا في عصر متأخر على تلك الحال ، باستثناء القصر الذي تم ترميمه في العصر العباسي . والغريب أن ابن بطوطة قدم وصفاً لقاعة الصلاة بمسجد الكوفة قريبة بصفة ملفتة للنظر مما قاله سيف بن عمر فتحدث عن سقف مرتفع يقوم مباشرة على الأعمدة[٣١] . وعلى هذا الأساس يجب التنويه بعمل زياد ، الذي اكتسى مظهراً مستكملاً عظيماً ، وهي ظاهرة ممتازة لاسيما أنها وجدت في عصر إسلامي مبكر .

---

(٢٥) البراقي، ص ٦٦ وما بعدها.

(٢٦) مات في ٩٦٦ هـ، وألف تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٢٧) تذكرة الخواص؛ أشار المسعودي في مروج الذهب، ج ٣، ص ٣١٢، لا إلى تهديم القصر بل إلى الطاق الذي كان يجلس تحته عبد الملك لا غير.

(٢٨) الطبري، ج ٦، ص ١٦٢ - ١٦٥.

(٢٩) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٥٠ - ٣٥٤ .

(٣٠) تحدث سيف عن إعادة بناء المسجد من قبل زياد، لا عن بناء القصر: الطبري، ج ٤، ص ٤٦ . وقال بخصوص المسجد: «فلم يزل على ذلك حتى بني أزمان معاوية بن أبي سفيان بنيانه اليوم على يدي زياد».
والملاحظ أنه لم يتمكن من مشاهدة سقوف الفسيفساء المنسوبة إلى سعد، خلافاً لما قال Reitemeyer.

(٣١) رحلة، طبعة بيروت ١٩٦٠، ج ١، ص ٢١٩ ؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨٨ .

مسجد زيـــاد

بالرغم من اقتضـاب قول البـلاذري، فقد تضمن عنـاصر أساسيـة تخص عمل زياد هي التوسيع وبناء حجرة الصـلاة، ورفع السقف عـلى أعمدة عـالية، وأرض مغطاة بالحصى المعـير، وتشييد المقصـورة[٣٢]. وهكذا، فقـد تميّز مسجـد الكوفة بـالخاصيـات الرئيسيـة المعروفـة في المسجد الإسـلامي واعتبر مـع مسجد البصرة نموذجاً له[٣٣].

وقـد ذكرنـا أن سيفاً كـان يقول بـوجود مسجـد مبنى في ولاية سعـد ومنـذ البداية، كـانت سقوفـه ذات فسيفساء بيـزنطيـة، ومحمولـة على أعمـدة من رخام انتزعت من أحد القصور الساسانية. فماذا فعل زيـاد؟ قيل إنه أعاد بنـاء المسجد بأعمدة وردت من الأهواز - «تنقر ثم تثقب ثم تحشى بالرصاص وسفافيد الحديد» - وقيل أنه أضاف له الأروقة[٣٤]. وجملة القول، فقـد تعلق الأمر هنـا بتحسينات أدخلت على مخطط سعد، بأن وقع رفع السقف، واستبدل بالخليط المقتبس شكلاً هندسياً مبتكراً متصوراً. فلم توجد لا محالة أقوسة بل سقف مرتفـع جداً تحمله أعمـدة من حجر مغـطاة بتيجان ذات ورق الأقنثـة[٣٥] لكنها فـارسيـة الـطابـع، وبفضلها تم رفع السقف. وبعد مدة، تعجب ابن جبـير من ذلك، متحـدثاً عن خمسة أبلطة موازية للقبلة و«بلاطين» في كل جنـاح من الأجنحة الجـانبية[٣٦]. لا

---

(٣٢) فتـوح البلدان، ص ٢٧٦. الملاحظ أن البـلاذري لا يذكـر ارتفاع السقـوف. وإن تحـدث عن جبال الأهواز كمصدر لحجر - لا رخام - الأعمدة، فذلك خاص بالبصرة، خلافاً لقول سيف.

(٣٣) هذا هو مشكل الأسبقية: هل كان البدء في البصرة أم في الكوفة؟

(٣٤) الطبري ج ٤، ص ٤٦. ورد ذكر ارتفاع ٣٠ ذراعاً - ويحتمـل أنها كانت سـوداء - يعني أكثر من ١٥ متـراً، وكذلـك المجنبات والمواخير، وهي كلمـة يعسر التدقيق في معنـاها في هـذا المجال: راجع في هذا الموضوع الجنابي، مرجع مذكور، ص ١٢٠. وتقديراً للتوسيع، نذكر رقماً اقترحه يـاقوت في معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩١، أي مـا يسـع ٦٠٠٠٠ شخص بـدل ٤٠٠٠٠ في ولاية سعد.

(٣٥) استخرج عمودان بفضل الحفريات: الجنابي، مرجع مذكور، ص ١٢٢.

(٣٦) الرحلة، ص ١٨٨ وما بعدها، أكد بالخصوص قولـه على مـواد البناء ونـوعها وهي تـتركب من =

فـائدة من الـدخول في نقـاش أثاره كـرسـول بشـأن منـطلق مثـل هـذا التصـور الفضـائي[٣٧]. لا شك قـطعاً أن التـأثير الفـارسي موجـود وهـو يتمثـل في نحت الأعمدة العالية وهي خاصية فارسية أصيلة[٣٨] وأيضاً الزيادة في ارتفاع السقوف (مثـلاً الايوان بـالمدائن). لكن ينبغي التـأكد من الصلة بـين العنصرين في المعـمار الساساني قبل الاعلان عن وجود تسلسل ما، يعود إلى الابدانا »[٣٩].

كان المسجد مربع الشكل تقريبـاً، لأن الحفريـات الأثريـة المتعلقة بـأسسه حـددت ١١٠ من الأمتار لحـائط القبلة، و١٠٩ من الأمتار للشـمال، و١١٦ متـراً للضلع الغربي والشرقي. كان المسجد محصناً مسوراً، وكان يتخلل الحـزام أبراج نصف دائـرية، وقـد تمكن في بعض الأوقات من قبـول كافـة المقـاتلة أي حـوالي ٦٠,٠٠٠ شخص. ومن المفروغ منه أن الفتحات التي تصورها كرسول، وناقش في عددها الجنابي ومع ذلك فقد اعتبر أنها موجودة فعلاً، وهي ٥ شمالاً و٤ جنوباً و٣ شرقاً وغرباً، إن هذه الفتحات تقوم عـلى فرضيـة خاطئـة تماثـل بين الصحن المرسوم برمية سهم منذ التخطيط الأول، وبين مساحـة المسجد، وهي لا تـطابق الواقع في شيء. ويمكن احصاء ثلاثة أبواب في المسجد على أقل تقديـر، هي باب الفيل شمالاً، وباب كندة جنوباً أو غرباً، وبـاب آخر يـربط بين القصر وحجـرة الصلاة، وهو ما أثبته علم الآثـار، ولعله باب السـدّة الذي تحـدث عنه الـبراقي

= حجر، وعلى الارتفاع الاستثنائي الذي كان للأعمدة، وغياب القباب، راجـع المقدسي أيضـاً: أحسن التقاسيم، ص ١١٦ وما بعدها.

(٣٧) مـادة «معمار» في دائـرة المعارف الإسـلامية، طبعـة ثانيـة، وراجع خـاصـة: **Early Muslim Architecture** ج ١، ص ٤٤.

(٣٨) أليست برسيبوليس هي التي تحتوي على أعلى عمود في معـمار العصور القـديمة: راجـع Reman Ghirsman، **L'Iran des origines à l'Islam** ص ١٧٥. كان التأثـير الشامي الـروماني في عصر السـاسانيـين قد تسرب إلى الـزخرف وهـو عبارة عن نقش عى شكـل الأغصان، وأوراق الأقنثـة (قصر بيشـابـور): المـرجـع نفسـه، ص ٣١٥. انـظر بتـوسـع، **L'Univers des Formes**، ج ٢، من تأليف R. Ghirsman.

(٩٣) يعني انكـار كل تـأثير فـارسي كما فعـل أحمد فكـري، التعبير عن سـوء النية: الجنـابي، مرجـع مذكور، ص ١٢٥.

بالاعتماد على مصادر الشيعة. وقد ذكر أيضاً باب الأنماط الذي يفتح على السوق أي من جهة الشرق[٤٠]. وبذلك تكون أربعة أبواب على الأقل منها ثلاثة للعموم. ويحيط الشك بخصوص باب كندة الذي يكتب أحياناً بصيغة الجمع (أبواب كندة) وبذلك نستبعد ما ذكره كرسول من فتحات كما نستبعد الفتحات الثمانية التي ذكرها أحمد فكري واقتبسها عنه الجنابي[٤١].

ومن المحتمل أن يكون المسجد الحالي موجوداً على أرض المسجد القديم. إن مظهره المحصن المهيب يوحي بصورة المسجد الذي كان قائماً في القرن الأول، إذا ما نظرنا إليه من الخارج فقط. الواقع أنه مسجد متأخر أعيد بناؤه بواسطة مواد مأخوذة من القصر. والرأي السائد أن مستوى المسجد القديم لعله يطابق آثار «السفينة» الموجودة تحت الأرض، على عمق عدة أمتار من المستوى الحالي[٤٢]. وبذلك فلعل المسجد القديم، على الأقل مسجد العصر العباسي، مدفون تحت المربع الحالي الذي يشغله المسجد إلا أن مكانته الدينية ربما تحول دون التنقيب الأثري المنسق المستساغ في القصر.

قصر زياد

كشف علم الآثار عن ثلاثة مستويات هي مستوى أول مطابق للعصر الأول (دار سعد؟) عمق أسسه ٩٠ سنتمتراً على أرض عراء، ومستوى ثان من العصر الأموي وهو الأهم، وأخيراً المستوى العباسي الذي لم يكن سوى ترميم للقصر الأموي[٤٣].وبذلك فما تبقى من القصر يطابق القصر الأموي أصلاً، أي ما أنجزه زياد. قام زياد بعمل جليل عظيم شمل عناصر ثلاثة هي الحزام الخارجي والجدار الداخلي وعدة بنايات. لا يقل قياس الحزام الخارجي عن ١٦٨

(٤٠) البراقي، ص ٣١ ـ ٣٢.
(٤١) مرجع مذكور، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤٢) نفس المرجع، ص ١١٨.
(٤٣) محمد علي مصطفى، بحث مذكور، ص ٣٧.

متــراً، ٢٠ للضـلع الشــمالي الجنــوبي، و١٦٩ متــراً، ٦٨ لـلضلع ال
الغـربي[٤٤]. كان بنـاء من آجر، ولم يتجـاوز سمكه ٤ أمتـار، وقـد أحيط
برجاً، علماً أن عبيد الله بن زياد تحصن فيه مع الأشراف، وأن المختـار وا-
الحصــار. كــان حــزامــاً تحصنت وراءه السلطة. فقــام بــدور رئيسي
الانتفاضات. وهناك خاصيات مماثلة في الحزام الداخلي هي شكله المربـع
بنائه وقدرته على الصمود. لقد أثبت قصر الكوفـة ذاته كحصن منيـع في -
قصر البصرة وقع تخريبه بسرعة وهدمه ثم أهمله الولاة، مع أنه لم يكن موج
بداية الأمر أو يكاد، وزياد نفسه هو الذي بناه من لبن، فما سبب ذلـك؟[٥
تطابقت هذه الحزامات المتجبرة ومصير الكوفة مجهضة بدون تـردد كل الثـو
وأصبحت بمثابة الشخص المركزي في تاريخ مدينة الكوفة.

وفي حين أن القصر الأول ـ قصر سعد ـ تشكـل من وحدة واحـدة،
القصر الأموي كمركب للقصر وهو يشتمل عـلى عدة وحـدات تتحدد إلى :
مجموعات طولية يشكل مستطيلها المركـزي نواة معلميـة، ولم نقدر إلا عـلى
بـأن المادة التي أعيـد استخدامهـا تنتمي إلى العصر الأمـوي الأول[٤٦]. و-
هذا المستوى، فـلا يمكننا حسم الأمـر الذي يعـود إلى العصر الأول والأمر ا
يستند الى العصر الثاني. لكن في مقدورنا تكوين فكرة دقيقـة نسبياً لمـا كان
القصر الأمـوي. يتميّز هـذا القصر في نفس الوقت بـانسجام هيئتـه ـ لا سـ
المركز ـ وبما كان له من مظهر هو عبـارة عن متاهـة ملتويـة. نجد حجـرات
للاستقبال (أبهاء) وايوانات ألحقت بها أجنحـة، ودوراً، وغرفـاً مربعـة للسـ
وغرفاً طولية ومعابر، ومداخل، وهي التي تشكـل معظم هيكلتـه المعماريـة[
وتستقطب الانتباه القاعة الكبرى بالمركز، وكـذلك صفـوف الأعمدة التي تمـ

(٤٤) أحمد علي مصطفى، بحث مذكور، ص ٣٨.
(٤٥) فتوح البلدان، ص ٣٤٤.
(٤٦) محمد علي مصطفى، بحث مذكور، ص ٥٣.
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٤١ ـ ٤٨ وص ٥٨.

وتفتح على حجرة مقببة. إنها لتشابهات عجيبة تلك التي تظهر بين ايوان القصر، ما هو موجود بالاخيضر، بين الفرع الجنوبي وقصر المشتى[٤٨]. ويسود الرأي أن أسلوب الحيرة هو الذي احتل المرتبة الأولى، في حين أن بعض العناصر من العصر العباسي الأول مثل الترصيف العمودي للأجر، لعله يعود إلى الزمان الغابر (العصر الأكادي والقسي)[٤٩]. ومن جهة أخرى نجد الزخرف العباسي شبيهاً بما وجد بقصر الحير الغربي، وبالمشتى[٥٠] والمفجر[٥١] ـ وهو زخرف الدهن بالألوان المائية والنحوت، ذو الإتجاه الطبيعي والحيواني ـ في حين أن ما تبقى من الزخرف الأموي يتجه إلى تجريد أكبر وطابع هندسي، فاحتفظ بالخطوط الأساسية لتطور الزخرف الإسلامي الذي جد فيما بعد. ولا يكتسب ذلك أي تناقض في واقع الحال فقد جرت الأمور وكأن العصر العباسي الأول أشع بكل ما ورد عليه من مؤثرات عديدة. فاتجه الزخرف الى التمثيل الطبيعي وأتى دور الحذف والندم والعودة فيما بعد إلى البساطة الأولى. غير أننا لم نطلع كثيراً على الزخرف الأموي الذي امّحي. ومع ذلك علينا أن نفترض وجود أعمال مرسومة، ومواضيع حيوانية وبشرية[٥٢].

وبالرغم من جهلنا لمختلف التحويرات التي قام بها الولاة الأمويون في القصر، والتي وجدنا بعض أصداء باهتة منها في المصادر المكتوبة، فالمؤكد أن ما عمله زياد بالكوفة يمثل تحولاً كبيراً في تشكيل المدينة كما في المعمار الإسلامي. لم يكن القصر حصناً وحسب، بل أنه قصر كبير واسع حيث تظهر أبهة السلطة. وفي هذا المجال يتم الترابط بين علم الآثار وما تصدره المصادر من أحكام تقريظية. فمن اللازم أن نتصور صحونه المربعة الكبيرة وأبهاءه وايواناته وكواته

(٤٨) مصطفى، بحث مذكور، ص ٤٢.
(٤٩) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٥٠) المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٥١) المرجع نفسه، ص ٥٥ ـ ٥٧.
(٥٢) المرجع نفسه، ص ٥٥، والجنابي ص ٢٨.

المعمـدة التي تفتح عن منـظر صَفَّى الرواق المـركزي[٥٣]. وعلينـا تخيـل زخـرف جدرانه ومـلاطاتـه وأنواع زينتـه. كما لنـا أن نتخيل الخليـة البشرية الكـبرى التي كانت تعمر البنايات الملحقة به. إن المظهر الجمالي موجود ونحن نشعر به ونتوقعـه وهو الذي أوحى به علم الآثار.

(٥٣) مصطفى، ص ٤١: يظهر أن بنية القاعة المركزية المعمدة تعود إلى آخر العصر الأمـوي، وهناك فضلاً عن ذلك، شبه الكنيسة الملكية. أرجع أيضاً إلى الرسم المنقول بهذه الدراسة.

الفصل السادس عشر

هل وقع تحول حاسم ؟
التمدين والتنظيم

الأمر المؤكد أن زياداً أعطى الكوفة نواة معلمية الا أننا لا نكاد نعلم شيئاً عن عمله فيما يتعلق بالتوبوغرافيا المدينية خاصة، والمرجح أن الكوفة بدأت تشكل مركزاً مدينياً حقيقياً ابتداء من المغيرة وزياد . وكانت النواة المعمارية عنصراً يدفع بالكيان المديني إلى الأمام، ويطبعه بنموذجه المعماري والزخرفي. وقد أشار البلاذري[1] من جهة أخرى إلى ان العمال غمروا المركز العمومي ببناء اتهم الخاصة مضيقين بذلك من رقعة الفضاءات الشاغرة، وقد جد ذلك بداية من العصر المذكور وبمبادرة من عمرو بن حريث ـ الذي تولى الكوفة نيابة عن زياد. واتخذ زياد آخر الأمر مقررات هامة فيما يتعلق بمراجعة التنظيم العسكري والإداري للمصر. واعتنى ذلك التنظيم بإعادة تجميع الوحدات القبلية. وليس مستبعداً ان كان لتلك المقررات تأثير على توبوغرافية الخطط. تمثل عمل زياد، وبصفة عامة .ما جدَّ خلال العشرين سنة التي قضاها معاوية في الخلافة (٤١-٦٠)، في تحديد أسس الترتيب العام، وإشاعة الاستقرار وإدخال التحويرات الضرورية أكثر مما تمثل في اتخاذ قرارات واضحة وأعمال معينة كتلك التي اهتمت بإعادة بناء القصر والمسجد وتلك التي نسبت بعد ذلك إلى خالد القسري (١٠٥-١٢٠ هـ) بخصوص بناء الأسواق بناء منظماً. وقد تحقق التحول الطارىء على الكوفة بين سنة ٥٠ و١٠٠ أو ١٢٠ هـ، فكان تحولاً صامتاً بصفة

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

عامة، وقد تميز بمراحل بارزة منها ولاية زياد تحديداً ولا ريب أن الأمر كان كذلك في ولاية الحجاج والقسري. ومن المعلوم أن الأمر مؤكد لا مراء فيه بالنسبة للنواة. لكن المرجّح أن الأمر كان كذلك بالنسبة لبقية المدينة.

الطموح المعماري والجمالي

كان هذا الطموح موجوداً منذ البداية حين افتتن العرب بمباهج المدائن. لكن انتابتهم الحسرة لما غادروها، لأنها كانت غريبة عن عالمهم، وقد نقلوا معهم «مصاريع الأبواب»[٢] زيادة عن جملة من التصورات، وتكرر ذكر «الأبواب» كثيراً. ولما شيد سعد قصره المتواضع من قصب أو لبن وهو أمر كثير الترجيح ركب له باباً ضخماً من خشب ـ لعله منقول هو أيضاً[٣]. فبدا الباب رمزاً من رموز عظمة الحكم الجديد وانفعل لذلك عمر ووجه رسولاً لحرق هذا الباب[٤]. وقد روى أنه عبر عن امتعاضه قائلاً[٥]: «ليس بقصرك ولكنه قصر الخبال». كان عمر يبذل قصارى جهده للحفاظ على بساطة المدة الأولى، وروح الأصالة الكامنة في الأمة وهويتها الثقافية. هذا ولايمكن القول ان العرب لم يستجيبوا لهذا الطلب أو أنهم افتتنوا بسهولة بهذه الحضارة المادية الرفيعة. كان نقل الأبواب واحتمال حرق باب القصر بالكوفة، عبارة عن مواقف مؤثرة لو كانت حقيقية. الذي يهمنا هذا أنها تستند إلى الرمزية الشرقية الصرف الموجودة في الباب. وهناك شواهد على نقل الأبواب وأسكفاتها من مدينة إلى أخرى في العصر الساساني، كما توجد شواهد أخرى على أن هناك أسكافات أبواب من آجر حيث كانت تشكل واجهات لمعالم

---

(٢) Streck، مادة مدائن في دائرة المعارف الإسلامية، طبعة أولى، لعل هذا المؤلف يشير إلى واسط فحسب.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٧.

(٥) الطبري، ج ٤، ص ٤٧.

مبنية من لبن ، وهو أمر خاص بالحضارة الشرقية الفارسية(٦) .

فماذا كان موقف سكان الكوفة بعد أن أدخل زياد الآجر في بناء المسجد والقصر؟ «بنوا أبواب الآجر فلم يكن بالكوفة أكثر أبواب الآجر من مراد والخزرج»(٧). لا يمكن فهم هذه الإشارة دون اعتماد كامل خلفية الحضارة الفارسية البابلية التي ذكرنا. وهي تعني أيضاً دخول الآجر إلى البناءات الخاصة منذ ولاية زياد ـ ولا شك أن الآجر بدأ يظهر في دور الطبقة الأرستقراطية أول الأمر ـ لكن بخصوص أسكفات الأبواب وحسب. أما خلف ذلك، فقد تمادى القوم في بناء منازلهم باللبن(٨). وهكذا وقع تخطي المرحلة الأولى، والمفروض أن الأغنياء ما لبثوا أن أعادوا بناء دورهم بالآجر، وزخرفوها بالملاط، وأضافوا الطوابق وركبوا النوافذ على هيئة شبابيك(٩). ولا تتوفر لدينا معلومات صريحة بهذا الخصوص الا ما روى عن عمر، بطريق غير مباشر. . . وقد كانت رغبته الا يقوم سكان الكوفة بالمبالغة في رفع دورهم وألا يتجاوزوا ثلاث حجرات في كل دار. ويعني ذلك أن الأمر كان معمولاً به فعلاً، لكن في وقت لاحق كما هو واضح. ونجد في أقوال ياقوت ما ينير لنا السبيل حيث قال: «فلما كان في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع ولم يكن لهم غرف»(١٠). ثم تحدث بعد ذلك مباشرة عن بناء الأبواب من آجر في ولاية زيادة.

ويفيد ذلك أن الدور كانت من لبن في عصر زياد(١١) باستثناء أسكفات

---

(٦) Ghirsman **L'Iran des origines à l'Islam,** ص ١٦٤ ـ ١٦٥. لقصر داريوس في برسيبوليس جدران من لبن «لكن أبوابه ونوافذه كانت منحوتة كتلا كاملة من حجر». وبرسيبوليس هي اصطخر.

(٧) معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(٨) فتوح البلدان، ص ٢٨١.

(٩) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(١٠) معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(١١) ذكر الطبري ذلك صراحة: ج ٦، ص ٦٦، في عصر المختار، ومن باب أولى في ولاية زياد، فقد أمر المختار بهدم دار محمد بن الأشعث وبنى «بلبنها وطينها» دار حجر بن عدي.

الأبـواب. ويعني ذلك أيضـاً أنـه وقـع الشروع في رفـع البنـاءات في وقت مـا، وتقسيم الـدور إلى حجرات (تجـاوز عددهـا ثلاث غـرف في دور الأغنيـاء). أمـا بخصوص الآجر، فلا مجال للقول إن دور الأشراف أدخلت استخدام الآجر على كامل البناية حيث كـان الآجر يستخـدم لحدئـذ كعنصر لزخـرفة الـواجهة، والا يمكن الجزم في هذا الشأن وفي هذه النقطة بالذات، بل خـلافاً لـذلك، تـظافرت كل القرائن على جعل التفكير يتجه إلى القـول إن اللبن كان مستـخـدمـا في أكـثر الدور خلال العصر الأموي، لأنه كان أمتن مما يظن وقادراً تماماً عـلى تحمل الـدور الجميلة المرتفعة، كما تشهد بذلك دور اليمن في الزمن المعاصر.

وقد اتجهت كل هذه التغييرات إلى سن تمصير أكثر أصـالة، كـان يتمثل في البحث عن المتانة والجمالية والـطموح إلى الـطابع المعماري بحيث يرتفـع المسكن عن الأرض، ويهيكل الفضاء الداخلي علماً أن هذه التحويرات لم تتحرك الا عنـد شروع زيـاد في تنفيذ مـرحلة جديـدة. وقد أصر عـلى طموحـه المعماري الـذي لم يخضع للشاغـل السياسي وحسب، بـل لإرادة العظمـة والبحث عن مظهـر جمالي ينم عن اتجاه اختيار شخصي مؤكد، غرضـه حضاري[١٢]. ولا شـك أن ما سنـه قد سرى داخل الكوفة، ولعله أوحى شخصياً بمبادرات من هـذا القبيل.

كانت السلطة في عصر عمر وسعد قد خططت تصميم المـدينة وأمسكت بزمامه، لكنها بقيت قريبة من أمة الفاتحين. وخلافاً لذلك، فقد أكدت تعاليها وفي ولاية زياد[١٣] وبذلك فمن المفروض أنها استبعدت المحاكاة وأرادت القطيعة والانفصال، مما أدى إلى إقامة قلعة عظيمة تمثلت في القصر وضخامته. وتبـدو المفارقة في كون هذه السلطة المترفعة المتكبرة قد تسببت في وشجعت على محاكاة معينة بشرط احترام ناموسها. فتكاثرت بذلك القصور في محيط الكوفـة (قصر

(١٢) أنساب الأشراف، قسم ٤، ج ١ ص وما بعـدها، بخصـوص النظام الصـارم في الحياة اليـومية والسياسية الذي سنه زياد في البصرة والكوفـة دون شك، وانشغـاله بنـظافة المـدينة، وتنـظيمها الجيد الذي دفعت ثمنه حكماً مطلقاً راسخاً.

(١٣) الطبري، ج ٥، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

مقاتل مثلاً)[١٤] ، كما تكاثرت دور الأشراف في قلب الكوفة . والمعتقد أن المعمار الذي ظهر داخل قصر زياد أثر على تصميم الدور ، لأن القصر باستثناء قاعات الاستقبال التي كانت تتوسطه والإيوانات والقباب والأبهاء ، التي تؤكد قوة الحكم بالذات ووظيفته ، كان يتركب مما أقيم بأجنحته من دور قسمت إلى حجرات[١٥] . ورأيي أن دور الكوفة اقتبست بناءها من دور القصر .

البنايات الخاصة تضيق على المركز

ورد خبر جلي عند سيف بن عمر ضمن تاريخ الطبري ، مفاده كما نعلم أن المساحة المركزية التي حددها الخندق كان محجراً فيها البناء أثناء خلافة عمر[١٦] . فلم تتضمن الا المسجد والقصر المحاطين بساحة واسعة ـ هي الرحبة ـ وموضع الأسواق وما يشبه الاصطبلات في الهواء الطلق ـ الآرى ـ وكان هذا الفضاء شاسعاً يمسح مايناهز ٢٣ هكتاراً[١٧] لكن لم يلبث أن اكتسحته القطائع الخاصة والخطط الفردية ، فمتى حصل ذلك؟ من عهد الخليفة عثمان[١٨] الذي أفاض في أقطاع بعض الصحابة القطائع العقارية وأيضاً بعض رؤساء القبائل التقليديين (طلحة والأشعث بن قيس وجرير بن عبدالله البجلي، الخ . . .)، في قلب السواد أو هل تم ذلك بداية من ولاية زياد؟ من المعروف أن الوليد بن عقبة والي الكوفة في خلافة عثمان، كان يملك داراً تقع في وسط السوق[١٩]، كانت بمثابة

---

(١٤) فتوح البلدان، ص ٢٨١ ، بخصوص تكاثر القصور، في إقليم الكوفة، وراجع صالح العلي، منطقة الحيرة، لا سيما الخارطة .

(١٥) محمد علي مصطفى، ص ٤٤ .

(١٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٥ .

(١٧) انظر فيما سبق .

(١٨) فتح البلدان، ص ٢٧٣ يجزم البلاذري بأن عثمان هو أول من شرع في إعطاء القطائع العقارية الفردية .

(١٩) ابن سعد، الطبقات، ص ٢١؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١؛ الطبري، ج ٤، ص ٥٣٢، وج ٦ ، ص ٨٩ .

العلامة الأساسية في توبوغرافيا الكوفة. وقد ذهب الأمر باليعقوبي إلى أن عز العمر وزع الدور على أهم الصحابة،[٢٠] ولا يمكن قبول هذا القول باعتبار أنه ظاهرة عامة شاملة. على أنه يحتمل أن ذلك كان على سبيل الهبة الاستثنائية لبعض الصحابة. وقد تضارب في القول بهذا الخصوص البلاذرى واليعقوبي عندما ذكر قائمة الدور.

يقول البلاذرى: «وبنى فيها عمرو بن حريث المخزومي بناء، وكان زياد يستخلفه على الكوفة إذا شخص إلى البصرة ثم بنى العمال فيها فضيقوا رحابها وافنيتها»[٢١]. كان المقصود بالذات الكوفة عامة لا المركز بصورة خاصة، ويظهر أن الأمر لم يكن يعدو تمليك الأراضي العراء بصفة متفرقة، وفارق الطرق والرحاب ـ الكثيرة كما هو معلوم ـ التي كانت توسع المجموعة السكنية. الواقع أن قول البلاذرى يكتسي مدلولاً آخر بمقارنته وتحقيقه بما ورد في كتب أخرى، سواء كانت روايات أبي مخنف[٢٢] أو قائمة اليعقوبي وهو يفيد في فهم البقية.

توجد دار عمرو بن حريث فعلاً في الوسط تماماً[٢٣]، غير بعيد عن القصر، ومن المرجح أنها كانت تقع في الرحبة. كان ابن حريث من أكبر أغنياء الكوفة، وكان قرشياً مقرباً من السلطة، وكان بالفعل يساعد زياداً ثم ابنه عبيد الله فليس مستبعداً أن يصير قدوة بخصوص البناء في المركز. لكن ما ينبغي التدليل عليه أنه كان أول من فعل ذلك، وأن الوليد بن عقبة الذي كان والياً في خلافة عثمان، لم ينتزع هذا الامتياز قبله، فضلاً عن أن الدور التي روى أنها كانت تقع في المركز العمومي، قرب المسجد والقصر، أو في الرحبة والأسواق، كانت على ملك صفوة المسلمين بالمعنى الواسع أكثر مما كانت للعمال أنفسهم.

وبذلك نجد اليعقوبي يتحدث عن دار عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد

(٢٠) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٢١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢٢) انظر فيما يلي.

(٢٣) الطبري، ج ٦، ص ١٩ يروي عن أبي مخنف أنها تقع في «وسط السوق» لا في الرحبة.

الله وعمرو بن حريث «حول المسجد»، وغير بعيد عنه توجد دار سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجبة وهو أحد قادة حركة التوابين[٢٤]. ويبدو أن خالد بن عرفطة أحد حلفاء سعد بن أبي وقاص وقد كان من كبار القادة في فتح العراق كان يملك مع سعد نفسه داراً في هذا المركز[٢٥]. هذه عودة إلى الماضي. لكن روى أن دار المختار بن أبي عبيد كانت أيضاً ملاصقة لحائط المسجد[٢٦]. ويمكن التساؤل بخصوص دار الأشعث بن قيس، لكن الثابت أن دار حكيم كانت داخل السوق[٢٧]. كما نتساءل عما إذا لم تكن توجد بالمساحة العمومية كل أو أكثر ما ورد بقائمة الثلاثين مسكناً للاشراف والمتمتعة بتسمية الدار بصفتها اقطاعاً شخصياً يقع خارج الخطط؟ وبذلك لا يكون زياد هو الذي اتجه هذا الاتجاه بل أن عمر هو الذي شرع فيه بصفة طفيفة وتوسع فيه عثمان، ثم علي وزياد أخيراً. ويكون سمح هذا الوالي (زياد) باستكمال تضييق المركز من جهة الشمال والغرب والجنوب بالخصوص ـ حيث كان موضع الأسواق بقي كما هو في الأكثر ـ، لكن هذا التضييق لم يعمل أيضاً على ابتلاع الرحبة كلها وهو أمر لا مراء فيه[٢٨]. ونوافق البلاذرى حين يقول أنه وقع تصدير ظاهرة المركز إلى المواضع الخالية في الخطط. كما نوافق على أن الشكل المعماري للإقامة الخاصة قد تجسم بشدة في الجو الذي أشاعه زياد، ولعله تشكل كما تشكل عنصر آخر لا يقل صبغة أساسية عنه، نعني الحمام الذي سيظهر في المستقبل[٢٩]. هناك تضييق وتعمير الفراغات، وتكثيف العمران، يضاف إلى نقل بعض القبائل: كل ذلك اكتسى أبعاداً هامة قطعاً.

---

(٢٤) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ بخصوص المسيب بن نجبة، راجع الطبري، ج ٥ ص ٥٥٢ و ٥٥٣ و ٥٦٢ و ٥٨٤ و ٥٩٠ و ٥٩٣ و ٥٩٤ و ٥٩٦ و ٦٠٠.

(٢٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠؛ وأنساب الأشراف قسم ٥، ص ٢٣٧ ـ ٢٧٦. والطبري، ج ٦ ص ٤٧ و ٦١ وج ٧، ص ٤١٧: ذكر دار عمر بن سعد، التي لا بد أنها ورثت عن سعد.

(٢٦) الطبري ج ٣، ص ٥٦٩؛ ولا سيما معجم البلدان الذي ذكر الأمر بوضوح، ج ٤ ص ٤٩٣.

(٢٧) فتوح البلدان، ص ٢٨١: كانت هذه الدار تقع عند «أصحاب الأنماط» (صناع السجاجيد).

(٢٨) الطبري، ج ٥، ص ٢٦٨: حيث أمر زياد بنقل حجر ورفاقه على النوق، إلى الرحبة.

(٢٩) لا شك أن زياداً لم ينشىء الحمامات، ولم يشجع عليها إلا أنه أذن في بنائها وفرض تضييقات على ذلك: أنساب الأشراف، قسم ٤، ج ١، ص ٢٢٣ وفتوح البلدان، ص ٣٤٨.

لم يبدأ كل شيء في ولاية زياد كما تدل على ذلك أسماء المكان[٣٠] علماً أنها ترجع إلى أشخاص برزوا في تاريخ المدينة، سواء كان خاملاً أم نيراً، بداية من خلافة على حتى نهاية ثورة ابن الزبير (٣٧-٧٣ هـ) - أي خلال جيل[٣١]، وسوف نعود إلى هذه النقطة الهامة. لا مفر من التأكيد على ما قام به زياد من عمل حاسم وسريع إحقاقاً للحق، كما أن ادماجه في مرحلة تاريخية تميزت بالتمادي في البناء الذاتي للمدينة. ولا يمكن أن ننسب قطعاً لزياد المناهج الكبرى المفتوحة، كما قيل دون أية حجة.[٣٢]. ولذا فإن العمل الكبير الذي قام به زياد بقي مرتبطاً أصلاً بتشييد المسجد والقصر، وقد تمادى في حركة تمصير الكوفة في مجموعها لفائدة الأشارف خاصة، وبذلك يكون قد استمر في العمل بسياسة عثمان.

تحوير الهياكل العسكرية والإدارية.

لا تشغل بالنا الهياكل العسكرية والإدارية والمالية بصفتها تلك، في هذا القسم من الدراسة لأنها تتعلق أصلاً بالعمران والتنظيم البشري والسياسي، لكن علينا الإشارة اليها نوعاً ما لفهم المظهر الحضري والتبوغرافيا وتوزيع القطائع وتطورها، والظروف التي مكّنت الناس من الاستقرار والعيش. وإذا ما فكرنا من جهة أخرى أن هيكلة المدينة ارتبطت ارتباطاً عميقاً بالمنشآت القبلية والعشائرية في شكل قطائع متميزة في الحزام وخارج المركز، فإننا سنجبر حقاً على الرجوع إلى كل ما يتصل بتنظيم الجموع القبلية ضمن دراسة حضرية صرف.

وقد بيّنا كيف وزّعت الخطط في بداية الأمر - أي منذ حلول سنة ١٧هـ و لا

---

(٣٠) فتوح البلدان، ص ٢٧٤ - ٢٨٧ : اعتمد الكلام الخاص بالكوفة على دراسة في أسماء المكان.

(٣١) فتوح البلدان، ص ٢٧٧ - ٢٨٧ : تحدث البلاذري فعلاً عن زقاق عمرو بن حريث ص ٢٧٥، وباب فيل مولى زياد. لكن أسماء كثيرة تشير إما إلى مشاركين في الفتح، وإما إلى أهالي الحيرة وإياد حول ذلك. وعاش كثيرون حتى عصر الحجاج وبعده: أعين وشبث وابن محرز وعمر بن سعد، ولم يكونوا من أتباع علي أو زياد، كانوا أناساً وسموا المدينة بحضورهم البارز أو المتستر.

(٣٢) Reitemeyer، ص ٥٨.

يمكن تجاهل هذا الإستقرار الأول، حتى لـو فرضنـا أن تغييرات نـاتجة عن تـدفق جموع المهاجرين المسترسلة قد طرأت عليه سريعاً جداً وتسببت في مصاعب. كان التنظيم الأول يتضمن منطقيـاً قوة الجمـود، إذ كان دقيقـاً وملزماً لا محـالة، وقـد اتضـح أن المصادر التـاريخية المـوالية، منهـا روايـات الثـورات التي نقلت عن أبي مخنف، أكدت الأمر الى حـد بعيد. مثـلاً مر عـلي بمواقـع عشائـر همدان[٣٣] التي كانت في الشمال كما قال سيف[٣٤]، وهـو في طريق العـودة من الجزيـرة والشام، بعد وقعة صفـين، أي من الشمال الغـربي، وخلال ثـورة المختار عـبر ابراهيم بن الاشتر المركز للحاق بـالمختار وكـان الأول مقيماً بـالنخع في الجنوب. والمرجـح أن الثـاني كان يقيم بشـمال المسجد: كـان وصفـاً ملحميـاً وغـامضـاً أيضـاً عنـد أبي مخنف[٣٥] ذاك الـذي خصّصه لهـذه الرحلة عـبر المركـز. هـذه حجـة أن النخـع كـانـت تشكل مجمـوعة معتـبرة ضمن قبيلة مذحـج، كـانت تقيم بـاستمـرار في الجنوب حسب ما رسمه سيف أول مرة لخارطة القبائل. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع، على أن التصميم الأول يمكن أيضاً ألا يطابق تحركات الجيوش التي تابعها أبو مخنف.

نجـد في هذا المجـال التواء ينبغي تعليله قـدر المستطاع ويعني ذلـك أنـه يصعب التغـاضي عن التصور الشـامل الأول ومن المهم تكييفـه بصفة أو بـأخرى بـروايات أبي مخنف. أمـا كتاب اليعقـوبي، فهو قليـل الفائـدة بخصـوص العصر الأموى إلا أنه يـوضح تـوضيحاً مهـما التحويـرات المتأخـرة التي جدت في العصر العباسي[٣٦]. ولنذكر أن النقص الرئيسي الذي اعترى مخـطط ماسينيـون مصدره أنه وضع خارطة للكوفة تكـون صالحـة في آن للعصر الأموي والعصر العبـاسي، وقـد استمد مـاسينيون معلومـاته من روايـات ثورات الشيعـة وأيضاً من القـائمة

(٣٣) الطبري، ج ٣، ص ٦٢. مر بثور ثم فائش وأخيراً شبام.
(٣٤) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.
(٣٥) الطبري، ج ٦، ص ١٩ ـ ٢٢.
(٣٦) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

المتأخرة التي أعدها اليعقوبي. لقد برع في إضفاء الصبغة التركيبية على هذين المصدرين وأسقطهما على خارطته[٣٧] ثم أراد تجاهل التصور الأول الذي ذكره سيف والذي يبقى بالرغم من أن بعض التناقضات قد اعترته هيكلاً وأصلاً انطلقت منه كافة التغييرات المقبلة.

يقول ماسينيون أن الأرباع التي أنشأها زياد، تندرج في فضاء المدينة، خلافاً للأسباع التي كانت سابقة لها[٣٨]، فتحدث في هذا الموضع عن «تجمع المناطق العسكرية التي تحولت الى احياء، وقد جد الأمر في وقت مبكر جداً في البصرة، وجد في الكوفة سنة ٥٠ هـ»[٣٩]. هذا أمر قابل للنقاش تماماً، لكنه يطرح قضية العلاقات أو الترابطات بين الخطط بصفتها فكرة تبوغرافية وإطاراً للحياة البشرية من جهة وبين تلك المؤسسات العسكرية الجبائية التي تسمت على التوالي، في الكوفة، أعشاراً وأسباعاً وأرباعاً، واستمرت تسمى أخماساً في البصرة من جهة أخرى. وقد تبسّطت القضية في البصرة لوجود احتمال مؤكد في المطابقة بين الخطة والقبيلة (أهل العالية وبكر وتميم والأزد وعبد القيس)، والخمس وهو مؤسسة للتعبئة العسكرية وتوزيع العطاء الذي فرضته السلطة وأشرفت عليه[٤٠]. فيمكن التأكيد في الجملة أن الوحدة السكنية طابقت وحدة التضامن البشري المتمثلة في القبيلة. وبإلقاء نظرة خاطفة على خارطة الاستقرار الأولي المحددة بالاعتماد على معلومات رواها سيف، نتبين فعلاً أن الخطط اسندت بصفة عامة إلى قبيلة واحدة أو قبيلتين أحياناً[٤١]، والنظر في روايات أبي مخنف والإشارات المتفرقة التي تضمنتها مصادر أخرى يتأكد لدينا أن أراضي الخطط

---

(٣٧) راجع مخطط ماسينيون.

(٣٨) مرجع مذكور، ص ٤٤.

(٣٩) Massignon. مرجع مذكور ص ٤٤ . شرح تخطيط البصرة » ، في :
Westlëstiche Abhandlungen Tashudi، ١٩٥٤ ـ ص ١٥٤ ـ ١٧٤؛ وصالح العلي، مرجع مذكور، ص ٣١٧ ـ ٣٢٥ اللذي وضع قائمة مفصلة للأخماس ولم يشر قط إليها ضمن دراسته.

(٤١) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

كانت ملكاً للقبائل. وكثيراً ما ذكرت طيلة القرن الأول[٤٢] عبارات من نوع «من جهة جهينة» أو «مر بثقيف» وأيضاً «دخل دور همدان وكندة» وهلم جرا. . . عاد اليعقوبي الى الماضي فقال ان كل قبيلة استقرت في خطتها (= اختطت) في بداية الأمر، برئاسة شيخها وحول جبانة خاصة بها[٤٣].

كان عدد القبائل والعشائر هاماً في الكوفة منذ البداية فداخل عدم الإنسجام الكيان القبلي، وتضخم بتدفق الروادف المهاجرين بصورة مستمرة[٤٤]. فأصبحت الكوفة لذلك إسقاطاً على فضاء صغير لبلاد العرب قاطبة. فضلاً عن وجود البنية الموروثة عن جيش القادسية وربما السرعة الكبيرة التي بها تم الاستقرار الأول، وبذلك تشعبت القضية.

كان جيش القادسية مقسماً أعشاراً بالفعل[٤٥]، بمعنى أنه تجمّع في عشر وحدات ويرجح أنه اقتبس تنظيمه ذاك من النسق الفارسي الذي اعتمد الفرق العشرية أي عشرة ومائة وألف. كانت تلك الوحدات تشمل عدداً متساوياً من المقاتلين في كل وحدة، فكانت وحدات للتجنيد قبل كل شيء حافظت على الكيانات القبلية. وبما أن أعداد الحشود كانت غير متساوية (٤٠٠٠ من تميم ورباب و٣٠٠٠ من أسد و١٣٠٠ فقط من الازد وبضع مئات من ثقيف)، فقد وجب التجميع بصفة منسجمة بحيث لا ينال القبائل أي تشتت. إذا كانت الجماعة القبلية كافية في حد ذاتها، كان يمكن تشكيل العشر وجلب الحشود إليه من ذوي القربى. ولا شك أن نسق الأعشار كان الأساس في أنساق التجمعات

---

(٤٢) انظر ما سبق.

(٤٢) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٤٤) الطبري، ج ٣، ص ١٤، وج ٤ ص ٤٥.

(٤٥) الطبري، ج ٣، ص ٤٨٨ لا يمكن أن يكون ذلك متطابقاً مع فرق العشرة جنود الرومانية كما ذكر Caetani. ويقول ابن حبيش، كتاب الغزوات، ورقة ٢١٦ أن أمراء الأعشار يأتون في المرتبة الثانية بعد أمراء التعبئة وقبل أمراء الرايات ورؤساء القبائل. وكل النسق يأتي ضد فكرة أن الأعشار هي عشر عرافات أي مائة رجل كما يرى ذلك ع. م. السامرائي، مرجع مذكور، ص ١٠.

الموالية .فهل تدخل هذه الظاهرة ضمن ما رواه سيف عن الاستقرار الاول؟ توزّعت الخطط حسب الجهات الأربع حيث يلاحظ مطابقة الخطة لقبيلة وحيدة في أكثر الأحوال وكان يتجمع حول القبيلة المهيمنة الأخلاط(٤٦) وهي عشائر من قبائل مختلفة ،وتوجد أخيراً حالات نادرة بحيث يستقر ثنائي قبلي (بجلة وبجالة ، الأنصار ومزينة ، تميم ومحارب)(٤٧) ويقول المؤلف بصراحة(٤٨) : «وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن ونزل فيها الأعشار من أهل الأيام والقوادس» . ماذا يقصد بقوله هذا سوى أن الجماعات المقيمة بالخطط كانت تطابق الاعشار، وأنه يمكن التأكيد في هذه المرحلة الأولية على تطابق المبدأين؟ بل نجدها الفترة الوحيدة التي تطابقت فيها بصورة مجملة الخطة والقبيلة والإطار العسكري الإداري الذي كان يجسمه العشر، وسوف تؤثر نهائياً على مظهر الكوفة. فلا الأسباع الوريثة للأعشار ولا أرباع زياد غيرت أصلاً مواقع القبائل كما وقع تحديدها ، بمعنى تغيير تنظيم الفضاء بالكوفة. وبقيت همدان وكندة وثقيف وبجيلة ومذحج والأزد وجهينة وتميم وأسد، في مواقعها الأولى قطعاً كما ذكرها سيف ومهما قال ماسينيون(٤٩) .

وبما أن الأعشار ـ القبائل أقامت، بموجب القرعة، بأماكن قررتها الصدفة، وبما أن الاختلال العددي الواضح بينهما ظهر من وقت مبكر جداً(٥٠)، فوجب أن يعاد النظر في هيكلة التنظيم العسكرية الجبائي وعقلنته: فظهرت الأسباع التي أقامها عمر(٥١)، وحورها علي والتي بقيت حتى ولاية زياد. ولم يكن الأمر متعلقاً «بمناطق عسكرية» بل بوحدات لتجنيد المقاتلة بامرة رؤساء ولتهم

---

(٤٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.
(٤٧) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٥.
(٤٨) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٥.
(٤٩) مقال مذكور، ص ٤٤.
(٥٠) الطبري، ج ٤ ص ٤٨.
(٥١) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٨ و Massignon ص ٤٠. لكن المؤكد أن السبع السابع الناقص لا يخص طيئاً، وسوف نعود إلى هذا المشكل.

السلطة وبوحدات لتوزيع العطاء الذي يسلّم للقادة جملة، وكانوا يسلّمونه بدورهم الى العرفاء[٥٢]. الواضح أن الانطلاقة لم تبدأ من المعطيات الفضائية، يعني من توزيع الخطط التي كثيراً ما كانت تتحاور فيها قبائل لا ماضٍ مشترك يربط بينها في الماضي في سكنها السابق وكانت متباعدة جداً، في عملية انشاء الأسباع. فحصل التجميع، بمقتضى علاقات النسب. كان المقصود من ذلك المحافظة على التلاحم في التجنيد والقتال وبالتالي فإن السبع لم يحقق جواراً أو أي تقارب فضائي إلا في بعض الأحيان وفي بعض الأماكن: ربما في الجبانات أو خارج الكوفة في «نقط التجمع» بالنسبة للكوفة[٥٣]. على أن مؤثرات هذا الأمر على جغرافيا الخطط لم تكن في رأينا منعدمة، لا سيما أن القبائل الكبرى قد عملت أحياناً على جذب قبائل صغرى قريبة النسب وضعيفة العدد، فترجم الانتساب إلى ذات السبع عن طريق الاندماج في الخطة فضائياً. ولنذكر على سبيل المثال كندة وحضرموت[٥٤] وهمدان وحمير[٥٥] وتميم وهوازن.

كانت الخطة تعني تضامناً بشرياً واعياً حياً يستمر فيه ويدوم الكيان القبلي القديم، وذلك باعتماد القبيلة في واقع الأمر، لكن السبع كان تصوراً مؤسساتياً حافظ لا محالة على صلات الدم الأكثر اتساعاً. وفي عهد زياد أدخل الربع[٥٦] تبسيطات أقوى مما كان للخارطة القبلية لأسباب سياسية فكان يجاور بين مجموعات قبلية متشاحنة (تميم وهمدان وأيضاً كندة وأسد مثلاً)، نظراً لما كان لها من ماض في شبه الجزيرة، بل بين عناصر يمكن أن تكون متجاورة أو متباعدة في الكوفة ذاتها. ولا تتوفر لدينا أية اشارة في المصادر حول تنقل تميم إلى الغرب في سنة ٣٧ هـ. بالضبط كما أكد ذلك ماسينيون. كما أنه لا يوجد ما يسمح بالتأكيد

---

(٥٢) المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٩.
(٥٣) Massignon، ص ٣٩ وراجع ما يلي.
(٥٤) الطبقات، ج ٦، ص ١٣٢.
(٥٥) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٤٧.
(٥٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٨ وج ٥، ص ٢٦٨.

القطعي كما فعل صالح أحمد العلي وجاراه آخرون، على أن العشيرة أصبحت وحدة الأساس في التنظيم الإداري[٥٧]. والأرباع أكثر في ذلك من الأسباع لم يكن لها أدنى مفعول على جغرافيا الخطط وبالتالي على بنية الحزام السكني بالكوفة خلافاً للأعشار المتجسمة في الفضاء بفضل تطابقها تطابقاً قوياً بين الواقع البشري والأثنولوجي للقبيلة وبين تنظيم المؤسسات، ولأنها وجدت في اللحظة الحاسمة، لحظة التأسيس.

---

(٥٧) مرجع مذكور، ص ٤٩؛ لكن الشعبي في الطبقات ج ٦، ص ٢٤٩، سمي صراحة عريفاً لقومه ولا يعني ذلك القبيلة بل العشيرة. وينطبق هذا الأمر أيضاً على سعيد بن وهب المتوفى سنة ٨٦ هـ. : المرجع نفسه، ص ١٧٠. والمرجح كثيراً أن زياداً هو الذي دبر مثل هذا التبسيط.

الفصل السابع عشر

الكشف عن الكوفة .. ثورة المختار

(٦٦ ـ ٦٧/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦)

وجدت لحظات قوية سابقة أثرت على الكوفة (١٧ هـ و٣٧ هـ و٥٠ ـ ٥٣ هـ) وظهرت أوقات أخرى في مدة لاحقة، استكملت غرضها نسبياً، أو أنها اتسعت خارج الفضاء المديني ذاته، خلال ولاية ابن هبيرة والقسرى خاصة. لكن يبدو أن هذه المدة التي أتت بعد زياد الى ثورة ابن الأشعث والتي طالت خمساً وعشرين سنة حيث استقر النسق الاجتماعي بالرغم من الأزمات السياسية، كانت فترة طويلة صلّبت خلالها المدينة خاصياتها واكتست مظهر الرشد. فقد تشكلت فيها الكوفة الأموية بصورة جعلت خاصياتها معروفة مدة طويلة، باستثناء بعض الجزئيات.

سدّت الثلمات في كل مكان دون أن تمحى البنية الأصلية لطرق المرور وبالمحافظة على الفضاءات الخالية. فتكثف السكن وضاقت الشوارع الكثيرة ونزعت إلى أسلوب المتاهة، وأقرّت الجموع القبلية التي أغفلها التخطيط الأول، ولم تمنع كل هذه الأمور أن تبقى الطرق الكبرى الأولى، كما استمرت الخطط، فبقيت في الجملة الكوفة الهندسية وبنيتها الثنائية. فما هي أجهزتها الأصلية؟ الجامع والقصر المحصن، حيث اتجه كل شيء اليهما، والرحبة التي وقع تجاوزها بصفة متفاوتة في الشمال والغرب، والأسواق المختصة نسبياً والمستقرة شرقي المساحة المركزية والتي لم تكن مبنية بل كانت قائمة بصورة مؤقتة وقد غطتها الحصر التي كانت على قضبان أو أنابيب من حديد أو من قصب، وقد عمرت

الدور الفضاء الجنوبي. وخلف ذلك تبدأ الطرق الكبرى الفاصلة بين الخطط التي كانت الشوارع تخترقها. كـان الحرص يتمثـل في الاحتفاظ بعـدة فضاءات تقـع بمركز الخـطط أو بطرفهـا: إنها الجبانـات والصحارى. وقـامت الأجهزة الكـبرى بالكوفة حيث كانت تسير الحياة العـامة: الجـامع والقصر والـرحبة والسـوق ودور الإشراف والسكـك المستقيمة أو الملتـويـة التي تفتـح عـلى الـطرق، والجبـانـات والصحارى والخطط والكناسة والسبخة. وقبل تحديد مواقعها على الخارطة يحسن بنا عبور الكوفة كما وصفها أبو مخنف، لما روى ثـورة المختار (٦٦ هـ). ستكـون جولة غامضة تمدنا ببعض العلامات، لكنها تسمح خاصة باحياء الجو الذي كـان سائداً في ذلك العصر.

كانت حركـة المختار وشيكـة، فاحتـاط الأمير وعجّـل بالأحـداث. فوجّـه صـاحب الشرطة «حـول السوق»[١] الـذي أرسـل بـدوره ابنـه رفقـة الجنـد الى الكناسة[٢]. ولا ننس أن قائدي الثـورة كانـا المختار نفسـه المقيم بالمـركز كـما هو معلوم إلى جانب الجامع، وكان من ثقيف فتقع اذن قطيعته في الشمال، وقـد عوّل بالخصوص على أجوار ثقيـف من همـدان. والرأس الثـاني هو الأشـتر النخعي من مذحج المقيمة في جنوب المساحة المركزية التي ينبغي عبورهالكي يتصل الجمعان، وقد تحدد موقع القائد الثاني ومذحج بالاعتماد على خارطة سيف.

طلب صاحب الشرطة اياس بن مضارب من الأمير أن يعين في كل «جبانة عظيمة» رجلا ثقة رفقة رجال مسلحين. وهذا يعني أن:

أ) هناك تطابقاً وحتى تماثلاً في دور الكناسة والجبانات.

---

(١) الطبري، ج ٦، ص ١٨. كان الوالي ابن مطيع، وقد ولاه ابن الزبير.

(٢) المـرجع نفسـه، ج ٦، ص ١٨، وأنساب الاشراف، قسم ٥ ص ٢٢٤. سـوف نعتمد الـطبري بـاستمرار في هـذا الصدد، ج ٦ المطابق للجـزء الثـاني ص ٦٠٠ ومـا بعـدهـا من طبعـة ليـدن (Leyden). وقـد جارت روايتـه كثيراً روايـة أبي مخنف وجاءت مفصلة؛ وكـان كتاب البـلاذري أوضح وأوجز وأقل جزئيات. ان مخطوطة برلين المنسوبة إلى أبي مخنف وعنوانها: كتاب خبر المختـار وابن زياد، مزيفة وليس لها أهمية.

ب) أن الجبانة كانت مكاناً للتجمع داخل الخطط، وموقعاً استراتيجياً بالنسبة لقبيلة أو مجموعة من القبائل.

ثم أورد أبو مخنف قائمة الأشراف الذين توجهوا إلى الجبانات الرئيسية لكي يصدوا أفراد قبائلهم عن الخروج ويحتلوا الشوارع الكبرى في آن واحد، منعاً لكل تنقل. وقد ورد ذكر الجبانات الآتية: السبيع (همدان) وبشر (خثعم) وكندة وسالم (قيس) والصائديين (أسد؟) ومراد (مراد ومذحج)[٣]. وذكرت جبانة الصائديين وجبانة كندة أيضاً في الرواية المتعلقة بثورة حجر، على أنهما متجاورتان[٤]. والملاحظ أيضاً أن جبانة مراد ورد ذكرها منذ عصر علي[٥] ولذا يبدو أننا بإزاء أقدم الجبانات وأهمها، والمهم أنها ملك للقبائل اليمنية، باستثناء جبانة واحدة. ولم يكن لتميم جبانة فأمر رئيسهم شبث بن ربيع بأن يعسكر في السبخة التي قامت هي أيضاً بدور فضاء التجمع مثل الكناسة وحلّت محل الجبانة. «وخرج ابراهيم من رحله بعد المغرب يريد إتيان المختار وقد بلغه أن الجبابين قد حشيت رجالاً، وأن الشرط قد أحاطت بالسوق والقصر»[٦].

مسيرة ابراهيم بن الاشتر:

المرجح أن الفرقة الصغيرة التي صاحبت ابراهيم مرت من الجهة الغربية للمساحة المركزية فمرت بدار سعيد بن قيس الهمداني (هل كانت بالمركز أم بآخر خطة همدان حيث كانت أقرب ما يمكن من المركز؟) ثم بدار أسامة. طلبت من قائدها تجنب الجهة الشمالية الشرقية أي دار عمرو بن حريث «إلى جانب القصر وسط السوق»[٧] وخلافاً لذلك، اقترحت المرور من قطيعة بجيلة، واختراق

---

(٣) الطبري، ج ٦، ص ١٨.
(٤) الطبري، ج ٥، ص ٢٦١.
(٥) انظر ما يلي.
(٦) الطبري، ج ٦، ص ١٩.
(٧) المرجع نفسه، ص ١٩.

الدور وصولاً الى دار مختار، عبر الممر الجانبي دون شك[8]، وهنا ينجم مشكل صغير - إذ ينبغي الافتراض مسبقاً أن خطة بجيلة توجد إلى جانب خطة ثقيف، وأن خطة همدان توجد إلى الغرب. فينشب الخلاف مع التصميم الذي حددناه بالاعتماد على المعلومات الأولى التي ذكرها سيف. لكن ابراهيم أصر على الاستخفاف بالخصم أمام باب فيل (شمال المسجد)، وعزم على الاقتراب من دار عمرو بن حريث (إلى اليمين، كما ذكر بالنص)[9]، وختمها بمناوشة لم ينج منها صاحب الشرطة فاندلعت الانتفاضة. وشعورنا أن المنطقة الموجودة شمالي المسجد والمنفصلة عن خطط القبائل، كانت بها مسالك إجبارية، لا ساحة واسعة مفتوحة، كأن البناء متراص لا ينفتح إلا على بعض الشوارع. ومن المعلوم أن المسجد اتسع في ولاية زياد بزيادة الثلث على الأقل ولم يقع ذلك إلا من جهة الشمال. وقيل أيضاً أن بعض الدور شيّدت في المساحة المركزية. هذا إذن هو الانطباع الأول.

ثم نشبت الثورة[10]، فعاد ابن الاشتر إلى قبيلته للتعبئة[11]. «إن هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين يمنعون اخواننا أن يأتونا ويضيقون عليهم، فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتي قومي، فيأتيني كل من بايعني من قومي ثم سرت بهم في نواحي الكوفة»[12]. المقصود هو حمل راية الثورة في كل مكان، وتجميع الأنصار حيثما وجدوا بالكوفة. كانت جولة مهمة جداً ومحيرة حقاً، إذ لم نقدر على تتبعها أحياناً، بل ضعنا في متاهاتها.

كانت العودة إذن إلى النخع، ثم بدأ التجمع من هناك، فكانت مسيرة

---

(٨) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٩) المرجع نفسه، ص ١٩.
(١٠) المرجع نفسه، ص ٢٠: بعد اغتيال اياس بن مضارب صاحب الشرطة؛ **أنساب الأشراف** ج ٥، ص ٢٢٥.
(١١) الطبري، ج ٦، ص ٢١؛ ابن الأثير، **الكامل** ج ٤، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(١٢) الطبري، ج ٦، ص ٢٠.

ذات منعرجات« وهو في ذلك يتجنب السكك التي فيها الامراء»[١٣]، أي طرق المررو التي تمسك بها الجبانات، وهي الطرق الكبرى التي ورد ذكرها في هذا الصدد. وتتحول هذه المناهج إلى طرق كبرى متجهة إلى الحيرة، عند مغادرة الكوفة، كما أنها تتجه إلى مكة ودمشق والمدائن والبصرة، وكانت تسمح في الداخل بتوجيه القبائل إلى المسجد. لا شك أن الجبانات كانت تقفل منافذها وتراقب منها المرور، بكيفية أو بأخرى، ونضيف أنه ربما لم يتبق منها إلا طرق قليلة لا كافة الطرق التي خطت في البداية. وستنتهي المسيرة، في مرحلة ابراهيم هذه ضمن الخطط، وتنتهي باللحاق بالمختار. كان مسلكاً مستفزاً متستراً في آن، حسب الوضع.

أ) لقد انطلق من النخع واتجه الى مسجد السكون[١٤]، وهي عشيرة هامة من كندة. ومن سيف عرفنا أن خطة كندة كانت مجاورة لخطة مذحج.

ب) ثم دخل المسلك قسراً إلى جبانة كندة التي لا شك أنها كانت غير بعيدة.

ج) تمثل جبانة أُثْير المرحلة الثالثة[١٥]. لكن أثيراً رجل من أسد والمعتقد لا محالة أنها كانت تقع بخطة أسد، الى جنوبي الجنوب الغربي لا في خطة مذحج كما جاء بخارطة ماسينيون، وقد سمى البلاذري هذه الجبانة صحراء[١٦]، أما أبو مخنف فقد احتار بين الاسمين. وما يميّز الجبانة عن الصحراء أن الأولى كانت مخصصة للدفن كما للتجمعات من النوع العسكري، في حين أن الثانية خصّصت للاحتفالات[١٧]. لكن يبدو أن أثيراً كانت صورة مزدوجة، كما الأمر في جبانة سليم.

---

(١٣) الطبري، ج ٦، ص ٢١.
(١٤) الطبري، ج ٦، ص ٢١.
(١٥) الطبري، ج ٦، ص ٢١.
(١٦) فتوح البلدان، ص ٢٨٠.
(١٧) انظر ما يلي.

د) دحر ابراهيم خصومه تدريجياً، من صحراء أثير إلى الكناسة[١٨]. وقد اعتمد ماسينيون مصدراً شيعياً ليجعل منها مزبلة لأسد[١٩]، وحدد موقعها بالباب الغربي في الكوفة. يمكن ويرجح أن هذه الساحة الكبرى كانت تقع في خطة أسد في بداية الأمر، أي إلى الجنوب الغربي من الكوفة. كانت هذه الخطة تفتح على الغرب، وكانت غير محددة، فاتسعت الكناسة ونجت من هيمنة أسد المقيمة هناك. ثم أصبحت فيما بعد سوقاً للبغال ومكاناً لحط الأحمال عن قوافل الجمال القادمة من بلاد العرب، بصورة سريعة جداً، فوجب تحديدها على الطريق الرابطة بين الحيرة ومكة إلى الجنوب الغربي، وأبعادها من المركز إلى أقصى حد. لم تدمج الكناسة في المدينة خلال العصر العباسي حين أقيم الحزام، وهذا ما يوضح القول الذي كثيراً ما ورد في تأليف أبي مخنف: «يدخل الكوفة من قبل الكناسة»[٢٠]. كان المقدسي واضحاً جداً فقال ان الكناسة كانت موجودة من جهة البادية أي من جهة البادية العربية[٢١].

جـ) سيطر ابراهيم على المنطقة الجنوبية، فعجل الخطا إلى المختار معيداً المسيرة في الإتجاه المعاكس، مر بأسد النخع وكندة، وبالمسجد الصغير للأشعث بن قيس، ودخل الساحة المركزية فبلغ المختار من جهة القصر، كما ذكر[٢٢].

وقائع المختار، مشاكل تحديد المواضع

كان علينا متابعة تطور الثورة خطوة خطوة لكي نزداد إحاطة بمظهر المدينة والأماكن الرئيسية التي ينبغي التعرف عليها. ستبقى بعض هذه الأماكن يكتنفها

(١٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٢

(١٩) مقال مذكور، ص ٥٣: هو نفس الرحمان للطبرسي النوري وقد انفرد بذكر هذا الخبر.

(٢٠) الطبري، ج ٦، ص ٢٩ مثلاً.

(٢١) أحسن التقاسيم ص ١١٧: جاء بالكتاب «من جهة البادية» وهي عبارة غامضة لكنها ترجح الاتجاه إلى الجنوب الغربي، لأن الغرب يعني الاتجاه إلى النجف تماماً.

(٢٢) الطبري، ج ٦، ص ٢٢.

الغموض إلى الأبد في حين أن بعض الأماكن الأخرى ستتضح معالمها بتقدم البحث. والواجب أن نميّز بين المعارك التي قادها المختار في الكوفة، أي الثورة على السلط التي أقامها ابن الزبير ـ نعني ابن مطيع الوالي وشرطته وحشود القبائل الخاضعة له ـ والثورة التي قادها الاشراف بعد مدة على حكمه، وأخيراً مقاومته لغزو الكوفة بقيادة مصعب بن الزبير انطلاقاً من البصرة. هذه إذن ثلاث مراحل سنتخطاها بخطا وئيدة ونتقدم بفضلها في معرفة الكوفة.

أ) المرحلة الأولى: ثورة المختار

لقد سبق أن قلنا أن ابراهيم لحق به شمال المسجد. وما يجلب النظر أن المختار أقام معسكره بالسبخة، وهو موضع سيجرى فيه القتال ضدّ شبيب وزيد بن علي. وكلمة سبخة تعني منطقة جافة مالحة وهي صفة تنطبق على النجاف تلك البحيرة المالحة القديمة الواقعة بين الحيرة والنجف المقبل. لكن النجاف ليس السبخة، السبخة التي أرادت المصادر الشيعية المتأخرة المزيفة إلى حد بعيد، أن تجعل منها مكاناً لا ماء فيه. بل خلافاً لذلك، تبدو السبخة بمعناها الثاني والمرجح أنه هو القديم، وهو الغيضة التي أتخمت ماء في بعض الفصول، حيث ينبت القصب الرديء. ولا شك أنها كانت منطقة يفيض فيها الفرات لكن بموضع من أرض أُجَاج، يحدّ دور الكوفة إلى الشرق. ويؤيد هذا الأمر خبر واضح لا غبار عليه ورد ذكره في تاريخ الطبري، بخصوص ثورة شبيب، «السبخة بين الكوفة والفرات»[٢٣] قبل الجسر. واعتمد ماسينيون هذا الأمر فعين موقعها على مخططه شرقي الكوفة تماماً خارج المدينة طبعاً، لكن في اتجاه الشمال تماماً. إلا أنه يمكن التساؤل إذا لم يكن من المناسب التقدم بموقعها أكثر إلى الشمال، وذلك اعتماداً للرواية المتعلقة بثورة المختار. وخلافاً لذلك، تميل الأخبار الخاصة بمجيء مصعب من البصرة إلى تحديد موضعها في الجنوب الشرقي في اتجاه البصرة[٢٤] أي حيث

---

(٢٣) الطبري، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٢٤) انظر ما يلي.

تبدأ البطائح في الظهور. وينبغي لا محالة تحديد موقعها بصفة واضحة خارج الكوفة بحيث يكون لها مجال معين تنفتح عليه، لا أن يكون لها موقع محصور حيث يقترب الفرات أكثر ما يكون من المدينة.

ولنمعن النظر في النص الذي اهتم بهذا الموضوع لكي نستمد منه ما أمكن بخصوص السبخة كما بخصوص عناصر توبوغرافية أخرى كالجبانة وبعض الخطط. كان المختار قريباً من ثقيف كما هو مفروض، أي إلى الشمال الشرقي من المساحة المركزية وقد انتقل الى السبخة مع رجاله ورجال ابراهيم، شعوراً منه بقرب المواجهة الشاملة بين جنوده وجند الحكومة[25]، وقد كان محقاً في تخمينه هذا، الواقع أن الأمير عمل بنصيحة شبث[26] فجمع كافة القادة الذين كانوا قبل ذلك متفرقين في الجبانات والكناسة. كانت ليلة ترقب وتأهب للقتال من الجانبين، لا سيما أن عشيرتين كبيرتين من همدان شاكر وشبام قد لحقتا بالمختار، ووصلتا إليه بعد أن مرّت شاكر بجبانة بشر، ومر الآخرون بجبانة مراد[27]. وقد اجتهدوا في تجنب جبانة السبيع كأن الجبانات كانت تتحكم كلها في نقط الخروج، فكادت أن تكون ممراً إجبارياً. تمركز المختار بالسبخة مع ٣٨٠٠ رجل[28] وكان يواجهه ٢٠٠٠ رجل أو يزيد حشدهم الأمير، بفضاء له من السعة ما كان يسمح باحتواء هذا الجمع ويخول ايضاً التراجع واستقدام النجدات وحتى الفرار خارج ساحة الوغى: «فلما بلغ ذلك المختار من مشورة شبث بن ربعي على ابن مطيع خرج المختار في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة»[29]. وقد تمكن رجاله من سماع ضجيج خصومهم القادمين اليهم من هناك، «بين بني سليم وسكة البريد»[30]. وقد

(٢٥) الطبري، ج ٦، ص ٢٢.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٢٧) الطبري، ج ٦، ص ٢٣.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٩.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٤.

استفدنا من سيف أن بني سليم أقاموا منذ البداية في الشمال الشرقي من المساحة المركزية، اما بمفردهم إلى الحد الشرقي الأقصى لخطط الشمال الخمسة واما في خطة كبرى مع بني ثقيف حيث تمركزوا بالأماكن الأكثر بعداً عن المسجد، وهنا لا محالة علامة ذات أهمية. والأمر الأكثر صعوبة هو التعرف على الطريق الكبرى الرابطة بين مركب المسجد والقصر وبين عاصمة الامبراطورية، أي طريق البريد والرحلات الرسمية. كانت الطريق تمر عادة من النخيلة[٣١] في اتجاه دمشق، ولذلك فهي تنطلق من الكوفة من جهة شمال شمال غربي، دون عبور الفرات. لكن هناك طريقا أخرى تؤدي إلى دمشق، وهي تعبر الجسر إلى الشمال الشرقي من الكوفة، محاذية الفرات على ضفته اليسرى ثم تعبره من جديد في مكان آخر. وهذه كانت طريق السواد ولا نعلم هل قلّ استخدامها بالنسبة للطريق الأخرى[٣٢]، على أن اسم «سكة البريد»، الذي ذكره البلاذري[٣٣] قد يوحي بالغلط فضلاً عن ذلك لشكنا في إمكانية نسبتها إلى بغداد أيضاً. وفي هذه الحال ينزلق نصّ أبي مخنف في الخطا الزمني ويكون نصّاً ألف أو حور في العصر العباسي. ويبقى إذن موقعها غامضاً بالنسبة لذلك العصر، لكن الثابت أن السبخة كانت قريبة من الشمال الشرقي. ولعلها وقعت في الشمال بعيداً عن سليم وانتشرت بذلك في فضاء أوسع من الفضاء الذي حدده لها الرزق، كما أكدت كافة المصدر ذلك لا سيما عند رواية ثورة زيد[٣٤]. والمؤكد أنه يمكن الوصول إلى مركز الكوفة مباشرة من السبخة، عبر عدة طرقات أو سكك يبدو أن أهمها كانت سكة لحام جرير، فوجب التحكم في «أفواهها» أي مداخلها. الواقع أنه بعد أن انهزم شبث بن ربعي اثناء اصطدامه بالمختار في السبخة، منعت جيوش الأمير

---

(٣١) الطبري، ج ٦، ص ٥٦٢، وج ٥ ص ٧٣ و٧٨ و ٧٩. لا يتوفر أي خبر دقيق عن بداية طريق دمشق. وستمر هذه الطريق على القطقطانه، بداية من القرن الثالث: ص ٩٩.

(٣٢) أخذهعلي للذهاب إلى صفين: الطبري، ج ٤، ص ٥٦٥.

(٣٣) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٣٤) الطبري، ج ٧، ص ١٨٥.

المتحكمة في السكك، جنود المختار من دخول الكوفة[٣٥]. فلزم عليهم أن يجانبوا المدينة من الخارج للوصول إلى المركز واستهدام القصر، انه فعلاً تحول حقيقي من الشرق (كما أراده ماسينيون طبق مخططه) أو من الشمال الشرقي إلى الغرب أو إلى الجنوب الغربي، من السبخة إلى الكناسة، كأن هاتين الأرضين الواسعتين الخاليتين المحيطتين كانا تتواجهان وتشكلان لا محالة المعابر الأصلية للدخول إلى المركز، الذي منه ينطلق محوران أساسيان. أحاط المختار بالكوفة وكذلك ابراهيم، على حد أقصى دور المدينة ومر بالشمال. فتوجه حشد من حشود الوالي إلى طريق همدان (سكة ثور)[٣٦] لقطع الطريق من الشمال إلى الجنوب محاذياً المكان الذي سيبنى فيه مصلى في العراء، بناه القسري (١٠٥ ـ ١٢٠)، كان يقع دون شك في خطة بجيلة. هناك اتفاق اذن مع المخطط الذي وضع بالاعتماد على ما قاله سيف لكن المشاكل تواجهنا قبل هذه المرحلة ومباشرة بعد معركة السبخة. لقد مر المختار فعلاً بالجبانة[٣٧] التي سميت على هذا النحو وتعرت من كل صفة. والمرجح أنها عرفت بالثوية التي هي جبانة قريش وثقيف وأهل المدينة بصفة عامة. والظاهر أنها كانت تقع في أقصى شمالي الشمال الشرقي من الكوفة في طرف الخطط. وغير بعيد عن ذلك، وإلى جوارها، ها نحن قد بلغنا دور مزينة وأحمس وبارق[٣٨] وعنها يقول أبو مخلف: «وبيوتهم شاذة منفردة من بيوت أهل الكوفة»[٣٩]. هذه جملة لا شك أنها تطرح علينا مشكلاً. فهي في البداية تناقض تصور سيف في أكثر من نقطة إذ يمكن القطع بأن مزينة كانت تقيم

---

(٣٥) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٨.

(٣٦) الطبري ج ٦، ص ٢٩. هذه إشارة فريدة تبيح لنا التأكيد أنه اتجه إلى الشمال.

(٣٧) الطبري، ج ٦، ص ٢٨.

(٣٨) كانت بارق عشيرة هامة من الأزد. لماذا كانت موجودة في أقصى الشمال الشرقي؟ الحق أنها كانت أيضاً عشيرة صغرى حميرية اندمجت في همدان باسم ذي بارق: **الطبقات**، ج ٦ ص ٢٤٧؛ وقد وصفها خبر ورد في **أنساب الأشراف**، قسم ٤، ج ١، ص ٢٥٦، فقال أنها مجرد «مكان على طريق الكوفة»، أي أنه طرفي وغير ملحق بعشيرة.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٨.

في اتجـاه الشـمال قليـلاً[٤٠] لكنهم بقـوا في الشرق، تفصـل خـطط سليم وثقيف وهمدان بينهم وبين بجيلة واليها تنتسب عشيرة أحمس. وما عسانـا نقول في بـارق وهم من الأزد؟ من هنا ينبغي تحديد مقامهم اعتماداً على سيف أيضاً في الجنوب أو الجنـوب الشرقي كما هـو مرجـح[٤١]. لكنّ الثابت أن اليعقـوبي أكد قـائلاً[٤٢]: «انتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبدالله إلى الجبانة». ومع أن خـبره اندمـج في رواية خاطئة من بعض الوجوه فلا يبدو أنها مستمدة من تأويل لـرواية ابي مخنف، علماً أن مشكل بارق يبقى قائماً، ولا شيء يؤكد أنهم انفصلوا عن بقية الأزد، كـما وقع لأحمس بالنسبـة لبجيلة. وقد ورد ذكـرهم أثناء ثـورة زيد[٤٣] غـير بعيد عن عناصر من قيس هم رؤاس. والغريب أن نجـدهم في الشمال دائـماً، على حـدود الكوفة وعلى كلّ فإن نصّنا ناصع الوضوح وهو يفيد أن مزينة وأحمس وبارق وهي عشائر تنتسب إلى قبـائل مختلفـة، تجمعت خارج المـدينة أو يكـاد، حول الجبـانة وبعيداً عن الخطط المعهودة بالرغم من كونها عشـائر شـاركت في وقعة القـادسية. فماذا يعني هذا الانتقال الذي تم عن طيب خاطر كما هو مـرجح؟ هـل وقع لأنهم التحقـوا بالمهـاجرين المتـأخرين من عشـائرهم حيث لم يجـدوا مكـانـاً في الخـطط الأولى؟ هـل أن إرادة الابتعاد والتهميش جعلتهم يتجمعـون ويشيـدون مسجـداً مشتركاً؟ لقد استقبلوا المختار مرحبين، وقدموا إليه الماء[٤٤]. ولا يبدو أنهم كانـوا مهتمين بالاضطراب الذي اجتاح المدينة في ذلك الوقت. والملاحظ بهذه المناسبـة وخلف التوبوغرافيا الصرف، أن هنـاك اتجاهـاً في الكوفـة في أوقات مختلفـة يروم الانسيـاب إلى الخارج لأن المحيط يجـذب القبائـل والعشـائـر وأقسـام القبـائـل، واليعقوبي نفسه يقول في ذلك[٤٥]: «جاءت تميم وبكر وأسـد فنزلـوا الأطراف».

(٤٠) هذا ما فعله ماسينيون على خريطته حيث وضعهم إلى الشمال تماماً.

(٤١) أو إلى غربي الشمال الغربي لأن الازد أقاموا في خطة بجلة ـ بجالة، كما سيأتي ذكره.

(٤٢) كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٤٣) الطبري، ج ٧، ص ١٨٥.

(٤٤) الطبري، ج ٦، ص ٢٨: يبدو أن أحمس أبدت مودتها للمختار.

(٤٥) كتاب البلدان، ص ٣١١. لكن متى كان ذلك؟ هل جد في العصر الأموي أم بعده، لما دحرتهم حملة التشيع التي اجتاحت المدينة؟

وسنرى أن بكراً وعبد القيس اتصفت بعدم الاستقرار بصورة واضحة وهذا يطرح مشكل الجدلية بين المدينة والقبيلة.

لذا، ينبغي علينا قبول التشتت النسبي والمقام المتكرر أو المثلث لبعض القبائل بصورة ملموسة وضمن الهيئة القبلية التي كانت للكوفة، ارتباطاً بالتبوغرافيا وعلم أسماء المكان.

ب) المرحلة الثانية: ثورة الأشراف:

لم تكن رواية ثورة الاشراف غنية بمحتواها الاجتماعي وحسب، بل أنها تساعدنا على التقدم في تصورنا لمدينة الكوفة والعوالم القبلية التي كانت تقيم بها. ويتّضح مرة أخرى دور الجبانات كما دور الكناسة والسبخة. فقد اجتمعت مضر بالكناسة برئاسة شبث بن ربعي، أي تميم وعبس وضبّة(٤٦). كانوا يقومون بأحد الدورين الرئيسيين مع اليمنية وهو دور أهمّ بكثير من دور قيس ـ والملاحظ أنهم تميّزوا عنهم ـ كما أنه يتجاوز كثيراً دور ربيعة، لكن لم تكن لهم جبانة. وبمطالعة المصادر وإمعان النظر فيها، خاصة المصادر المرتبطة بهذه الفترة، نستدل جيداً على أن هناك استقطاباً شديداً للقبائل، وإحياء للروح القبلية وما يتصل بها من روابط عميقة بين السكن ومكان التجمع(٤٧)، خلافاً لما وقع خلال ثورة المختار نفسه. ففي هذه الصورة الأخيرة، توزّعت الحشود بترتيب من الحكم الذي ما انفك قائماً موجوداً، أما في الصورة الأولى، فقد صدرت المبادرة عن القبائل. ولذا فهناك احتمالات قوية أنه كان لمضر مواقع يمكن تحديدها الآن في غرب الكوفة، غير بعيد

---

(٤٦) الطبري، ج ٦، ص ٤٥؛ وأنساب الأشراف قسم ٥، ص ٢٣٢؛ من الغريب أن الدينوري وضع ربيعة وتميم في جبانة «الحشاشين» التي لم يرد ذكرها بأي مصدر: **الاخبار الطوال**، ص ٣٠٠.

(٤٧) الطبري، ج ٦، ص ٤٥: همدان في جباية السبيع، مذحج وكندة في جبانة كندة، خثعم في جبانة بشر، الأزد في جبانة مخنف، قيس في جبانة السلول، مضر في الكناسة، ربيعة بين المركز والسبخة.

عن الكناسة، وأن تميماً انتقلوا فعلاً من الشرق إلى الغرب. كما أكد ذلك ماسينيون وكما عرفناه من المصادر اللاحقة. لا شك أن هذا الإنتقال لم يكن تاماً شاملاً، لا سيما بالنسبة لتميم، حيث أن مواليهم من الحمراء بقوا في الشرق[٤٨]، كا يتأكد ذلك[٤٩] من وجود عشائر تميمية في منطقة ينبغي تحديدها إلى الشرق دون أي شك ممكن. وهنا أيضاً ينبغي العودة إلى فكرة تفريق الجموع القبلية حيث بقيت فلول منها بالموقع الأصلي في حين رحل أكثر أفراد القبيلة.

كانت الأمور أكثر بساطة بالنسبة لليمن خاصة همدان وكندة ومذحج، إذ بدت مستقرة من البداية. والملاحظ أن خثعم كانت حاضرة بصورة مهمة وقد حطت بجبانة بشر. واعتقادنا أن الأزد استقروا في مكانين أو ثلاثة، ثم أنه لم يكن لبجيلة وهم من أوائل المقيمين جبانة على ملكهم فكانوا ينزعون إلى الانضمام لخثعم عندما تفرض الظروف ذلك عليهم. ولنمعن النظر في المصدر الموجود بين أيدينا[٥٠]. لقد أقام عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني بجبانة السبيع، وأقام زحر بن قيس الجعفي (عشيرة من مذحج) واسحاق بن محمد بن الأشعث في جبانة كندة، وكعب بن أبي الخثعمي في جبانة بشر حيث لحقت به بجيلة، وأقام عبدالرحمن بن مخنف في جبانة مخنف «عن الازد». ثم تجمع كافة اليمنية، ما عدا أغلب مذحج المقيمين في جبانة مراد، في جبانة السبيع - جبانة همدان - حيث تقرر مصير الصراع الذي تواجه في الاشراف والمختار. فكان هذا التجمع مكتسباً صبغة استراتيجية واسعة جداً أبرزت أهمية هذه الجبانة، وقد تفوقت فيها همدان ضمن المجموعة اليمنية.

وكانت قيس تمثل القوة الثالثة، ولها أهمية ثانوية، وكانت برئاسة شمر

---

(٤٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٥.
(٤٩) المرجع نفسه، ج ٥، ص ٢٦٢: بنو حرب وبنو العنبر.
(٥٠) الطبري، ج ٦، ص ٤٥.

ابن ذي الجوشن المعروف في تاريخ الكوفة. وفي تلك الحقبة من تاريخ العرب الأولى كانوا متميزين عن مضر حيث أن المفهومين اكتسبا دلالة محدودة آنذاك ولم يتطابقا. تجمع قيس فروع هوازن وهو الاسم الذي اندمجت بواسطته قيس في إحدى قائمتي الاسباع[51] اللتين وصلتا الينا، أما سيف فلم يذكر سوى بني عامر بن صعصعة محدداً مقامهم إلى الشرق[52]. ولا شك أن قيساً تجمعوا حول نواة بني عامر أي جشم وسلول وبنو البكاء وكلاب بالخصوص[53]. وقد كان اسم جبانتهم سلول. ولا نعلم هل يجب تحديد مقامهم في الشرق تماماً كما فعل ماسينيون أو أن نضعهم في خطة تقع شرق ـ شمال شرقي وتكون امتداداً لخطة بني عامر الأولى، أو أن نهبط بهم إلى جنوب ـ جنوب شرقي. أما ربيعة فقد أقاموا غير بعيد منهم في مكان ما، بين سوق تجار التمور والسبخة وما زالت الغموضات تسود موقع هذه السبخة، الذي به يرتبط لا محالة كل توضيح لمخطط الكوفة، هل كان إلى الشمال الشرقي أو إلى الشرق تماماً، أو إلى الجنوب الشرقي؟ وإذا تمكنا من جهة أخرى من أن نقرر بصورة معقولة مقام قيس في مكان ما يقع إلى الشرق لأنهم كانوا يملكون جبانة خاصة بهم، ولأن بني عامر أقاموا به في بداية الأمر، فليس لدينا أية قاعدة توثيقية ولا أية علامة دالة تسمح بالقول إنه كان لربيعة أيضاً خطة بالرقعة الشرقية. الحقيقة أنه إذا أقامت ربيعة بين التمارين والسبخة، ونظراً لقبولنا الترابط القائم بين السكن والاستراتيجية، فنحن ملزمون بالتصديق بوجود دورهم بهذا المكان. وقد ذكر أبو مخنف أنهم تفرقوا سريعاً وأمروا بالعودة إلى دورهم. ولذا نجد هذا الاحتمال يؤيد وجود جوار معين. وهناك مؤشر إضافي آخر مفاده أنه خلال ثورة زيد بن علي، كانت محطته الأخيرة

(٥١) في السبع الرابع إلى جانب تميم والرباب: الطبري، ج ٤، ص ٤٨.
(٥٢) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٥٣) الجمهرة، ص ٢٧٢ وما بعدها.

عند تغلب قرب «مسجد بني هلال بن عامر» حيث تلقى البيعة[٥٤] ثم أعلن عن ثورته في جبانة السلول[٥٥] وذلك بعد سلسلة من التنقلات السرية بين القبائل. ويحتمل أن ماسينيون كان محقاً في تحديد موقع بكر على مخططه ضمن الزاوية التي تقع إلى الجنوب الشرقي من الكوفة[٥٦]، لكن بكرا أقل أهمية في هذا الموضوع من عجل التي ظهرت بمظهر النواة المتراصة لربيعة، إلى جانب عبد القيس وأكثر منها[٥٧]. ولعلهم جذبوا إلى فلكهم الفضائي تغلباً وتيم اللات والنّمر فضلاً عن بكر. لكن ينبغي اعتماد فكرة الهجرة الداخلية لهذه العناصر من شمال ـ شمال غربي إلى جنوب جنوب شرقي لأنهم استقروا في بادىء الأمر بقطيعة تقع في الشمال الغربي إلى جوار بجيلة[٥٨]. ثم أين نحددّ مقام عبد القيس الذين ورد ذكرهم في الكوفة سنة ٤٣ هـ[٥٩]، خلافاً لما أكده ماسينيون؟[٦٠] وأين يوجد موقع أهل هجر أبناء عمومتهم، الذين كانوا آخر من استقروا في الكوفة بين الروادف بمقتضى رواية المقريزي الذي اعتمد دون شك مصدراً قديماً؟[٦١].

---

(٥٤) الطبري، ج ٧، ص ١٧٢؛ لا نجد أية إشارة مفصلة في هذا الموضوع في **أنساب الأشراف** تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت ١٩٧٧، قسم ٣، ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٥٥) **المرجع نفسه**، ص ١٧٢ و ١٨١ و ١٨٢.

(٥٦) **مرجع مذكور**، انظر الخارطة.

(٥٧) تظهر نسبة العجلى دائماً أكثر من النسب الربيعية الأخرى، عند ابن سعد، **الطبقات** ج ٦، والطبري، ج ٥ وج ٦ وج ٧ في عدّة مواضع، **وأخبار الدولة العباسية**، ص ٢٦٠.

(٥٨) الطبري، ج ٤، ص ٤٥: راجع **أنساب الأشراف**، باريس، دار الكتب الوطنية، ورقة ٥٧٩، بخصوص خطة بكر.

(٥٩) الطبري، ج ٥، ص ١٨٤ و١٨٥ و ١٨٦ في روايته لثورة المستورد بن علفة الخارجي. إن المراجع كثيرة في هذا الموضوع: انظر فيما يلي، فضلاً عن وجود صحراء عبد القيس، الطبري، ج ٧ ص ١٨٢، ومسجد بنفس الاسم: **المرجع نفسه**، ج ٦، ص ٤٩.

(٦٠) **مرجع مذكور**، ص ٤٧، دون أن يعتمد أي مرجع وقد ذهب به القول إلى أن «اقطاعهم» قد ألحق بهمدان.

(٦١) **الخطط**، ج ١، ص ٩٣: اعتمد تاريخ الطبري.

نحن في حيرة من المؤلفين المحدثين الذين ينسبون إلى عبد القيس مسجد السهلة[٦٢] بالكوفة وهو ما زال قائماً[٦٣] في حين أنه موجود بأقصى الشمال الغربي من المدينة[٦٤]. فضلاً عن أنه ورد بنفس الرواية في نص أبي مخنف، ذكر مسجد عبد القيس بحيث لم يبعد كثيراً عن جبانة السبيع، وأنه أقيم قطعاً في المنطقة ذاتها[٦٥]. فتسلّط لذلك علينا الفكرة المتعلقة بثنائية قطائع ربيعة حيث يكون احتل عبد القيس موقعاً خارج المركز، من جهة الشمال الغربي، واحتل غيرهم موضعاً إلى الجنوب الشرقي اندمج اندماجاً متفاوتاً في قطائع قيس[٦٦].

ويكشف تحليل الأخبار المروية عن ثورة الاشراف، عن وجود تحوير طرأ على خريطة القبائل في هذه المدة الزمنية التي دامت خمسين سنة والتي فصلت بين المقام الأول (١٧ هـ) وثورة الأشراف (أواخر سنة ٦٦ هـ) فلا شك في ذلك قط. على أن هذا التحوير لم يجدّ عشوائياً بل بمقتضى مبدأ جاذبية صلة القربى، حيث يتم الانتقال إلى قبيلة الأشقاء. فمثلاً إذا تجمّعت قيس في اتجاه الشرق، فالمرجح أن ذلك تم لأن بني عامر كانوا مقيمين بالمكان، قبل ذلك[٦٧]. وأن رحيل أكثر

---

(٦٢) ذكره الطبري باقتضاب عند روايته أحداث سنة ٢٨١ : ج ١٠، ص ٣٦، لا عام ٢٨٦ كما قال ماسينيون الذي عرّفه بأنه مسجد عبد القيس: **مرجع مذكور** ص ٥٣. وقد انفرد بذلك الأمر.

(٦٣) كان بين المؤلفين القدامى الذين صنفوا مسجد السهلة بقائمة المساجد المباركة ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان**، ص ١٧٩. واعتمد البراقي خبراً للشيعة مقتبساً خاصة عن المجلسي والحر العاملي، معرفاً إياه بأنه مسجد بني ظفر: **تاريخ الكوفة** ص ٤٤ ـ ٤٥. ولم يرد ذكر عبد القيس في المصدرين. أما بنو ظفر فقد رتبهم ابن دريد ضمن العشائر مجهولة الاسم لبني سليم: **كتاب الاشتقاق**، بغداد، ١٩٧٩، ص ٣٠٧. والمرجح أنه ينبغي إسناد هذه التسمية إلى عشيرة بني ظفر التي كانت قبيلة عراقية ظهرت في مدة متأخرة بالاقليم واشتهرت بالغزو والحرب: كحّالة، **معجم القبائل العرب**، بيروت، ج ٤، ص ٣٤٥. لكن لا ننسى أيضاً أنّ بني ظفر عشيرة من عشائر الخزرج كثيراً ما ورد ذكرهم في **سيرة ابن اسحاق**: مثلاً ص ٣٥٩.

(٦٤) تبعدكيلومترينعن المسجد: الجنابي، **مرجع مذكور**، ص ٨٩ ـ ٩٣، زرناه سنة ١٩٧٩.

(٦٥) الطبري، ج ٦، ص ٤٩.

(٦٦) راجع الرواية الخاصة بملاحقة حجر بن عدي سنة ٥١ هـ. : الطبري، ج ٥، ص ٢٥٢.

(٦٧) الطبري، ج ٤، ص ٤٥ : اعتباراً لمخطط سيف.

تميم إلى الغرب عمل بالتأكيد على تيسير تمطط خطة بني عامر، وكذلك إذا وجدنا عبد القيس إلى الشمال الغربي فلأنه تقرر إنشاء ـ في بداية الأمر ـ خطة لتغلب وتيم اللات، لعلها كانت واسعة بالنسبة اليهم، لكنها اتسعت لا محالة إلى الشمال والغرب واستقبلت مهاجري عبد القيس الذين انضموا إلى علي. الحقيقة إننا لا نفهم كيف أمكن لجموع أخرى من ربيعة أن يقيموا في اتجاه الشرق: لعلهم احتلوا الزاوية التي تركها خالية التخطيط القائم على أساس الجهات الأربع. أما عن تميم وضبة، فقد خول لهم الرحيل إلى الغرب الحصول على فضاء حيوي أكبر، قابل للامتداد إلى ما لا نهاية. ولا بد أنهم استفادوا من وجود خطة اسندت إلى بجالة وبجلة المتفرعتين عن ضبة، والذين لا شك أنهم لم يكونوا كثيرين [٦٨]. ولعله يجب اعتبار هذه الخطة مخصصة لضبة[٦٩] جميعها، وقد انضمت تميم اليهم في وقت لا يمكن تحديده بدقة مع أن ماسينيون تمسك بتاريخ سنة ٣٧ هـ. دون حجج، وقد ذكرنا ذلك. يبقى صحيحاً لا محالة أن مجيء علي إلى الكوفة خلخل وجود المصر في الأعماق ولم يلبث أن انعكس بصورة ملموسة على هياكل عالم القبائل. وترتب عن مجيئه قدوم أكثر من البصرة إلى الكوفة[٧٠]، وجموع كثيرة من عبد القيس.

أما عن طيىء التي تحدثت عنها الروايات قليلاً، والتي كانت لا محالة حاضرة بالكوفة، فاعتقادي أنه ينبغي تحديد مكانها في خطة تحمل اسم جديلة. لماذا؟ لأن جديلة اسم آخر لطيىء. وحجتنا على ذلك نستمدها من كتاب

---

(٦٢) هذا ما أكده ابن دريد وهو من رجالات الكوفة: كتاب الاشتقاق، ص ١٩٣. لكن ابن الكلبي حدد موضع الأزد في خطة بجالة كما رأينا ذلك والملاحظ أن الأزد كانوا في غربي الشمال الغربي فيما يظهر، بينما ينبغي تحديد مقام ضبة وتميم غربي الجنوب الغربي. الحقيقة أنه يمكن تهبيط خطة بجلة بجالة إلى أسفل الخريطة، وهو مشكل مستعص على النظر.

(٦٩) ضمن الافتراض المعروض أعلاه فقط.

(٧٠) أنساب الأشراف، قسم ٤، ج ١، ص ٢١٥.

الجمهـرة[٧١] ومن الاشتقـاق لابن دريـد[٧٢]، ومن شـاهـد شعـرى[٧٣] حـاسم بخصوص الكوفة. لم تكن جديلة الكوفة من قيس كـما زعم سيف، ولا من أسد ابن ربيعة، بل من طيىء. هـذا وقد أكـد اليعقوبي أنهم اختـطوا قرب جبـانة بشر التي كانت لخثعم[٧٤].

هناك قضية تطرح فعلاً بخصوص خثعم، لورمنا أخذ خريطة سيف مأخذ الجد. كانت خثعم قبيلة يمنية مرموقة ولم تذكر على هذه الخـارطة، لكنهـا شاركت في حـرب القادسيـة، ويحتمل أن عـدد أفرادهـا كان قليـلاً، إذ لم يـذكـر أي رقم بشأنهـم. وقد قاموا بدور كبير أثناء انتفاضـة حجر بن عـدى[٧٥]، وقدمـوا الدعم للمختار ووقفوا ضده. كانت لهم جبانة شهيرة معروفة بجبانة بشر وهو اسم لأحد أبطال القادسية[٧٦]، وقد تـأكد أن الجبـانة كـانت أحد الأمـاكن الكبرى لتجمـع اليمنية، مثل جبانة كنـدة ومراد. كـانت بجيلة تلحق بهم فيها[٧٧]، بصفتهم من أقدم الإخوان لهم، منذ عصر الجاهلية[٧٨]. فهل أفسحـوا لهم مكانـاً في خطتهم الكبيرة التي زادت اتساعاً بعد رحيل أحمس؟ لا يبدو أن الأمر كما ذكـر ـ لأن قول أبي مخنف «ساروا اليهم»[٧٩]، يفرض مسبقـاً وصراحة تمييـزاً في السكن، كما أن

---

(٧١) مرجع مذكور، ص ٣٩٩.
(٧٢) **كتاب الاشتقاق**، ص ٣٨٠.
(٧٣) لعبدالله بن خليفة الطائي الذي ثار على زياد سنة ٥١ هـ: الطبري ج ٥، ص ٢٨١ ـ ٢٨٥.
(٧٤) **كتاب البلدان**، ص ٣١٠.
(٧٥) الطبري، ج ٥، ص ٢٦١.
(٧٦) بشر بن ربيعة: **فتوح البلدان**، ص ٢٨١؛ **والجمهرة**، ص ٣٩١.
(٧٧) الطبري، ج ٦، ص ٤٥.
(٧٨) **كتاب الاشتقاق**، ص ٥١٥. ينحدر كلاهما من الأنمار وهي مجموعة قريبة من نزار، لكنها كانت تقـع بموقـع ربيعة ومضر بـالذات ثم اعتبروا من اليمنية. راجـع كذلـك البكـري، **معجم مـا استعجم** ج ١ ص ٢٩٨، ابن الكلبي ورقة ٥٣.
(٧٩) الطبري، ج ٦، ص ٤٥.

السياق يوحي بالجوار واستمرار علائق القربى السابقة. وعلى هذا، ينبغي تحديد مقام خثعم بمكان تغلب، والأمر الأرجح كثيراً أن يكون ذلك في خطة جديدة كبيرة حددت أثر التخطيط الأول دائماً في الركن الشمالي الغربي، وربما في خطة طيىء كما أوحى اليعقوبي بذلك؟ وبصورة عامة، إذا قطعنا بخط صوري الكوفة قطعتين، أي الكوفة شمالاً والكوفة جنوباً، يظهر القسم الشمالي أكثر كثافة سكانية، وأشد هيكلة، بقطائعه المتراصة وشوارعه الضيقة. وهذا ما يتجلى من شهادة أحد رؤساء قيس، نعني شمر بن ذي الجوشن الذي أقام شرقاً ودعي لنجدة اليمنية في جبانة السبيع. فرفض نجدتهم معللاً رفضه بأنه يتعذر عليه القتال في السكك الضيقة(٨٠). وكأن الأمر قد تعلق في هذا الباب بخاصية تميزت بها منطقة الكوفة الشمالية ـ ونحن ندرك ذلك من قوله علماً بأنه كانت هناك من البداية، خمس طرق كبرى ارتبطت بخمس خطط، تقابلها أربع طرق في الجنوب وثلاث في الشرق والغرب فقط(٨١). لا شك أن هذه المساحة المسماة بظهر الكوفة في الجهة الغربية، كانت لها جاذبية ارتبطت ببعض العوامل الواضحة منها ارتفاع التربة ومتانتها وجفافها. لكن أيضاً قربها من النهر ـ منبع الماء والحياة والاتصال بالسواد. ولم يكن الأمر كذلك في المنطقة الغربية وحتى الجنوبية اللتين كانتا مرتفعتين قطعاً، لكنهما امتدتا في اتجاه البادية، على مسافة كبيرة(٨٢). وتطرح كثافة العمران في الشمال مشكلاً هو مصير تراتبية تلك الطرق التي تجلت لنا في خصوص العصر الأولي. فهل أن كلمة سكة تنطبق على الطرق الكبرى التي كانت مسالك أو على الشوارع الأقل عرضاً التي «تحاذى هذه ثم تلاقيها» أو على الاثنين معاً؟(٨٣). وإلى أي حد بلغ محو نسق الطرق وما هو الصنف الذي ألحق

---

(٨٠) الطبري، ج ٦، ص ٤٦ ـ أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٣٢.

(٨١) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

(٨٢) صالح العلي، «منطقة الحيرة» مقال مذكور، انظر الخارطة.

(٨٣) المرجّح أنها تنطبق على المناهج كما على السكك ذات ٢٠ ذراعاً.

به هذا المحو؟ استمرت قطعاً الطرق قائمة بصورة أو بأخرى على الأقل من حيث تفتح على المساحة المركزية، لأن أبا مخنف ما انفك يكرر قوله صحبة رواة آخرين بخصوص «أفواه السكك» (أي مداخل الشوارع ومخارجها ابرازاً لأهميتها الاستراتيجية[٨٤]. فمن تحكم في هذه «الافواه» تحكم في المدخل بقلب المدينة: الأمر صريح بخصوص الشمال وأيضاً بالنسبة للشرق قليل الضيق وواضح التخطيط، ويبدو أن هناك طريقاً كبرى للعبور كانت تقع بين الكناسة والقصر، بالنسبة للغرب أو الجنوب الغربي، وكان الأمر كذلك في البصرة بين المربد والمركز[٨٥].

ويخص السؤال الأخير تحديد موقع الجبانات دائماً بالاعتماد على هذا النص لا يبدو أنها كانت تقع في أطراف الخطط بل في مركزها، في منتصف المسافة حيث منفتح الخطة على المركز ومنتهاها في الخارج حيث تمحي[٨٦]. ولذا فلم تكن الجبانات محيطة فيما يظهر، بل مركزية. وما يدفعنا إلى اعتقاد ذلك هي طريقة الهجوم التي سارت عليها جنود المختار نحو جبانة السبيع، حيث قدم ابن الكامل وابن شميط من الجنوب، وهجمت شبام بغتة من الشمال، انطلاقاً من قطيعتها العشائرية[٨٧]. فتمت محاصرة الجموع التي تحصنت بالجبانة ووقع القضاء عليها. ولا شك أن الجبانة كانت تحديداً موقعاً استراتيجياً من جهة أخرى، ولا شك انها لاصقت الطريق الرئيسية، ويرجح أن السكك الثانوية كانت تصب فيها[٨٨]. ولا بدّ أنها كانت مفرقاً للطرق، فجسمت في آن مدخلاً سدّا يتحكم

---

(٨٤) الطبري، ج ٦، ص ٢٧ و٢٨.

(٨٥) المرجع نفسه، ص ٣٠: امتنع على المختار دخول الكوفة من الشرق والشمال، فأحاط بها. ورد ذكر البصرة بوضوح في أنساب الأشراف قسم ٤... ص ٢١٢.

(٨٦) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٨٧) الطبري، ج ٦، ٤٨.

(٨٨) المرجع نفسه، ص ٤٨.

في فوضى الخطط. ويمكن تخيلها مربعة الشكل أو مستطيلته، وأنها غطت عرض الخطة كله أو يكاد، بعرضها (٨٠ متراً لبني همدان، وهي خطة ضيقة لكنها تمددت وقد تجاوزت في الخطط الأخرى هذا الرقم). وامتدت على الطول بنفس المقدار أو يزيد: كانت الجبانة فضاء خالياً، غير مبني وغير مسيج بعد[٨٩]، وهي تحتل ما يقرب من هكتار على الأقل، وتشق امتداد البناءات في الخطة القبلية، فأتاحت بذلك تجمع عدة آلاف من الخلائق.

ج) حصار مصعب للكوفة ونهاية المختار (٦٨٧/٦٧)

إن هذه الحلقة الأخيرة من المأساة تسمح فعلاً بمزيد من التطلع، لا لوظيفة التجميع التي تقوم بها الجبانات الرئيسية، بل لدورها هذه المرة في الإحاطة وكعقدة لمرور البشر والمؤن، وصلة أساسية بين المركز والعالم الخارجي. فمن تحكم فيها تحكم في الكناسة والسبخة ويمكنه خنق القصر والمسجد. وهذا ما فعله جيش مصعب بن الزبير الذي جاء من البصرة لانهاء مغامرة المختار، بعد أن هزم جيشه في المذار.

ولنوضح بعض الأمور حول السياق السياسي إفادة للقارىء. حل الأمويون بعد في ٦٧ هـ قضية الخلافة داخل الأسرة، واستردوا الشام ومصر[٩٠]. وكان ابن الزبير يسيطر على الحجاز والعراق[٩١]، باستثناء الكوفة فعلاً التي انتزع منها المختار الولاء. لقد حرض المختار الكوفيين على الانتفاض بعنوان الأخذ بثأر الحسين كما بينا، فاستولى على الحكم في الكوفة. واعتمد على الموالي مغضباً الأشراف[٩٢]، الذين ثاروا عليه لكن أجهضت ثورتهم. وعند

(٨٩) انظر ما يلي.
(٩٠) **أنساب الأشراف**، قسم ٥، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.
(٩١) **المرجع نفسه**، ص ٢٧٣ ـ ٢٩٠.
(٩٢) **الطبري**، ج ٦، ٤٣ ـ ٤٤.

ذلك، توخى المختار سياسة التطرف. وطارد دون هوادة أعداءه وأمر بقتل كافة أسراه. فطارد «قتلة» الحسين ومنهم عدد من الأشراف الذي فرت عندئذ جماعات منهم واتجهوا إلى مصعب في البصرة وطلبوا منه النجدة وغرم ما لحقهم من ضرر[٩٣]. ووجه المختار جيشاً إلى الجزيرة لقتال عبيدالله بن زياد مدبر مقتلة كربلاء ووفق في القضاء عليه[٩٤]. وترتب عن عمله تأخير فتح العراق من قبل الأمويين، فتدخل مصعب الذي كان يريد توحيد العراق تحت راية ابن الزبير فضلاً عن أنه كان مدفوعاً إلى ذلك بشدة من طرف الأشراف المهاجرين من الكوفة. واتجه إلى الكوفة بعد انتصاره في المذار[٩٥]، صحبة جيش عتيد براً ونهراً في آن[٩٦]. وحاول المختار المستحيل مع من تبقى من الرجال - وكانوا بضعة آلاف - لقطع طريق الكوفة على مصعب، فتحصن في السيلحين[٩٧] (هل كانت تقع في الجنوب الغربي أم في الجنوب الشرقي؟) «وسكر الفرات على مجتمع الأنهار فذهب ماء الفرات كله في هذه الأنهار وبقيت سفن البصرة في الطين»[٩٨]. فتأخر وقت الزحف: ثمّ بدأ القتال في حروراء[٩٩] وكان مركزاً متقدماً للكوفة على طريق البصرة، حيث أقام الخوارج الأوائل بالذات وكانت محاولة أخيرة. لكن جيش المهلب بن أبي صفرة العتيد حمل على جيش المختار فدحره وتمادى المختار

---

(٩٣) المرجع نفسه، ص ٥١ - ٦٦، وأنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٣٦ - ٢٤١ و ٢٥١.

(٩٤) في معركة خازر سنة ٦٧ هـ: الطبري ج ٦، ص ٨٦ - ٩٢، وأنساب الأشراف، قسم ٥، ص ص ٢٤٧ - ٢٥٨.

(٩٥) الطبري، ج ٦، ص ٩٣ - ٩٧: وأنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٥٢ - ٢٥٥.

(٩٦) الطبري، ج ٦، ص ٩٩.

(٩٧) المرجع نفسه، ص ٩٥؛ صالح العلي حدد موقعها في الجنوب الغربي قرب طريق القادسية وحدده ماسينيون إلى الجنوب الشرقي قرب الفرات. ويؤيد السياق وجود الموقع إلى الجنوب الشرقي.

(٩٨) المرجع نفسه، ص ٩٩. استعملت كلمات مثل سَكَرَ وسِكْر وهي مصطلحات مائية مشتقة من اللغة الأكادية.

(٩٩) الطبري، ج ٦، ص ٩٩ - ١٠٠، وأنساب الأشراف قسم ٥، ص ٢٥٨.

يدافع عن مدخل الكوفة بحفنة أخيرة من أصحابه دفـاعاً مستميتـاً، براس سكـة شبث[١٠٠]، ثم تحصن في «قصره» أي قصر الإمـارة، واتخـذ كـل الاحتيـاطـات لمجابهة الحصار. هذه الأحداث يرويهـا الطبري عن أبي مخنف ويـرويها البـلاذري عن عـدّة مصادر أهمهـا أبو مخنف، وهي مفيدة لأكـثر من سبب وهـذه اللحـظة بالذات من ثورة المختار تـرشدنـا عن المحيط المباشر للكـوفة وتـطرح مشكلة الماء ومشكلة اتصال الكوفـة بالعـالم الخارجي وكيف يتم ولـوج المدينـة في اتجاه المـركز بتقدم بطيء.

قضيـة المـاء:

الواقع أنه ينبغي التساؤل عما هناك من علاقات بين الكوفة والماء. لقـد فرّ العرب الأوائل من عالم المياه، إن أمكن القول، من عالم المـدائن المائي، وأنشؤوا مدينتهم على اليـابسة. عـلى الأرض الصحراويـة أو يكاد. كـان ذلك عـلى ضفة الفرات قطعاً، لكن قبل عبوره ثم يبدأ بعد ذلك عالم الريف، وهو السواد الـذي كانت تخطّه قنوات الري التي تربط بين الفرات ودجلة. يذكـرنا التصـور الشائـع المترتب عن كلمات مثل الكوفة والحيرة والكناسـة والباديـة القريبـة جداً، بـالغبار ورائحة الصحراء. هذه حقيقة لأن الصحراء جاثمة بالباب أمام كل عين بصيرة. وهي مـوجودة بـالداخـل أيضاً لأن السكـان ـ يا لهـا من سخريـة قصوى ـ هيؤوا داخل الكوفة صحارى صغرى. إنّما كانت هذه الصـورة حقيقية إلى حـد ما فقط لأن الكوفة فعلاً نقطة اتصال بين عالمين، وقد أثبت الماء وجوده في البدايـة بفضل الفرات، وبكل ما يتبع الفرات كالسبخة التي أشرنا إليها مراراً، والقصب الـذي أضفى عـلى الكوفـة وجهها الأول، وبـالمقابلة بـين اللسان[١٠١] والملطاط[١٠٢]،

(١٠٠) الطبري، ج ٦، ص ١٠١.
(١٠١) الطبري، ج ٣، ص ٦١٩ وج ٤، ص ٤٢.
(١٠٢) عرّفه البلاذري بأنه يفصل بين الكوفة والحيرة. فتوح البلدان، ص ٢٧٧. الواقـع أن الملطاط كان محطّا لفيضان النهر.

وباكثار المصادر من استعمال كلمة «الظهر»[١٠٣] (اليابسة التي ترتفع فوق السطح أو التجويف وتقابله، كما يتقابل الظهر والبطن).

وتتكلم المصادر بخصوص الكوفة عن المسناة (سد) مع أنه كانت توجد مسناة اسمها مسناة جابر[١٠٤] بالحيرة بالرغم من الاعتقاد السائد بأن الحيرة كانت غائصة في الصحراء.

وتكمن أهمية نصوصنا سواء لدى الطبري ، أو لدى البلاذري[١٠٥]، في التدليل على وجود شبكة من القنوات في جنوب الكوفة وفي المنطقة التي كانت تقع قبل الفرات. وهذه القنوات معروفة بنهر الحيرة، ونهر السيلحين ونهر القادسية ونهر يوسف (يرجح أن يوسف بن عمر هو الذي أمر بحفره، ويكون إذن خطأ تاريخي ورد بالرواية). فما هي هذه القنوات؟ أين كانت توجد؟ ما هي وظيفتها؟ هل كانت قنوات قديمة مهملة فتح فعلاً المختار اتصالها بالفرات بعد أن كانت مقفلة، وبذلك جف أسفل الفرات؟ علماً أن الأخبار الخاصة بمعركة القادسية[١٠٦] تحدثت عن قناة اسمها العتيق ويبدو أنها كانت مهملة ولعلها كانت مسدودة، وقد أشار إليها المسعودي أيضاً واصفاً إياها بأنها مجرى قديم للفرات كان يصب في بحر قديم قام مكان بحيرة النجف[١٠٧]. من المؤكد أن الحيرة لم تكن تقدر أن تحافظ على وجودها المزدهر في الماضي كواحة من دون الري. وقد تغذت الضفة العربية للفرات بالماء بواسطة الأنهار = القنوات. ويحتمل أنها تعطلت أو تقهقرت في أواخر العصر الساساني وعادت إلى سالف نشاطها في العصر العربي. ومن المعلوم أن خالد القسري أمر بعد ذلك بحفر النهر الجامع

---

(١٠٣) الظهر هو «طريق البادية»: تاج العروس ج ٣، ص ٣٧١.

(١٠٤) الطبري، ج ٤، ص ٤٢٢ وج ٧ ص ١٨٥، ورد ذكر مسناة جابر في فتوح البلدان، ص ٢٨٠.

(١٠٥) التاريخ، ج ٦، ص ٩٩. أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٥٨.

(١٠٦) الطبري، ج ٣، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ ومروج الذهب، ج ١، ص ١١٧.

(١٠٧) مروج الذهب، ج ١، ص ١١٨.

ونهر خالد والمبارك وباجوه وبارمانه ولـوبه فمثـل كل ذلـك شبكة حقيقيـة[١٠٨] . ولعل الجامع وحده كان موجـوداً بمنطقـة الكوفـة[١٠٩] . فهل إليـه تلمّح المصـادر رغم أن ذلك خطأ تحقيبي؟ وهل كان قناة مخندقة تحيط بالكوفة ومنها تتفرغ الأنهار الأخـرى كما تصـور ذلك مـاسينيون، مشيـراً ضمنيـاً إلى خنـدق المنصـور؟[١١٠] وتكون تضمنت المصادر خطأ تحقيبياً آخر في هذه الصـورة أيضاً .

إن هذه مصادر قليلة الوضوح وقد تضمنت الهفوات والتراكيب العتيقة وهي تريد أن تثبت أن المختار أمر بغلق الفرات لصده عنالسيل إلى الأسفل . ولهذا سال الفرات بأكمله في « مجتمـع الأنهار » حيث تتجمع القنـوات وتنطلق جميعهـا من الفرات[١١١] . هذا المكان هو السيلحين الذي لايمكن تحديده بالجنوب الغربي على حاشية الصحراء بالحيرة وما خلفها كما فعل صالح أحمد العلي[١١٢] ، بل أنه يحدد في مكان ما بالجنوب الشرقي على الفرات . فهل يعني ذلك شبكة من القنـوات الخالية المهملة المهجورة التي لم يتبق منها سوى أثر مجوف على الأرض وقد أعادتها إلى سالف نشاطها ظروف عسكرية استثنائية أو أنها كانت قنوات مشغلة ، ملأها فجأة هذا التفريع أو قد كانت تروى جنوب الكوفة عادة ؟ لا ننسى أن الحيرة مازالت قائمة بكامل معاني الكلمة في القرن الأولى وما تلاه . فكيف أمكنها البقاء دون ماء ؟ من المعلوم أن هناك قطائع زراعية تابعة لجنوب الكوفة ، قبل بلوغ الفرات ، منها طيزناباذ[١١٣] . ثم لماذا كانت الكوفة ذاتها تتغذى بالماء بصفة سيئة في ذلك

---

(١٠٨) فتوح البلدان، ص ٢٨٩ ؛ وأنساب الأشراف، باريس السليمانية وجه ورقة ١٨٨ .

(١٠٩) فتوح البلدان، ص ٢٨٤ .

(١١٠) مرجع مذكور، ص ٤٦ والخارطة .

(١١١) الطبري، ج ٦، ص ٩٩ .

(١١٢) «منطقة الحيرة»، ص ٢٧ .

(١١٣) فتوح البلدان، ص ٢٨٤ .

العصـر لعدم وجـود فرع من فـروع الفرات يسـد حاجيـاتها من الشـراب على الأقل ؟[114] لا تناقض في هذا الأمر حسب رأينا ، بل إنه مجرد إهمال . كانت هذه القنوات موجودة أساسا لسد حاجيات الزراعة ، وكانت الكوفة تقع على حافـة الفرات فكانت تحصل مباشرة على الماء ، فضلاً عن قلة التنظيم ، فلم يتوفر لها سوى السقائين وبعض الآبار في القصر وفي بعض الجبانات[115] ولم يوجد شيء آخر . وبذلك اصطبغ حصار المختار بصبغة عظيمة سنة ٦٧هـ ، فكان حصـار العطش القاتل . على أنه يجب التأكيد لا محالة على تدخل عالم المياه وحضوره وتأثيره في هذه النقطة القصية من الصحراء ، فكانت الكوفة تعيش تبعاً لـذلك وضعـاً شديد التناقض ، وهو تناقض عم كل شيء دون ريب .

لقـد سمحت الحفريـات الأثريـة الخاصـة بالقصر بـابراز سـواقٍ شيـدت لإيصـال الماء[116] والمرجح أن ذلـك قد تم انـطلاقاً من الفـرات . ولا شـك أن السواقي أقيمت في عصر متأخر خلال حكم الأمويين، وهو تأخـير له مغـزاه أيضاً ويطفح بالغفلة واللاشعور. وقد تحدثت عن مثل هذا المصادر بخصـوص العصر الأول في بغداد. لقد وجب تـذكير المنصـور بضرورة تغذيـة المدينـة بالمـاء بصورة منتظمة[117]. ولعل كثرة الماء المستساغ هنا وهناك، في الكوفة كـما في بغداد، قـد أغنى عن التفكـير في الأمر، خـلافاً للوضـع الذي سـاد البصرة[118]. الواقـع لا محـالة أن الهـدف الرئيسي للحصـار الذي ضربـه مصعب على المختـار، يتمثل في القضاء على كل مقاومة تصدر عن المختار، فعمل على تعطيشـه .

---

(١١٤) وقد شيدت قنوات بعد ذلك: البراقي ، ص ٦٩ .

(١١٥) كان بئر المبارك بمقبرة جعفي : فتوح البلدان ، ص ٢٨٣ .

(١١٦) محمد علي مصطفى ، مذكور، ص ٤٨ .

(١١٧) الخطيب في كتاب Lassner ص ٥٨ .

(١١٨) Massignon «شرح تخطيط البصرة» في **Opera Minora** ج ٣، ص ٦٢ - ٦٤؛ ومادة بصرة في دائـرة المعارف الإسـلامية، طبعـة ثانيـة بقلم شـارل بيـلا الـذي أشـار إلى قضيـة المـاء في أطروحته .

هناك شهادات ملموسة عجيبة في قوتها وتلونها ، لقد نصب مصعب رجاله في النقط الاستراتيجية في الكوفة لقطع « الماء والغذاء » على المحاصرين في القصر . إنه لحصار مدينة عزلاء بلا أسوار ، وقد تم في وقت أول حصار القصر عن بعد ، أي في السبخة وجبانة السبيع أو الصائديين حسب المصادر ، وفي الكناسة وفي جبانة كندة(١١٩) : « ولربما رأيت خيل عبدالله قد أخذت السقاء والسقائين فيضربون ، وإنما كانوا يأتونهم بالماء إنهم كانوا يعطونهم بالراوية الدينار والدينارين لما أصابهم من الجهد ، وكان المختار ربما خرج هو وأصحابه فقاتلوا قتالاً ضعيفاً ، ولا نكاية لهم ، وكانت لا تخرج له خيل إلا رميت بالحجارة من فوق البيوت ويصب عليهم الماء القذر . واجترأ عليهم الناس ، فكانت معايشهم أفضلها من نسائهم فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللطف والماء ، قد التحفت عليه ، فتخرج كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة ، وكأنها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها ، فإذا دنت من القصر فتح لها فدخلت على زوجها وحميمها بطعامه وشرابه ولطفه ، وإن ذلك بلغ لمصعب وأصحابه ، فقال له المهلب وكان مجرباً : اجعل عليهم درويباً(١٢٠) حتى تمنع من يأتيهم من أهليتهم وأبنائهم ، وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه . وكان القوم إذا اشتد عليهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر . ثم أمر لهم المختار بعسل فصب فيه لغير طعمه فيشربوا منه ، فكان ذلك أيضاً مما يروي أكثرهم »(١٢١) .

إنه نص من نوع المنتخبات الأدبية يتضمن عالماً قائم الذات تلتقطه أبصارنا، عالم المرأة الاجتماعي والبشري . وهو لا يختلف كثيراً عن العصور القريبة منا . كانت النسوة مقنعات وكن يخرجن من بيوتهن بعلة زيارة الأقارب .

---

(١١٩) الطبري، ج ٦، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(١٢٠) وقال البلاذري أن الأمر وقع : أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٦١ .

(١٢١) الطبري، ج ٦، ص ١٠٥ .

لقد تشكلت واتضحت المظاهر البارزة للحضارة الإسلامية في خمسين سنة. لكنه يصور الصرامة الكامنة في قضية الماء على الصعيد المديني الصرف. ولنقل مرة أخرى أن ما جدّ في عملية مصعب يسمح عموماً باثراء رؤيتنا للكوفة من عدة وجوه. وها نحن نتعرض لمسألة أو مسألتين أخريين.

من جديد نقطة الدخول: السبخة والجبانات والكناسة.

كان على مصعب أن يقطع على المحاصرين في القصر كافة خطوط التموين أي على ما يقرب من ٦٠٠٠ شخص. كيف سيتم هذا العمل الصّارم؟ عسكر مصعب نفسه بالسبخة ونصب قواده بالكناسة وفي جبانة السبيع، وجبانة كندة، وجبانة مراد، وجبانة الصائديين[١٢٢]. والمعتقد أن هذه المواقع كان تمنع كل اتصال بالخارج فهي تمثل لذلك المخارج والمداخل الرئيسية وهي تراقب البقية أيضاً، وتراقب كافة طرق الخروج. تقدمت هذه الحشود بحذر في مرحلة ثانية كل حشد من الموقع المحدد له، وجهتها المساحة المركزية لتطويق القصر[١٢٣]. وليتم التعرف على هذه النقط الأساسية كان واجباً الربط بين المرحلتين واعتماد هذه الحركة الزاحفة.

- استهدف احتلال السبخة القضاء على كل اتصال عبر الفرات من أسفل ومن أعلى. فالسبخة تفصل الكوفة عن الفرات إذ ان أعلى نقطة في الشمال هي جسر المراكب، الجسر الذي عيّن ماسينيون موقعه جيداً[١٢٤]. لكن السبخة تتجه أيضاً الى الجنوب، ولا بدّ أنها تتسع عندما تلحق بمبتدىء بطائح الكوفة[١٢٥] وفي اتجاه البصرة.

---

(١٢٢) الطبري، ج ٦، ص ١٠٤ - ١٠٥ وأنساب الأشراف قسم ٥، ص ٢٦٠ - ٢٦١.
(١٢٣) المرجع نفسه، ص ١٠٥ - ١٠٦.
(١٢٤) مرجع مذكور، انظر الخارطة.
(١٢٥) هذا ما يمكن استنتاجه من تقدم مصعب: الطبري، ج ٦، ص ١٠٤.

ـ كانت جبانة كندة ومراد والكناسة أيضاً، على حاشية الحزام الواقع جنوبي الجنوب الغربي. وكانت لها نفس الوظائف تقريباً، أي الاتصال بالطريق الكبرى للحج التي تمتد حتى بلاد العرب[١٢٦]، مع اعتبار أن هذه الطريق بالذات، طريق الظهر، تنحرف إلى البصرة كما إلى الحيرة[١٢٧].

ـ تقفل جبانة السبيع المدخل في الشمال، بداية في وجه النجدات القادمة من عشائر همدان المختلفة مساعدة لإخوانهم الذين كان أكثرهم من همدان، وكانوا تحت الحصار. لكنها تمنع أيضاً الاتصال بالطريق الرابطة بين النخلة ودمشق ـ التي تراقبها الكناسة كذلك لأن موقعها كان يقع خارج المركز، وهي تشرف على وتقع بين الغرب والجنوب ـ وانطلاقاً من خطة همدان، يمكن فضلاً عن ذلك اللحاق بالنهر[١٢٨] واللحاق عموماً بالمنطقة الريفية في الشمال، منطقة البهقباذ الأوسط[١٢٩]. لا مراء في أن مثل هذا الوضع العاجل يعني تعطيل الصلة بالخارج وإيقاف المبادلات مع نقط العمران المجاورة فقط، أي القادسية والحيرة وممتلكات الاشراف في محيط المدينة، وقرى الأنباط ومختلف البوادي التي يقيم بهابد والمناطق المجاورة[١٣٠] والسواد أيضاً الذي كانت علاقته بالكوفة رخوة في ذلك الوقت، إذ كان يرتبط بها عبر الجسر لا غير.

ـ يبقى الحديث عما اكتنف جبانة الصائديين من غموض، وكانت من أقدم جبانات الكوفة وقد جزم البلاذري بأنها كانت ملكاً لهمدان[١٣١]. الواقع أن بني الصائد شكلوا بهمدان عشيرة معروفة[١٣٢]، فلم هذا الاشتباه بجبانة السبيع في

---

(١٢٦) كتاب البلدان ص ٣١١؛ وصالح العلي، مقال مذكور، ص ٢٥ وما بعدها.
(١٢٧) الطبري، ج ٦، ص ٩٩.
(١٢٨) الطبري، ج ٦، ٨٤.
(١٢٩) صالح العلي «منطقة الكوفة» مقال مذكور، ص ٢٣٧ ـ ٢٤١.
(١٣٠) المؤلف نفسه «منطقة الحيرة» مقال مذكور، انظر الخارطة.
(١٣١) أنساب الأشراف، قسم ٥، ص ٢٦٠.
(١٣٢) كتاب الاشتقاق ص ٤٢٩؛ والجمهرة ص ٣٩٥.

المقام كما في استراتيجية التطويق؟ ليس هناك ما يوضح هذا الأمر في تاريخ الطبري[133]، فقد احتل عبيدالله هذه الجبانة، فورد عليه أمر بالتقدم إلى القصر والوقوف قريباً من دار بلال[134]، (والمرجح أنها كانت لابن أبي بردة بن أبي موسى الاشعري). ذلك أنّ أحفاد أبي موسى أقطعوا نصف الأرى في قلب المركز في جهته الجنوبية الشرقية[135]. وكان رأي ماسينيون أن جبانة الصائديين كانت تقع إلى الجنوب الشرقي، غير بعيد عن جبانة سالم[136]، اعتماداً لتنوع الروايات الخاصة بالثورات، وما تضمنت من منطق داخلي. ويبدو أن مسيرة جيش عبيدالله ابن الحر أكدت هذا الأمر. لكن ما سبب وجود عشيرة من عشائر همدان بهذا المكان؟ وهل يجب إسناد هذه الجبانة الى عشيرة من أسد هي بنو الصيداء[137]، مما يفسر لا محالة سبب تسميتها بجبانة الصيداويين في مصادر كثيرة[138]؟ ولكن خطة أسد كانت تقع في الجنوب الغربي بصورة مبدئية اعتماداً للتقسيم الأولي فتبقى القضية قائمة الذات.

تسليط الأضواء على المركز

سبق لنا أن مصعباً أمر بوضع الدروب لقطع كل اتصال بين المركز والخطط. ولعله وقع الاحتفاظ بها لأن المصادر اللاحقة تحدثت عنها[139]. تعني كلمة درب (دروب في الجمع) أوّلاً «سكة قليلة العرض» تمتد من ٨ إلى ٩ أمتار

(١٣٣) الطبري، ج ٦، ص ١٠٥.
(١٣٤) الطبري، ج ٦، ص ١٠٥.
(١٣٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(١٣٦) مرجع مذكور، انظر الخارطة.
(١٣٧) كتاب الاشتقاق، ص ١٨٠.
(١٣٨) كتاب الأغاني، ج ١٦، ص ٥.
(١٣٩) الطبري، ج ٨، ص ٥٦١ وما بعدها. ليس مؤكداً أنها كانت موجودة خلال العصر الأموي، راجع لا محالة أنساب الأشراف ج ٣، ص ٢٤٣.

تقريباً[١٤٠]. فتجاوز عرضها عرض الزقاق، وكان دون عرض السكة وأضيفت فيها بعد أبواب بأطراف الدروب[١٤١] فاتسعت دلالة هذه الكلمة وأصبحت تدل على الأبواب الكبرى التي تقفل السكك[١٤٢]. والمعتقد أنه وقع تجهيز بعض السكك أو كلها، التي تفتح على المركز بأبواب. ذلك بداية من عصر مصعب. كان الأمر كذلك في العصر الموالي بالنسبة لأسواق الكوفة بعد أن بنيت وهيئت[١٤٣]، وشملت العملية بغداد وغيرها من المدن، فأصبحت الأبواب تغلق عند الطلب، لا سيما عند المغرب واتجه التطوّر نحو استحواذ الخواص على هذه السكك. هنا كانت محاولة لفرض رقابة تامة سلطتها الدولة على الاتصالات بين المركز العمومي والحزام السكني، وربما تكلل مسعاها بالنجاح أو أنها لم توفق في ذلك. لقد جسمت المدينة المستديرة هذه الإرادة التعسفية تجسيماً قاسياً كاد أن يكون مَرَضياً لأن المرور لم يقع أبداً إلا عبر مركبات الأبواب[١٤٤] وكلما تمادت المدينة الإسلامية في البناء إلا وتحصنت وصارت منيعة، وكبتت الطاقة البشرية في بروج داخلية. ومن العجيب أن الروح الثورية بالكوفة ـ التي يمكن مقارنتها بما كان عليه الوضع في باريس خلال القرن التاسع عشر ـ كانت مصدراً لمثل هذه الاختيارات.

ونستمد فوائد أخرى من عصر مصعب، يقول ابو مخنف[١٤٥]: «ثم أن مصعباً أمر أصحابه فاقتربوا من القصر. فجاء عباد بن الحصين الحبطي حتى نزل عند مسجد جهينة. وكان ربما تقدم حتى ينتهي إلى مسجد بني مخزوم»[١٤٦] الذي

---

(١٤٠) كان لدروب بغداد عرض يساوي ١٦ ذراعاً: كتاب البلدان، ص ٢٤٢.
(١٤١) المرجع نفسه، ص ٢٤٢.
(١٤٢) لسان العرب، مادة درب.
(١٤٣) أغلقت دروب الأسواق خلال ثورة زيد: الطبري، ج ٧، ص ١٨٢.
(١٤٤) راجع الخطيب في كتاب Lassner ص ٤٩ وما بعدها. انظر أيضاً ما يلي.
(١٤٥) الطبري، ج ٦، ص ١٠٥.
(١٤٦) المرجع نفسه، ص ١٠٥.

كـان على رميـة سهم من القصر[147]. ورد اسم بني مخزوم في هـذه العبـارة، ولم يكونوا من قريش، بل كانوا عشيرة صغيرة من عبس انتمى اليها حذيفة بن اليمان من صحابة الرسول[148]، وقد تضافرت المصادر على ذكر حضور بني عبس قرب المسجد[149] في المركز وهذا أمـر شاذ. الـواقع أن العشـيرة المقصودة هي عشـيرة عبس التي شاركت حذيفة في النصف الثاني من الآرى[150] في قلب المركز، وهـو يقع في الركن الجنوبي الغربي، وكان إقطاعاً شبيهاً باقطاع أبي موسى[151] الموجـود بالركن المقابل. ومبرر ذلك لا محالة أن بني عبس بقوا بحامية المدائن عنـد تخطيط الكـوفـة[152]، إلا أن سعـداً هيـأ فضـاءات للغـائبـين الـذين عـرفـوا بـأهـل الثغور[153]. فعلينا التخلي عن فكرة سادت وهي تقول بوجود حـزام رقيق داخل المركز، خصص للقرشيين والأنصـار، ويكون أحـاط به من كـل جانب بمـا يشبه الخطة المستديرة التي كانت لأهل الرايـة بالفسـطاط[154]، ولكن كان المـركز ومـا جاوره مباشرة يتضمن بعض الدور الخاصة بالأشراف من كبـار الصحابـة[155].
ولا شك أن أقرب القطائع من المركز داخـل الخطط بـالذات، لا بـد أنها أسندت لأهل العالية وشمل هذا الأمر جهينـة وهي تطرح علينـا مشكلاً، فلقـد حصلت على خطة كاملة منذ البداية، كـانت تقع بـأقصى الجنوب من جهـة الغرب[156].
كـانت خطة هـامة لا محـالة تسـاوي خطة كنـدة وقد ورد ذكـرها كثيـراً في مختلف

---

(١٤٧) المرجع نفسه، ص ١٠٦.
(١٤٨) كتاب الاشتقاق، ص ٢٧٨.
(١٤٩) كتاب البلدان، ص ٣١٠ و٣١١، والطبري ج ٤، ص ٤٥.
(١٥٠) كتاب البلدان ص ٣١٠.
(١٥١) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(١٥٢) الطبري، ج ٤، ص ٤٣.
(١٥٣) المرجع نفسه، ص ٤٥.
(١٥٤) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٩٦ وما بعدها.
(١٥٥) كتاب البلدان، ص ٣١٠.
(١٥٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٥.

المصادر[١٥٧]. ورأينا في هذا الخصوص أنها كانت تقع بمقدمة كندة، وتجاوزتها في اتجاه المركز، وكانت ممراً إجبارياً له[١٥٨]. كان المفروض أن يأتي مثلاً الشعبي من كندة فقيل انه كان عليه المرور بجهينة حيث عليه أن يقطع كل يوم مسافة طويلة تؤدي به إلى الجبانة[١٥٩].

وباستثناء ذلك، يوحي لنا عصر مصعب ببعض العناصر التوبوغرافية المهمة المتمثلة في وجود دار السقاية[١٦٠] التي كانت بناية عمومية للتموين بالماء، كما وجود موضع للحدادين «حيث تكرى الدواب»[١٦١] أي غير بعيد عن الكناسة، وينبغي تحديده بمكان يقع بين جبانة مراد والكناسة ذاتها وعلى الحدود الغربية إلى الجنوب الغربي من المركز. وهناك اسم مكان آخر هو زقاق أو شارع صغير عرف بزقاق البصريين ولعل اسمه مستمد من أن أهل البصرة أقاموا فيه إقامة دائمة، سواء كان ذلك بعد هذا العصر أم لا. وكان بمنتهى سكة جذيمة من أسد[١٦٢] وفيه كمن أحد قواد مصعب في اللحظة الأخيرة التي تم خلالها تطويق القصر[١٦٣]. هذا خبر ثمين لأنه يعني أن فكرة السكة استمر تطبيقها على طرق العشائر وليس على الطرق القبلية الكبرى وحسب، وكانت الأزقة تقطعها قطعاً متعامداً أو مائلاً[١٦٤]. وبصورة أعم، سواء فحصنا هذه الرواية أو غيرها - رواية هجوم شبيب على الكوفة مثلاً[١٦٥] ثم ثورة زيد بن علي[١٦٦] - فإن ما يبرز للنظر

(١٥٧) فتوح البلدان، ص ٢٧٩.
(١٥٨) الطبري، ج ٦، ص ١٠٥.
(١٥٩) وكيع، ج ٢، ص ٤٢٤.
(١٦٠) الطبري، ج ٦، ص ١٠٦.
(١٦١) المرجع نفسه، ص ١٠٦.
(١٦٢) الطبري، ج ٦، ص ١٠٦.
(١٦٣) حوشب بن يزيد: الطبري، ج ٦، ص ١٠٦.
(١٦٤) انظر ما سبق.
(١٦٥) الطبري، ج ٦، ص ٢٢٤ - ٢٧٦.
(١٦٦) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٨٠ - ١٩٠. لم يذكر شيء عن شبيب في «الكامل» للمبرد، ج ٣ ص ٢٦٨ - ٣٣٧، وقد تبسط في الحديث عن خوارج البصرة.

هي صورة الكوفة التي خطتها السكك من كل جانب، السكك التي كانت الممرات الوحيدة بين المركز والخارج. ذكر أبو مخنف باستمرار عبارة التحكم في «أفواه» السكك في نصه[١٦٧]. وتدل التطورات التي مرت بها ثورة المختار على أن هذا يمثّل عائقاً يحول دون الدخول إلى المدينة. وتتواجب «الأفواه» الخارجية مع «الأفواه» الداخلية التي تفتح مباشرة على المركز وهو منطلقها.[١٦٨] كانت تلك حال سكة جذيمة[١٦٩]. لكن هل حافظت السكك على نفس العرض على طول امتدادها، أو أنها ضاقت بحيث أن فتحاتها في المدخل والمخرج شكلت وحدها التغيير السابق؟ ألم يمح بعضها فلم تحتفظ سوى «بأفواهها»؟ ألم يبرز غيرها بعد تصميم سعد الأول، ضمن تخطيط آخر، كما وقع في سكة البريد وسكة لحام جرير[١٧٠]؟ لا بد أن طريقة طمس الطرق غير متقدمة بما يكفي في عصر المختار وحتى في عصر لاحق حيث جمع أبو مخنف أخباره من أناس كانوا شهود عيان لم يعيشوا بعد سنة ١٠٠ إلى ١١٠ هـ، ويكون هذا التطوّر حتمية دون شك ولا حتى تطوراً متوقعاً ممكناً طيلة العصر الأموي. فقد بقيت الكوفة مصراً عسكرياً فكان لازماً تجنيد الرجال وتوجيههم إلى القتال بسرعة. والمؤكد أن نسق السكك المشع من المركز إلى الخارج دام فترة طويلة.

وهكذا يتضح أن المدة التي اندلعت خلالها ثورة المختار بمراحلها الثلاث كانت غنية بالأخبار المتعلقة بشخصية الكوفة الجسدية. علماً أننا نتعرف بواسطتها على علامات كثيرة ذات دلالة تمكننا من تحديد موقعها. وإذا ما افتقدنا تلك العلامات، فلا مناص لنا من مواجهة حيرتنا بشأنها وهي كبيرة.

---

(١٦٧) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٠ و ٢٥ و ٢٧ . . .

(١٦٨) المرجع نفسه، ص ٢٢: تمركز كعب بن أبي كعب بالميدان أي بالرحبة ومنع شاكر من الدخول إليه إذ استولى على «أفواه سككهم وطرقهم» من جهة المركز.

(١٦٩) انظر ما سبق.

(١٧٠) الطبري، ج ٦، ص ٢٥.

لقد اطلعنا على الرواية المتعلقة بالمختار على متسويين: مستوى ساذج ومستوى متعمق. وقد جارينا القَصّاص في الحالة الأولى ـ لأنّه قَصّاص حقاً ـ واكتشفنا الكوفة عبر الأحداث التي خلخلتها والتي رويت مشحونة بحركة البشر واضطرابهم . واعتبر المستوى الثاني أمراً مفروغاً منه معرفتنا للثورات الأخرى وقدرتنا على القيام بمقارنة نقدية بين العلامات الدالة. إنما نستهدف من وراء ذلك التعرف على الأماكن قطعاً واستعراض تخطيط المدينة بصفة عادية. لكن أيضاً ومجاراة لأبي مخنف فاننّا نبعث للوجود مرة أخرى هذه المدينة بصورة من الصور، ونعيد تعميرها واحياءها، إذ تلك هي الوسيلة الوحيدة لارتياد هيكلها. لم يكن أبو مخنف يريد إخبارنا عن الكوفة بل عن الأشخاص الذين قاموا بدور ما وعن الوقائع التي جدت على مسرحها. صارت الكوفة ديكوراً حيث تتجدد نفس القصة مما جعل الغموض يسود فنعود بصفة شبه مستمرة إلى نفس النقاط الساخنة في رواياته. هل أراد رسم اشخاصه في إطار غير مميز، بتدقيقات كافية لتغذية الخيال؟ إنه مشكل كبير مطروح في هذا المجال. لقد اجتهد في تعريف بعض الناس جيّداً، فاهتم بهم أكثر مما اهتم بالأماكن، فكان يسمي ويعرّف أقل شخص منهم، فتبلور لديه ولدى الإخباريين الآخرين عالم البشر، وعالم العمل والسياسة وعالم الكفاح، أكثر من عالم الأشياء الجامد، أي عالم الآجر والماء والرمل. لكن هذا العالم كان قائماً بذاته وهو يستمد حياته في جوهرها من حياة رجال التاريخ الذين وضعهم أبو مخنف بحد أدنى من الظروف الملموسة كما يفعل كل قصّاص يحترم نفسه. وإذ كان أبو مخنف قصّاصاً متفنّناً إلا أنه بقي مؤرخا. فكان علينا المراهنة على جزء صغير من الدقة التوبوغرافية حتى نتمكن من مزيد من الاحاطة بالموضوع، والاستمرار في هذه القراءة ومقابلتها بمصادر أخرى. إن أبا مخنف لم يخترع الجبانات أو السكك أو الصحارى أو السبخة، فقد ورد ذكرها في كتب أخرى. ولسنا بصدد السباحة في الخيال بل أن هناك أرضية من الواقع نقف عليها. لكنه يجول بنا على هواه، ويتحول بنا من اليمين إلى الشمال، ثم

يدور بنا نصف دورة، ويتركنا متعطشين للتعرف على الأماكن. لقد قال الكثير عنها ولم يقل ما به يشفي غلتنا. ويكمن التناقش في أنه يحثنا على النزوع إلى الاستماتة في البحث التوبوغرافي لكونه يقول الكثير ولا يقول ما يغني. هذا ميل مشروع ضروري وغير مجد في آن. أليس الأساس أن نفهم حقيقة بنية المدينة وسير أجهزتها؟ والا يكون مما لا طائل من ورائه للتعمق في المعرفة أن نتأكد أن السبخة كانت تقع في الشمال الشرقي لا في الشمال الغربي؟ هذا صحيح دون شك ضمن مشروع شامل للفهم الوظائفي. وليس بصحيح، إذا اعتمدنا منظور إدراك الملموس حيث يريد المرء معرفة طريقه لا أن يشيح له بظهره. وهناك حقيقة أصلية للاماكن تجعلها حيث هي لا في موضع آخر. وما نستفيده من التمعن في هذه الروايات أنها تتيح بعض الفرص لإدراك هذه الحقيقة ـ ولعلنا نتيه ـ وتفتح لنا آفاق شاسعة لروح الأماكن، وترسم لنا دون شعور منها الرسم الجانبي للشخصية الجسدية للكوفة في حياتها الملموسة أكثر ما تكون نصاعة: نحن لا نتحرك في المجردات بل نحافظ على حد أدنى للاتجاه، مثلنا مثل مسافر متعجل نزل بمدينة يجهلها، وقام بجولة فيها، بحيث يمكن لنا التعمق في التخطيط والاجتهاد في معرفة سكة معينة، أو التشبع بجو المدينة دون النظر لأي تخطيط، أو الانتقال من النظر إلى التخطيط إلى تأمل المحيط. إن مصدرنا يمدّنا بنفس الاختيار. وشعورنا مزدوج مرير صحبة أبي مخنف بتقدمنا الكبير وتعثرنا التام. وما قدمه بخصوص جولته عبر المدينة يسمح لنا برؤية كل شيء مع أننا لن نقدر على الرجوع إلى الفندق لو كان علينا الذهاب إليه بمفردنا.

الفصل الثامن عشر

شبيب (٨٦ - ٧٧/ ٦٩٥ - ٦٩٧)

استطلاع ثان

حدث ثورة شبيب له أهمية قصوى وهو معبر في أكثر من نقطة، ومن خلاله تتضح جغرافيا تاريخية كاملة بفضل جولاته السريعة الخاطفة عبر فضاء واسع يغطي منطقة نفوذ الكوفة، في أذربيجان وبلاد الموصل وأرض جوخي والسواد، والكوفة ذاتها، وما حواليها في باديتها الواسعة. يبرز كل ذلك بصفة غير مباشرة أمام أبصارنا بحيث أصبح يشدنا إليه: أسماء المكان، الطرق والمسالك، وضع الريف - عالم من القرى والأديرة والسدود والقنوات - مستقرات البدو في الجزيرة والسواد والجبال، أو المترامية في سباسب الكوفة. وفي الامكان أن نستمد منها الكثير على الصعيد السياسي والاجتماعي والبشري، لكننا لسنا بصدد النظر في ذلك لأن الكوفة التي اتجه اليها شبيب بعنف تبقى الشخصية الرئيسية. وتتسع دائرة الاكتشاف قليلاً بوجود شبيب، فترتفع الكوفة شيئاً من الغموض الملتف بهيكلها ومحيطها.

نحن ملزمون بالرجوع إلى اسفاف التوبوغرافيا، واللهث دوماً وراء حقائق مستحيلة إلى أن نحصل على بعض التدقيقات. نبدأ بلحمة الأحداث كما رواها أبو مخنف الذي اعتمد عدة شهود وأسانيد(١٧٢) فانتاب التردد الرواية ونعتمد آخرين منهم عمر بن شبه(١٧٣). يظهر أن شبيباً كان يرمي إلى بث البلبلة في جهاز السلطة بالعراق وتحديها، وإشاعة الاصطراب في مواردها. والدخول حتى

---

(١٧٢) لا سيما فروة بن لقيط الذي حضر الأحداث: الطبري، ج ٦، ص ٢٦٢ - ٢٦٧.
(١٧٣) الطبري، ج ٦، ٢٧٢ - ٢٧٦.

مركزالكوفة ،وكان ذلك هو الهدف الرمزي الأسمى فوفق ولو مرة واحدة على الأقل في ذلك، دون أن يمدد إقامته. لكن أصر على الاحاطة بالمدينة المدافعة عن حياضها، الخائفة، فكان لا يكل في البحث عن ثلمة ينفذ منها فأصبح الجسر والسبخة ودار الرزق وكذلك أفواه السكك والقصر والجامع وخطة بني شيبان ـ قرابته(١٧٤) ـ نقطاً حساسة ازدادت وضوحاً لدينا.

أ) جاء شبيب مسرعاً من المدائن في مرحلة أولى، فامتنع عليه دخول الوفة، وهدّه عن ذلك جيش يتركب من ٢٠٠٠ رجل وهو بقيادة سويد بن عبد الرحمن السعدي. وقد عسكر هذا الجيش في السبخة ثم عبر الفرات وسيطر على مدخل الجسر(١٧٥)، جسر المراكب الذي يجب وصفه وتعريفه بدقة، ما أمكن ذلك.

فراوغه شبيب وعبر النهر بمرأى من سويد الذي كان يلاحقه، وبلغ دار الرزق التي ورد ذكرها لأول مرة في مثل هذه الروايات(١٧٦) التي أهملت ذكرها بخصوص المختار مثلاً. وعلم شبيب بوجود حشد آخر بقيادة عثمان بن قطن نزل بالسبخة، ولذا ينبغي تحديدها في مكان آخر غير دار الرزق وحتى الجسر، إلى أسفل النهر وفي الشرق تماماً، فدار حول الكوفة كلها، واستمر سويد يتأثره فحال بينه وبين دور الكوفة(١٧٧). وعند ذلك، اتجه شبيب إلى الحيرة، ثم ابتعد نحو أسفل الفرات (على بعد ٢٤ فرسخاً)، وعاد أدراجه إلى البادية، باثاً الرعب في بني شيبان، وعاد أخيراً إلى الشمال ماراً بانبار، فبلغ أذربيجان(١٧٨). بعيداً كل البعد.

---

(١٧٤) من تميم بن شيبان، كان شبيب بن أحمد من الأولين وابن أمة بيزنطية أحبت سيدها، وقد تعلق بها شبيب كثيراً: راجع مثلاً الطبري، ج ٦، ص ٢٥٥؛ نشأ في بادية بكر بالجنوب الغربي من الكوفة: الطبري، ج ٦، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(١٧٥) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٣٦.

(١٧٦) الطبري، ج ٦، ص ٢٣٦.

(١٧٧) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(١٧٨) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

ب) وبذلك كانت هذه المحاولة الأولى فاشلة. ونجحت المحاولة الثانية في نفس السنة. اكتسح شبيب الكوفة بسرعة حيرت السلطة وهياكل الدفاع عن المدينة. لكن الحجاج علم بالأمر وهو في البصرة[١٧٩]، فسبقه إلى الكوفة، ولم يكن له متسع من الوقت سوى بضع ساعات لتنظيم جهاز دفاعي، لكنه لم يفعل شيئاً. فعسكر شبيب هذه المرة بالسبخة ذاتها، ودخل الكوفة راكباً مع رفاقه عند المغرب[١٨٠]. والمعتقد إذن أن السيطرة على السبخة كانت تعني السيطرة على مفاتيح المدينة وأنّ المسافة التي تفصلها عن المركز كانت قصيرة وأن الجانب الشرقي يوفر تسهيلات للدخول، ويمثل إلى حد ما الموقع الرخو للمدينة، الا إذا تقرر غلق السكك، ولم يكن الأمر كذلك هذه المرة. دخل شبيب السوق وروى ما يلي: «فجاء شبيب حتى انتهى إلى السوق ثم شد حتى ضرب باب القصر بعموده. . . ثم أقبل حتى وقف عند المصطبة»[١٨١] (كانت المصطبة منصة لإقامة الاحتفالات العسكرية حسب ماسينيون). .[١٨٢]. وتمثلت المرحلة الموالية في دخول الخوارج الجامع الذي كان «كبيراً لا يفارقه قوم يصلون فيه». قتل بعض الناس وتراجع القوم مروراً بخطة شيبان. وحطوا أمام دار حوشب ـ صاحب الشرطة ـ ومسجد بني ذهل بن معاوية قطعاً وهم من كندة. وقتل رجلان ووقع التشنيع بأحد القتيلين[١٨٣]. ولا بد أن هذه الأمور كلها جدت في فترة وجيزة جداً، وكانت خطة شيبان مجالاً لحقد جد غريب وكثير الدلالة، كان شبيب يكنه لقبيلته ذاتها، فهل في الإمكان تحديد موقعها على الأقل؟ كانت تقع على الأرجح في الزاوية الجنوبية الشرقية بالرغم من أن مسجد بني ذهل الذي ورد ذكره في ثورة

---

(١٧٩) المرجع السابق، ص ٢٤٠.
(١٨٠) المرجع السابق، ص ٢٤٠.
(١٨١) الطبري، ج ٦، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(١٨٢) مرجع مذكور، ص ٥١. كانت تقع بالميدان معناه رحبة في اللغة الفارسية.
(١٨٣) الطبري، ج ٦، ص ٢٤١.

حجر بن عدى لا علاقة له ببكر وإنما هو مسجد لإحدى عشائر كندة[١٨٤]. لكن المهمّ أن شبيباً ترك المكان واتجه رأساً إلى المردمة[١٨٥]. وكان دون شك مكاناً يدل على مرتفع من الأرض أو سد على الفرات أو إحدى قنواته. ويدل جذر (ر، د، م) على فكرة السد، وغلق الثغرة بتكديس المواد[١٨٦]. فضلاً عن أن هناك من يتولّى جمع العشور[١٨٧] (المقصود هنا مكوس المرور والجمارك، والمكوس التجارية)[١٨٨]، وأخيراً، لأنا نجد شبيباً بمنطقة الفرات أسفل الكوفة (أسفل الفرات) فوراً بعد مروره بالمردمة حيث اصطدم بأحد أعوان الحجاج الذي جاء صحبته من البصرة وتأخر في الطريق. وهناك مؤشر أخير هو أن صاحب الكوفة جرحت كبرياؤه وأهين فاستيقظ من سباته ووجه بسرعة جيشاً لمطاردة شبيب والتقى قواده فعلاً «بأسفل الفرات»[١٨٩]. إن كل الاشائر تدل على أن خطة بكر الذين أقاموا بالكوفة اتحدت مع خطة عجل وتغلب وكانت تقع في العصر الأموي بالجنوب الشرقي من الحزام السكني وداخله. بين قيس وبقايا تميم (بنو العنبر) من جهة، وكندة من جهة أخرى، لكننا نجهل هل استقروا بالمكان الذي كان خالياً في بداية الأمر، على المخطط المتعامد وهل دخلوا الخطةالأوليةالتي كانت للأزد؟ ولا زالت[١٩٠]. أما قضية بكر الخارجين عن الكوفة والموجودين بأسفل الفرات كما بعيداً جداً إلى الغرب في قلب البادية فقد اتضح وضعهم إلى حد ما بفضل هذا النصّ.

---

(١٨٤) الطبري، ج ٥، ص ٢٦٢؛ بخصوص وجود عشيرة بني ذهل بن معاوية من كندة ومسجدها بالكوفة راجع: ابن الكلبي، النسب، ورقة ٢٤.

(١٨٥) الطبري، ج ٦، ص ٢٤١.

(١٨٦) لسان العرب، ج ١٢، ص ٢٣٦ وما بعدها، وتاج العروس، ج ٨، ص ٣٠٩.

(١٨٧) الطبري، ج ٦، ص ٢٤٣.

(١٨٨) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(١٨٩) الطبري، ج ٦، ص ٢٤٣. هناك ترادف بين أسفل الفرات والسيلحين، ولعل الكلمة الأولى تعني منطقة البهقباذ الأسفل وليس النهر بصفته تلك.

(١٩٠) بقيت على الأقل بارق بخطة الأزد الأولى والأرجح أن غالبية الأزد كانوا بالشمال الغربي.

ج) جدت محاولة ثالثة لدخول الكوفة سنة ٧٧ هـ. كانت أكثر اتصافاً بالمظهر الدرامي من المحاولات الأخرى، لأنها كانت معركة حقيقية خسرها شبيب. فقد ضخم أبو مخنف الأحداث أكثر مما فعل عمر بن شبة الذي ورد ذكره أيضاً في تاريخ الطبري، فلون المحاولة ووترها إلى أقصى حد. والثابت أنه لا شبيب ولا زوجته غزالة تمكنا من دخول الكوفة، خلافاً لاسطورة شاعت وتواترت(١٩١).

ولنستعرض مجرى الأحداث: لقد سبق لشبيب أن هزم جيوش الحجاج «بأسفل الفرات»(١٩٢)، ثم حاصر بعد أشهر المدائن وقد قيل انها كانت أحد أهدافه الرئيسية فضلاً عن الكوفة. ثم هجم على الكوفة انطلاقاً من المدائن، فمر بالطريق المعهودة التي تعبر المصّراة وسوراً وحمام أعين، وبلغ الجسر فاصطدم بجيش عتيد من الكوفيين، لكن هذا الجيش لم يقدر على صده فتفرقت ريحه(١٩٤). ولا فائدة من التعليق على السر الموجود في قوة الخوارج وضراوتها، وعلى قلة الروح القتالية عند أهل الكوفة، فليس ذلك موضعنا. يقول أبو مخنف أن الحجاج استنجد بأهل الشام الذين قدموا ودحروا شبيبا في الكوفة بالذات فأنقذوا الموقف. وروى عمر بن شبه أن أهل الشام لم يتدخلوا وأن قتيبة بن مسلم هو الذي تكفل بالدفاع عن الكوفة فكللت جهوده بالنصر.

اختلفت الروايات وكانتا عنيتين بالمعلومات التوبوغرافية. وأفاض أبو مخنف في القول، واتسمت رواية ابن شبه ابلايجاز والكثافة، وكانت مقتضبة شحيحة التفاصيل(١٩٥)، وقد برزت في كلتيهما أهمية موقع الشمال الشرقي خارج المدينة ذاتها، فكان مكاناً مفضلاً بصفته مسرحاً للعمليات.

---

(١٩١) واعتمدت خبراً ضعيفاً: الطبري، ج ٦، ص ٢٧٣.
(١٩٢) الطبري، ج ٦، ص ٢٤٤ - ٢٤٧.
(١٩٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٩ وما بعدها، وص ٢٥٨ - ٢٥٩.
(١٩٤) كان على رأسها عتاب بن ورقاء: الطبري ج ٦، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.
(١٩٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٢ - ٢٧٦.

وروى أبو مخنف أن شبيباً عبر الجسر وأقام قريباً منه نحـو الكوفـة بمعنى قبل جسر المراكب. وقال أنه عسكر ثـلاثة أيـام دون ذكر اسم المـوقع بـالضبط، لكنه قال أن شبيباً أمر في اليوم الأول ببناء مسجد بطرف السبخة من جهة المكان حيث يقيم (أو سيقيم) تجّار القّت (وهـو نبـات للدواب)، حيث يـوجـد «الايـوان». وأضـاف أن المسجد «قـائم حتى الساعـة»[١٩٦]. ويشدّ اليـوم الثاني انتبـاهنا لأن الحجاج أمر مواليه المسلّحين بالتحصـين في مدخـل السكك. وكـذلك فعـل أهل الكوفة الذين «وقفوا على أفواه السّكك»، فكأنما وجدت سكـك عمومية أسندت لحرس الوالي وحدهم ولرجاله (المقصودة بالذات سكة البريد التي سيـأتي الحديث عنها)، وسكك للخطط ينبغي للسكان أن يدافعوا عنها: هذا مجرد افتراض جدير بـالاعتبار، ثم رتب الحجـاج الأمر في اليـوم الثالث، وهـو يوم القتـال الحقيقي، بحيث تمركز قادة جيوش الكوفة، لا أهـل الشام، في «أفـواه السكك»[١٩٨]. ولم ينج الحجاج نفسه من حركة تطويق قـام بها شبيب الا بـالاستماتـة في الدفـاع عن سكة لحام جرير[١٩٩] امـا بمساعـدة السكان وإمـا بمساعـدة رجالـه، ولا علم لنا بذلك بصفة دقيقة.

اشتد القتال في اليـوم الثالث (٢٠٠) وقـد دار رحاه خـارج الكوفـة ذاتها، حيث كانت السكك مسدودة، فدار في فضاء خال يبـدأ بالسبخـة وينتهي بالجسر ونحن نـدرك حدوده نـوعاً مـا بالمقـارنة بـين هذه العمليـة وبين ثـورة المختار التي رويت بصورة أقل دقة، إذ أحاطت به علامات كثيرة: القصر بـداية ومنـه انطلق الحجـاج ثم سكة الـبريـد التي مـر بهـا وأخيـراً «أعـلى السبخـة» حيث انتهى بـه المطاف[٢٠١]. وبعد أن وقع صد الحملات العنيفة التي قـام بها شبيب من طـرف

(١٩٦) الطبري، ج ٦، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(١٩٧) الطبري، ج ٦، ص ٢٦٩.
(١٩٨) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.
(١٩٩) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٢٠٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢٠١) الطبري، ج ٦، ص ٢٦٩.

جيش الشام الذي كان حصناً منيعاً قام بالدفاع المستميت فلم يمكن زحزحته عن موقعه، فضلاً عن أن خطب الحجاج بعثت فيه الحماس[٢٠٢]. أمر شبيب جانباً من جيشه باقتحام سكة لحام جرير ليقطع خط الرجعة على الحجاج[٢٠٣] . فوقع رد الهجوم. والملاحظ من الآن أن سكة لحام جرير تقع حيث يمكن الوصول إلى سكة البريد بعد المرور بها، وذلك بالاعتماد على هذه العملية وأيضاً من الوجهة التوبوغرافية، وحيث يمكن الأخذ بسكة البريد حتى الخروج منها في أعلى السبخة أين كان الحجاج في بدء القتال. ورأيي أنه ينبغي تعريفها كإحدى السكك المتجهة من الغرب إلى الشرق والمنطلقة من المركز، وهي تعبر السوق وتقسم الخطط الشرقية وصولاً إلى وسط السبخة. إن هذا التفسير تفرضه إعادة قراءة الرواية الخاصة بالمختار إذ ورد بها ذكر تلك السكة، كما جاء بها أن يزيد بن الحارث بن رؤيم (من ربيعة)[٢٠٤] تمركز بها، وقد وضعه أبو مخنف «على أفواه سكك الكوفة التي تلي السبخة»[٢٠٥]. لكن ينبغي تسجيل قدرة الجيش الذي وجهه شبيب على اختراق خطوط الحجاج، وأن هذه الخطوط لم تقدر على منع الدخول إلى السبخة، وسنستعرض فيما بعد النتائج التوبوغرافية الأخرى المترتبة عن هذا النص.

في المرحلة الأخيرة من المعركة، أعاد الشاميون الهجوم بعد أن صمدوا دون حراك وعلى الركب، وكأنهم جدار من الرماح، أمام الهجمات المتكررة لخيل شبيب[٢٠٦]. فردّوه تدريجياً على أعقابه وقد كان يستميت في القتال. وبلغ شبيب

(٢٠٢) الطبري ج ٦، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ كان الحجاج قائداً كبيراً للرجال وقائداً حربياً حقيقياً، في مثل هذا الموقف المأساوي.
(٢٠٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٢٠٤) المرجع نفسه، ص ٢٦.
(٢٠٥) المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٢٠٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

أخيراً بستان زائدة الثقفي.[٢٠٧] أما الحجاج، فقد تقدم واستولى على مسجد شبيب[٢٠٨]. ونستنتج من السياق أن المسافة الفاصلة بين هذا المسجد حيث عيّن الحجاج نشابين، وبين بستان زائدة لا يستهان بها، لكنهما كانا يقعان بذات المنطقة[٢٠٩]. وما لبث القوم أن نهبوا معسكر شبيب، ويظهر أنه كان يقع قرب الجسر[٢١٠]، وهكذا تحدد المكان في ثلاثة مواضع مختلفة علماً بأن أبا مخنف أكد عند حديثه عن المختار أنه «نزل في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة»[٢١١]، والمفروض أن زائدة كان من ثقيف[٢١٢] فكان بستانه يقع اما في طرف هذه الخطة واما في مكان خارج عنها لكنه موجود في امتدادها.

وقد عمرت هذه المنطقة الشمالية الشرقية المحاذية للفرات بالبساتين في أيامنا هذه[٢١٣] لكن لا شك أن بستان زائدة كان يوجد بعيداً قليلاً عن النهر في الحد الشمالي الغربي من السبخة.

فهل تسمح رواية عمر بن شبة[٢١٤] برؤية أدق لهذه النقاط الدالة؟ حقّاً كان ابن شبة من البصرة في حين أن أبا مخنف كان من أبناء الكوفة بصفة

---

(٢٠٧) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٢٠٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٠.
(٢٠٩) المرجع نفسه، ص ٢٧١.
(٢١٠) المرجع نفسه، ونفس الصفحة، بينما كان القتال دائراً على أشده أمام مسجد شبيب أمر عتاب ابن ورقاء من طرف الحجاج بقطع خط الرجعة على الخوارج في معسكرهم. فوفق في ذلك وقتل غزالة.
(٢١١) المرجع نفسه، ص ٢٢. انظر ما سبق.
(٢١٢) زائدة بن قدامة أحد أشراف ثقيف تحالف مع المختار: البلاذري، **أنساب الأشراف**، قسم ٥، ص ٢١٥ و ٢١٩ و٢٤٣ و ٣٤٠؛ وكتاب **الاشتقاق**، ص ٣٠٤. وقد ثأر له بضربة رمح وجهها لمصعب خلال معركة مسكن، ولكن ماسينيون حدد موقع بستانه في «الحارات المنجسة من مدينة الكوفة المقدسة»: مرجع مذكور، ص ٥٤، فكانت مبادرة منه أو أنه اعتمد الطبرسي النوري وهو من الشيعة المحدثين.
(٢١٣) الجنابي، مرجع مذكور، خارطة رقم ١١.
(٢١٤) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥.

واضحة. وكان يفصلهما قرن أو يزيد، لكن عمر بن شبة كان من المعمرين وهو يعتبر من أول المؤرخين للعصر العباسي ومن أجودهم دون شك، فقد اهتم بالمدن وألف بالخصوص كتابين عن الكوفة(٢١٥) استمد منهما الطبري هذا القول على الأرجح. كان بعيداً عن الأحداث بالنظر لأبي مخنف، وأقل دراية منه أيضاً - في نسق المُعاش - بأسرار الكوفة القديمة في العصر الأموي لكن لا يمنع ذلك من أنه مصدر جدير بالثقة والمراجعة والنظر والمقابلة بمصدرنا الرئيسي.

يضمّ تأليف عمر بن شبة بصفة تراكمية عدة أخبار حاول الطبري تقديمها ضمن رواية مسترسلة متفاوتة التماسك. وقد أورد في عدّة أماكن العناصر التوبوغرافية البارزة المتمثلة في دار الرزق والسبخة والجسر. فورد خبر أول مقتضب(٢١٦)يصف الخطوط الكبرىلمسيرة الحجاج وقتيبة باب الفيل - وطريق دار السقاية - السبخة، «وبها عسكر شبيب،». ولم يذكر سكة البريد أو السكك الأخرى، أو أنه ذكر القليل عنها لكنه أوحى بوجود طريق كبرى تنطلق من مركب المسجد والقصر، وتفتح على السبخة، وقد كانت محاذية لدار السقاية التي مر ذكرها(٢١٧). ثم يتوقع مؤلفنا في القول ويدقق ويزداد وضوحاً. فقد ذكر أن شبيباً وهو ما يزال على ضفة النهر الثابتة وجه أحد ضباطه ليفتش عن مكان يعسكر فيه «على شاطىء الفرات في دار الرزق»(٢١٨) ومنع الرجل من ذلك مرة أولى، من طرف جنود تمركزوا بأفواه السكك. فوفق في هزمهم. ويبدو أن التحكم في

---

(٢١٥) الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص ١٢٥؛ و ١١٢ - ١١٣ من طبعة Fligel، بيروت. ونحن نستغرب نوعاً ما أن فؤاد سزكين رتبه ضمن مؤرخي الأقاليم بعنوان «وسط وجنوب بلاد العرب» مغفلاً تماماً كتابيه المؤلفين عن الكوفة وتأليفه كتاب التأريخ. انظر:
Geschichte des arabischen Schrifitums, Leyde 1960
نقل إلى العربية بعنوان تاريخ التراث العربي، القاهرة ١٩٧٧، ج ١، ص ٥٥٥.

(٢١٦) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢١٧) انظر ما سبق.

(٢١٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٤. لم يقل أبو مخنف شيئاً عن هذه المرحلة الثالثة من نشاط شبيب.

المخارج ـ مخارج الشمال دون شك ـ كان حاجزاً للوصول إلى هذه الدار. «ومضى البطين إلى دار الرزق، وعسكر على شاطىء الفرات وأقبل شبيب فنزل دون الجسر»[٢١٩]. المهم في هذه الجملة تحديد موقع دار الرزق على ضفة النهر اليمنى. والأهم من ذلك أن عبارة «شاطىء الفرات» فيما يظهر، تنطبق خاصة على قسم معين من النهر يقع في شمال الكوفة مباشرة بأعلاها[٢٢٠] وهو ما يطابق بنية معينة لسطح النهر تختلف دون أي شك في السبخة. هذا وإن مكان دار الرزق بالنسبة للجسر بقي غير دقيق باستمرار، لكن يبدو أن هناك تجاوراً شبه مباشر. وبما أن الحجاج لم يتحرك، فقد تحول شبيب إلى السبخة ليعسكر هناك «بين الكوفة والفرات»[٢٢١]. فلم يبق أدنى شك عند هذا المؤلف بخصوص تحديد الموقع، خلافاً للغموض الذي ساد رواية أبي مخنف، أي في الشرق تماماً، فتميّزت بوضوح عن دار الرزق والجسر والشاطىء كما أكد ذلك بعد قليل سير الأحداث، لا سيما تراجع شبيب[٢٢٢].

ولم يشر أبو مخنف في أي مكان من كتابه وضمن هذه المحاولة الثالثة، إلى دار الرزق، في حين جعل ابن شبة منها محور محيط المعارك هذه، وعنصراً مركزياً لا محالة، إنما ينبغي التذكير أن أبا مخنف قدم هذه البناية خلال المرحلة الأولى كالمكان الذي اختاره شبيب بالذات ليعسكر فيه، في حين أنه لم يعبر النهر على الجسر[٢٢٣]. ولعل الدار قريبة من الجسر أو موجودة في الشمال ـ أي أنها كانت أبعد بناية في الكوفة. ومن الواضح أنها كانت موجودة خارج السبخة، حتى عند أبي مخنف.

---

(٢١٩) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٧٤.
(٢٢٠) كثيراً ما تكررت هذه الكلمة لما روى سيف معركة الجسر: الطبري ج٣، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧. وأيضاً بالنسبة لمعركة البويب، المرجع نفسه، ص ٤٧٠.
(٢٢١) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٦.
(٢٢٢) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٧٦.
(٢٢٣) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٣٦ قال: «وعسكر في دار الرزق».

عودة إلى سيف بخصوص دار الرزق

صمتت المصادر لحد ذلك الوقت بخصوص هذه العلامة الأساسية، على الرغم من كون دار الرزق تقع بمنطقة ساخنة بصفة خاصة وصاخبة ومشحونة بالتاريخ. كانت منطقة تربط الكوفة بالسواد وهو المكان الذي يمتاز بأكثر حيوية بالنسبة إليها - والرئة التي منها يتنفس المصر، لأن مطمورة الحبوب هذه لم تنشأ صدفة[٢٢٤]، حيث كانت الكوفة تستمد قوتها منه، والأرجح أن دار الرزق أنشئت منذ ولاية زياد[٢٢٥]. على أن سيفا روى معركة البويب (سنة ١٣ هـ. حسب تحقيبه) وأشار اليها صراحة عدة مرات في خبر امتاز بوضوحه، سواء بالنسبة لدار الرزق أو الكوفة كلها[٢٢٦]. لقد سبق أن قلنا أن المعركة دارت على موقع الكوفة ذاته: «المشركون بموضع دار الرزق، والمسلمون بموضع السكون»[٢٢٧]. ثم دقّق سيف مقاله مرّتين بأن أضاف أن الفرس عبروا نهر باسوسيا وبلغوا شوميا التي تحدد موقعها بموقع دار الرزق المقبلة[٢٢٨]. لعل هذا المكان مطابق لمركز إقامة بشرية ظهرت في الماضي أو في ذلك العصر، خصوصاً وأن اسم المكان هذا (شوميا) له مظهر سرياني أو آرامي محلي خاص بوادي الرافدين، ونفس الشيء بالنسبة لباسوسيا في المرحلة السابقة كرأس جسر على أن كل هذه المعلومات لا تفيدنا كثيراً.

---

(٢٢٤) انظر Massignon، مرجع مذكور، ص ٤٨ بخصوص وظيفتها، وما يلي.

(٢٢٥) كانت بالفسطاط دار منذ أن تولى عمرو بن العاص: فتوح البلدان، ص ٢١٦. وقد روى سيف أن دار الرزق بالبصرة موجودة في ٣٦ هـ، فيما يظهر: الطبري، ج ٤، ص ٤٦٦ وما بعدها، والمرجح أن تحديدها اسقاط، فقد روى المدائني، جازماً، أن زياداً هو الذي بنى دار الرزق في البصرة: أنساب الأشراف، قسم ٤ (١) ص ٢١٤. ولا شك أن الأمر جد كما ذكر بالنسبة للكوفة.

(٢٢٦) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٣ وما بعدها.

(٢٢٧) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤٦٣.

(٢٢٨) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤٦٥.

وخلافاً لذلك، فما هو مثير ومشحون بالإشارات وذكريات الماضي البعيد وأيضاً الاسقاطات الخاصة بالعصر العباسي الأول أي عصر سيف، فهو موجود في جملة المعطيات الخام المتنوعة التي يقدمها سيف والطبري. وهي عبارة عن خليط من الأخبار المدونة لا محالة بصفة متماسكة كانت عناصرها أصلية فضلاً عن الطابع الماضوي المقصود في التوبوغرافيا المشار إليها. إن «السكون اليوم»[٢٢٩] حي كندة دون شك، أو قسم منه، مما يعيد إلى الأذهان أن هذه العشيرة سبق لها أن اشتهرت بمسجدها وبحضورها[٢٣٠] في قلب جنوب الكوفة، وإذا كان الفرس حيث نشأت دار الرزق فيما بعد فلأن هذا المكان كان يقع في الاتجاه المعاكس تماماً أي في قلب الشمال. هما نقطتان قصيتان. وسواء صح الأمر أو كان خاطئاً، فهي علامة دالة تريد أن تكون ناطقة مبسطة، وبعد إمعان النظر في التفاصيل نجد أن «المشركين» قتلوا «فيما بين السكون اليوم إلى شاطىء الفرات، ضفة البويب الشرقية»[٢٣١]. ولذا يظهر أن «شاطىء» الفرات ودار الرزق مترادفان عملياً ثم ما لبثت التدقيقات أن تراكمت، فوصف البويب بأنه كان قناة لتصريف الفرات في العصر الساساني، عند مد البحر، ومغيض النهر الذي يصب في الجوف[٢٣٢]. ولعل المعركة دارت على الشاطىء الشرقي من نهر البويب «بين السكون ومرهبة وبني سليم». هذه ثلاث علامات[٢٣٣]. ولعل موقع الكوفة عبرته قناة في اتجاه شمال - شرقي - جنوب (ان بني سليم كانوا حقاً علامة يشار إليها باستمرار) مع انحراف طفيف في اتجاه همدان (مرهبة)[٢٣٤]. وقد انسدّت

---

(٢٢٩) الطبري ج ٣، ص ٤٦٨.
(٢٣٠) أنظر فيما يلي.
(٢٣١) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٨.
(٢٣٢) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٣ و ٤٧٠.
(٢٣٣) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤٧٠.
(٢٣٤) الهمداني، كتاب الاكليل، ج ١٠، ص ١٣٤ - ١٥٨، وكحالة، مرجع مذكور، ص ١٠٧٧.

القناة أو أنها كانت في طريق الانسداد فهل كان هذا النهر بالذات، أو أنه نهر آخر ذاك الـذي سمي «نهر بني سليم اليـوم»؟[٢٣٥] كـان هـذا الخـبر استـطراداً تخلل الرواية. فحين كان سيف منكبـاً على تـأليف أخباره كـانت هناك قـطع بقيت من الخطط القديمة وخلفت آثارها في أسماء المكان منها سليم ومرهبة وكـلاهما مـوضع حقيقي قائم بالذات، وكانت هناك شظايا ذكريات عن حضور قديم جداً: مثـلاً البويب ذاته. لكن تنتابنا لا محالة الحيرة بخصوص دار الـرزق التي ورد ذكرهـا في أخبار جانبية اعتمدها الطبري[٢٣٦] وقد طفت أيضاً قصائد في رواية سيف[٢٣٧]، وهي تتحدث عن النخيلة «إذ بالنخيلة قتلى جند مهران». ذلك أن هـذه الشهادات الأولية استندت دون شك إلى علامـة موجـودة في ذلك الـوقت، لا إلى علامـات مقبلة، وتشكل النخيلة محطة أولى على الطريق الداخلية للجزيرة ودمشق وكـانت تقع إلى شمالي الشمال الغربي من الكوفة، على أنه يصعب تحـديد مـوقعها تحـديداً قـطعياً، ولم يتـوفر لنـا أي خبر عن بعـدها[٢٣٨]. وبمـا أنها كانت مـرحلة ونقـطة تـوقف[٢٣٩] فـإنـه ينبغي التمسـك بفكـرة المسـافـة الـدنيـا ـ ربمـا فـرسـخ. فإما أن هناك خبرين منفصلين انفصالاً جذرياً وهو الأمر الأكثر رجحاناً، وإمـا أن هناك تربة مشتركة بينهما. في هذه الحال تكون دار الرزق والنخيلة اختلطتا في فكر شهـود لا ينزعـون إلى التدقيق إلا قليـلاً، ويكون الـذي أثر عـلى هذه النـظرة هو شعور غامض ببعـد دار الرزق عن الكـوفة بحيث أن النخيلة والـدار وضعتا معـاً عـلى صعيد ذهني خيـالي وبصري واحد. ويتبـين من هذا النقـاش بالخصـوص،

---

(٢٣٥) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٥.
(٢٣٦) المرجع نفسهج ٣، ص ٤٧٢، لا سيما ما اقتبسه عن ابن اسحاق.
(٢٣٧) المرجع نفسه، ص ٤٧١.
(٢٣٨) صالح العلي، «منطقة الكوفة»، مقال مذكور، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢٣٩) الطبري، ج ٤، ص ٥٦٢، وج ٥، ص ٧٣ و ٧٨ و ٧٩؛ أنساب الأشراف قسم ٤ (١) ص ١٦٥ وقسم ٥، ص ٢٠٤ و ٢٠٧ و ٣١٠؛ الأخبـار الـطوال، ص ١١٥ و ١٦٥؛ يـاقـوت. معجم البلدان، هذه المادة.

وبالاستناد إلى رواية سيف إجمالاً، وجود شعور مفاده أن دار الرزق تشغل موقعاً قصياً في اتجاه الشمال الشرقي، أعلى بكثير من الجسر وهو يبقى لا محالة داخل دائرة الكوفة بالذات وفي محيطها.

حصيلة تصورنا

رأينا أن اقتفاء أثر شبيب أفادنا في التقدم للإحاطة بالتركيبة التوبوغرافية للكوفة. لقد اندمج أكبر قسم من المشاكل المطروحة، وما كان يؤمل من نتائج في ثنايا العرض، نعني موقع قطائع بكر في حزام الخطط، وتقارب موقع مزينة وسليم، والأخبار المتوفرة عن تشتت بكر في الجنوب الشرقي والجنوب الغربي في آن واحد أي أسفل الفرات والبادية، وتعميق معرفتنا بمنطقة السبخة والجسر، ودار الرزق، وأخيراً ملحوظات عن السكك.

هناك بعض النقاط التي تستحق إعادة النظر، والتثبيت والحسم وبعبارة أخرى: ما هي النتائج الدقيقة الجديرة بالتسجيل على خارطة للكوفة؟ وما هي الحقائق الجغرافية التوبوغرافية الواجب وضعها؟

وبإجمالنا القول: توجد بكر في الجنوب الشرقي، وتقع السبخة في الشرق تماماً وتتقدم إلى الشمال، ويوجد الجسر في الشمال الشرقي بموقع خارج المدينة، وتقع دار الرزق أبعد من ذلك، هذه أمور مفروغ منها أو يكاد. لكن لنتقدم في مجال النسقية والدقة.

١) ينبغي التمييز بين الكوفة بالمعنى الدقيق ـ المركز والحزام السكني ـ وامتداداتها المباشرة التي كان من المفروض أن تكون خارج السور، لو كان وجد: السبخة والجسر ودار الرزق والإيوان ومسجد شبيب الجديد.

٢) يبدو هذا البلد بالذات كثيف العمران وتشكل الدور المتلاصقة جداراً

لا يمكن تجاوزه بالنسبة للأطراف، وذلك لتلاحمها وامتدادها دون انقطاع[٢٤٠]، فلا يمكن دخول الكوفة إلا عبر السكك. كان الأمر واضحاً بخصوص مصعب، وهو أكثر وضوحاً بخصوص شبيب. والمفهوم من ذلك السكك التي شكلت خطاً مستمراً للدخول، فكانت إما بقايا للشبكة الأولى، وإما سككاً جديدة. لكن السكك الثانوية كانت تلعب أيضاً دوراً معيناً.

٣) إن التحكم في أفواه السكك أصبح عنصراً حاسماً فعالاً دائماً للدفاع. واعتقادنا أنه لم يكن يوجد أي جهاز تحصيني بهذه المداخل، كالأبراج وغيرها، فكان المدافعون يجثمون على سطوح الدور أو يكمنون بمداخل السكك[٢٤١]. وإذا كانت كلمة «أفواه» تعني من جهة أخرى وقبل كل شيء كافة نقط الدخول للطرق الرئيسية، فإنها تعني أيضاً الطرق الثانوية التي تصب في الأولى. وإذا ما اقتحم المهاجمون طريقاً كبرى فما يلبث أن يظهر المدافعون من «أفواه» أخرى[٢٤٢] وبذا كانت السكك تشق كل طريق - فهل كانت تقطعها تعامدياً أو قطعاً مائلاً؟ إنه لأمر يؤثر على تخطيط المدينة كما هو متصور. إن التخطيط على شكل رقعة غير مرفوض بل بالعكس، لقد أصبح قابلاً للتصور أكثر فأكثر، كما أنه صار محل تصديق، لكن لا يوجد أدنى يقين في هذا الموضوع. ومن المعلوم أن سيفاً تحدث عن سكك ثانوية كانت محاذية للسكك الرئيسية ثم إنها «تلتقي» بها[٢٤٣] فكيف كان يتم هذا الاتصال؟ هل كان يتحول إلى زاوية بـ ٩٠ درجة؟ أو أن تحوله نصف دائري؟ أو بواسطة نسق كامل من السكك المائلة تتسبب في تعقيد

---

(٢٤٠) حاصر الشاميون زيد بن علي في دار الرزق. فأراد الاستناد إلى الحيطان» للقتال من جهة واحدة ويميل السياق إلى تأكيد وقوع العملية قرب أقصى دور الكوفة، لا بأحد حيطان دار الرزق: **أنساب الأشراف**، قسم ٣، ص ٢٤٩.

(٢٤١) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٢٤٢) الطبري، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٢٤٣) انظر ما سبق.

التخطيط تعقيداً عجيباً؟ أم بالخلط بين النمط التعامدي والنمط المائل، كما يكاد يقع في كل مدينة؟

هذه قضايا مستعصية على الحل. لكنّ تشابك الطرق ثابت، بحيث أن تقاطعاً ما ينقذ المدينة من الاختناق ويكفل الاتصالات المعقلنة. ولا مراء في أن فكرة انتظام تخطيط الكوفة تفرض علينا وجودها بقوة.

٤) إذا وجب اعتبار سكة لحام جرير كأحد الشوارع التي تقطع الجانب الشرقي من المدينة لا كشارع يتجه إلى الشمال الشرقي ويفتح على الجسر كما تصوره ماسينيون[٢٤٣] فإن وضع سكة البريد يبقى في غموض دائم بالرغم من التوضيح الحاسم الذي قدمته النصوص التي روت قضية شبيب. يبقى غامضاً لما ينطوي عليه من مخاطر الاسقاطات الزمنية، التي قد تنجم عن التسمية كما عن الأمر ذاته. وإذا ما صدقنا البلاذري فإن سكة لحام جرير خطأ تاريخي، وهو الذي جزم بأن تسمية بعض الأماكن بأسماء فارسية حصل بعد مجيء جند خراسان (أي بعد سنة ١٣٢ هـ.)[٢٤٤]؟ لكن لعلها كانت موجودة حتى قبل ذلك خلال ولاية الحجاج باسم جرير اللحام وحتى بدون اسم بالمرة. أما بخصوص سكة البريد، فالشك ما زال قائماً، وقد أشرنا إلى تخميننا ذاك، وهو يتمثل في وجود سكة البريد في العصر العباسي في اتجاه بغداد. ألم تكن طريق النخيلة أكثر استخداماً للذهاب إلى دمشق؟ لماذا تضارب أبو مخنف والمصادر الأخرى بصفة عامة، فقيل لنا أن الطريق كانت تمر بأرحب وشاكر[٢٤٥] من جهة وأنها كانت

---

(٢٤٣) مرجع مذكور، ص ٤٢.

(٢٤٤) فتوح البلدان، ص ٢٨١. لم يذكر البلاذري بالمرة سكة لحام جرير بل إنه أشار إلى هذه الظاهرة عند حديثه عن حجام عنترة وأماكن أخرى بالكوفة، ويمكن أن يشمل ذلك اسم المكان الذي نحن بصدد النظر فيه وقام ماسينيون بذلك: مرجع مذكور، ص ٤٥، واستنتج لنا أن أبا مخنف كتب روايته بعد سنة ١٣٢ هـ مصححاً أسماء المكان». والأمر المحير أن أبا مخنف يذكّر بما جد من تحويرات بطول المدة، وذلك ما يفعله سيف ولكنه لا يستمر في الأمر.

(٢٤٥) انفراد أبو مخنف بهذا الخبر عندما وصف ثورة زيد (١٢٢ هـ) : الطبري، ج ٧، ص ١٨٦ ولعل الأمر يعني أن دور همدان تقدمت إلى المركز في عصر متأخر.

تشكل خطاً مستقيماً يربط بين القصر وشمالي السبخة والجسر كما هو محتمل من جهة أخرى[٢٤٦]؟ ألم تتطابق الذكريات بخصوص طريقين متواليتين إحداهما من العصر الأموي والثانية من العصر العباسي؟ وفي هذه الصورة لعل الحجاج لم يعبر سكة البريد الموجودة في عصره، بل عبر ما سمي بهذا الاسم، ولعلها سكة وجدت لا محالة على أساس أنها الطريق المؤدية إلى السواد والمدائن، علماً أنه يمكن التفكير في طريق البريد الرسمية التي لعلها اتخذت في العصر الأموي مسلكاً آخر مخالفاً للمسلك المتوخى داخل البادية، أي أنه مسلك آخر غير مسلك النخيلة، واستخدمت الطريق والمحطات الساسانية. وبذلك فلعل طريق البريد من الحيرة إلى المدائن، ومن الكوفة إلى دمشق وإلى بغداد المقبلة، لعلها تطابق جزءا من الطريق. هذا تعليل يقوم على افتراض صرف[٢٤٧]. وعلى كل حال، فلا يوجد أي شك بخصوص وجود سكة رئيسية في القرن الهجري الأول، تتجه كالقطر من القصر وتمر بالمسجد (ذكر عمر بن شبة باب الفيل كنقطة انطلق منها الحجاج، ولم يذكر سكة البريد)، وتفتح على الجزء الشمالي من السبخة، والمرجح أنها تصل إلى الجسر، أما نحن فنميل إلى الاعتقاد بأن هذه التسمية إسقاط تأريخي سابقة للأوان.

٥) وفيما يتعلق بالمحيط الذي يقع إلى شرقي الشمال الشرقي، ويأتي بعد «أفواه» السكك، أي مداخل المدينة دون أبواب، تبقى المسافات الفاصلة بين المواقع المحددة مجهولة إطلاقاً. ولا يعدو الأمر إلا أن يكون ترابطاً للمواقع التي

---

(٢٤٦) حدد ماسينيون مسلكها بين الجسر والقصر ،والكناسة لكن وضع الكناسة بالغرب تماماً وجعل طريق دمشق تنطلق منها: مرجع مذكور، ص ٤٥، وهو لم يذكر مصادره لكنه قال أنه اعتمد الأحداث التي جدت سنة ٦٦ هـ والملاحظ أن زياداً وجه نحو دمشق اصحاب حجر بن عدي الذين مروا بجبانة عرزم الواقعة في خطة عبس قرب الكناسة فعلاً: الطبري، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٢٤٧) يرى البلاذري أن سكة البريد (العباسية) احتلت موقع الكنيسة التي بناها الوالي خالد القسري لامه: فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

تتشارك في التحديد. فانـطلاقاً من السبخـة، وبالاتجـاه شمالاً ومحـاذاة للفرات بصورة متفاوتة، فإنه يمكن استعراض النقط التـالية عـلى التوالي: مسجـد شبيب بـطرفها، إلى جـانب الإيوان (لعله كـان عبـاسيـاً؟) وبستـان زائـدة والجسر ودار الرزق، ويمكن عكس النقطتين الأخيرتين(٢٤٨).

وأخيراً، فإن الركن الشمالي الشرقي الـذي تخترقـه سكة الـبريد أو مـا يقوم مقامها، من طرف إلى طرفه الآخر، بقي نقطة ممتازة للدخول، بالرغم من امتلاء الفراغ الأصلي بالبناءات، إضافة إلى الجانب الشرقي والكناسة، والركن الجنـوبي الشرقي بصورة ثانوية.

تلك هي النتـائج التي نستمـدها من تحليلنـا لعمليـة شبيب التي زادت من وضوح تصورنا للكوفة وقضت على كثير من الشك. من بـين أربع ثـورات هزت مدينة الكوفة في العصر الأموي، كانت ثورة شبيب وثورة المختار ناطقتين إلى حد بعيد على صعيد البحث التوبوغرافي.

---

(٢٤٨) ورد ذكـر دير هنـد بالنسبـة للمختار: الـطبري، ج ٦، ص ٢٢. وقد غـاب هذا الأمـر عـلى الشابشتي فلم يذكر إلا دير هند بالحيرة: الديارات، ص ٢٤٤.

الباب السادس

التطور والاستكمال

| ٨٠ - ١٥٥/ ٧٠ - ٧٧٢ |



الفصل التاسع عشر

أجيال جديدة ، عصور أخرى

إنها فترة طويلة دامت نصف قرن ، يمكن في نفس الوقت اعتبارها عصراً ثانياً للوجود الأموي والمرحلة الثالثة لعصر تاريخي يشتمل على ثلاث درجات . إن النظرة العادية للحكم الأموي تميّز العصر السفياني (٤١ - ٦٤) ، والعصر المرواني الأول (٦٥ - ٩٥ أو ٦٥ - ١٠٥) ، وأخيراً عصر المروانيين الأواخر وهو حقبة أفول الدولة ، وقد تخللته النزاعات الداخلية[1] . إن مثل هذا التقسيم إلى عصور ، صالح من عدة وجوه ، إلا أنه لا يأخذ بعين الاعتبار ثراء الأحداث الكبير بالنسبة للعراق والحجاز تلك الأحداث التي أحاطت بحكم ابن الزبير ودامت عشر سنوات . وبخصوص الكوفة قد يتأكد الشعور أن كوفة المختار تنتسب إلى نفس الجو الذي عاشت فيه كوفة شبيب لأن شبيباً مدّد بحركته اللحظة السابقة . وعلى الصعيد المديني فإنّا نجد نفس الأجهزة تقريباً وقد احتفظت المدينة بنفس التقاسيم بعد أن استتمت بناء مظهرها الرئيسي . لكن إن كانت التغييرات التوبوغرافية قليلة في الثمانينات من التاريخ الهجري ، فقد طرأت تحويرات هامة على نظام المدينة ، وفي مظهرها الاجتماعي الداخلي ، وعلائقها بالخارج . إن هذه اللحظة تشكل انفصاماً تراكب على فترات الحكم (مثل ذلك بقاء الحجاج على رأس الولاية) ، وقام على تحول طرأ على الهياكل العميقة . وإذا

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣١ - ٣٢٩ ؛ Wellhausen **Arabische Reich,** ، ترجمة عربية ص ٣٠٢ - ٣٧٩ ؛ و Shaban (شعبان) **Islamic History** ، ج ١ ، ص ١٥٣ - ١٦٤ .

ما سبرنا الأمور، يمكننا طرح القطيعة التي سادت الامبراطورية العربية كافة، قطيعة بين عصر أول امتد على أربعين سنة وتعلق بالعصر الأولى التكويني والتأسيسي، وبين عصر ثان مجذوب نحو المستقبل، عصر حفاظ كما هروب إلى الأمام. ففي سنة ٨٠، لم يبق على قيد الحياة أي شخص من أولئك الذين عايشوا فترة الرسالة والفتح. وحتى زهرة بن الحويّة بطل القادسية فقد قتله شبيب، وقد عرفه الحجاج شاهداً وقوراً على عالم بطولي، وكان من المعمرين كاد أن يبلغ المائة(٢). الأجيال غير الأجيال والعصور غير العصور.

منعـرج الثمانينـات.

وبصورة أكثر محسوسية، كانت ثورة ابن الأشعث (٨٢ - ٨٣) منطلقاً لإنشاء عاصمة إدارية عسكرية أموية صرف في العراق، نعني واسط. وفقد المقاتلة في الكوفة والبصرة حريتهم بعد أن احتل جيش الشام العراق بصفة دائمة. وبالتالي، صارت الأمصار منزوعة السلاح فعلاً(٣). واستمر العمل بالنسق الجبائي السابق - الذي انبنت عليه الأمور كافة - (الخراج والعطاء والرزق)، لكن داخله الاضطراب. لقد قدرت مداخيل الكوفة في ولاية زياد بـ ٤٠ مليوناً من الدراهم، في حين كانت مداخيل البصرة ٦٠ مليوناً(٤). وكانت ٦٠٪ منها تحول إلى عطاء الرجال المسجلين بالديوان، وتنفق ٢٧٪ على عطاء الذرية وتوجه حوالي ٣ ملايين درهم إلى الخليفة(٤) وينفق الباقي على عين المكان مع إبقاء جزء منه «للبوائق والنوائب». وبذلك بلغ خراج المدينتين ١٠٠ مليون درهم ،وهو المقدار المساوي لما كان يجمع في خلافة عمر(٥). ثم انخفض في ولاية

---

(٢) الطبري، ج ٦، ص ٢٥٩ و ٢٦٥.

(٣) Shaban، ص ١١٣ - ١١٦.

(٤) أنساب الأشراف قسم ٤ ج ١، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٥) أبو يوسف، كتاب الخراج ص ٢٦ ؛ وفتوح البلدان، ص ٢٧٠.

الحجاج إلى ٢٤ مليوناً [٦]، وقد حصل أن ارتفع إلى ٤٠ وحتى ٨٠ مليوناً [٧]، لكن الانهيار أمر واقع. وينبغي ربطه بالإرث الذي خلفته فترة طويلة من الاضطرابات السابقة، فضلاً عن التشويش الذي أدخله شبيب على النسق الجبائي (كسر الخراج). كان اضطراباً مقصوداً متعمداً إذ ألقيت وبعثرت أكياس ملأى بالدراهم [٨]. وأخيراً فقد جدت ثورة ابن الأشعث (٨٢ - ٨٣)، وهي ثورة المصرين دون أن يكون لها محتوى أيديولوجي، حيث أن توجهها تمثل تماماً في إرادة القضاء على الحضور الأموي في العراق.

كانت النتائج متنوعة هامة، تمثلت في الانفصام النفساني بين أهل العراق والنظام كما في الاتجاهات الجديدة للسياسة الأموية في عدة ميادين. وباستثناء هذا الحدث الأكبر شحن العصر بالتحولات: كانت تحولات قادمة من الماضي وبلغت حد النضج، وتحولات مقبلة في حالة نشوء. روى أن الحجاج طرد شر طردة الأنباط من أهل الريف الذين هجروا الأرض وتوجهوا إلى المدينة [٩] لمشاركتهم في ثورة ابن الأشعث. كانت مشاركة ضخمة فعلاً. لكن على مستوى التخطيط والقيادة لم يوجد إلا القليل من الموالي المتعربين والمتأسلمين من الذين اندمجوا اندماجاً تاماً في الحياة العربية [١٠]. ولم يبد الحجاج عداء للموالي المتعربين في أول الأمر، بل أنه استفاد من كفاءاتهم استفادة واسعة [١١]. وقد شمل قراره الهام الاعلاج الفارين من الأرض فقط، على ما يظهر.

(٦) ابن خرداذبه، ص ١٤، جعله ينخفض إلى ١٨ مليوناً.

(٧) ورد في فتوح البلدان، ص ٢٧٠، ٤٠ مليوناً. أما الماوردي، فقد ذكر ٨٠ مليوناً: الأحكام السلطانية، ص ١٧٦.

(٨) الطبري، ج ٧، ص ٢٦٧: ملحوظة هامة عن جابة الخراج.

(٩) الطبري، ج ٦، ص ٣٨١.

(١٠) حضرت كتيبة من القراء: الطبري، ج ٦، ص ٣٥٠، لكن أكثرهم كانوا من العرب، والحقيقة أن فيروز حصين الذي كان له وزن، قد ساند ابن الأشعث: المرجع نفسه ص ٣٨٠، وأيضاً سعيد بن جبير. كانت جموع الموالي متركبة من أتباع مسلحين: المرجع نفسه ص ٣٤٧. راجع المحبر، ص ٣٤٠ وما بعدها، عن أعيان موالي الكوفة.

(١١) مثلاً أعين أو يزيد بن أبي مسلم والي افريقية.

لقد كانوا جسداً غريباً تمام الغربـة، ولا بد أن هجـرتهم إلى المصر بدت في نظره ظاهرة جماعية تسيء إلى التوازن. والحق أنه من الصعب أن نطالب شخصـاً مثل الحجاج كما أن نطالب روح ذلك العصر بحل شامل لمشكل العلاقة بين الأمة صـاحبة السيـادة والشعوب المـولى عليها لكن نـرى المشكـل يـطرح نفسـه بكـل الخطورة وأكثر بكثير مما كـان عليه زمن المختـار، وهو المشكـل الذي سيـزن بكل وزنه على أفق نصف القرن القادم. واختار الحجاج العودة إلى الفتوحات كأفضـل علاج يوجه للتكدّر العام المسيطر على العراق. كان ذلك أيضاً أنجع وسيلة لتبرير الإبقاء على العطاء وعلى وضعيـة المقاتلة بـالنسبة لأهـل البصرة والكوفـة. فهؤلاء صاروا خاضعين لرقابة أهل الشام في عقر دارهم وقد انتزع منهم السلاح إن صح القول، لكنهم يقومـون بأعبـاء وظيفتهم القتاليـة في الأراضي البعيدة، بخـراسان وسجستـان والسند، وآسيـا الوسـطى بعد مـدة وجيزة. وتمـادى وتفـاقم تـوجيـه البعوث النظامية بصفة منتظمة ودورية[١٢].

لا نـزاع في أن التسعينات شكلت لحـظة قويـة جداً للتـوسع العـربي. وقد ترتب عن ذلك اتساع هائل لمساحة الامبراطورية أُنجـز وتوبـع باصرار، فكـانت نتائجه دائمة. من فرغانة إلى الأندلس. وفي هذه الربوع النائية سيترسّخ ويتنـظم الحضور العربي، وبعد سنة ١٠٠ للهجرة سيأخذ طابع الدوام وينفصل انفصـالاً واضحاً متزايداً عن قواعـده العراقيـة. وهكذا انتقلت عصبيـة أهل البصرة بكـل عنفها إلى خراسان نتيجة استبقاء الوظيفة الحربية بهذه المواجهة[١٣]. وكـان لأهل الشام أيضاً مـواجهتهم بشمال سـورية وبـأرمينية وبعـد قليل بـالجزيـرة: مدرسـة حـربيـة، عصب للقـوة الضـاربـة ولكن أيضـاً ولنفس السبب عقـدة أسـاسيـة للاضطراب، هكذا كان دور المواجهات. فلا عجب إن وجدت الثـورة العباسيـة

---

(١٢) الطبري، ج ٦، ص ٣٨٣: «ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان».

(١٣) الـطبري، ج ٧، في عـدة صفحـات. Shaban ,**Abbasid Revolution**، ص ١١٤ ومـا بعدها.

مناخها المفضّل بخراسان، كما أنه من المتوقع بعد هذا أن تجري المعركة الحاسمة بين مقاتلة خراسان الثائرين وبين جيش الشام الذي تحوّل مع مروان بن محمد إلى جيش الجزيرة.

كيف يمكن لمثل هذا التحوّل المتجذر بقوة في منعرج الثمانينات أن يتجسّم في مصير مدينة كالكوفة؟ بتزايد الصفة المدنية أي بمظهر مدني (خلافاً للعسكري) يتأكد أكثر فأكثر ويصاحب الهدوء الصبور الذي خيّم على الكوفة بعد إعراضها عن الصراعات السياسية باستثناء فورات لا طائل من ورائها تجدّ كل عقدين. فكانت بالبصرة ثورة ابن المهلّب وهي إعادة لثورة ابن الأشعث، وجدّت بالكوفة ثورة زيد بن علي (١٢٢ هـ)، وهي بمثابة الصورة المجددة لحركة مسلم بن عقيل وحركة المختار.

ساد جوّ من السلم الداخلية على الأوضاع اذن، وعاد النشاط الاقتصادي إلى سالف عهده، بل هو شهد حركية ملحوظة في السواد وبالكوفة ذاتها أيام ولاية خالد القسري (١٠٥ ـ ١٢٠)[١٤]. وعادت إلى النشاط المسالك التجارية القديمة بعد عاصفة الفتح، وظهرت مسالك جديدة (في اتجاه بلاد العرب خاصة). وبصورة عامة، فقد اتسع حجم المبادلات في كافة المستويات. وبدأت الامبراطورية الإسلامية قاطبة، تستفيد من توحيد المساحات الذي حققته، ومن اتساع فضاءاتها واختلافها[١٥]. وترقّق الاستهلاك وتنوع وتزايد.

أما على الصعيد التوبوغرافي، فقد تمخض عن هذه الأمور كافة بناء الأسواق في الكوفة خلال ولاية القسري، ولعبت دار الرزق دوراً تجارياً جديداً، واتسعت المبادلات بحيث شملت الكناسة.

---

(١٤) أنساب الأشراف، مخطوطة باريس ـ السليمانية، ورقة ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠.
(١٥) صالح العلي، مرجع مذكور، ص ٢٢٣ ـ ٢٣٤؛ والزبيدي، مرجع مذكور، ص ١٥٧ ـ ١٦١ خاصة.

وبقـي أن نضيف نقـطتـين إلى هـذه الصـورة الأوليـة: إحـداهمـا تـرجـع للديمغرافيا، والثـانية تستهـدف الإشارة إلى أن الكـوفة اسـتردت دورها المـركزي ضمن جهاز الامبراطورية وزاد التحامها بمحيطها.

التطوّر الديمغرافي

صممـت الكـوفـة في بـدايـة الأمـر لإسكـان ٧٠٠٠ الى ٣٠,٠٠٠ شخص[١٦]، هـذا هـو الحجم الـذي ذكـرتـه المصـادر التي أوردت أيضـاً رقم ١٠,٠٠٠ مقـاتـل[١٧] (لا سـاكن)، ورقم ٤٠,٠٠٠[١٨]. وينبغي اعتـماد رقم يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠ من المقـاتلة. ومن المعلوم أن جموع المهـاجرين المتأخرين وفدوا في رادفة أولى وثانية وثالثة ورابعة أثناء خلافة عمر، وطيلة خلافة عثمان التي دامت ثلاث عشرة سنـة. وقد شـارك من الكوفـة مع علـي ١٢,٠٠٠ مقاتل في وقعة الجمل[١٩]، والثابت أنه لم يخـرج معه إلا جـزء من أهل الكـوفة. وقد ذكر أبو مخنف بعد وقعة صفين، أن عدد المقاتلة من الرجال يبلغ ٤٠,٠٠٠، وأن عـدد الفتيـان يكـون ١٧,٠٠٠، ويبلغ عـدد المـوالي ٨٠٠٠، فيكـونـون ٦٥٠٠٠ في الجملة[٢٠]. إلا أنه أورد نفس الرقم تقـريباً بـالنسبة لعصر شبيب، بعد أربعين سنة من ذلك[٢١].

لـدينـا أرقـام دقيقـة في عصر زيـاد (٤٥ ـ ٥٣ في البصرة، ٥٠ ـ ٥٣ في

---

(١٦) قال ابن اسحاق بوجود ٧٠٠٠ مقاتل في القادسية. ورأى سيف أنهم ٣٠٠٠٠: انظر ما سبق.
(١٧) كتاب البلدان: ١٠٠٠٠ خطّط لهم، ص ٣١١.
(١٨) ياقوت، معجم البلدان ج ٤، ص ٤٩١، ذكر أنهم ٤٠٠٠٠.
(١٩) الطبري، ج ٤، ص ٥٠٠: كان ثلثهم من ربيعة.
(٢٠) الطبري، ج ٥، ص ٧٩ ـ ٨٠: وأحصى بالبصرة ٦٠٠٠٠ مقـاتل في نفس السنـة (٣٧) «سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم»: نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢١) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٦٢: ٥٠٠٠٠ مقاتل عربي.

الكوفة) تستند إلى رواية متينة ذكرتها عدة مصادر[٢٢]. أحصى ٨٠,٠٠٠ مقاتل في البصرة بالديوان، معهم ١٢٠,٠٠٠ من النساء والأطفال، أي ٢٠٠,٠٠٠ في الجملة. وكان في الكوفة على التوالي ٦٠,٠٠٠ و٨٠,٠٠٠ أي ١٤٠,٠٠٠ في الجملة. والفائدة التي نستمدها من هذا الخبر تتمثل في وجود إشارة شاملة، مع أن النسبة بين الرجال من جهة، والنساء والأطفال من أخرى، من شأنها أن تدعو العالم الديمغرافي إلى التفكير. وينبغي أن نضيف اليهم الموالي والرقيق رجالاً ونساء وأطفالاً، حيث تأكد حضورهم القوي خلال ثورة المختار (لا سيما رد الفعل الشديد الصادر عن الاشراف)[٢٣]. وبالاقتصار على الرقم الذي ذكره أبو مخنف، نجد أن نسبتهم هي الثمن، وبذلك فعددهم في عصر زياد يكون يتراوح بين ١١,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ رجل. وأخيراً، خفض زياد من عدد المقاتلة بمقدار ١٠,٠٠٠ في الكوفة و٤٠,٠٠٠ في البصرة ورحلهم للإقامة في خراسان[٢٤].

وهكذا شاهدت الكوفة مضاعفة عدد سكانها خمس مرات في جيل واحد حيث ارتفع عددهم من ٣٠٠٠٠ على أكثر تقدير سنة ١٧ هـ. إلى ١٥٠٠٠٠ على الأقل سنة ٥٣ هـ. وجد ذلك في عصر زياد حيث تشكلت الكوفة بشكل المدينة وعاشت فترة استبداد واعادة تنظيم وصرامة في التصرف في الأمور. وبإضافة عدد سكان البصرة يكوّن العدد الجديد كتلة من العمران العربي تبلغ ٣٧٠٠٠٠ ساكن، وهذا رقم ضخم يضفي على المصرين مظهر التجمعين الكبيرين من

---

(٢٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥: أنساب الأشراف قسم، ٤ (١)، ص ٢٢٠؛ ومعجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ حيث ذكر رقم ٦٠٠٠٠ مقاتل في ولاية زياد و٢٠٠٠٠ فقط في العصر الأول، رواية عن الشعبي.

(٢٣) ذكر الدينوري ٢٠٠٠٠ من الموالي، واعتبرهم من الحمراء، ص ٢٨٨.

(٢٤) الطبري، ج ٥، ص ٢٢٦، ذكر رقم ٢٥٠٠٠ من كل مصر. ولم يحدد البلاذري إلا رقم الـ ٥٠٠٠٠: فتوح البلدان، ص ٤٠٠. واستنبط صالح العلي، التنظيمات، ص ٤٤، رقم ٤٠٠٠٠ بصري و١٠٠٠٠ كوفي وجاراه في ذلك بحذر Shaban ،**Abbasid Revolution**، ص ٣٢.

البشر، ويفرض سلسلة من التطورات المقبلة منها تحول مقر الحكم إلى العراق، وازدهار الثقافة العربية والحضارة العربية، اللتين كانتا في حالة نشوء بهذين المركزين الرئيسين، وتعريب العراق في القرن الثالث والرابع الهجري، الخ . . . وهو يفرض قبل كل شيء فكرة التوسع الفضائي للمدينتين.

أما في ولاية الحجاج، وباستثناء خبر ذكره أبو مخنف يبدو رجعاً للماضي، فهناك رقم شامل يقدر بـ ١٠٠٠٠٠ مقاتل رافقوا ابن الأشعث، من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور (المناطق الحدودية البعيدة)، وأهل المسالح (جنود الحاميات القريبة من الجزيرة وحلوان والأهواز وفارس والجبال)[٢٥]. لم تكن البصرة والكوفة منفصلتين بعد في تلك الفترة، من الوجهة المؤسساتية والبشرية، عن ممتلكاتهما الإيرانية النائية. وبذلك يشمل هذا الرقم أغلب قسم ـ لا كله ـ من الأرخبيل العربي في العالم الساساني القديم. والرقم الأكثر إيحاء هو أن ١٠٠٠٠٠ من موالي المدينتين رافقوهم على الطريقة الفارسية[٢٦]. هنا نلتقي مجدداً بقضية تضخم عدد الموالي من كل صنف: ليس المقصود بالموالي أسرى الحرب المعتوقين كما كان الحال في العصور الأولى، بل كانوا نتاج النزوح الريفي، ونتاج ميل جديد إلى تشكيل جموع من الاتباع للنشاط الحربي أو التجاري. إذا رجّحنا كما يبدو معقولاً أن عدد السكان العرب المدرجين بالديوان بقي مستقراً، فإن العدد الجملي لسكان الكوفة قد يكون تضاعف، بدفق الأنباط، أو أنه مر على الأقل بفترة نمو كبير. إلا أن حركة النموّ هذه تعطلت إلى حين من جراء عدّة عوامل منها عملية الطرد التي نفذها الحجاج وسوء الظروف العامة، وتأسيس واسط أيضاً، واستقرار أهل الكوفة في وقت لاحق في «مستعمراتهم» القريبة والبعيدة، وحركة انسياب العرب إما في المحيط البدوي وإما في السواد [٢٧].

(٢٥) الطبري، ج ٦، ص ٣٤٧.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٣٤٧.
(٢٧) كتاب البلدان، ص ٣٠٩ و ٣١١.

لكن المصـادر تصر على القـول أن ١٠٠٠٠٠ سيف مستعدة لأن تقف إلى جـانب زيد في سنة ١٢٢ هـ. لو شاء ذلك، تأتيه من الكوفة وخراسـان[٢٨]. هذا الـرقم الوارد في أكثر من خبر، لا يمكن أن يكون مضبوطاً وبالتالي فـأهميته قصـوى، واما أن يندرج في المثالية التكرارية والرمزية الرياضية، فيكون تقريباً خالصاً لا يـترجم إلا عن ضخامة القوة الضاربة. إلا أنه يكشف مع هذا عن شعور غامض بـالعدد الكبـير، وينقل فكـرة التكثير. لكنـه في أغلب الروايـات لا ينطبق عـلى الكـوفـة وحسب[٢٩]، وهذا ما يضيف صعوبة أخرى.

ويمـر الزمن ونـأتي إلى سنـة ٢٦٤ هـ. حيث يـرد رقم ٨٠٠٠٠ دار أو نـار ولعله يقابل ما يقدر من ٣٢٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠٠ سـاكن[٣٠]. كان العصر عصر توسع للحضارة الإسلامية، وعصر الذروة بـالنسبة للكـوفة، وعصر تـوسع هـام جداً للفضاء المديني، كما يشهد بذلك علم الآثار. لكن بغـداد من جهة وسـامراء من أخـرى كانتـا تجذبـان أهم عدد من سكـان الريف والمـدن وتعـوقـان التـطور الطبيعي للكوفة. فالمفروض إذن أن هذا الرقم يمثل قاعدة تقريبية صـالحة لأواخـر العصر الأمـوي: إن رقماً يـتراوح بـين ٣٠٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠٠ سـاكن، في الثلث الأول من القـرن الثاني الهجـري، لهو قـريب من المعقول تمـاماً بـالنسبة للكـوفـة ومنطقتها القريبة. وهو ينتسب إلى تقديرات العصر. كان مثلاً عدد العـمال الذين استخدمهم المنصور لبنـاء بغداد ١٠٠٠٠٠ عـامل، وقـد قدم عـدد هام منهم من الكوفة. وتواجد أيضـاً أكثر من ١٢٠٠٠٠ مقـاتل في معـركة الـزاب (١٣٢ هـ). وأخيراً تؤيد كل القرائن النمو الديمغـرافي السريع، منهـا الوضـع الغذائي الممتـاز

---

(٢٨) المقاتل، ص ١٣٥. ذكـر الطبري، ج ٧، ص ١٦٦، أن رقم ١٠٠٠٠٠ مـرتبط بأهـل الكوفـة وحدهم وهذه جزئية هامة.

(٢٩) بصفة عامة وباستثناء ما ذكره أبومخنف. وانظر أيضاً الطبري ج ٧، ص ٥٦١.

(٣٠) معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٢. وقـد استخلص كايتـاني أيضاً رقم ٤٠٠٠٠٠، اعتـماداً عـلى هذا الخبر: **Annali**، قسم ٣ (٢)، ص ٨٦١.

الذي كانت عليه الأمصار التي كانت تستمد كامل غذائها من السواد والأهواز وفارس والجبال وأذربيجان بفضل مؤسسة الرزق، مما جعل المدينة مكاناً للأمن الغذائي. وهذا ما يفسّر تدفق الأهالي عليها وما جدّ من مراقبة للنزوح. لكن هذه الجموع ذاتها تغذي المدينة بدورها بمادتها البشرية. فالتدفق الخارجي هو العامل الآخر للنمو الديمغرافي الذي لم يعد يرتبط عائقه الرئيس بالحرب، بل بالعمل الهدام المتأتي من الطاعون المتكرر لا سيما الطاعون الجارف الذي جد سنة ١١٦/٧٣٤[٣١].

فهل ان استرداد الكوفة لموقع مركزي يعود إلى هذا التطور السريع المتسق، وإلى تهدئة النزاعات، ولكونها نسجت صلات متينة بمحيطها، وخلافاً لذلك لكون أهل البصرة مارسوا نشاطهم في بلاد بعيدة (خراسان والسند)؟ لقد بدأت الكوفة تفقد هذا الموقع منذ سنة ٣٠ هـ. حيث سبقتها البصرة إلى الاستيلاء على خراسان، ذاك البلد الغني المبشر بخيرات لا متناهية. ثم ظهرت فترة مجد في عصر علي، تجسم في انتصاره على أهل البصرة في وقعة الجمل، فأصبحت الكوفة عاصمة للخلافة، وتجسمت إرادة الكفاح والهيمنة في معركة صفين. وقد دفعت الكوفة ثمن ذلك بعد مدة قصيرة حيث أن معاوية وزياداً فضل البصرة التي انفتحت لهجرة كبيرة جداً[٣٢]. وعلى ذلك نجد معلومات المصادر عن عصر زياد تدل على تفوق واضح للبصرة. لم تعد الكوفة عندئذ تشكل سوى ثلثي مداخيل البصرة وعمرانها[٣٣]، وهذا انقلاب يسترعي الانتباه عندما نتذكر البداية المتواضعة لهذا المصر. ثم استمرت البصرة في التطور السلمي في حين أن الكوفة عاشت المآسي تلو المآسي. ان زياداً والحجاج أيضاً وحتى الوالي الذي ولاه ابن

(٣١) الطبري، ج ٧، ص ٩٣. انتشر هذا الطاعون في العراق والشام، وقد تضررت منه واسط أكثر من غيرها. وقد جد طاعون آخر قبل ذلك في الكوفة عام ٤٩ هـ: الطبري ج ٥، ص ٢٣٢.

(٣٢) أنساب الأشراف، قسم ٤ ج ١، ص ٢٧٣. أدى ذلك إلى إعادة توزيع وتقسيم العطاء.

(٣٣) انظر ما سبق.

الزبير، وقد أشرفوا على العراق كـافة، استقـروا بالبصرة ولم يـوجهوا إلى الكـوفة سوى خليفة لا غير[٣٤]. إلا أنهم أقاموا بالكوفة بصورة منتظمة والتحقوا بهـا كلما فرض الوضع ذلك.

أما في عصر ابن هبيرة، وخالد القسري، ويوسف بن عمرو، وعبـدالله بن عمر بن عبد العزيز فقد صار الـوالي يقيم بالكـوفة أو الحـيرة إذا لم يكن موجـوداً بواسط[٣٥]. وهكذا غادر يوسف اليمن إلى الكـوفة خصيصـاً لعزل خـالد وتـولي الأمر مكانه[٣٦]، وأعد العدة لقمع ثـورة زيد وهـو في الحيرة[٣٧]. ويبـدو أن ابن عمر أقام بالكوفة والحيرة أيضاً[٣٨]. وبعد مدة، أمر يزيد بن عمـر بن هبيرة ببنـاء مدينة ملاصقة للكوفة و «قصرا»[٣٩]. ولعلّه ينبغي الـربط بين استئنـاف الكوفـة لمهمة المركز، واعتراف السلطة بمـوقعها الاسـتراتيجي الممتاز، وبـين إقامـة ولاية مستقلة للمشرق (خراسان) بأمر من هشام[٤٠]. فلم تعد البصرة مصدّرة للرجال لتعمـير خراسـان، هذه الـولاية التي وقفت عـلى قديمهـا، وبذلـك فقدت البصرة جـانباً من إشعـاعها في المجـال العسكري واسـترجعت الكـوفـة في نفس الـوقت موقعها المتميز كملتقى للاتصالات.

وهكذا تلتئم كافة العناصر التي بسطناهـا. إنها عناصر ضروريـة لمحاولتنـا شرح ما طرأ من تطور على المدينة في آخر مرحلة مرت بها خـلال العصر الأموي. وهي تنير التوبوغرافيا التي لا معنى لها إلا إذا لم ترتبط بكيان المدينة كاملاً، وبمادتها البشرية ومكانها في تاريخ متسع تشكل هي جزءاً منه.

---

(٣٤) الطبري، ج ٥، ص ٢٣٤: كان زياد يقيم بالتناوب ستة اشهر في كل مصر.
(٣٥) الطبري، ج ٧، ص ١٨٠.
(٣٦) المرجع نفسه، ص ١٥١.
(٣٧) المرجع نفسه، ص ١٨٠ ـ ١٨٦.
(٣٨) الطبري، ج ٧، ص ٣١٧.
(٣٩) كان قصر ابن هبيرة بعيداً عن الكوفة، لكن مدينـة ابن هبيرة تـوأمت مع الكـوفة ومـدّدتها عـلى الضفة اليسرى: فتوح البلدان، ص ٢٨٥.
(٤٠) الطبري ج ٧، ص ٤٧ ـ ٤٩.



الفصل العشرون

الاستمرارية والاضافات والابتكارات

هذه كوفة نصف القرن الأخير من العهد الأموي هي بالذات التي عاش فيها أبو مخنف. لا شك أنه ألف كتبه في مطلع العصر العباسي، كما بينه ماسينيون، فاستعرض العصور السابقة، وبذل جهده في إحياء ما مضى من الأحداث، لكن الكوفة التي كانت نصب عينيه هي تلك التي امتدت حياتها من سنة ٨٠ إلى سنة ١٣٠ هـ. يعني كوفة لم تعد تحدّد ذاتها الفضائية بالمدينة ـ المصر المتراصة المنحصرة على نفسها، بل صارت تنزع إلى ضم العديد من التجمعات شبه المدينية التي دخلت في فلكها ويشهد على ذلك تكاثر المنشآت الخارجية التي أمر بها الخلفاء الأمويون الأواخر والأوائل من العباسيين على السواء، من مثل سوق يوسف بن عمر في الحيرة، وسوف أسد ومدينة ابن هبيرة، وزرارة وهي آخذة هيئتها في ذلك الوقت، والرصافة والهاشمية، وقصر أبي الخصيب. أما بخصوص الخطط التي بقيت مع المركز، العنصر الأساسي للهيكل المديني، فينبغي تسجيل استمرارية الاستيطانات القبلية، واستقرار الأوضاع أيضاً. لم يأت سكان عرب جدد زرافات للإقامة، ولم يقع أي أحداث جديد في الخطط ولا كذلك التحولات التي هي هجرات داخلية كما وقع في الخمسين سنة الأولى. لقد تزايد عدد الموالي إنما أقاموا في خطط أسيادهم. وإذ ورد ذكر مسجد للموالي، وقد وضعه ماسينيون غلطاً[٤٠] بأحد أطراف المدينة، فهذا لا يدل على وجود

---

(٤٠) مكرر ماسينيون، مرجع مذكور، ص ٥٤.

استيطان خصوصي للموالي غير منـدمج في الخـطط، ولا على سكن مستقـل لهم. إن ما طرأ من تغييرات على نسق الخطط بمفعول النمو العمراني، قد وقع عـلى نمط إما التمطط والدفع إلى الخارج أو عبر الـتراص الداخـلي. لكن عند الحـديث عن الكوفة والأزقة والمتاهات والكثافة السكنية التي لا شك فيها، فلا بد من التعرض إلى الوجه الآخر أي إلى الجبانات والصحاري والأفنيـة والرحبـة والسكك ذاتهـا، التي حفـظت للمدينـة بنية منفتحـة فسيحة بعيـدة كل البعـد عن صـورة المـدينـة الإسلامية في العصور الكلاسيكية وبعد الكلاسيكية (ق ٣ - ٨ هـ).

الواقع أن الاستمرارية تظهر في أغلب المنظر المديني وأغلب علاماته. فعند مطالعة الروايات الخاصة بزيد بن علي، تعود بنا الذاكرة إلى أماكن عهدناهـا هي جبانة سالم، والصائديين أو الصوداويين (من أسد)، والكناسة، والجبانة، وجبانة مخنف، وجبانة كندة، واستمرت الدور القديمة قائمة وهي تحمل أسماء مؤسسيها: دار خالد بن عرفطة، ودار عمرو بن حريث، وباب عمر بن سعـد. وكلها تعيـد إلى الأذهـان أن عصر الإنشاء والتشييـد الحقيقي هو عصر جيـل الفتح ومن جـاء بعده، وهم الذين طبعـوا بطابعهم أسـماء المكان. لكن السـلالات تبقى وتستمر لدى الأشراف، وهذا ما يفسر أن الدور حـافظت عـلى وظيفتها الأولى، بـاستثناء دار الوليد بن عقبة، التي تحولت إلى دار للقصارين (في الفترة العباسية الأولى؟).

لم يخـل الأمر من إضـافات وابتكـارات كبناء الأسـواق، والقنطرة ومصـلّى خالد، وكنيسة أم خالد، ودَوْر سوق الـرقيق الذي صـارت تقوم بـه دار الرزق، وتأكيد الوظيفة التجارية والثقـافية للكنـاسة. وتـزايد عـدد الحمامـات، وتطوّرت المناطق المجاورة، وزاد الارتباط بالحيرة بصفة واضحة. إن هذه المنشآت والأدوار الجديدة طبيعية في مدينة فتية لم تنه بعد تشييـدها الـذاتي، ضمن حضارة جـديدة تتشعب، وتـدقق معرفتهـا لحاجيـاتها، وتستـوعب التأثيرات الخـارجيـة. لكنهـا ابتكارات أملتها أيضاً التغييرات الحديثة.

١) بناء خالد القسري للأسواق:

أقيمت الأسواق في الكوفة منذ البداية، كما هو معلوم، في كامل الجانب الشرقي من المساحة المركزية مستقلة عن المسجد. والأسواق من عطاءات الحضارة العربية الأكثر تميزاً، حيث أن الأسواق الدورية كانت من أسمى مواضع الحيوية الإجتماعية والثقافية العربية. لقد جدد عمر القاعدة لتنظيم الأسواق، فقرر أن المكان يعود لمن يحتله أول مرة: «الأسواق على سنة المساجد. من سبق إلى مقعد فهو له، حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه». هذا أمر يناقض ثبات نقط البيع وتخصص الأسواق. على أنه وقع لا محالة تحديد في تطبيق هذه القاعدة وقصرها على المساحات المخصصة من السوق حيث نرى ظهور التميّز من زمن ولاية زياد بالبصرة. فقد تحدث صاحب «أنساب الأشراف» عن «سوق الطعام» أي سوق الدقيق وما شابهه[٤١]. وفي واسط، صممت الأسواق بتخصصات متميزة، مما يفترض أن الوضع كان على ذلك النحو في الكوفة حيث استقر الباعة في أطناف غطتها الحصر وقامت على أوتاد (المرجح أنها كانت من قصب)[٤٢].

وتتدرج بادرة خالد المتمثلة في بناء أسواق الكوفة، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، تندرج ضمن سياق عظمت خلاله المبادلات، نعني سياق الازدهار الاقتصادي. لكن هذه البادرة ترتبط كذلك بإرادة البناء والتنظيم. فقد جدد مقصورة المسجد[٤٣] التي بناها زياد، وأمر بحفر القنوات منها النهر الجامع، مواصلاً بعمله كله الجهد الهائل الذي شرع فيه الوليد بن عبد الملك الذي مثل تحولاً حاسماً في الانطلاقة المعمارية الإسلامية. لكن خالداً كان صاحب أعمال ميالاً إلى المشاريع النفعية.

كانت المصادر مقتضبة في تدوينها الحدث. قال البلاذري:

(٤١) قسم ٤، ج ١، ص ٢٣٩. روى أن زياداً أمر بتسقيف دكاكين البصرة: المرجع نفسه، ص ٢٢٠.

(٤٢) كتاب البلدان، ص ٣١١، الطبري، ج ٥، ص ٢٥٨.

(٤٣) فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

البلاذري: «وبنى خالد حوانيت أنشأها وجعل سقوفها أزاجاً معقودة بالآجر والجصّ[٤٤]». أما اليعقوبي فإنه قال: «إنه بنى الأسواق وجعل لأهل كل بياعة داراً وطاقاً وجعل غلالها للجند» (أي لجيش الشام)[٤٥] ولم يقل الطبري شيئاً عن هذه الأسواق المركزية، لكنه أشار إشارة خاطفة إلى فكرة اتساعها في الخطط. واستمد ماسينيون نظريته عن مركزية الأسواق منها، وهو يرى أن أسواق الكوفة «لا شك أنها كانت نماذج لأسواق بغداد[٤٦]». إنه رأي صائب جداً لا سيما أن الأسواق الأولى في بغداد أقيمت في طاقات مركب الأبواب. وقد أمر أوائل العباسيين ببناء الطاقات بالهاشمية[٤٧]. لكن تهيئة الأماكن في بغداد والكوفة لم تكن متماثلة حيث انتشرت الأسواق في الكوفة على قطعة واحدة في الفضاء، قريباً من المسجد، فتمتعت حقاً بمركزية كاملة. وهو نموذج افتقدته بغداد وأسواقها إلى حد ما، في حين أن أسواق الكوفة اكتست طابعاً مثالياً من كافة الوجوه، وصالحاً لكل مدينة إسلامية مقبلة. الحقيقة أن المصادر تطرح علينا مشاكل. كيف نتمثل الأسواق المبنية؟ هل نتصورها صفوفاً من الدكاكين المسقفة على حافة سكك غير مسقّفة، إذا ما اعتمدنا قول البلاذري تماماً؟ أو أنها دكاكين مصطفة تفتح على شبكة من السكك المسقفة هي أيضاً، وهو الأمر الذي ينطبق على السوق الإسلامية المعهودة المقتبسة فعلاً من سوق الكوفة؟ والملاحظ في هذا الموضوع أن ما ذكره اليعقوبي ينبغي اعتباره وكأنه إضافة إذ ان خالداً أقطع داراً وأروقة قامت بدور النقطة المركزية بالنسبة لكل صناعة، فضلاً عن الدكاكين: فكانت مكاناً للصنع والتخزين، وداراً للصناعة ونواة للقيصرية. إن الأمر واضح بالنسبة لدار الوليد بن عقبة[٤٨] إذ قيل أنها كانت في سوق القصارين المليء بأصوات المقصات

---

(٤٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.
(٤٥) كتاب البلدان، ص ٣١١.
(٤٦) مرجع مذكور، ص ٤٩.
(٤٧) الطبري، ج ١، ص ٦١٥ و ٦٣٠.
(٤٨) الطبري، ج ٤، ص ٥٣٢ وج ٦، ص ٨٩.

وأنها كانت دارا للقصـارين [٤٩] أي على ملكهم الخاص.

ولا نعلم إلا القليل عن توبوغرافية هذه الأسـواق التي تفرعت إلى سكـك متخصصة، يوجد بقبلة (جنوب) الجـامع، الـوراقون، والمتـوقع أنها كـانت مهنة متأخرة لم يرد ذكرها بالنسبة للعصر الأموي. وفي الشمال حيث المكان الذي احتله الجامع الأول وبمـركز المسـاحة المـركزيـة، نجد التّـمارين (تجار التمـر) وأصحاب الصابون[٥٠] الذي تخصصت الكوفـة في صنعه[٥١]. ويضيف مـاسينيون قـائلاً: «وإذن البقـالـون[٥٢]»، لكن ينبغي أن نفهم من ذلـك أن المقصـودين هم تجـار الفواكه الجافة التي كانت بضاعة شريفة. ولا شك أن القصارين بدار الوليد كانوا يقيمون بأقصى الشرق أو الغرب، والعكس بالنسبـة للقلائـين. فقد ورد ذكـرهم كعـلامات تحـدد الأسواق، حيث كـانت العلامتـان الأخريـان هما مـركب القصر والمسجد في الغرب وخـطة أشجع وثقيف في الشـمال[٥٣]. ولا شك أن أصحـاب الأنمـاط (صناع السجـاد) كانـوا غير بعيـد من المسجد، وكـذلك أصحـاب الخـزّ (الحـريـر)[٥٤]. ولا يمكن تحـديـد أمـاكن الحـرف الأخـرى: السـواقـون[٥٥]، والخـلالـون[٥٦]، والسراجـون[٥٧]، والصـاغـة[٥٨]، والـزيـاتـون[٥٩]، والحنّاطون[٦٠]، (والأغلب أنهم كانوا من تجار الأطياب والعطور التي كانت تمسح

---

(٤٩) ابن سعد، **الطبقات**، ص ٢٤.
(٥٠) الطبري، ج ٤، ص ٤٤.
(٥١) الزبيدي، ص ٢٠٦.
(٥٢) مرجع مذكور، ص ٥٠.
(٥٣) **كتاب البلدان**، ص ٣١١.
(٥٤) **الطبقات**، ج ٦، ص ١٣٩؛ وابن الفقيه، ص ٢٥٢
(٥٥) Massignon، ص ٥٠.
(٥٦) **الوفيات**، ج ١، ص ٤٤٥.
(٥٧) Massignon، ص ٥٠، وقد اعتمد الخاصبي.
(٥٨) الزبيدي، ص ١٦٢.
(٥٩) **أنساب الأشراف**، قسم ٥، ص ٢٦٢.
(٦٠) الطبري، ج ٦، ص ٢٢٦.

بها الجثث، أكثر مما كانوا مختصين في التحنيط بالمعنى الدقيق). ولا شك أن الجزارين كانوا يقيمون خارج الأسواق في السبخة حيث كانت لهم دار ورد ذكرها أول مرة أثناء ثورة زيد (١٢٢ هـ). (٦١) وكان للحدادين أيضاً مكان خارج مركز المدينة، ولعله يقع بين الكناسة والمركز أو بأقصى غرب المركز(٦٢). وقد غمض أمر سوق الغنم، عند تدوين الرواية بخصوص مقتل هانىء بن عروة، علماً أن ماسينيون حددها بأقصى خطة مذحج(٦٣). ولا يسمح النص باستخلاص هذا الأمر إطلاقاً، لكن المنطق التوبوغرافي للأسواق قد يحملنا على وضعه خارج المركز. وبالفعل كانت أسواق الأغنام تقع بأطراف المدينة، وهي بعيدة عن المساحة المركزية، وكانت تشكل صنفاً مغايراً من الأسواق له طابع خاص، ووظائف مغايرة(٦٤). في حين أن الأسواق المركزية كانت بها صنائع نظيفة شريفة، وقد شكّلت وحدة شاملة تفرّعت إلى وحدات أصغر فهي مركب لصنائع متميزة اندرجت بجغرافيا المركز. إنما هي سوق مفردة متفرعة إلى عدة أسواق. وكانت شبكة من النشاطات المتكاملة المتداخلة التي جسمها مفرق السكك التجارية المنفصلة بعضها عن بعض، إذ تضمنت دروباً تغلق ليلاً أو عند نشوب اضطرابات خطيرة(٦٥). والملاحظ أخيراً أن موقع سوق الصيارفة كان خارج المركز في الركن الجنوبي الغربي للمساحة المركزية قرب مسجد بني جذيمة (عشيرة من عبس لا أسد كما روى)(٦٦). هذا استثناء وجب التلميح إليه لما اكتساه هذا النشاط من أهمية وهو يفسر بأسباب دينية وظرفية .

(٦١) أنساب الأشراف، قسم ٣، ص ٢٥٠ وما بعدها.
(٦٢) المقاتل، ص ١٣٦ ؛ والطبري، ج ٦، ص ١٠٦ .
(٦٣) مرجع مذكور، ص ٥٣ .
(٦٤) مثل الكناسة.
(٦٥) الطبري، ج ٧، ص ١٨٢ .
(٦٦) فتوح البلدان، ص ٢٨٤ .

٢) الأسواق المحيطة . الكناسة ودور الحيرة الجديدة .

إن مهمة الأسواق المركزية هي أن تنتج وتخزن وتبيع المنتوجات المصنـوعة. وهي تنتمي إلى قطاع التجارة الخاصة وتترجم عن الوجه الإيراني والوجه العراقي للكـوفة. وكـانت تتعاطى نشـاطات مـن الصنف «الشرقي». وقـد تـركـز في دار الرزق ما كان يرجع بالنظر للدولة ـ جباية الضرائب على الإنتاج الـزراعي وإعادة توزيعها في إطار الرزق[٦٧] ، والغنيمة والرقيق خـاصة ـ وبنفس الكيفيـة، كانت كافة علائق التبادل التجاري والبشري تتم بالكناسة وكل ما من شأنه أن يعبر عن استمرار قوةالصلات ببلاد العرب الوطن الأم. كـانت «أسواق الأطـراف» تشمل فضلاً عن الكناسة ودار الرزق منشآت جديـدة خارجيـة منها سـوق أسد وسـوق يوسف، وتسهم إسهامـاً نشيطاً في الحيـاة الاقتصاديـة بالكـوفة بسبب نشـاطاتهـا وموقعها التوبوغرافي.

وتلفت الكناسة النظر بصورة خاصة. كانت أرضاً عـراء واسعة في خـلافة علي حيث تميم وهمدان تفضان الخلافات بينهما. وبـداية من ولايـة زياد، ظهـرت وظيفتها التجارية حيث أمر هذا الوالي بشراء النوق والبغال، ووجّـه عليها حجـر ابن‌عدي ورفاقه إلى معاوية[٦٨]. كانت تقوم بوظيفة السوق لبيع وتسويغ الدواب كالجمال والبغال والبراذين[٦٩]، ولاحظ ماسينيون أن «تجارة وصناعة النقل تركّزتـا بهـا بصورة طبيعيـة»[٧٠] وأشرف عليهما النخـاسة وهم تجـار الـدواب عمـومـاً،

---

(٦٧) الطبري، ج ٦، ص ٦٠٢.
(٦٧) مكرّر أنساب الأشراف، مخطوط باريس الم . الوط ورقة ٤٤٨.
(٦٨) الطبري، ج ٥، ص ٢٦٨.
(٦٩) الجـاحظ ، كتاب البغـال في رسائـل الجـاحظ ، نشـر ع. هارون، القاهرة ١٩٦٤ ، ج٢ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن سعد ، طبقات ، ج ٦ ، ص ٤٠١ .
(٧٠) مرجع مذكور، ص ٥٣.

باستثناء الخيل التي لم تعتبر دواباً للنقل أبـداً[٧١]. كانت هـذه التجارة نتيجـة أكثر منها سبباً، للدور الذي لعبته الكناسة كمرفأ للقوافل متجه نحو بـلاد العرب أولاً والبصرة ثـانياً. وأضـاف ماسينيـون أيضاً أنها كـانت «مكانـاً لحط الرحـال وحمـل الأثقال بالنسبة لقوافل الجمال». فهي باب لبلاد العرب يفتح مبـاشرة على طـريق الحج، ومصبّ عظيم لسكان البادية: تلك كانت الكناسة. وهي تتحمل بصورة قوية عمق الصلة ببلاد العرب، وترمز إلى الوجه العربي الصرف للكوفـة، أي إلى وجهها الآخر، وبعدها المرتبط «بشبه الجزيرة» العربية. كانت كلمة «كناسة» تعني أصـلاً مصباً للقـمامة[٧٢]، فصـارت تعني في المعجم العربي الـلاحق المكان حيث تناخ الجمال وتحط الرحال بصفة عامة. إنه تطور في الدلالة مستمد من اسم العلم هذا، وهو تـطور رفضته القـواميس الكلاسيكيـة بتاتـاً[٧٣]، لكنه حـاضر بقوة في لحمة اللغة المحكية.

لم تكن الكنـاسة اذن سـوقاً للدواب فقط، ولم تكن تنفـرد بـذلـك في هـذا المجـال، فقد ورد ذكـر سوق الـبراء[٧٤] المتخصصة في بيـع الدواب. لقـد كانت مركزاً لسوق منتوجات السواد وما وراءه من البلاد الإيرانية إلى المدن المستهلكة في بلاد العرب، وهي مدن مثقلة بالمال. ولم يكن لبلاد العرب ما تبيعـه إلا ما قـل، باستثناء جمالها خاصة. مما جعل للجمـل دوراً مزدوجـاً كما ازدوج دور الكنـاسة: كان دابة للحمل ودابة للتوريد، وكانت الكناسة سوقاً للقوافل وسوقاً للجمال.

ولا ينبغي تصور الكناسة كتنويعة من الأسواق المركزية، بل كسـوق دائمة ومرفأ ونقطة المنتهى. كانت الكناسة سوقاً كلها تلونات. وكانت مكانـاً يلتقي فيه

---

(٧١) أبو عبيدة، كتاب الخيل، ص ٥ ـ ٨. كانت الجيوش «تجر» الخيول المربوطة بدواب أخرى.
(٧٢) لسان العرب، مادة كناسة، جذر د ن س.
(٧٣) لسان العرب وتاج العروس.
(٧٤) الأنساب، وجه ورقة ٤٩٩ وظهر ورقة ٥٠٠.

عالمان وحيث يتفوق الطابع العربي. وهي أفرزت سوقاً داخلية استهلاكية حيث يباع الصحناة، وهو طعام من السمك، كما ذكر في ملامة عنيفة وجهها شبث بن ربعي إلى أحد موالي المختار(٧٥).

ولذا، صارت بصورة طبيعية، مكاناً مرموقاً للشعر البدوي، مثلها مثل المربد في البصرة، لكن بدرجة أقل(٧٦). وإنها لصورة مؤثرة لم تكن لتتكرر كل يوم تلك التي تظهر لنا أحد الشعراء واقفاً على ناقته ينشد إحدى قصائده إذ رسخ البيت الأول في ذهن الشاهد وهو طفل. وهذا المنظر يوحي لنا بقوة المناخ الثقافي وعمق الحيوية الاجتماعية بالكناسة(٧٧).

لا فائدة من العودة إلى الدور السياسي العسكري الذي كان للكناسة. ولعله كان أهم من دور الجبانات الكبرى، لأن الكناسة كانت نقطة تجمع لتميم وحلفائها من ضبة وعبس ثم لكونها ملكاً للمدينة كلها. كانت مكاناً عمومياً مزدوجاً بالنسبة للمجتمع المدني كما للسلطة التي لم تمتنع عن جمع جنودها بها (ابن مطيع مثلا)(٧٨)، وعرض المصلوبين. وخلافاً لما جاء بخبر قليل الوثوق(٧٩)، فإن هانىء بن عروة لم «يصلب» بالكناسة، بل قتل في ساحة السوق الذي لم يكن مبنياً في ذلك العصر(٨٠). لكن لا يبقى أي شك في عرض جثة زيد بالكناسة على جذع نخلة، وقد نصبت عليها الحراسة ليل نهار من قبل جنود الوالي(٨١). فظاهرة الصلب بالكناسة ظاهرة متأخرة إذن وتبدو منعزلة في المصادر فلا تمكننا

---

(٧٥) الطبري، ج ٦، ص ٢٥.
(٧٦) الأفغاني، أسواق العرب، ص ٤٠٧.
(٧٧) الأغاني، ج ١٤، ص ٣٠.
(٧٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٩.
(٧٩) الطبري، ج ٥، ص ٣٥٠، في حين أن أبا مخنف قال انها السوق.
(٨٠) انظر ما سبق.
(٨١) الطبري، ج ٧، ص ١٨٠ - ١٩٠. وكانت ترمى بالكناسة جثث المسجونين إذا ماتوا: ابن سعد، طبقات، ج ٦، ص ٢٨٥.

من نعت الكناسة بأنها «مكان للشنق»، كما قال ماسينيون[٨٢].

ونفس المصادر لا تخول لنا وضع السماسرة في بيع الرقيق أو النخاسين في الكناسة كما فعل ماسينيون أيضاً دون برهان[٨٣]. ويكفي ما روى صراحة بخصوص مسلمة بن عبد الملك الذي هدد ببيع بني المهلب رقيقاً بعد ثورة يزيد (سنة ١٠٠ هـ)[٨٤] في دار الرزق، للتدليل أن هنا لا بالكناسة كانت تعقد مثل هذه الصفقات المرتبطة بالحرب، وبالدور الاقتصادي التوزيعي للدولة، المتركز بدار الرزق فعلاً.

وبقدر ما كان هذا المخزن الكبير للدولة يوزع على فترات منتظمة المنتوجات الغذائية على السكان العرب في شكل أرزاق، فقد كان على هؤلاء السكان خزنها والاستغناء بذلك عن نقاط البيع بالتفصيل داخل خطط القبائل، إذ لم يقع ذكرها بالمرة. وهكذا نجد أسواقاً كبرى ومؤسسة عمومية تشرف عليها الدولة من جهة، وشكلاً اقتصادياً عائلياً من جهة أخرى، فضلاً عن نشوء أسواق جديدة خارج الكوفة، حين بدأت المدينة تزدهر. كان أسد بن عبدالله القسري شقيق خالد، والياً على خراسان مدة، فأمر ببناء قرية وسوق في منطقة الكوفة. وسمي هذا المركب (سوق أسد) باسم السوق الدورية أو الدائمة. وقال البلاذري أنه «نقل اليها الناس»، مضيفاً أنها كانت معسكره أصلاً، عند توليه خراسان[٨٥]. إن هذه المدينة ـ السوق التي تدور في فلك الكوفة، أنشأت إنشاء ارادياً، وكانت في آن مستقلة ومرتبطة بوجود الكوفة. ولها مقابل في إنشاء يوسف بن عمر لسوق يوسف في الحيرة بالذات[٨٦].

---

(٨٢) مرجع مذكور، ص ٥٣.
(٨٣) مرجع مذكور، ص ٥٣.
(٨٤) الطبري، ج ٦، ص ٦٠٢.
(٨٥) فتوح البلدان، ص ٢٨٤؛ وابن الفقيه، ص ١٨٣؛ وياقوت، ج ٣، ص ٢٨٣.
(٨٦) ابن الفقيه، ص ١٨١؛ وياقوت ج ٣، ص ٢٨٥.

وقد استرجعت هذه المدينة العربية القديمة الموجودة قبل الإسلام عنفوانها في عصر هذا الوالي (١٢٠-١٢٦)، واعتاد الولاة الإقامة بها حتى فترة ابن هبيرة، بحيث يمكن التساؤل عما إذا لم تصبح لحين المقر غير الرسمي للحكم في العراق، الأمر الذي يبين إرادة الابتعاد عن الكوفة والاقتراب منها في آن، بالتخلي عن واسط. وبدون أن نقول أن «أرباض» الكوفة صارت تمتد حتى الحيرة، وهي ظاهرة سوف تجد فيما بعد أي في القرن الثالث كما أثبتته آثار الحفريات، فإنه يمكننا التأكيد أن الحيرة دخلت في فلك الكوفة سنة ١٠٠ هـ، فأصبحت تعيش ملتحمة بها. لقد ولى الزمن الذي كانت تؤثر تأثيراً عميقاً على المصر، من حيث الهندسة المعمارية والكتابة والصياغة (كانت سوق الصاغة من الحيرة) والخزف والتقنيات المصرفية والصيرفة[٨٧]، مع بقائها منعزلة لأنها كانت مقراً لشكل عروبي مهترىء خاضع متمسّح، فيما كانت الكوفة قلعة للإسلام، ورمزاً لحداثة مطلقة للعروبة. ففي عصر الحجاج مثلاً (سنة ٧٧، خلال ثورة شبيب)، كان لهذا الوالي أن يشير اليها بالبنان كملجأ حقير لليهود والنصارى[٨٨]،وكعالم صغير للغيرية ليس بعالم الإسلام المناضل: كان هناك إذن حاجز نفساني يفصل بين المدينتين العربيتين. وفي حين كانت الكوفة تتشبع بالإسلام أكثر فأكثر، كانت الحيرة بصدد فقدان عروبتها، وتحدد وضعها بمغايرة دينية. إن التفتح الواضح على النصرانية الذي طرأ على الكوفة في ولاية خالد القسري، وانطلاقة المصر نسبياً خارج حدوده الأولى، والتضخم العظيم لتنقل البشر طيلة قرن، والإنتصار الكامل للاتجاه العربي الإسلامي على أي شكل منافس آخر كل هذا غير من طابع العلائق. صار الآن ممكناً التمون من الحيرة وكأن المرء ذاهب إلى ضاحية، إما بسوق الحيرة[٨٩]، إذا استمر قائماً، وهو واحد من الأسواق العشرين التي وجدت

---

(٨٧) Massignon، ص ٤٩.

(٨٨) الطبري، ج ٦، ص ٢٦٦.

(٨٩) الأفغاني، مرجع مذكور، ص ٣٧٤.

في العصر الجاهلي[٩٠]، وإما بسوق يوسف الجديد[٩١]. وتزايدت حوالي سنة ١٠٠ هـ لقاءات الشعراء والاشراف المعربدين في الأديرة المحيطة بالحيرة[٩٢]. كانوا يحتسون الخمر ويقولون الشعر فيه على هواهم. وقد أخذ ماضي الحيرة الذي تشهد عليه القصور القائمة على حدود الصحراء[٩٣]، يحاور الخيال والإحساس العربي[٩٤].

سوق أسد، وسوق يوسف، وسوق حكمة: إن تفجّر الكوفة على الخارج، وتدجين المحيط بالحمامات الخارجية (حمام أعين، الخ...)، وبالقرى، والمزارع، لهو بمثابة الرفع للحواجز الشرسة للكوفة الأولى. أنه شاهد على التفتح على العالم يعارض بشدة انغلاق واسط، وهو كتملك جديد لهوية مدينة مدنية تماماً.

٣) القنطرة والحمامات :

القنطرة أو الجسر المبني :

كان على أهل الكوفة أن يقتصروا لحد ذلك الوقت على جسر دائم من المراكب لكي يعبروا الفرات ويدخلوا السواد، وكان يقف على حراسة الجسر موظفون (كان مسروق مكلفا بالسلسلة بمدينة واسط) (٩٥). هذا الجسر يسهل قطعه، هو ضيق نسبيا، اذ حين يتكاثر الناس عليه يدور الحديث عن الزحام (٩٦). ولمّا اتسع حجم المبادلات وتزايدت حدة الشعور بالتنظيم والاستقرار اتخذ

---

(٩٠) نفس المرجع، ص ٣٧٤ وما بعدها.
(٩١) ابن الفقيه، ص ١٨١.
(٩٢) الشابشتي، الديارات، ص ٢٣٦ ـ ٢٥٧.
(٩٣) صالح العلي، مقال مذكور، لا سيما الخارطة.
(٩٤) يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ٢٠٤ وما بعدها؛ والزبيدي، ص ١١٥ ـ ١٢٠.
(٩٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٩٦) الطبري، ج ٦، ص ٢٠٧.

عمر بن هبيرة الوالي (١٠٣ ـ ١٠٥) قرارا ببناء قنطرة بمواد صلبة . وأعاد القسرى البناء وحسنه ثم وقع اصلاحه عدة مرات بعد ذلك (٩٧) .

أورد البلاذري خبرا مفاده أن أصل البناء يعود ألى العصر الساساني الغابر ، وروى أن مهندسا عربيا من النساطرة الجُعْفيين بنى القنطرة التي انهارت بعد مدة (لأنها بنيت من لبن على الأرجح) ، مما أدى إلى إقامة جسر من المراكب كممر بديل (٩٨) . ويزعم هذا الخبر أن زيادا كان أول من أعاد بناء القنطرة ، وأن ابن هبيرة وخالدا وابن شبيرة الثاني قاموا باصلاحها ثم تناوب الولاة على الاصلاح ، ومن العسير اعتماد هذا الخبر ، لأنه لم يرد خبر آخر يتعلق بوجود قنطرة في ولاية زياد بل بعد زياد . وروى أبو مخنف أن هناك قنطرة قريبة من دير عبد الرحمن[٩٩] ، كما ذكر أن أهل الكوفة خرجوا سنة ٨٢ هـ . لاستقبال ابن الأشعث « بعدما جاز قنطرة زبارا »[١٠٠] .

فهل يطابق هـذان الخبران الصـادران عن هذا المؤرخ ، اسقـاطا لـواقع لاحق ، كما كان ديدنه في صور كثيرة ؟ وهل أنهما يتعلقان بأمر آخـر غير قنـطرة الكوفة ؟ في الحقيقة ، الأقرب إلى الصواب أن تكون القنطرة أمرا حديثا ، وأنها من عمل ابن هبيرة نفسه الذي روي عنه فضلا عن ذلك أنه كان أول من نظم الأسواق في واسط حيث ولى صاحبا للسوق . بقي علينا أن نحدد مكانها . لا يمكننا القطع أنها كانت تقع مطلقا على الرافد الكوفي للفرات بدل نهر سورا . والمرجح أنها كانت توجد دون شك بمكان يعرف بزبارا[١٠١] بعيدا عن الجسر فيما يظهر ، كما أكد ذلك

(٩٧) فتوح البلدان، ص ٢٨٦ ؛ ابن الفقيه، ص ١٨٣ ؛ والبراقي، ص ١٢٠، وقد حدد هذا الأخير موضعها بمكان يعرف حالياً بقنيدره، في الجنوب الشرقي من المسجد.

(٩٨) فتوح البلدان، ص ٢٨٦ .

(٩٩) الطبري، ج ٦، ص ٨١ ـ ٨٢. أبو مخنف ذاته يذكر هذه القنـطرة في الأخبار المتعلقـة بعلي لكن يظهر من السياق أنها والجسر شيء واحد: الطبري، ج ٥، ص ٨٣.

(١٠٠) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٣٤٦. وقد ورد ذكر وجود قنطرة بالحيرة: ابن سعد تابع ج ٦، ص ٢٠٩ ؛ وصالح العلي «منطقة الكوفة»، ص ٢٣٩ ؛ والأغاني، ج ١٣، ص ٤١.

(١٠١) الزبيدي، ص ١٦٤ .

خبر ورد بكتاب « المقاتل » أدرج في رواية تتعلق بثورة أبي السرايا[١٠٢] . إن المصادر متضاربة وغامضة في الغالب ، لكنها تذكر رغم ذلك واقعا أساسياً في الموضوع ، هو تعدد نقط العبور الثابتة والقناطر العربية المبنية بمنطقة الكوفة وبهذا الصدد فإن الذي يهمنا هو الانطباع العام أكثر مما هو ضبط الأمور . قنطرة الكوفة ، وقنطرة زبارا (سواء طابقت الأولى أم لا) ، وقنطرة دير عبد الرحمن ، وقنطرة الحيرة : لقد جعل هذا التراكم من القنطرة عنصرا جوهريا في محيط الكوفة . وحين يأتي الوقت الذي ستحاط خلاله المدينة بخندق من الماء سوف تبرز القناطر المجهزة بالدروب في كل مكان ، وسوف تطبع بوجودها منظر المدينة .

الحمامات الداخلية والخارجية :

ولم تكن مساهمة الحمامات العمومية أقل من ذلك في وسم المظهر الحضري ووتيرة الحياة في الكوفة كما في البصرة ، وبالتالي في كل مدينة إسلامية . كانت الحمامات موروثة عن الساسانيين ، ولعلهم اقتبسوها بدورهم من الحمامات الرومانية . وقد ظهرت الحمامات بعد مدة طويلة ، المدة اللازمة كي ندخل الممارسات التعبدية أعماق المجتمع وتندمج في الحياة اليومية ، وينسجم مجهود الابتكار والتنظيم مع احتياجات الكيان الاجتماعي ، وإلى أن استوعبت النماذج الخارجية للحضارة . وقد طابقت بالخصوص شعائر الوضوء .

أقيمت الحمامات في ولاية زياد ، في البصرة كما في الكوفة ، مع بعض التضييقات . ويبدو أن زيادا فرض الحصول على الاذن مسبقا ، وحددها خارج محيط المدينة[١٠٣] . ثم تكاثرت بعد مدة في البصرة ، وأنشأت داخل المدينة

---

(١٠٢) المقاتل، ص ٥٥٣. لكن الخبر الخاص بعلي يوحي بالقرب إذ يقول أبو مخنف في الطبري، ج ٥، ص ٨٣ ما نصه: «وخرج فعبر الجسر فصلى ركعتين بالقنطرة». إذا بالطبع لم يعن هذا القول انها شيء واحد كما ذكرنا أعلاه.

(١٠٣) أنساب الأشراف، قس ٤/ج ١، ص ٢٢٣.

خاصة ، هذه المدينة التي أتخمت ماء ، وتعددت فيها القنوات[١٠٤] . كان عدد الحمامات المعروفة بالكوفة خمسة منها حمامان كانا خارج المدينة ، في حين أن البلاذري ذكر أسماء أربعة عشر حماما في البصرة[١٠٥] . أقيم حمام عمرو بن حريث وحمام قطن بن عبدالله من جهة خطط الشمال ، لكن لا يمكن ضبط موقعهما أكثر من ذلك ، مع أن الحمام الثاني لم يكن على الأرجح بعيدا عن جبانة السبيع[١٠٦] ، وحدد موقع حمام المهبذان بوضوح في السبخة[١٠٧] حيث كان التزود بالماء متيسرا . وقد تزود الحمام الأول والحمام الثاني بالماء من نهر بني سليم[١٠٨] . أما الحمامات الموجودة خارج المدينة ، كحمام أعين وحمام عمر بن سعد ، فإنه ينبغي تحديدها بين رافدي الفرات[١٠٩] على طريق المدائن وخراسان . وكانت هذه الحمامات أيضا أماكن استراتيجية من المقام الأول ، حيث عسكرت بها عدة جيوش ، وأقيمت بها المرافق بحيث تحولت تلك الأماكن إلى منشآت مدينية أو شبه مدينية ،

تذكر المصادر أن عمر بن سعد عندما حاول « الخروج » من المدينة حين طارده المختار ، لجأ إلى حمامه ، فدخله ثم عاد وقتل[١١٠] . وحدده أبو مخنف تحديدا أدق ضمن روايته بخصوص شبيب ، فجعله يقع بعد مكان يعرف بقبين وقبل قصر ابن هبيرة (المقبل)[١١١] .

---

(١٠٤) ١٢٠٠٠٠ قناة حسب الاصطخري ونقل عنه الخبر الأفغاني: **أسواق العرب**، ص ٣٩٨.

(١٠٥) **فتوح البلدان**، ص ٣٨٤ وما بعدها؛ **وأنساب الأشراف** قسم ٤/ ج ١، ص ٢٠٥ حيث يرد ذكر لحمام بلج.

(١٠٦) الطبري، ج ٦، ص ٨٤.

(١٠٧) المرجع نفسه، ص ٥١.

(١٠٨) الطبري، ج ٣، ص ٤٦٥؛ والبراقي، ص ١٢٠.

(١٠٩) لا سيما حمام عمر حيث قضى شبيب ليلة، وكان يقع بين قصر ابن هبيرة وقبّين: الطبري، ج ٦، ص ٢٣٦.

(١١٠) الطبري، ج ٦، ص ٦١.

(١١١) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٣٦.

وأخيراً ، فلما أمر الحجاج ، بعد ثورة ابن الأشعث ، برحيل الجيش النظامي أي « ضرب البعث » ، وهو الجيش المتكون من أهل الكوفة ، عسكر الجميع بحمام عمر . واستخدم حمام « أعين » كمعسكر ـ وأعين أحد موالي بشر ابن مروان(١١٢) أصبح من موالي الحجاج ـ وكمكان للاستراحة وكمرحلة أولى بعد الخروج من الكوفة . وكذلك استعمله ابن الأشتر في طريقه إلى الجزيرة(١١٣) ، وعتّاب بن ورقاء عند خروجه لملاقاة شبيب(١١٤) ، وشبيب نفسه(١١٥) . وورد ذكره صراحة بأنه يقع على الصّراة(١١٦) . ويبدو أن الموقع الخارجي لبعض الحمامات كان من خاصيات الكوفة . لكنها بقيت كما في البصرة ، من نصيب أناس مقربين من الحكم ، سواء كانوا عربا أو موالي ، وكانت السلطة هي التي تأذن بالاستغلال . فيقابل عمر بن سعد وعمرو بن حريث في البصرة عبدالله بن عثمان ابن أبي العاص ومسلم بن أبي بكرة ، ويطابق أعين شخص فيل وهو من موالي زياد ، وقد تسمى باسمه باب الفيل في الكوفة . ومن المعلوم أيضا أنه كان في أول الأمر للحمامات مداخيل كبيرة وكبيرة جدا في البصرة ، بلغت ١٠٠٠ درهم في اليوم ، فساعد ذلك على انتشارها . وقد عرف أصحاب الحمامات في الكوفة كيف يحافظون على شبه الاحتكار الذي كانوا يتمتعون به ، وكان ذلك أحد النشاطات التجارية النادرة التي تعاطاها أشراف الكوفة .

وضع السكك . السور والخندق :

يبدو أن الأنارة كانت موجودة بصفة مستمرّة بالكوفة ، بخلاف ما قد يظن

---

(١١٢) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٤٢.
(١١٣) الطبري، ج ٦، ص ٨٢.
(١١٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٠ .
(١١٥) المرجع نفسه، ص ٢٦٨ .
(١١٦) المرجع نفسه، ص ٢٦١ .

اعتمادا على إشارة ماسينيون الذي يتكلّم عن « المشاعل المنارة ليلا »[١١٧] . كان الظلام يسود الكوفة بالليل، كما كان يسود روما[١١٨] ، وتقريبا كافة المدن التي سبقت العصر الحديث ولنا على ذلك حجج مباشرة وغير مباشرة ، فمثلا كان عبيدالله بن زياد يتفقد المسجد ليلا ، سنة ٦٠ هـ . بالمصابيح مقلبا الزوايا[١١٩] . وقد وقف الحجاج فوق باب القصر ، عند دخول شبيب إلى الكوفة « وثم مصباح مع غلام له قائم » داعيا الناس إلى الحشد ، ويرشدنا السياق إلى أن الرؤية كانت غير ممكنة بالمرة[١٢٠] . وكانت المشاعل التي تحدث عنها ماسينيون وجاراه البارقي في ذلك ، من الهرادي التي أشعلها جنود زيد بن علي (١٢٢ هـ) . لما ثاروا بالليل ، وذلك للتعارف واشاعة الدفء بينهم في آن واحد لأن « الليلة كانت شديدة البرد »[١٢١] . إنها لظاهرة استثنائية وهذا ما يفسر ملاحظتها وتدوينها،ذلك أن الأمر لم يكن متعلقا باضاءة عادية مستمرة للسكك . ويظهر أن الهرادي كانت لا محالة حزما من القصب ربطت بينها فروع الكرم (راجع تاريخ حنبعل) ، يقع اشعالها ورفعها ، وهي تحترق سريعا جدا ، « فكلما أكلت النار هرديا رفعوا آخر » . أما الحجج غير المباشرة فكثيرة . ورد بالمصادر أن الليل كان يساعد على التجمعات تأهبا للانتفاض ، واندلاع الثورات ، وأيضا تدبير المؤامرات والتنقلات أو مجرد العنف اليومي ، لاسيما السرقات . وكان هذا العنف حاضرا وشاملا ، وقد شهر به زياد وندد به في خطبته[١٢٢] التي كانت في الواقع بمثابة منشور موجه لأهل البصرة . . وقد غلب عليه الشعور بقوة الاضطراب العمومي الذي هو اضطراب

---

(١١٧) مرجع مذكور، ص ٤٦ .
(١١٨) Léon Homo، مرجع مذكور، ص ٥٨١ .
(١١٩) الطبري، ج ٥، ص ٣٧٢.
(١٢٠) الطبري، ج ٦، ص ٢٤٢ .
(١٢١) الطبري، ج ٧، ص ١٨٢ .
(١٢٢) الأنساب ج ٤ (١)، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

يتبع الحق العام لكن ارتبط ببداية الاضطراب السياسي . كان الأمر كذلك عندما بدأ الانتفاض على عثمان : فقد بدأت الفوضى تدب وظهـرت نزعـة مخيفة إلى الإجرام(١٢٣) . وكان ذلك عبارة عن نوائب من الحمى ، واهتزازات من الضيق لكنه كذلك انخرام طرأ على تكيف الروح العربية بالمحبط ، بالنظر لضياع الفرد في المدينة الذي أدخل عليها البلبلة ، وأخيراً فهـو عنف عادي يفـرزه كل تـواجد حضري في كل عصر ويختار منه الناس فتستغله السلط أو المشوشون في اتجاهات مختلفة . والظاهرة الكبيرة هنا أن زيادا فرض استبدادا شحن بالمخاطر وأوقع بهذا تحولا في تاريخ العراق والإسلام ، وهو أمر شعر به أبو مخنف لوضوحه . فما هو منطلقه ؟ كان الأمر عبارة عن معاينة لفوضى عامة عادية يصـرح زياد بها بهذه العبارة : « الغارة في النهار والسرق في الليل »(١٢٤) .

ويضيف : « واياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمـدلج إلا سفكت دمـه » . وأخضع البصرة إلى نظام منع التجول(١٢٥) بصورة مستمرة لا هوادة فيها . كان المقصود من ذلك اتخاذ اجراء لحفظ الأمن اليومي الحيوي ، وهو تنظيم للتعايش الجماعي حتى ولو أخفى هذا الأمر نوايا سياسية دون شك . ذلك أن زيادا نفسه مؤسس الدولة السلطوية وفارض الاستبداد والعسف والممارس للقسوة في الضرب على أيدي الأعداء ، كان أيضا منظما ومربيا . وقد بينا أنه جعل من البصرة والكوفة على صعيد التمصير الصرف ، مدينتين حقيقيتين . وإضافة إلى جهده المعماري ، فقد أصدر تدابير كثيرة لفائدة المدينة ، لاسيما المحافظة على نظافة السكك . فكان السكان ملزمين برفع أنقاض الطين بعـد نزول الأمـطار ، ورفع القمـامات من السكك(١٢٦) وبلغ به الأمر في البصرة إلى حد انشاء مصلحة مختصة لرفع القمامة .

(١٢٣) الطبري، ج ٤، ص ٢٧٩ .
(١٢٤) الأنساب ج ٤ (١) ص ٢٠٧ .
(١٢٥) الأنساب ج ٤ (١)، ص ٢٠٧ ؛ الطبري، ج ٥، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
(١٢٦) المرجع نفسه، ج ٤ (١)، ص ٢٣٧ .

والمفروض أنه طبق نفس السياسة في الكوفة . لقد أشار البلاذري إلى أن المكان الموجود بدار الروميين في المركز ، كان مصبا للزبال[١٢٧] : يعني ذلك أن الناس كانوا يذهبون إليه لصب زبالهم « الرمل » ثم ظهر هذا المكان في عصر يزيد بن عبد الملك ، فنّظف وبّسط . وقد أشرنا كذلك إلى وضع الكناسة التي كانت مصبا للقمامة ، ثم أصبحت سوقا كبرى للقوافل . وما يستخلص من هذه الأمور أن شاغل نظافة السكك كان موجودا .

الواضح أن هذه السكك لم تكن مبلطة بل حافظت على وضعها خلافا لما كان عليه الأمر في مدينة أخرى هي حمص[١٢٨] . لكن حمص كانت تابعة للمملكة الرومانية البيزنطية التي يعترف كتاب عرب كالجاحظ بتفوقها على مجال وادي الرافدين ما عدا بغداد التي فاقت في نظره مدن « الشامات » فعلا[١٢٩] . ومن المعلوم أن موضوع نظافة السكك والرحاب تدقيقا ، تجسم في بغداد حيث كانت السكك تكنس وتطهر من أوساخها كل يوم[١٣٠] . لكن المحتمل أنها لم تكن مبلطة في بادىء الأمر ، لأن التبليط كان في الحقيقة ابتكارا رومانيا لم يدخل كل مكان .

أشرنا سابقا إلى السور والخندق ولنوجز القول بشأنها . لقد فرضها أبو جعفر على السكان فحملهم النفقات سنة ١٥٥ هـ . عقابا لهم على نزعاتهم المتشبعة إلى علي ، واحصاء لعددهم ـ كما جاء في الروايات[١٣١] . والواقع أن ما قام به أبو جعفر يترجم عن ظهور تصور كامل جديد للمدينة . هذا التصور إنما ترمز إليه بغداد بالضبط ، إذ كان جهازها الأساسي السور ومركبات الأبواب . وهكذا تعود التقاليد البابلية إلى سالف قوتها ، بعد أن اختفت إلى حين . وقد أراد

---

(١٢٧) فتوح البلدان، ص ٢٨٠ .

(١٢٨) البلاذري في فتوح البلدان، ص ١٤٠ : «إنها مفروشة بالصخر».

(١٢٩) الخطيب، يستشهد به Lassner، ص ٥٦ .

(١٣٠) المرجع نفسه، ص ٥٧ .

(١٣١) لم يتحدث البلاذري إلا عن الخندق: فتوح البلدان، ص ٢٧٨ .

المنصور توسيع هذا التصور إلى عاصمته القديمة حيث ارتجف لفكرة هجمة يقوم بها جيش ابراهيم بن عبد الله العلوي الثائر في البصرة . ليس هناك أي شك في أن الجهد التمصيري الذي قام به المنصور في بغداد والكوفة وغيرهما ، قدداخله شاغل الاحتماء من الثورات الداخلية . وما يبدو متناقضا أنه فكر في الأمر بعد أن أستتب النظام . وينبغي أن نضيف لهذه الأسباب سببا آخر هو أن الكوفة لم تعد مصرا للمقاتلة بل أصبحت بلدا تابعا ، ومدينة من مدن الخليفة . فكان السور استجابة « لتمدين » الكوفة تمدينا كاملا شاملا ، وللتحول الطارىء على اتجاهها ، والمسيرة التي قطعتها طيلة قرن ونصف منتقلة من وضع المصر المسلح المهاجم المضطرب المهيمن ، أحد منابع القوة العربية ، إلى وضع مدينة الثقافة والصناعة المنزوعة من الصفة العسكرية والهشة . فكان ينبغي حمايتها من العالم الخارجي .

لعب السور بصورة ملموسة دورا أقل أهميته من الخندق الذي كان قناة حقيقية محصنة ، وكان متضمنا للجسور بدروبها[١٣٢] ، وكانت الأفلاك والمراكب تعبره . كانت الكوفة في الماضي مدينة مليئة بغبار وبرائحة الصحراء فأضحت مدينة الماء . كانت محاصرة بين النهر والصحراء ، فمالت إلى جهة النهر ، وجلبت مياهه وسيطرت عليه وعبرته وجعلت منه حزاما تحتمي به . فكان سور الكوفة الحقيقي الخندق ـ القنال ، أي ما عرف بالخندق . وقد أشار إليه الطبري عند حديثه عن ثورة شقيق أبي السرايا سنة ٢٠٢ هـ .[١٣٣] . ومن نتف الأخبار التي يمكن اقتباسها من هذا الحدث يتبين أن الربض كان موجودا بالخارج ، وهو ربض عيسى بن موسى ، وكذلك الكناسة التي أصبحت ربضا مفيدا . وبذلك فقد أحاط السور[١٣٤] « بالمدينة » أي بالمركز والخطط ، وحدودها القديمة التي

---

(١٣٢) البراقي ، ص ١٢٠ .

(١٣٣) الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٦١ .

(١٣٤) المستوفي القزويني تحدث عن الكوفة على أساس أنها كانت محاطة بأسوار دائرتها ١٨٠٠٠ قدم : Le Strange ، ص ٧٥ .

أمحت[١٣٥] وتحولت إلى أحياء حضرية مع ما تبقى من الجبانات . وهكذا تحولت الكوفة إلى مدينة اسلامية كلاسيكية ، لها بنية مزدوجة تتركب من « المدينة » والأرباض ، وحيث كان الخندق والسور يحددان « المدينة » أكثر مما يحميانها ، وقد رسما الحد الفاصل بالضبط بينها وبين الأرباض .

(١٣٥) ما عدا خطّة كندة التي اتسعت وطغت على الجنوب الغربي من الكوفة مع أنها تحوّلت بدورها إلى حارة في القرن الثالث: عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، ج ١، ص ٣٨٢؛ Un poète arabe du IVe siècle H., R. Blachère، ص ٢٤ .



الفصل الحادي والعشرون

رجوعا إلى التقاليد العربية

الجبانات والصحاري

ذكر اليعقوبي في « كتاب البلدان » أن كل قبيلة اختطت مع رئيسها[1] قال : « وكان لكل قبيلة جبانة تعرف بهم وبرؤسائهم » . وأضاف في « التاريخ » ملحوظة مفادها أن الأشعث خط جبانة كندة ، قال : « فاختط الأشعث جبانة كندة واختطت كندة حوله »[2] وفعل سعد نفس الشيء بالنسبة للجامع والقصر . وهذا يعني أن القبائل منحت حرية التصرف في الفضاء المخصص لكل منها ، وفي التنظيم الداخلي للخطط . وكانت التهيئة الفضائية للمركز من مشمولات السلطة في حين أن تهيئة الخطط كانت ترجع بالنظر إلى القبائل . وتقوم دار الرئيس مقام العلامة المركزية الدالة على غرار القصر ، ويتواجه الجامع والجبانة فالجبانة هو الفضاء الأول المحدد في الخطة والذي ينبغي أن يحتل منها المركز الهندسي . كما أن الجبانة قامت بدور المركز لتجميع القبيلة ، فكانت النقطة الحساسة ، والحساسة العمومية ، وقلب الخطة النابض .

كانت الجبانة ثمرة للعفوية الخلاقة في عالم القبائل لأن السلطة لم تتدخل في

---

(١) كتاب البلدان، ص ٣١٠.

(٢) التاريخ، ج ٢، ص ١٥١، طبعة بيروت.

إقامتها ، فكان عليها أن تنجو منطقيا من تأثير الحضارات المحلية المحيطة ، وخلافا لذلك فهي ترجع إلى نسبها العربي . لكن ما هي سلالة التقليد الثقافي العربي المقصود ؟ فعلا ، لقد تراكمت وتجاوزت في الكوفة عدة عوالم عربية مختلفة نسبيا ، يمكن ترتيبها في أصناف ثلاثة :

ـ قبائل قيس ومضر من رعاة النوق . وهم رحل وبدو من الطراز الأول ، منهم تميم وأسد وعامر وهوازن ، فضلا عن العشائر والحلفاء .
ـ عالم المستقرين المتحضرين من الحجاز ، وكانوا من مكة ويثرب (المدينة) والطائف من قريش والأنصار وثقيف . ومنهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة والعسكرية والدينية ، وهي في القمة تمسك بزمام السلطة العليا والسلطة الحكومية في الكوفة . وكانت جماعة قليلة العدد ، لكن انضمت اليها قبائل وعشائر بدوية الأصل ، بفضل أحلاف قديمة أو حديثة أبرمها الرسول معهم . لنذكر كنانة وخزاعة ومزينة وجهينة(٣) . وكان لوجود شخصيات معتبرة أمسكوا بزمام سلطة القرار (سعد والمغيرة وزياد والحجاج) ، أن بدأ تأثيرها واضحا على الصعيد التمصيري . اذ نحت أفرادها وجه الكوفة ، بصفتهم رجالا مسؤولين على مجموعة يعملون فيها طبق اختبارات مدبرة وبعد التروي فيها ، وهم في هذا متفتحون على جملة من الآفاق الثقافية ، أكثر مما كانوا ممثلين لنوعية معينة . لكن هذه النوعية كانت موجودة كتقليد حضري عربي أصيل يختلف عن تقليد الحيرة وتقليد اليمن .

لقد رأينا أنّ مكة تميزت بفضا ئها المقدس أي الحرم ، بمسجدها وأماكنها التي يتجمع فيها الأشراف والمعروفة بالنوادي وبتكاثر منشآتها المعدة للاستقبال ودورها الجماعية (دار السقاية مثلا)(٤) . وكانت الطائف تعرف بسورها المتقن

(٣) كتاب الاشتقاق، ص ٢٨٥ . ولا سيما اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١٢ .
(٤) «The terminology of history of the Arabs in the, Jahiliyya,C.E. Bosworth according to Khwārasmī's "Keys of the Sciences", **Goiten Festschrift**, pp. 27-43, (القدس، ١٩٨١)

الذي وقف عرضة في سبيل تقدم الرسول نفسه(٥) . واختط الرسول أول مسجد للإسلام في يثرب ، فكان نموذجا قيست عليه كل المساجد الأخرى ، وأدخل ضمنيا مبدأ التخطيط والاقطاع بالنسبة للأراضي والأملاك الفردية(٦) . كانت المدينة لا محالة مرحلة أساسية فتحت للسلطة القدرة على القيام بالمبادرة التنظيمية(٧) . ولا شك أن الحاكمين أستفادوا من مخزون الخبرات هذا .

ـ يمثل اليمنية ثالث هذه العوالم وقد كانوا حاضرين حضوراً مكثفا في الكوفة ، وكانوا الورثة المتأخرين لحضارات متكاملة عرفت نظام الدولة والكتابة والري والمدينة . وقد عاش اليمن انهيار الأسر المالكة الأخيرة التي حكمته وعاش تفكك قواعد حضارته ، خلال المرحلة المتأخرة من وجوده التاريخي . فتمخضت عن هذا الأمر هجرات متوالية واحتلالات خضع لها ، فخضع لاحتلال الفرس والأحباش ، ويحدونا الشعور أن اليمن كان مجالا لدفع بدوي قوي ، وأن القبائل المعتبرة قبل الإسلام كانت متأثرة بالبداوة شديد التأثر منها همدان ومذحج ، اللتين تفوقتا على حمير وحضرموت تفوقا واضحا في ذلك العصر(٨) . ونجد في المقابل ، أن ما دخل بعد ذلك في الفلك اليمني مثل كندة ، تمسك بتثبيت الهوية اليمنية بمفعول « الهيبة الحضارية »(٩) . ولا شك أن اليمنية نقلوا معهم إلى الكوفة عدة عناصر من متبقيات حضارتهم القديمة وأصروا على الحفاظ عليها . وهذا لا يعني أنهم مثلوا النواة التمصيرية الوحيدة ، كما فهم ذلك ماسينيون ، والقطب الرئيسي لممارسة الحياة الحضرية(١٠) ومع ذلك فقد أضفوا

(٥) فتوح البلدان، ص ٦٧ ـ ٧٠.
(٦) السيرة، ص ٣٣٣ وما بعدها؛ فتوح البلدان، ص ٢٦ ـ ٢٨؛ لسان العرب، مادة قطيعة.
(٧) بنى بها الرسول المسجد باللبن والحجر وسعف النخيل وجذوعه وأنشأ في يثرب السوق وخص الخيل بفضاء عرف بالحمى · فتوح البلدان، ص ٢٠، ٢٢، ٢٨.
(٨) راجع مقالنا «اليمنية بالكوفة في القرن الهجري الأول: **JESHO** عدد ١٩، ج ٢، (١٩٧٦) ص ١٤٨ ـ ١٨١.
(٩) عبارة من ابتكار Max Weber, **Economie et Société**، ج ١، ص ٤٢٤ وما بعدها.
(١٠) مرجع مذكور، ص ٤١.

على الكوفة لونا نوعيا لا ينكر . وظهر ذلك في خطط القبائل حيث يمكن للعفوية الخلاقة أن تعطي أكلها أكثر مما كان في المساحة العمومية حيث تدخلت ارادية السلطة القرشية ـ الثقفية مستعينة بنصح المستشارين من فارس والحيرة (الذين كانوا يمثلون عروبة من نوع آخر ، احتكت بالحضارة الفارسية فاعتبرت عروبة الحيرة غريبة خارجية مع أنها أثرت لا محالة على كل ما يرتبط بالمعمار في بادىء الأمر) .

فإذا أمكن أن ننازع في وجود أي تأثير يمني على تصور الرحبة المركزية بالرغم من وجود الرحبات أي المساحات الخالية[١١] في المدن اليمنية القديمة ، فإنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الجبانات بصفتها عملا يمنيا مباشرا . كان قول اليعقوبي في محله حيث أكد أن جبانة كندة كانت الأولى من حيث التخطيط والتشييد . فضلا عن أن النظر في قائمة الاحدى عشرة جبانة التي ورد ذكرها في الكتب الموجودة بين أيدينا ، يدل على أن أكثرها كان ملكا للقبائل اليمنية .

ـ كانت جبانة السبيع التي تقع في الشمال ، ملكا لقبيلة همدان ، وقد استمدت اسمها من البيت الشريف بهمدان[١٢] .

ـ جبانة كندة في الجنوب ، تابعة لكندة .

ـ جبانة بشر في الشمال ، من المحتمل أنها كانت في خطة بجيلة[١٣] حيث أقامت

---

(١١) «اليمنية بالكوفة»، ص ١٧٧ .

(١٢) غلب هذا البيت بني ناعط في الشرف : الهمداني، **الاكليل** ج ١٠، ص ١٤٨، و**جزيرة العرب**، ص ١١٠ ـ ١١٢ ؛ **كتاب الاشتقاق**، ص ٤٢٧ ؛ **الجمهرة**، ص ٣٩٥. لا ننسى أن سيد همدان سعيد بن قيس كان من السبيع، ويحتمل أنه أنشأ الجبانة، راجع أيضاً : **فتوح البلدان**، ص ٢٨٠، و Massignon، ص ٤٧ .

(١٣) كانت العلاقات فيما بينهم وثيقة جداً في الجاهلية. قال ابن دريد في **كتاب الاشتقاق**، ص ٥١٥ : «كانوا أخوة». وأكد اليعقوبي أن طيئاً أقاموا حول جبانة بشر: **كتاب البلدان**، ص ٣١١ـ٣١٢.

خثعم . وهي تحمل اسم خثعمي شارك في حرب القادسية[١٤] ، وهي تابعة لهذه القبيلة[١٥] .

ـ جبانة مراد في الجنوب . كانت تقع في خطة مذحج ، وهي تابعة لقبيلة مراد ، وتستخدمها مجموعة مذحج[١٦] .

ـ جبانة مخنف باسم مخنف بن سليم الأزدي . لا شك أنها كانت تقع في خطة بجلة وبجالة حيث أقام أكثر الأزد[١٧] .

ـ جبانة الصائديين في الجنوب الشرقي ، التي تطرح مشكلا . لقد سمتها أغلب المصادر بهذا الاسم ونسبتها نسبة صريحة أحيانا إلى عشيرة الصائديين من همدان[١٨] . وبالعودة إلى ما اتصف به موقع هذه الجبانة من غرابة ، فقد استمد ماسينيون رأيا يقول بانتقال قسم من همدان إلى شرقي الجنوب الشرقي تعويضا لجموع قبيلة أخرى[١٩] إلا أنها كانت جبانة قديمة وهامة جدا . وقد أشير إليها

---

(١٤) **فتوح البلدان**، ص ٢٨١ ؛ **كتاب الاشتقاق**، ص ٥٢٣ ؛ **الجمهرة**، ص ٣٩١، حيث يذكر ابن حزم أنه كان شريفاً .

(١٥) الطبري، ج ٦، ص ١٨، ٢٢، ٤٥ .

(١٦) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٣١١؛ **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٢٢٤ و ٢٣٢ ؛ الطبري ج ٦، ص ١٨، ٢٣، ٤٥، ١٠٥ .

(١٧) اعتماداً لخبر هام رواه ابن الكلبي ونقله ياقوت: **معجم البلدان**، ج ٣، ص ٣٧٤ . انظر ابن سعد، **الطبقات** ج ٦، ص ٣٥، والطبري ج ٤، ص ٥٠٠، ٥٢١، ٥٧٠، بخصوص مخنف ابن سليم سيد الأزد؛ وبخصوص الجبانة ذاتها، راجع **كتاب البلدان**، ص ٣١١، والطبري ج ٦، ص ٤٥ وج ٧، ص ١٨٣ .

(١٨) البلاذري في **أنساب الأشراف** ج ٣، ص ٢٤٦ وج ٥، ص ٢٢٤ و ٢٦٠، يقدّم هذا التوضيح باستمرار ويضيف «من همدان» . ووردت كلمة الصائديين دائماً في **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٢٦١ و ٢٦٢، وج ٦ ص ١٨ و ١٠٥ . ويحمل السياق على تحديدها إلى الجنوب الشرقي لكن هناك معلومة واحدة (ج ٦، ص ١٨) غير مقنعة تماماً توحي بأن هذه الجبانة يمنية . بخصوص عشيرة الصائديين من همدان انظر: **الاشتقاق**، ص ٤٢٩، الذي يدرج فيهم الجرندق الشاعر ويؤكد صاحب **الجمهرة**، ص ٣٩٥، أن أباه منها وأحد أصحاب علي، وأبا ثمامة الذي مات رفقة الحسين .

(١٩) **مرجع مذكور**، ص ٤٧ .

بالخصوص كمكان للتجمع ، خلال اندلاع ثورة حجر[٢٠] . وباستثناء اسم المكان هذا ، فلا وجود لأية اشارة تدل على اقامة همدان في هذه المنطقة وعلى ذلك فهناك احتمال مفاده أن هذه الجبانة القريبة من جبانة سلول ، كانت على ملك عشيرة الصوداويين[٢١] من أسد[٢٢] ، حيث أقام قسم من هذه القبيلة إلى جانب عامر خلال فترة التخطيط الأولى . وقد سبق أن أشرنا عند طرح هذا المشكل ، إلى تردد المصادر في موضوع تسمية هذه الجبانة التي تنسب إلى الصائديين تارة ، وإلى الصوداويين طورا ـ لكن المصادر المتأخرة هي التي تستخدم دائما هذه التسمية الثانية . وما تواتر في المصادر هي التسمية الأولى بنسبة عالية جدا . ولذا ، يمكن حسم الأمر حسما قاطعا أو يكاد ، لفائدة الصائديين . وفي صورة ماذا كانت جبانة الصائديين منشأة يمنية فلا يعني ذلك انتقال عشائر همدان ، بل انه مجرد حضور عشيرة صغيرة في وقت من الأوقات ؛ أتيح لها فيها بعد أن تهاجر إلى مكان آخر . وعلى النقيض من ذلك ، فإذا تم هذا الانشاء بمنطقة تفوقت فيها بكر وقيس فذلك يدل دلالة واضحة على الطابع اليمني الصرف للجبانات .

ـ من إحدى عشرة جبانة عدتها الكوفة[٢٣] كانت ست جبانات يمنية باعتبار جبانة الصائديين . والأهم من ذلك أن جدت بهذه المواقع أحداث جسام ، منها الانتفاضات المسلحة والثورات والمعارك ، وقد ارتبطت صميم الارتباط بحياة المصر . ونستثني جبانة سليم[٢٤] التي كان لها اسم آخر هو جبانة بني سلول[٢٥]

(٢٠) الطبري، ج ٥، ص ٢٦١ .
(٢١) **الأغاني**، ج ١٦، ص ٥، من طبعة بولاق.
(٢٢) **كتاب الاشتقاق**، ص ١٨٠ .
(٢٣) لا نعتبر في هذا العدد جبانة ميمون التي أنشأت في العصر العباسي: **فتوح البلدان**، ص ٢٨٦، وإلا صار عددها ١٢ جبانة تماماً، بشرط تمييز الثويّة.
(٢٤) **فتوح البلدان**، ص ٢٨٣ ؛ الطبري ج ٦، ص ١٧٢ و ١٨٢ ؛ **أنساب الأشراف**، ج ٣، ص ٢٤٩ ؛ ابن الفقيه، ص ١٨٣ ؛ اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٣١١ .
(٢٥) الطبري، ج ٦، ص ٤٥ و ٤٦ .

والتي كانت ملكا لقيس ، وكانت الوحيدة من بين ما تبقى من جبانات التي يمكن مقارنتها بجبانات اليمن . ذلك أن شمر بن ذي الجوشن انتصب مع قيس في جبانة سالم خلال ثورة الأشراف على المختار ، في حين اجتمعت اليمنية بجبانة السبيع وجبانة بشر ، وفي حين لم يكن لمضر (تميم وعبس وضبة) سوى الكناسة ، وحيث اكتفت ربيعة بمكان غير محدد كان يقع بين التمارين والسبخة[٢٦] . وفي سنة ١٢٢ هـ . سوف تكون جبانة سالم المكان الذي يختاره زيد بن علي لجمع رجاله واعلان الثورة[٢٧] .

ــ وكانت جبانة أثير تابعة لأسد[٢٨] التي كانت قبيلة مضرية كبيرة . فوجب تحديد موقعها إلى الجنوب الغربي ، في خطتها وفي اتجاه الكناسة . ولم يذكرها الطبري سوى مرة واحدة عندما كانت مقرا لمناوشة بين ابراهيم بن الأشتر وأحد خصومه ، كان قد تغلب عليه وطرده حتى الكناسة بالذات[٢٩] . ولذا لم يكن لها من الأهمية ما كان للجبانات اليمنية الأخرى ، ولا حتى جبانة سالم التي تبدو ممثلة حقا تمثيلا استثنائيا للجبانة غير اليمنية ذات الاشعاع الكبير . فضلا عن أن ما يدل على ذلك أن جبانة أثير تسمى كذلك بصحراء أثير ، كما سماها أبو مخنف نفسه[٣٠] . ولا يقل دلالة عن هذا الأمر أن جبانة سالم صنفت مع الصحارى ، كما ورد في مصدر انفرد حقا بهذا الخبر وأشار إليها في بيت شعر[٣١] . ذلك أن مثل هذا التمثل لم يرد أبدا بالمصادر التي بين أيدينا ، فيما يخص الجبانات اليمنية

---

(٢٦) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٤٥ .

(٢٧) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٧٢ .

(٢٨) أخطأ البراقي حين أسندها إلى عبس لكنه يؤكد أنها عادت بعد ذلك لكندة : **تاريخ الكوفة**، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٩) الطبري، ج ٦، ص ٢١ .

(٣٠) الطبري، ج ٦، ص ٢١ ؛ **كتاب البلدان**، ص ٣١١، ولم يصفها اليعقوبي بالصحراء بل رتبها ضمن الجبانات .

(٣١) الطبري ج ٧، ص ٢٨٢ .

الكبرى . فضلا عن أن الكلمتين غير مترادفتين . لقد ميز ماسينيون بين الفكرتين وحمل نفسه على طرح معادلة بالنسبة لسالم وأثير فحسب[٣٢] ، وهو ما يفسر حيرته كما يفسر إلى أي حد تبقى الجبانة ظاهرة يمنية في صفائها ولا يعني الصفاء في هذا المجال أن الوظائف كانت بسيطة بل أن الأمر يستدعي على النقيض من ذلك جملة من الدلالات التي لا يمكن أن تحملها إلا مؤسسة متقدمة كانت ثمرة لتجربة تاريخية طويلة .

ـ جبانة عرزم حيث كان يصنع اللبن الرديء[٣٣] . كانت تقع دون شك غربا ، في خطط عبس[٣٤] وقد ورد ذكرها فعلا في رواية أبي مخنف عن ثورة حجر ٥١ هـ[٣٥] . روى أن قافلة الأسرى مرت من هناك وهي في طريقها إلى دمشق وكان لقبيصة بن ضبيعة العبسي دار فيها ـ لم تكن داخل الجبانة دون شك ، بل إلى جانبها ـ وقد توقف بها ليصرح بتوصياته الأخيرة . ثم مرت القافلة بالغريَّيْن غربا ، مما يلي النجف ، وتحولت قسرا إلى الشمال ، وجهتها دمشق[٣٦] . يمكن أن نفترض أن هذه الجبانة التي كانت تحمل اسم شخص لا اسم عشيرة أو قبيلة[٣٧] ، كانت ملكا لعبس . لكنها لم تقم بأي دور في النزاعات السياسية اذ كانت مضر تجتمع بالكناسة . وبما أنها كانت مقرا لنشاط اقتصادي الطابع ـ يتمثل في صنع اللبن وقولبته ـ فقد أقرها ذلك في وضعية خاصة غير معهودة لا محالة . ـ والآن نصل إلى الجبانة أو الجبانتين الأخيرتين اللتين كانتا موجودتين في العصر الأموي ، إذا ما تقرر التطابق بين تسمية الثوية والجبانة (بدون أية صفة أخرى) ، دلالة على نفس الواقع ، أو الفصل بين التسميتين .

---

(٣٢) مرجع مذكور، ص ٤٧ .
(٣٣) فتوح البلدان، ص ٢٨١ .
(٣٤) يرى ماسينيون أنها من أقدم الجبانات: مرجع مذكور، ص ٤٦ .
(٣٥) الطبري، ج ٥، ص ٢٧٠ .
(٣٦) الطبري، ج ٥، ص ٢٧١ .
(٣٧) مع أن بني عرزم وجدوا بالبصرة وكانوا مجهولي النسب: كتاب الاشتقاق، ص ٥٥٣ .

ويرى ماسينيون[٣٨] وفي أثره البراقي[٣٩] أن الأمر يخص نفس الكيان الذي تسمى باسمين مختلفين ، وقد تتضافر الدلائل على صحة هذا الرأي . لكنه ليس بديهيا من أول وهلة ، كما أنه من غير البديهي تحديد الموقع من قبل نفس المؤلف في الشمال الشرقي بطرف خطة ثقيف . ولنذكر أن الجبانة أو الثوية كانت لجمع أهل المدينة المشتمل على القرشيين والأنصار والثقفيين ومواليهم وحلفائهم . فما سبب هذه التسمية المزدوجة المحيرة ؟ وما سبب الاشارة إلى الثوية في المصادر كلما دفن فيها أحد الأشخاص المهمين من العصر الأولي ، لاسيما زياد (توفي سنة ٥٣ هـ) . علما أن هذه الكلمة ظهرت أول ما ظهرت بشأنه[٤٠] في حين أن الجبانة لم تذكر بصفتها مقبرة سوى مرتين بمناسبة دفن[٤١] الفضل بن دكين مولى آل طلحة الذي توفي في خلافة المعتصم ، وسهل بن حنيف وكان من الأنصار ومن صحابة الرسول ، وقد مات في خلافة علي سنة ٣٨ هـ ؟[٤٢] . وخلافا لذلك فإذا تعلق الأمر بأعمال تاريخية أو أشير إلى هذا المكان كعلامة توبوغرافية للثورة ـ المختار وزيد ـ أو كنقطة للتجمع ، فإن تسمية الجبانة هي التي ترد دائما وليست الثوية .

روي أن زيادا وقبله المغيرة بن شعبة ، وكذلك أبا موسى الأشعري[٤٣] ، والأحنف بن قيس[٤٤] دفنوا بالثوية . وقد جاء في أشعار كثيرة ذكر اسم الثوية مع قرنه بهيبة قريش[٤٥] وقد ورد صدى هذا الاسم في قصائد المتنبي . كان للكلمة في

---

(٣٨) مرجع مذكور، ص ٤٦ .
(٣٩) مرجع مذكور، ص ١٤٣ .
(٤٠) الطبري، ج ٥، ص ٢٩٠، نقل الخبر عن عمر بن شبّة؛ أنساب الأشراف، ج ٤ (١)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .
(٤١) ابن سعد، ج ٦، ص ٤٠١ .
(٤٢) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤٧٢ .
(٤٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٧ ـ ٨٨ .
(٤٤) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٥٦٤ .
(٤٥) أنساب الأشراف، ج ٤ (١)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

حد ذاتها رنين شعري وهي تخرج عن المعجم العادي ، وتضيف لفكرة الموت لونا من العطف والرقة ، جاعلة من المقبرة « دار ضيافة » : انه المعنى الأول للأصل ث ، و ، ى[٤٦] . لاشك أن هذا البعد هو المفسر لثنائية التسمية ، الأولى شعرية والثانية عادية . فوجب قبول هذه الثنائية لأن كلمة ثوية أصبحت تستعمل للتفخيم وهي تلطف من رهبة الموت ، وتمتزج بصورتها فقط لما تنزل على الفضلاء وعظماء القوم من قريش لتميزهم عن الآخرين ، وهي في الآخر كلمة تثير منا الخشوع .

ولذا تسترد كلمة جبانة حقوقها حين يضطرب الناس ويثورون لكن المقصود بالذات في هذا المقام أيضا هي الجبانة بلا نعت بمعنى الجبانة الفذة التي يقع هكذا تفخيمها بسلبها من أية نسبة . وقد ورد ذكرها في العصر الأولى كمكان يؤمه الزهاد من أصحاب ابن مسعود[٤٧] للصلاة والعبادة . وبداية من عصر زياد استخدمت الجبانة مصلى لصلاة الجمعة[٤٨] . وهي ترد في غير هذا وبصورة مركزية أثناء ثورة المختار[٤٩] ـ لا ننسى أنه من ثقيف ـ وثورة زيد بن علي وكان من قريش[٥٠] . ظهر المختار بها بعد انتصاره في السبخة ثم « طلع » إلى دور مزينة وأحمس[٥٠مكرر] وبارق وقد كانت بعيدة عن المدينة أو بطرفها . يجب تحديدها بأقصى الشمال ، والمحتمل أن يكون ذلك خارج الخطط المعروفة كما يوحي السياق وكذلك فبعد أن سيطر زيد على الكناسة ، حل مدة قصيرة بالجبانة التي يبدو أنها كانت خارج الكوفة ذاتها بصورة واضحة[٥١] . وهي لم تستخدم للقتال في الحالتين معا أو للتأهب له ، بل كانت

---

(٤٦) لسان العرب، مادة ثوى.

(٤٧) ابن سعد، ج ٦ ، ص ١٦٠ .

(٤٨) أنساب الأشراف، ج ٤ (١)ص ٢٣٨ . لكن من الممكن أن المقصود هي الجبانة بالبصرة .

(٤٩) الطبري، ج ٦، ص ٢٨ .

(٥٠) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٨٣ .

(٥٠مكرر) يقول اليعقوبي: «انتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبدالله إلى الجبّانة»: كتاب البلدان، ص ٣١١.

(٥١) يبدو أن أبا مخنف حدد موقعها خارج الكوفة. فضلاً عن أن المشهد الذي وصفه هذا المؤلف يسمح لنا بتحديدها في اتجاه الحيرة: الطبري ج ٧، ص ١٨٣، علماً أن يوسف بن عمر كان =

مرحلة أو مكانا للعبور . انه الأمر هام ينبغي تأكيده . هذا ولم يكن اسم الجبانة دون أية صفة أخرى صورة فريدة ، بل انه كان موجودا في البصرة(٥٢) والمدينة . ففي المدينة أمر عمر خلال سنة الرمادة باقامة خيام بدو محارب الجائعين في الجبانة(٥٣) . فهل كانت موجودة منذ ظهور الإسلام أم قبله ؟ وفي الصورة الثانية ، يكون ذلك دليلا على تأثير اليمن منذ القديم ، على مدن شمالي بلاد العرب .

لكن جبانات الكوفة بقيت خاصية من الخاصيات المميزة للكوفة ، ومعبرة عن الوجود القوي الذي كان لليمنيين بها ، وبفضل عددها وتعدد وظائفها وما كان لها من دور اجتماعي وعسكري وسياسي كبير . ولنذكر أن أقدم الجبانات ـ ما عدا الجبانة ـ ملك لقبائل اليمن(٥٤) : السبيع ومراد وكندة والصائديين . وهي أيضا

= يتابع من فوق ربوة كانت تقع بين الكوفة والحيرة، وعلى امتداد البصر، تحركات زيد في الجبانة. وقد كان قريباً منه بحيث كان في مستطاع زيد أسره. وروى سيف: الطبري، ج ٣، ص ٤٨٨ ، أن سعداً عسكر قبل الوصول إلى القادسية بين الغُضَيّ (في الطفّ غرباً) والجبانة وأخيراً، فقد حدد ياقوت بوضوح الثوية خارج الكوفة وجعلها إلى جانب الحيرة: ج ٢ ، ص ٨٧. وجاء في «**عيون الأخبار**» كما ذكر في حاشية كتاب وكيع: **أخبار القضاة**، ج ٢، ص ٤٢٤ ، خبر في نفس المعنى لكن السؤال يبقى مطروحاً: هل كانت تقع في الشمال الشرقي أم في الجنوب الغربي أم في الشمال الغربي؟

(٥٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٦٦ ؛ **أنساب الأشراف**، ج ٤ (١) ص ٤٠٧ ؛ ابن سعد ج ٧، ص ٤٩٤ .

(٥٣) ابن سعد، ج ٣، ص ٣١٤.

(٥٤) يطالب اليمنيون لأنفسهم بالأسبقية في إنشاء أول جبانة للإسلام في صنعاء كما جاء في كتاب أحمد ابن عبدالله الرازي الصنعاني (توفي سنة ٤٦٠/ ١٠٦٨) بعنوان: **تاريخ مدينة صنعاء اليمن**، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٩٠ إلى ٩٢ وص ٢١٦ ـ ٢١٧ وص ٢٢٢ . ومن الغريب أن إنشاء هذه الجبانة نسب إلى بادرة قام بها الرسول، واعتبر في نفس الوقت أن الفرس هم الذين أنشؤوها ـ بني جريش أو الأبناء ـ ولم تكن مقبرة بل مصلى للعيدين. وهذا يحملنا على التخلص إلى نتيجة مزدوجة تقول بأن الجبانة منشأة يمنية أضيفت عليها الصفة الإسلامية وأن وظيفة المقبرة بالكوفة فرضت عليها طبق العادات المعمول بها شمالي بلاد العرب مما يفسر وظيفتها الثنائية. ومما يلفت النظر أن جبانة صنعاء اليوم هي مصلى في الهواء الطلق، يستخدم في المناسبات الكبرى، وليست مقبرة بتاتاً.

أهمها مع جبانة سلول . والملاحظ أيضا أن تميما وضبة وربيعة لم تكن لها جبانة . ولعل الأحنف دفن بالثوية لهذا السبب ، ولأنه كان شخصية مرموقة . في حين أن طيا وبجبلة المحالفتين مع خثعم ، كان لهما جبانة بشر ، وأن بجلة المتصاهرة مع الأزد كانت تستخدم جبانة مخنف لدفن موتاها وتنظيم حياتها الاجتماعية . فكان على بعض القبائل الكبرى كربيعة ومضر التي كانت اقامتها غير قارة نسبيا أن تستخدم فضاءات أخرى للاجتماع أو لدفن الموتى . يقول أبو مخنف « وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم »[٥٥] .

وها أن خباب بن الأرت وهو من مشاهير الصحابة مات في غياب علي بوقعة صفين ، فدفن بالظهر وهو الحد الذي كان للكوفة مع البادية وأضاف أبو مخنف قائلا : « ودفن الناس إلى جنبه » .

ماذا يعني بقوله هذا ، لا سيما أن الدليل متوفر على أن كثيرين منهم استمروا يدفنون في الجبانات ؟[٥٦] . لكن اذا اعتبر بعضهم خبابا حليفا لبني زهرة أي حليفا لقريش ، فقد اعتبر البعض الآخر أنه كان حليفا لتميم مقيما بخطتها في جهارسوج خنيس[٥٧] . من هنا نستخلص أن تميما هي المقصودة بصفة خاصة عند أبي مخنف بقوله هذا الثرى بالمعاني على الصعيد الانتروبولوجي . تشمل كلمة « أفنية » قطعا الجبانات لكن أيضا الصحارى وكافة الفضاءات الخالية الأخرى الموجودة في الخطط . ولا شك أن الأهالي تمادوا في دفن موتاهم بدورهم الخاصة ، وبقيت هذه العادة شائعة في المدن لإسلامية إلى عهد قريب .

وعلى هذا تتمثل الوظيفة الأولى للجبانات في القيام بدور المقابر القبلية كما كان الأمر في مقابر البصرة[٥٨] . لقد أقيمت هذه المقابر وسط الخطط القبلية معبرة

---

(٥٥) الطبري، ج ٥، ص ٦١.
(٥٦) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٦، ص ١٤٤ و ١٦٠ و ٤٠١.
(٥٧) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٦، ص ١٤.
(٥٨) الطبري، ج ٤، ص ٤٦٦.

بذلك في أعمق دخيلتها ، بفعل الدفن وأزليته ، عن الضمير الجماعي للقبيلة ومن انتسب إليها . وبدون الدخول في البحث في أنثروبولوجيا الموت ، الذي نتوقع أنه يكتسي أهمية قصوى ، ففي الامكان أن نفترض أن الجبانات بقيت مدة طويلة بدون أنصاب وأحجار على القبور[٥٩] . وقد أوصى بعضهم مثل شريح ببناء لحد داخلي[٦٠] ، لكن عدم ذكر اسم المدفون في الخارج هي القاعدة المعمول بها في أكثر الأحوال . علما أن اليمن عرف قديما أنصابا كانت تحمل كتابات منقوشة (المساند) . ولا شك أن المثال البدوي عاد متفوقا في هذا المجال ، بعد أن أضفى عليها الاسم طابعه القدسي : كان مثال التستر والزهد وعدم الاكتراث بالقبر بوصفه علامة مرئية . ولم تكن اللامبالاة تتجه إلى الميت الذي يتضرع الشاعر العربي إلى السماء يستعطفها ، راثيا إياه ، طالبا منها أن تجود بمائها المنعش . كما أنها لم تتجه إلى الموت في حد ذاته وقد كان مبعث الفزع والألم في القرن الهجري الأول ، كما ورد بأقوال ابن سعد[٦١] ، ومنطلق مشاعر أخرى طبعا .

لا شك أن أرض الجبانات كانت منبسطة[٦٢] ، حتى تطأها أقدام البشر والخيل بالآلاف وتدور فهيا معارك حامية دون ضيق واضح . وهكذا يصل بنا

---

(٥٩) ابو داود ، السنن ، القاهرة ١٩٣٥ ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ؛ وكيع ، **أخبار القضاة** ج ٣ ، ص ١١ .

(٦٠) ابن سعد ج ٦ ، ص ١٤٤ . كان الأمر كذلك عند إبراهيم النخعي الذي أوصى زيادة على ذلك، ألا تصحب النار نعشه: المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٨٣ ، ٣٠٢. كان اللحد عبارة عن سرب من لبن، يشيد تحت الأرض ولا بدّ أن ذلك لم يكن شائعاً إلا قليلاً.

(٦١) المرجع نفسه، ج ٦ وج ٧، في عدة مواضع. راجع أيضاً تحية الأموات المنسوبة إلى علي عند الطبري، ج ٥، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٢) روي أن علياً وجه من قبله صاحب الشرطة لتسوية القبور الناتئة وقد فعل ذلك في المدينة بأمر من الرسول: وكيع، ج ٣، ص ١١ . يلتقي المثال البدوي بالتشدد الإسلامي في هذا المجال. ولنقارن ذلك بتعاليم محمد بن عبد الوهاب. وقد ظهرت أحجار القبور حوالي سنة ١٠٠ هـ. ووقع التشهير بهذه البدعة: ابن سعد ج ٦، ص ٣٠٢.

القول إلى أن الوظائف التي قامت بها هذه الأماكن كانت متعددة . كانت في البداية نقطة اشعاع ومركزية فضائية . فعلا ، لقد أشعت العشائر بقطائعها ضمن الخطة القبلية ، انطلاقا من جبانة مركزية . ثم قامت بدور المقبرة ، والمقر للتجمعات ومركز العصب للحياة الاجتماعية عند القبيلة عندما تكتسي نبرة رسمية وأخيرا فقد كان لها دور عسكري كان يتجه لا محالة اتجاها معينا ، لم يكن المظهر العسكري متوقعا في البداية قطعا ، اذ كانت الحشود التي تخرج إلى القتال من الكوفة كما من البصرة ، من الأسباع والأخماس ، تتجمع خارج المدينة بفضاءات تؤخذ من الصوافي كما صرح بذلك سيف وروى عنه الطبري بالنسبة للبصرة في العصر الأولى[٦٣] . أما فيما يتعلق بالكوفة ، فقد ورد خبر هام[٦٤] مفاده ما يلي « أمر على الناس أن يخرجوا بسلاحهم فخرجوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم » . وكان ذلك سنة ٣٧ هـ ، أو ٣٨ هـ ، بعد وقعة صفين ، ولما بلغ خطر الخوارج أشده ، فوبخهم علي لدخولهم المسجد حاملي السلاح ، معتدين بذلك على حرمته ، وأمرهم أن « يذهبوا إلى جبانة مراد » فأطاعوه. فكان علي أول من بادر بجعل الجبانة فضاء لحشد كافة الناس لا قبيلة معينة ، لأن الجبانة كانت أكثر اتساعا ، أو أنها كانت موجودة على طريق حروراء . هكذا وفي مثل هذا الوقت الذي كانت صبغته استعجالية ، استنفر أهل الكوفة لكن لم يعرفوا مكانا يتجمعون فيه داخل مدينتهم لأن الجبانات لم تكن موظفة بعد لمثل هذا الأمر[٦٥] على ما يبدو . إن عليا هو الذي شرع في اضفاء دور عسكري على الجبانات بنية القيام بعمليات داخلية أو لتنظيم تجمعات عاجلة . ذلك أنه لم تظهر أية رواية تتعلق بفترة سابقة باستثناء الرواية الغامضة الخاصة بمقبرة بني حصن في البصرة[٦٦] والمتعلقة بأحداث جدت سنة

---

(٦٣) الطبري، ج ٣، ص ٥٨٦ و٦٢٣.

(٦٤) الطبري، ج ٥، ص ٩١.

(٦٥) المحتمل أيضاً أنه كان حشداً لكافة القبائل وأن الجبانة كانت ملكاً لقبيلة واحدة وهذه حجة لا ينبغي استبعادها.

(٦٦) الطبري، ج ٤، ص ٤٦٦.

٣٦ هـ . قبل وقعة الجمل . لقد ارتبطت هذه الظاهرة هنا وهناك بأمر استثنائي غير متوقع ، وبجو الحرب الأهلية . فكان الرجال والقادة يبحثون عن فضاءات داخلية للتجمع : منها المسجد في الكوفة ودار الرزق في البصرة وجبانة مراد ، ومقبرة بني حصن . وارتجلت القرارات انطلاقا من اختيار معقلن قائم على القابلية الطبيعية للجبانات ، لكي تحوي عددا كبيرا من الأشخاص . فقامت منذ ذلك الوقت بدور استراتيجي وأبقت عليه ، وتخصصت حسب القبائل أو مجموعات القبائل وارتبط الأمر دائما بالاضطرابات الداخلية ، بجو الدراما والطوارىء : قضية حجر بن عدي (٥١ هـ) دخول مصعب (٦٧ هـ) ، ثورة زيد بن علي (١٢٢ هـ) . واستخدمت الجبانات في كافة هذه الحالات من قبل القوات الثائرة كما من قبل قوات السلطة الحاكمة (زياد وابن مطيع والمختار نفسه ومصعب) . وان بدا أن الولاة الأمويين عند قيام الثورات فضلوا المسجد مكانا للتجمع ، فذلك لكي يفكوا التعبئة فعلا ، لا لكي يقوموا بها ، بمعنى أن هدفهم كان دفاعيا . في حين كانت الجبانات تستخدم للعمل الهجومي ، أو لرد الهجوم ، وفي الجملة للقيام بثورة أو الاجتهار في مقاومتها . أما عن نقط تجمع الحشود النظامية (الأرباع) التي تحشدها السلطة وتشرف عليها ، تأهبا للحملات السنوية في اتجاه العالم الايراني ، فقد استمر اختيارها خارج المدينة . ولم تقم فيها الجبانات بأي دور ، حتى ولو كان للتعبئة الأولية لكل قبيلة على حدة . كان المقاتلة يتحركون فرادى وجماعات وكتلا مضطربة أحيانا ، مرهقة مرهبة[٦٧] في اتجاه السبخة وكانوا كثيرا ما يعبرون الجسر للذهاب إلى حمام أعين ، وحمام عمر بن سعد وغيرهما . وكان ذلك خارج المدينة لامحالة دون أن يقع أي تجمع مسبق في الداخل. وعلينا إذن أن نتصور الدور العسكري الاستراتيجي والثوري للجبانات ضمن هذه الحدود وهو الدوري الممتلىء حضورا والأساسي جدا في حياة الكوفة : لم يكن دورا عسكريا عاديا متسقا مندمجا في الهياكل القائمة بل كان بالأحرى دورا مرتبطا بالقلاقل الداخلية ،

---

(٦٧) في ولاية الحجاج: الطبري، ج ٦، ص ٢٠٧.

والحروب الأهلية وأوضاع الانقسام والاستعجال . والملاحظة الأخيرة أن الجبانة أحيت القبيلة بصفتها وحدة مقاتلة والروح القبلية الانقسامية . إنها عكس العنصر التجميعي بالنسبة للكيان الاجتماعي . وتبقى مشكلة السكن في الجبانات قائمة الذات . وقد ارتآى M.Hinds[٦٨] أن الناس بنوا فيها وسكنوا بها في فترة مبكرة دون آية حجة بل وصل به الأمر إلى القول بأن المختار اعتمد على أهل الجبانات مما يدلل على سوء فهم كبير للأوضاع بالكوفة . الحقيقة أن المصادر قليلا ما تورد أسماء أشخاص يقطنون في جبانة ما خلال العهد الأموي ، والمقصود هنا هو قرب الجبانة ، والمقال على ذلك هو قبيصة العبسي صاحب حجر بن عدي الذي يقول عنه الطبري[٦٩] : « فلما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة بن ضبيعة العبسي إلى داره وهو في جبانة عرزم فإذا بناته مشرفات » والمرجح إذن أن الجبانات لم تكن طوال القرن الأول لا مبنية ولا مسكونة . لكن لعل الأمور تغيرت مع العهد العباسي لوجود ضغط ديموغرافي ولأن الجبانات فقدت وظائفها العسكرية ـ الثورية المعهودة ، ومن الممكن إذن أن اجتاحتها البناءات خصوصا وهي تقع داخل « المدينة » التي صارت مسورة . ولنا إشارة طارئة على هذا في طبقات ابن سعد[٧٠] حيث يقع ذكر محاضر بن مورّع الهمداني وهو من رجال آخر القرن الثاني فيقال عنه : « كان يسكن جبانة كندة » .

الصحارى (جمع صحراء) : هل كانت معادلة تماما للجبانات بالنسبة للجماعات غير اليمنية من قيس ومضر وربيعة ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى جبانتين فقط كانتا على ملك قبائل الشمال ، أثير

---

(٦٨) «Kūfan political alignments and their background in the mid-seventh century», **Int. J. Middle East. Studies,** (١٩٧١) ص ٣٤٨.

(٦٩) الطبري، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٧٠) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٦، ص ٣٩٨.

وسالم ، من بين الجبانات وتطلق عليها تسمية جبانة تارة وصحراء طورا ، في حين أن جبانة عرزم بقيت غامضة الأصل . فضلا عن أن الصحارى الصرف التي ليس لها من اسم سوى اسم صحراء كانت كلها ملكا لمضر وقيس وربيعة ، ولا يملك اليمنية شيئا منها . كان عـددها خمسـة باستثنـاء صحراء أم سلمـة التي أنشأهـا العباسيون :

ـ صحراء شبث[٧١] : تيميم .
ـ صحراء البردخت[٧١] : ضبة .
ـ صحراء بني قرار[٧٢] : نمر (ربيعة) .
ـ صحراء عبد القيس[٧٣] : ربيعة .
ـ صحراء بني عامـر[٧٤] أو على الأصح بني جعفر بن كـلاب[٧٥] : عامـر بن صعصعة (قيس) .

لعل الأمر يتعلق ببديل عن الجبانة اليمنيـة وتقليد لهـا ، مع اللجـوء إلى استعمـال اسم ورد من شمال بـلاد العرب . أو أنها كـانت مؤسسـة ، بـالمعنى الواسع ، قبلية عربية متجذرة في العصر الجاهلي وانتقلت إلى الكوفـة . وتعرف المعاجم الصحراء بأنها « الأرض المنبسطة والفضاء الواسع لانبات فيـه »[٧٦] . كانت الأرض العراء حقا والقاحلة ، لكن يبـدو أنها لم تكن الصحراء الكبـرى (الفيافي) المفتوحة والخلاء الشاسع . ولم تستخدم هذه الكلمة أيضا دلالـة عن الفضاءات التي في وضعية ما بين السباسب والفيافي من بلاد العرب أو مما يقع بين

---

(٧١) فتوح البلدان، ص ٢٨٣ .
(٧٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٠ . أخذ عنه ابن الفقيه : ص ١٨٣ .
(٧٣) الطبري، ج ٧، ص ١٨٢ ؛ المقاتل، ص ١٣٦ .
(٧٤) البراقي، ص ١٢١ وما بعدها.
(٧٥) ابن سعد، ج ٦، ص ٣٣.
(٧٦) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٤٤٣ .

العراق وبلاد العرب ، حيث كانت تستخدم كلمتا بادية وبر[٧٧] . وعند الاقتضاء يمكن التساؤل عما اذا لم يكن التعريف المدرج مستمدا من الخبرة العربية في الأمصار ، التي كانت حضرية محضة ، وعما إذا لم يتعلق الأمر بفضاءات خالية هيئت داخل النسيج الحضري وكانت محدودة ظرفية ؟ إنها لم تكن متسعة إلا بالنظر لمجموعة المساحات الصغيرة الموجودة في الخطط ، والمدعوة أفنية أو رحابا (جمع رحبة) ، حيث يستلقي الناس على الرمال طلبا للراحة ، وحيث يجتمعون حلقة لعقد الحوار ، والتي كانت شواطىء داخلية ومساحات للراحة واللقاء وأماكن للمداولات والممارسة الاجتماعية . ويتضح هذا الأمر جيدا في فقرة وردت في كتاب « أخبار القضاة » ، وتعلقت بالجولات اليومية التي كان يقوم بها الشعبي[٧٨] . لكن الصحراء تقع مثلها مثل الجبانة على مستوى أعلى ، فيما يخص الاتساع والوظائف التي تقوم بها .

وقد أبدى البراقي رأيا مفاده أن الصحراء كانت مخصصة للاحتفالات والمظاهر والتظاهرات الجماعية وأن الجبانة خصصت للدفن . لكن الدفن كان يقع أيضا في الصحاري حيث أن لبيدا دفن بصحراء بني جعفر بن كلاب ، وقد عرفها البراقي دون شك بأنها صحراء بني عامر[٧٩] . وسبق أن رأينا أن الجبانات كانت ، على النقيض من ذلك ، مقرا للتجمعات الكبرى يعني للقتال في الحقيقة . لكن المصادر ظلت صامتة فيما يخص انتشار الناس عند اقامة الاحتفالات على مستوى القبيلة ، بالنسبة للجبانات كما بالنسبة للصحاري .

وإذا ما فكرنا أن الصحراء تمثل اللون الشمالي ـ والشرقي ـ من بلاد العرب

---

(٧٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ وما بعدها . لم يستعمل المؤلف أبداً كلمة صحراء في هذا الفصل المخصص لفضائل الحياة الترحلية ، والحياة بالبوادي .

(٧٨) وكيع ، ج ٢ ص ٤٢٤ . راجع أيضاً الملحوظة في أسفل الصفحة ومردها عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكلاهما قولان موحيان .

(٧٩) تاريخ الكوفة ، ص ١٢٠ .

للجبانة ، وبصرة أعم صورة العالم البدوي المواجه لعالم المدينة في اليمن وحتى في الحجاز ، فإن كانت هناك معادلة ، فإنها غير تامة . لماذا تلصق بصحراء أثير وسالم فقط صفة الجبانة ، دون الصحاري الأخرى ؟ ولماذا لم يعترضنا أي شيء عن الصحاري في روايات أبي مخنف وسيف وعمر بن شبة . حتى كمجرد علامات توبوغرافية ، باستثناء ما ورد ذكره في شأن صحراء عبد القيس[٨٠] ؟ وليس هناك من قائمة على نقصها سوى في فتوح البلدان ، للبلاذري . وأخيراً فإن الحالة الوحيدة التي أشير إليها بخصوص الدفن في الصحراء تتعلق بلبيد[٨١] وتستند إلى صحراء جعفر بن كلاب من عامر ، التي لعلها هي جبانة سالم ، مع أن الأمر قليل الاحتمال .

وليس ثابتا أن الصحارى قد حددت واختطت منذ البداية مثل الجبانات لاسيما بمركز الخطط القبلية ما عدا الصحارى المرتبة في مرتبة الجبانة . لا شك أنها كانت توجد في محيط المدينة بصورة متفاوتة ، وكأنها ألحقت بها . كما يحتمل أنها كانت أصغر من الجبانات وأنها تشكلت ضمن فضاء أقل تهيئة وأن وظائفها لم تكن واضحة . وفي حين أن الجبانة كانت تظهر جهازا مهيأ بعد ، وأنها استقرت فورا في وضع جبانة ومساحة مركزية ثم تبين فيها بعد أنها اختبرت مسرحا للقتال ، قد تكون الصحراء اسقاطا لمساحة التجمع القديمة داخل محلة القبيلة أو خارجها ، والتي لم تكن صالحة للرعي دون شك ، أو أنها كانت اسقاطا لفضاءات صحراوية متناثرة على أرض القبيلة حيث لا ينبت أي نبات ؟ وفي هذه الصورة الأخيرة فلعل المقصود هو العودة المؤثرة إلى الماضي ، والتعبير عن الحنين إلى الفسيح الرحب وعن مقاومة خفية لهوس الانحصار والاختناق والانغلاق . وفي مرحلة ثانية فقط ، تحولت

---

(٨٠) الطبري، ج ٧، ص ١٨٢ : ورد ذكر الخبر في صلب الرواية الخاصة بزيد بن علي.

(٨١) ابن سعد، ج ٦، ص ٣٣. لكن مصعب بن الزبير دفن إلى جانب مسكن بنفس المكان الذي أقام معسكره فيه قبل المعركة التي تحمل نفس الاسم. وما هو ذو دلالة أن المكان سمي «صحراء مصعب»: أنساب الأشراف ج ٥، ص ٣٥٠، حيث يقول البلاذري: «وزعموا أنها لا تنبت

الصحراء إلى جبانة واقتربت من مثال الجبانة ، طلبا للاندماج في الفضاء الحضري بصفتها احدى أجهزته .

شيئا» حقا أن الصحراء تنتمي إلى مصطلحات مستمدة من الجغرافيا الطبيعية أنها مساحة مـا من الصحراء المحضة، مهما صغرت.

الفصل الثاني والعشرون

مساجد الكوفة

تذكر المصادر المعهودة ومصادر الشيعة ثلاثين مسجدا[٨١م] بالنسبة للكوفة وهو عدد لا نجد مثيله في مدينة أخرى ـ كالبصرة والمدينة وبغداد ـ خلال نفس العصر من تاريخ الإسلام . إن مصدر هذه الكثرة هو الروايات المفصلة عن الثورات كما بينه الشعور الديني الشيعي الخصوصي جدا ، الذي عمل على تصنيف وترتيب وتعديد مساجد الكوفة ، وهي مساجد تكون محل تقديس أو لعنة حسب الأحوال . ينبغي التمييز قطعا بين المسجد الجامع الذي سمي المسجد الأعظم أحيانا والمخصص لصلاة الجمعة وكافة الصلوات الرسمية التي تبدأ بالخطبة ، ولاجتماع الأمة كافة باشراف الوالي ، وبين المساجد الأخرى المتكاثرة البسيطة . كان للمسجد الأعظم وضع خاص ، لا لأنه كان أوسع من غيره بل لما كان له من وظائف ولرمزيته العظيمة ، ولعله كان الوحيد المقرر في التخطيط الأول . وخلافا للجبانات ، فإن المساجد العادية لا تظهر بصفتها مساجد أصلية . بل أنها ظهرت بعد المدة الأولى ضمن الخطط القبلية أما كمساجد ارتبطت بشخص وتسمت باسمه ، وإما كمساجد للعشيرة لا للقبيلة . ويمكن افتراض أنه كان لكل عشيرة بالكوفة في وقت من الأوقات ـ بعد سنة ١٠٠ دون شك ـ مسجد خاص بها قطعا مما يرفع عدد المساجد إلى أكثر من مائة . إن تكاثر مباني العبادة وامتدادها عبر كافة الفضاء الحضري ، إلى جانب وجود جامع أعظم مركزي ، كل هذا يشكل كل

(٨١) مكرر، أكثر بكثير بعد اطلاعنا على ابن الكلبي : انظر القائمة الإضافية.

مدينة اسلامية مقبلة وبالتالي فهو ارث من القرن الأول . الأمر الذي يؤكد بقوة أنه ينبغي اعتبار الأمصار المقر والمركز لأسلمة العرب أنفسهم ، فضلا عن وجود دورين آخرين ، كنقط للهجرة والأشراف وكحراس للبلدان المفتوحة في آن . واذا كان الجامع الأعظم يقع في المساحة العمومية ، فإن المساجد الأخرى كلها أو يكاد تقع بحوزة القبيلة داخل قطائع العشائر . واذا كان الجامع الأعظم من انشاء السلطة ، ارتبط ارتباطا وثيقا بممارساتها فإن المساجد الأخرى مؤسسات خاصة أنشأها الأفراد والعشائر ولا يبدو أنها كانت نقطا انطلقت منها الثورات والقلاقل خلافا للجبانات . كانت ينوب المسجد الأعظم في القيام بالشعائر كل يوم فقط ، وأحيانا حتى في صلاة الجمعة ، وبذلك تلتئم الجماعة[٨٢] لكن ليس بقصد تنظيم عمل سياسي متعمد لم يرد ذكره بمصادرنا أبدا .

هذا وقد حثت وشجعت السلطة على بناء مساجد للعشائر . فقد أمر زياد في البصرة ببناء المساجد « لشيعة بني أمية » ، بمعنى العشائر المؤيدة للأمويين ، منها مسجد بني عدي ومسجد بني مجاشع ومسجد الاساورة ومسجد الحدان[٨٣] . وجدت نفس الظاهرة في الكوفة دون شك ، مباشرة أو عن طريق الاشراف أو كلاهما . وعلى كل حال ، فإن مساجد الكوفة التي حملت اسم شخص ـ هو مؤسسها ـ فإنما هو اسم أحد الأشراف الذي ألصق بها ، من بين كل من ساعد الأمويين عموما : مسجد الأشعث المرتب ضمن المساجد الملعونة حسب التقليد الشيعي اللاحق[٨٤] ومسجد شبث الذي وقع له نفس الشيء ، ومسجد سماك . أما مسجد عدي بن حاتم ، فقد استثنى من ذلك . وهذه قائمة بالمساجد مستمدة من مصادر مختلفة ، مع التحري اللازم فيما يخص مصادر الشيعة التي كانت متأخرة عموما ، وكذلك تجاه ماسينيون الذي لا يبدو أن قائمته صحيحة .

---

(٨٢) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٠٧ .
(٨٣) أنساب الأشراف، ج ٤ (١)، ص ٢٣٢ .
(٨٤) البراقي، ص ٤٤ وما بعدها.

قائمة مساجد الكوفة

اسم المسجد	اسم آخر يسند إليه	القبيلة المنتسب إليها	المصـــادر
مسجد عبد القيس	مسجد ظفر وربما السهلة	عبد القيس	الطبري ج ٦ ، ص ٤٩ - البراقي ، ص ٤٤ ، ماسينيون ، ص ٥٢ .
مسجد أبي داوود	مسجد القصاص	وادعــة	الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٨
مسجد عدي بن الحاتم	-	طي	الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ .
مسجد أحمس	مسجدمزينة ،مسجد بارق	بجيلة ، مزينة ، الأزد	الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٦ و٤٨ . الأغاني ، ج ٨ ، ص ٣١ .
مسجد الأنصار		الأنصار	الجنابي ، ص ٨٨ .
مسجد الأشعث	مسجد الحواشن	كندة	الطبري ، ح ٦ ، ص ٢٢ ، البراقي ص ٤٥ .
مسجد بني عبدالله ابن دارم	-	تميم	البراقي ، ص ٤٤ .
مسجد بني عدي	-	قيس (هوازن)	الطبري ، ج ٧ ، ص ١٨٣
مسجد بني عنز	-	وائل بن قاسط (ربيعة)	فتوح البلدان ، ص ٢٨٣ ، ابن الفقيه ، ص ١٨٣ .
مسجد بني أود	مسجد بني فرن	مذحج	ماسينيون ، ص ٥٢ .
مسحد بني البداء	-	كندة	أنساب الأشراف ، ح ٥ ، ص ٢٥٧
مسجد بني بهدلة	-	كندة	فتوح البلدان ، ص ٢٨٤ .
مسجد بني دهل	-	بكر	الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٧٨ ، وج ٦ ، ص ٢٤١ .
مسجد بني جذيمة	-	عبس أو أسد	فتوح البلدان ، ص ٢٨٣ ، ابن الفقيه ، ص ١٨٣ .
مسجد بني دهمان	-	جهينة	الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩
مسجد بني هلال	-	عامر	الطبريج ٧ ، ص ١٧٢ .
مسجد بن كاهل	مسجد أمير المؤمنين	أسد	البراقي ، ص ٤٦
مسجد بني مخزوم	-	عبس	الطبري ، ج ٦ ، ص ١٠٥ .

اسم المسجد	اسم آخر اسند إليه	القبيلة المنتسب اليها	المصـــادر
مسحد بني المقاصف	-	عبس	فتوح البلدان ، ص ٢٨٤ ؛ ماسينيون ، ص ٥٢ .
مسجد بني مرة	-	بكر	ماسينيون ، ص ٥٨ .
مسجد بني السيد	-	-	البراقي ، ص ٤٤ .
مسجد بني شطان	-	تميم	الجمهرة ، ص ٢٢٨ .
مسجد جرير بن عبدالله البجلي	-	بجيلة	البراقي ، ص ٤٤ .
مسجد جعفي	-	مذحج	ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ ، ٣٩٦ ، ابن الفقيه ، ص ١٧٤ ، البراقي ، ص ٤٤ ، ماسينيون ص ٥٣ .
مسجدغني	-	سليم أو الانصار	ابن الفقيه ص ١٧٤ ، البراقي ص ٤٤ .
مسجد الحمراء	-	حلفاء تميم	ابن الفقيه ، ص ١٧٤ ، البراقي ، ص ٤٤ و ٤٥ .
مسجد النخع	-	مذحج	ابن سعد ، ج ٦ ، ص ١١٩ .
مسجد موجود بالحمراء	-	حلفاء تميم	البراقي ، ص ٤٥ .
مسجد السكون	-	كندة	الطبري ، ج ٩ ، ص ٢١ .
مسجد صعصعة بن صوحان	-	عبد القيس	البراقي ، ص ٤٦ .
مسجد شبث	-	تميم	الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٧٠ .
مسجد سماك	مسجد الحوافر أو بني هالك	أسد	فتوح البلدان ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ الجمهرة ص ١٩١ ؛ الأغاني ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .
مسجد تيم	-	رباب (تميم)	البراقي ، ص ٤٤ .
مسجد ثقيف	-	-	البراقي ، ص ٤٥ .

قائمة اضافية في أسماء مساجد قبيلة كندة التي وردت عن ابن الكلبي ولم ترد عند غيره

مسجد بني زيد بن حارثة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤ من « كتاب النسب »
مسحد بني ذهل بن معاوية	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجدبني امرىء القيس بن الحارث (فترة عباسية)	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني مالك بن الحارث	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني الطمح بن الحارث	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسحد بني مالك بن ربيعة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد جبلة بن عدي بن ربيعة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني الحارث بن عدي	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني مرة بن حجر بن عدي ابن معاوية	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني عمرو بن وهب بن ربيعة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني ابي الخير بن وهب بن ربيعة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني الأرقم بن عمرو بن وهب	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني شجرة	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤
مسجد بني سلمة (بني ابي كرب ابن ربيعة) .	كندة	ابن الكلبي ورقة ٢٤

بعض الملاحظات عن هذا الجدول : لم يرد بالقائمة مسجد المعادل الذي حدد موضعه خطأ بفهرس تاريخ الطبري[٨٥] ، وعند الجنابي[٨٦] بالكوفة مع أنه كان يوجد في البصرة . كما أننا أغفلنا عمدا اضافة مساجد العصر العباسي إلى القائمة ، منها مسجد المروزية[٨٧] ، ومسجد وكيع بن الجراح[٨٨] ومسجد دار اللؤلؤ الذي ذكره ماسينيون بدون أي سند . ولا يمكن ادراج مسجد الموالي بتاتا بهذا الجدول ، لأنه كان يقع خارج الكوفة بشراف ، بعيدا جدا عن القادسية كما ورد في الاشارة الوحيدة المتوفرة لدينا[٨٩] . فقد أخطأ ماسينيون حينما حدده بالكناسة عند بني أسد (عشيرة كاهل) قائلا : « أرى أن مسجد الموالي أقيم في هذه العشيرة الأخيرة التي كثرت مواليها ، فكانت تسمية فريدة لفت إليها النظر غولدزيهر (Goldziher)[٩٠] . فإن كانوا فعلا موالي لأسد[٩١] ، فإن المقصودين بالذات هم بنو أسد المتواجدون في البادية قريبا من طريق الحج ، لا أولئك المقيمون بالكوفة[٩٢] : ذلك أن هذا المسجد كان يبعد عن الكوفة بـ ١٣٠ ميلا[٩٣] .

كان كتاب الطبري أضمن مصدر لضبط هذا الجدول ، فقد أمدنا بأكبر قسم من أسماء المكان ، وتلاه البلاذري ونقل ابن الفقيه عن البلاذري واعتمد كذلك مصادر الشيعة التي استفاد منها البراقي كل الاستفادة . فقد اقتبس البراقي

---

(٨٥) الطبري، ج ١٠، ص ٥٤٩.
(٨٦) الجنابي، ص ٨٧ - ٨٨.
(٨٧) الأغاني، ج ١٨، ص ٤٢ .
(٨٨) ابن سعد، ج ٦، ص ٣٩٨.
(٨٩) الطبري، ج ٧، ص ٦٣٢ .
(٩٠) Massignon، مرجع مذكور، ص ٥٤ .
(٩١) الطبري، ج ٧، ص ٦٣٢.
(٩٢) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١١ .
(٩٣) ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٢٦ .

معلوماته عن المجلسي وعن الحر العاملي وعن كتب الزيارات[٩٤] ، فذكر أسماء مساجد لم يرد ذكرها في المصادر المعروفة ، منها مسجد جرير بن عبدالله البجلي ، ومسجد صعصعة ومسجد تيم . وأورد بالخصوص مارواه الشيعة عن المساجد المباركة والمساجد الملعونة ، فجاء ذلك قراءة قياسية جديدة لمواقع الكوفة من طرف الضمير الشيعي . وتظهر هذه القراءة المستجدة نفسها اسقاطا على الفضاء لرؤية خاصة بتاريخ المدينة في القرن الأول .

قامت هذه الرؤية أصلا على جدلية الصديق والعدو . فقد تعرض كل الأشخاص والعشائر الذين واجهوا « قضية الشيعة » بالفتور والعداء ، لأن تصنف مساجدهم وخططهم أيضا في صنف الملعون . فكان الأمر كذلك بالنسبة لمسجد الأشعث وجرير البجلي وسماك وشبث ، ومسجد ثقيف ، والمسجد الواقع عند الحمراء . ووصفت المساجد بأنها مباركة ، إذا مر بها وصلى فيها أحد الأئمة الأوائل لاسيما علي[٩٥] . الواقع أنها تحيل على شخص أو عشيرة أيدوا القضية . وهذه حال مسجد السهلة الذي قال عنه البراقي أنه تحقق من كونه مسجد بني ظفر وقال ماسينيون أنه مسجد عبد القيس[٩٦] . ومن المعلوم أن الارتباط قوي جدا بين عبد القيس وبين علي وقد وقفوا إلى جانبه في وقعة الجمل ، وحتى منذ وصوله إلى ذي قار قرب الكوفة[٩٧] . وكذلك حال مسجد جعفي ومسجد غني ، مع أن الأمر كان أقل وضوحا ، وكذلك الأمر بالنسبة للحمراء ، وهو شيء محتمل لأنهم أيدوا المختار ، وقد تماثل مسجدهم بصورة مثيرة بمسجد يونس[٩٨] .

---

(٩٤) البراقي، ص ٤٤ .
(٩٥) المرجع نفسه، ص ٤٤ .
(٩٦) مرجع مذكور، ص ٥٢ .
(٩٧) الطبري، ج ٤، ص ٥٠٥ .
(٩٨) البراقي، ص ٤٥ و٤٦ : ابن الفقيه، ص ١٧٤ .

الباب السابع

الكوفة كنموذج للمدينة الاسلامية

الفصل الثالث والعشرون

الكوفة والمدن المنشأة بالعراق قبل بغداد

إذا ما وافقنا على أن الكوفة كانت منذ البداية حاضرة ، اختطت تخطيطا كاملا ، ووافقنا على وجود الثنائية بين المساحة العمومية المتركبة من القصر والمسجد والأسواق والحزام السكني المخصص لخطط القبائل ، فإنه يمكن التساؤل تساؤلا مشروعا عن النموذج الذي جسمته الكوفة بالنسبة لكل مدينة إسلامية مقبلة . ويزيد المشكل دقة بقدر ما ندخل في العصر الأموي حيث امتلكت أسلوبا معماريا يبدو أن واسط قلدته ، وبغداد ، ولو تجاوزنا منطقة وادي الرافدين ، قصور الشام . ويكون النموذج إذن نموذجا للتخطيط وأيضا للتمصير في المرحلة الأولية ونموذجا معماريا جاء بعده لما تبلور الفن الأموي في وادي الرافدين .

ولذا ، لنا أن نستفهم في هذا الموضوع المؤلفات القديمة والحديثة . جاء بأحد المصادر بخصوص البصرة ما مفاده أنها اتبعت مثال التخطيط كما كان بالكوفة : « واختطت على نحو من خطط الكوفة »[1] . كذلك فقد أقر ماسينيون مركزية الأسواق كأساس في بنية الحاضرة الإسلامية ، فعرض افتراضا يقول أن اسواق بغداد قلدت أسواق الكوفة من حيث الهندسة المعمارية والوظائف[2] . وأوضح صالح أحمد العلي بدوره[3] ما هنالك من تشابه عجيب بين المصرين وبين بغداد في

(١) سيف في تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥٩٣.
(٢) مقال مذكور، ص ٤٩ . انظر كذلك « Mission en Mésopatamie»، ص ٩١.
(٣) "The foundation of Baghoad" عند Hourani و Stern ، مرجع مذكور ، ص ٨٧ـ ١٠١ .

عصر المنصور لا بسبب المحافظة على البساطة العربية القديمة وحسب ، بل بما كان عليه المسجد من طابع مركزي مدمج وكذلك القصر والدواوين ، فقال متحدثا عن بغداد « إن الأمر كان تماما على نحو الأمصار الأولى » .

وذهب التفكير بـ O.Grabar[٤] في بحث مهم ، تجاوز فيه مؤلفه الأفكار الشائعة نوعا ما ، إلى أن قصر المنصور في بغداد كان مقتبسا من العصر الأموي وأنه كثيرا ما وقع تجاهل وجود أسلوب معماري أموي في وادي الرافدين ، الذي جسمته واسط والكوفة، ولعله انتقل إلى الشام . وتساءل فعلا عن دور الكوفة ، وكان سؤاله عما اذا كانت نموذجا للبناءات الأموية (في واسط) كما العباسية (في بغداد)[٥] . ينبغي العودة للبحث في هذا المشكل ، لأن المؤلف بقي على سطح الاتجاه إلى المقارنة الهندسية الصرف ، ولم تشمل افتراضاته المجموعات المدينية ، لكن الأمر يتعلق بمؤشر لامراء فيه . وقد مر بنا أن لاسنار Lassner كان يلح على فكرة الأصالة في المدينة المستديرة ، وقد رأينا أن تصوره كان خاطئا بشأن كيفية انشاء الأمصار وتطورها . وبالرغم من ذلك فقد تحدث عن « التشابهات العجيبة » بين مركز بغداد من جهة ، يعني « المجال الشخصي » للخليفة ، وبين مركز الكوفة وواسط من جهة أخرى[٦] . وقد لاحظ وجود مركب القصر والمسجد في الموقعين وطابعهما الاتصالي وأن المسجد كان أصغر من القصر . أما فيما يتعلق بالعلاقة المادية الجوهرية بين القصر والمسجد فقد نسب وجودها في الكوفة الأولية[٧] ، وظهورها من جديد في بغداد إلى الأرث الساساني المشترك الذي ينبغي التدليل عليه ، في حين أنه كان أكثر معقولية وأكثر مصداقية أيضا ، أن تعتبر تأثيرا من الكوفة على بغداد .

---

(٤) «المشتّى وبغداد وواسط» في **The World of Islam, Studies in Honour of Philippe Hitti** لندن ١٩٦٠، ص ٩٩ - ١٠٨ .

(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٤ .

(٦) Lassner, **The Topography of Baghdad**، ص ١٣٣ وما بعدها .

(٧) لا في البصرة، كما قال خطأ: ص ١٣٤ .

من المناسب أن نقول أن هذه الانطباعات المتفرقة تأتي لدعم فرضيتنا القائلة بأن الكوفة نموذج أو على الأقل ، إن الكوفة لعبت دورا بارزا في توضيح التصور الحضري الإسلامي . فقد استند المؤلفون السابقون إما إلى تشكيلة المركز وإما إلى هندسة القصر . لكن سبق أن أشرنا إلى عنصرين للمشكل هما ثنائية المساحة العامة ومساحة السكنى ، وبنية الخطط ذاتها التي تحدد امكانية أصلية للتطور نحو حاضرة متشعبة ملتوية المظهر ، فكان ذلك سبقا للمثالية التي كان عليها وضع الكوفة ، وأيضا طرحا لقضية الاستمرارية في مشروع الاسلام الحضاري .

الكوفة والبصرة :

تفقد هذه المثالية كل حدتها إذا رضينا بما ورد في الروايات التاريخية بخصوص أسبقية انشاء البصرة ، لأن المشكل يصبح عندئذ مشكل مصادر أثرية وأدبية . الحق أنا لا نعلم إلا القليل عن تكون البصرة ، ولم يمدنا علم الآثار بشيء بعد[٨] ، على أن القليل الذي وصلنا ينفي الفكرة التقليدية في الموازاة بين المصرين منذ البداية . حتى ولو وافقنا ، مع أبي مخنف[٩] ، والمدائني[١٠] ، وابن اسحاق[١١] وغيرهم على أن العرب أقاموا في الخريبة منذ سنة ١٤/٦٣٥ ، فلا تكون هذه الاقامة إلا مؤقتة لا محالة . وحين تدعم وضع العرب بعد حرب القادسية واتجهت الاقامة إلى الاستمرار حوالي سنة ١٦ و ١٧ هـ . فلم تقع بالكيفية الرسمية والارادية والمنظمة تنظيما دقيقا التي تمت بها في الكوفة . فقد تضافرت القرائن كلها على اعتبار الكوفة مصرا حقيقيا بينما تكون البصرة قد نشأت عرضا . واستمر الطابع الوقتي للمنشآت بعد سنة ١٦ هـ . واتسم بخاصيات مشوبة بنظام المعسكر

---

(٨) صالح أحمد العلي، «خطط البصرة» Sumer عدد ١٩٥٢/٨، ص ٧٢ وما بعدها.
(٩) الطبري، ج ٣، ص ٥٩١.
(١٠) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٥١٠.
(١١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٧.

الذي كان بصدد التحول البطيء ، حيث كان ينبغي لأهل البصرة أن يتمكنوا فعلا من امتلاك قاعدة عقارية بواسطة الفتح ، فحملهم ذلك على التقدم إلى خوزستان . ولذا تبدو أسبقية البصرة مفتعلة فلا تنقص في شيء من الأهمية القصوى التي كانت لعملية التخطيط التي جدت بالكوفة ، ومن مثاليتها .

يسهل اتهام سيف بوطنيته الكوفية وتخطئة الخبر الذي ذكره عن جماعة صغيرة بقيادة عتبة بن غزوان انطلقت من المدائن واتجهت إلى موقع البصرة ، فأصبحت بذلك نوعا من السليل لجماعة سعد الرئيسية[١٢] . ويسود فعلا الشعور أن مقصده كان المطابقة بين زمن الانشاءين بحيث يكون ذلك قد تم في بداية سنة ١٧ « في نفس الشهر » حسب قوله . لكنه يعترف أن ثلاث محاولات للاستقرار « نزولات »[١٣] قد جدت ، ثم يناقض نفسه فيقول أن البصريين الجدد كانوا موجودين على ضفاف دجلة حين كان الكوفيون اللاحقون يقيمون في المدائن[١٤] . وبذلك فهو يلتحق بالروايات الأخرى التي تتحدث عن مرحلة أولية تم خلالها فتح « كور » دجلة[١٥] .

وسواء اعتمدنا سيفا أو المخبرين الآخرين[١٦] ، وبالرغم من اختلافاتهم ،

---

(١٢) الطبري، ج ٣، ص ٥٩٠. يقول الواقدي هو أيضاً بهذا التعريج: **فتوح البلدان**، ص ٣٤٥، وابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ص ٦. ويذكر اليعقوبي أن الاختطاط باشراف عتبة تم سنة ١٧ هـ: **كتاب البلدان**، ص ٢٣٥. ويؤرخ كذلك Caetani إنشاء البصرة من طرف عتبة بين سنة ١٦ و١٧/٦٣٧ ـ ٦٣٨: **Chronografia**، ص ١٩١. ويفضل أخيراً Massignon دون نقاش سنة ١٧ «Explication du plan du Kūfa» **بحث مذكور**، ص ٥٨.

(١٣) الطبري، ج ٤، ص ٤٢.

(١٤) الطبري، ج ٣، ص ٥٩٢.

(١٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٣٥.

(١٦) يذكر الطبري، ج ٣، ص ٣٩٠ وما بعدها اسم الشعبي وأبي مخنف والمدائني. وتمثل المصدر الرئيسي عند البلاذري في شكل مجهول: «قالوا» لكنه يذكر أيضاً الواقدي وابن اسحاق وعوانة وأبا عبيدة، ووهب بن جرير، وآخرين أقل شهرة: **فتوح البلدان**، والدينوري ، **الأخبار الطوال**، ص ١١٦ ـ ١١٩ ، وقد ألحا على ما كان لهذه العمليات من استقلال وتدبير وأهمية.

فإن قراءة نقدية للنصوص تحملنا على الاقتناع بأن عملية عسكرية ثانوية للتلهية(١٧) جدت بين سنة ١٤ هـ و ١٦ هـ . وقد كانت بقيادة عتبة بن غزوان وتوجيه من المدينة . ولا شك أن جموع بكر المقيمين بالحدود قد أشاروا بها(١٨) . فتسببت هذه الحركة في هجرة محدودة(١٩) . وكانت عملية ضعيفة المدى جدت بأسفل دجلة ، فتم الاستيلاء على الأبلّه ـ مقر الحامية الفارسية ـ ودستميسان والفرات(٢٠) . وكان من السهل انهاؤها مما يفسر أن العرب المهاجرين تكاثروا بسرعة . ولا شك أن ذلك قد وقع منذ سنة ١٥ هـ . أثر القادسية مباشرة . وكان على هذه الغزوات أن تكتسب لها قاعدة فقامت الخريبة بذلك . وقد أكدت بعض الأخبار أن العرب بنوا سبع قرى محصنة هي الدساكر(٢١) . ولعل المعسكر في هذه الصورة اتخذ شكل منشأة قروية متفرقة ، فكان نواة للبصرة المقبلة(٢٢) لكن ذلك يبدو متناقضا مع أقوال هذه المصادر بالذات بخصوص إقامة معسكر من الخيام ، وأكواخ من القصب ، القصب الذي يقتلعه العرب في كل حملة لكي يقع تركيبه عند العودة(٢٣) . من رأينا أنه ينبغي رفض فكرة بناء هذه القرى(٢٤) ، وقبول فكرة

---

(١٧) كانت فكرة عملية التلهية وحماية الجهة الجنوبية واضحة عند سيف، الطبري، ج ٣، ص ٥٩١، وعند البلاذري، ص ٣٣٦، وابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ص ٥.

(١٨) مع سويد بن قطبة مماثل المثنى: **فتوح البلدان**، ص ٢٤٣ وص ٣٣٥: **الأخبار الطوال**، ص ١١٦ حيث بدا بمظهر المقلد للمثنى وكان من عجل: صالح العلي، **التنظيمات**، ص ٣٤.

(١٩) **فتوح البلدان**، ص ٣٣٨؛ أبو مخنف في الطبري، ج ٣، ص ٥٩١.

(٢٠) **فتوح البلدان**، ص ٣٣٥ ـ ٣٤١.

(٢١) لا سيما ابن اسحاق: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٣٧، وقد جعل منها مرحلة لاحقة أنشئت بعد وقت قصير من إقامة معسكر الخيام؛ الواقدي في **طبقات** ابن سعد ج ٧، ص ٦، اعتبر ذلك بادرة عفوية قام بها بعض الأفراد.

(٢٢) Massignon «Explication du plan de Basra», **Opera minora** ج ٣ ص ٧٠ يرى ماسينيون أن الخريبة هي موقع البصرة في حين أنها تظهر على الأطراف انظر: **فتوح البلدان**، ص ٣٣٦؛ الطبري ج ٤، ص ٤٩٨ وص ٥٣٨.

(٢٣) **فتوح البلدان**، ص ٣٣٦ و ٣٤٢. اقتبس عنه ياقوت ج ١، ص ٤٣٢، كما هو معلوم؛ **الطبقات** ج ٧، ص ٦؛ **الأخبار الطوال**، ص ١١٧. الواضح أن المقصود هي المرحلة الموالية.

(٢٤) كانت الدساكر موجودة قبل وصول العرب، كما قال أبو مخنف: الطبري ج ٣، ص ٥٩١. وورد ذلك في الرواية الرئيسة التي أوردها البلاذري: **فتوح البلدان**، ص ٣٣٦.

المنشأة الأصلية المزدوجة : يكون اقرار المهاجرين في قرى الأهالي ، واقرار رفاق عتبة في معسكر حقيقي على النمط العربي[٢٥] . وهو ما لا يتناقض مع إمكـانية اختطاط مسجد في الهواء الطلق منذ سنة ١٤ هـ .[٢٦] . وقد تم التخطيط الشامل باشراف أبي موسى الأشعري بعد سنة ١٦ هـ فقط ، فبدأ البناء باللبن ، وشيد المسجد والقصر[٢٧] . لكن المسجد كان صغيرا وكان القصر بعيدا عنه ، والواضح أنهما كانا مخصصين معا لمجموعة صغيرة من الناس ، لم يتوفر أي خبر دقيق ، ما عدا الخبر الذي يقول بتواكب التخطيطين[٢٨] ، تخطيط البصرة ، وتخطيط الكوفة ، بخصوص التاريخ الذي مارس فيه أبو موسى التخطيط ، في صورة ما إذا تعلق الأمر بعمل سابق لعمل سعـد . كل مـا نعمله أن أبا مـوسى خلف عتبة سنـة ١٦ هـ[٢٩] . لكن ليس واضحا بتاتا أنه بادر بتمصير حقيقي للمعسكر . كان عدد المهاجرين ضعيفا جدا ، وكانت الموارد تعوزهم كثيرا ، ولذا فمن الصعب أن يتم التخطيط النهائي في عام ١٦ أو ١٧ هـ[٣٠] . وسيقع فعلا تغيير في جغرافيا القبائل بالبصرة ، بكيفية متسعة بين سنتي ١٧ و ٢٠ / ٦٣٨ - ٦٤١ ارتباطا بفتح خوزستان

---

(٢٥) **المرجع نفسه**، ص ٣٣٦.

(٢٦) **المرجع نفسه**، ص ٣٤١؛ ابن سعد ج ٧ ص ٥؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ج ٥ ص ٤٣٢ الذي يتحدث عن تمصير أذن به عمر بعد معركة الفرات، وعن الإقامة بمنشأة دائمة يقع اللجوء إليها. وروى ياقوت أن المسجد بني بالقصب.

(٢٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٢: اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٣٢٣ الذي أرخ الاختطاط في سنة ١٧ هـ؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢٨) الطبري، ج ٣، ص ٥٩٠.

(٢٩) **فتوح البلدان**، ص ٣٤٠ - ٣٤١ الذي اعتمد تاريخ سنة ١٧ أيضاً. ومن رأى الطبري أن المغيرة كان هو الوالي سنة ١٦: ج ٤، ص ٣٩. وهو التاريخ الذي اعتمده صالح العلي في **التنظيمات**، ص ٣٩. لكن البلاذري كان جازماً: ص ٣٤١.

(٣٠) أورد البلاذري عبارة رئيسية في **فتوح البلدان** ص ٣٤٢، أكدت التخطيط قال: «ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل، وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين وسقفها بالعشب».
وقد تواكب البناء بالصلب وتخطيط المصر، كما وقع في الكوفة.

وبفضل هجرة جموع قبلية ضخمة منسجمة[٣١] . وهذا لا يعني كذلك أنه كان يجب بدء هذا الفتح ، وبالأحرى انهاؤه أو ترقب الاقامة المخططة في الكوفة ، لكي يقوم أهل البصرة بتخطيط يخصهم . يحتمل كثيرا أنهم سبقوا أهل الكوفة في مدة تقع بين سنتي ١٦ و ١٧ هـ / ٦٣٧ ـ ٦٣٨ م . وما ينبغي تسجيله خاصة هو الفرق بين ظروف الاقامة هنا وهناك ، والفارق الدلالي الكبير بين هاتين الظاهرتين . كان جيش الفتح موجودا في الكوفة التي كانت ترمز إلى تجربة الاستيطان العربي في بلاد الرافدين ، بالنسبة لعمر . وقد توفرت لهذا الجيش أرض مفتوحة تستدعي التنظيم مع ما يشمل ذلك من ابتكار وتهيئة واستيعاب للتجارب الواردة بالمحيط . وكانت البصرة ثمرة لعفوية لم يقع السيطرة عليها تماما ، وثمرة لعمل اضافي ثانوي في البداية ، وثمرة رغبة في الهجرة بأقل التكاليف . فكانت إذن محتشمة ضعيفة المدى واستفادت من الانتصارات التي ترتبت عن خوض معارك كبرى جدت بمركز القرار في بلاد بابل . كانت هناك لحظتان واضحتين في ظهور البصرة : فترة اقامة مؤقتة سنة ١٤ ، بعد وقعة البويب مباشرة ، وفترة اقامة دائمة مصحوبة بالتخطيط والبناءات ، بعد سنة ١٦/٦٣٧[٣٢] . لكنه كان تخطيطا منقوصا حتما ، وهو ما يفسر فيما بعد اتساع أعمال التحوير والتشييد التي أمر بها زياد . ولا شك أنه اعتمادا لوجهة النظر هذه ينبغي الاحتفاظ بالأسبقية في التخطيط للكوفة أو على الأقل على كثافة أعظم في الدلالة ، وحتى تخطئة الموازاة أو التوأمة بين المصرين في هذه المرحلة الأولية . ومن الممكن أن التقليد التاريخي

---

(٣١) صالح أحمد العلي، ص ٤١، اعتمد ابن سعد. لكن قبيلة عبد القيس لم تهاجر إلى البصرة إلا في عهد ابن عامر (٢٥ ـ ٣٦ هـ.) ويحتمل أن الأمر كان على ذلك النحو بالنسبة للأزد. وقد تبين نمو البصرة خلال الأعوام الخمسة (١٧ ـ ٢٢) عبر وفد أهل البصرة سنة ١٧ هـ. لدى عمر: الطبري ج ٤، ص ٧٤ ـ ٧٥ وعبر إعادة تعديل الفتوحات بين البصرة والكوفة سنة ٢٢ هـ: الطبري ج ٤، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٣٢) ذاك هو الأمر الذي لم ينتبه إليه أحمد العلي، التنظيمات، مرجع مذكور، ص ٣٦.

العربي قد أسقط على وضع مختلف صورة الكوفة الأولية والصورة التي أضحت عليها البصرة بعد ذلك . وعلى كل ، فقد اتصفت الكوفة من أول وهلة بصفة المدينة ، أو أن تخطيطها على الأقل ، أكد طموحها لذلك لأن أهل الكوفة قاموا بحربهم ، فجنحوا إلى الحياة المدنية . أما البصرة فباستثناء الغارات الأولى التي جدت في مرحلة الخريبة ، فقد كان عليها أن تشن حربها (في خوزستان) لتربح سلمها وتدعم وجودها . فما أعوز نشوؤها من صفات العز التي توفرت للكوفة ـ النموذج التمصيري والتنظيم الجبائي العسكري وكبرياء السابقة ـ عوضت عنه بأن كانت مكانا للمبادرة والخلق والتماسك الذي استحقته بقدر ما منحته . لقد بقيت الكوفة حبيسة نشأتها المنظمة جدا ، والمرتبطة كثيرا بالحرب والحكم . وبفضل عفويتها الأولى ، حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور ، ونزعة عميقة إلى السلم الداخلية .

الكوفة وواسط :

سبق أن قلنا أن غرابار (Grabar) أقام صلةأساسية بين الكوفة وواسط وبغداد ، فلفت بذلك نظر الباحثين إلى أهمية المعمار الأموي بوادي الرافدين وحتى إلى دوره المثالي لا في الاتجاه الأموي ـ العباسي فقط حيث طرح الاستمرارية ، بل أيضا في الاتجاه الفضائي العراق ـ الشام (قصر المشتى خاصة)[٣٣] . لكن اذا لم يشغلنا الآن المشكل المعماري ـ تصميم القصور ، وبنية الايوانات ووجودها ، والتشرفات الخاصة بالأبواب ـ فذلك لا يعني أنه ليس مؤشرا رفيعا على التسلسل الرابط بين الكوفة وبغداد ، مرورا بواسط ، على مستوى التصور المديني الأوسع . على أن (غرابار) جعل من واسط المثال الوحيد لبغداد ، فنزل الكوفة منزلة الأصل فقط ، بسبب التماثلات العجيبة (مثلا القبة الخضراء) والتقارب الزمني وطابع

(٣٣) بحث مذكور، ص ٩٩ ـ ١٠٨ .

مدينة الحكم ، أي مدينة شبه امبراطورية ، الذي كانت عليه واسط . لكن العباسيين أقاموا بالكوفة وعرفوها ، واستخدموا مهندسين معماريين من الكوفة[٣٤] وقد بينا ذلك . وأخيرا فبالرغم من قلة الثقة المتبادلة فقد كانت لهم جذور بالكوفة . في حين كانت واسط تجسم السلطة المكروهة التي قاموا بتقويضها . هذه عناصر نفسانية ينبغي أخذها بعين الاعتبار وهي تحملنا على الاعتقاد بأن المنصور استمد نموذجه مباشرة من واسط والكوفة معا ، مع اعتبار التأثيرات الخارجية طبعا والجانب الخلاق بنفس المقدار . الواقع أن واسط سمت كثيرا بالتصور المعماري الكوفي . كان كل شيء كبيرا بها ، المسجد والقصر ، ويمكن مقارنة ذلك بمنجزات المنصور بخصوص الأبعاد . كانت مدينة للحكم كما قلنا ولحكم مهدد كما أنه صار متعسفا ، لكنها كانت مدينة مصطنعة أيضا ، لا وجود فيها لمجموعة حقيقية من السكان ، خلافا لما كان عليه الأمر في الكوفة ، وفي حين أنها توفرت لبغداد ، بغداد التي بنت لنفسها مصير حاضرة كاملة مندمجة .

لقد اعتمدت المصادر المتوفرة لدينا على كتاب بحشل (**تاريخ واسط**)[٣٥] أساسا فضلا عن معلومات متفرقة وردت في الأدب التاريخي الجغرافي ، وعلى ما كتبه ياقوت وعلى فقرة قصيرة من **كتاب البلدان**[٣٦] لليعقوبي . كما أمدتنا التنقيات الأثرية التي جدت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٢ ، بمعلومات هامة[٣٧] .

أنشأت واسط بعد ثورة ابن الأشعث (أي بين سنة ٨٣ و

---

(٣٤) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج ١، ص ٧٠.

(٣٥) تحقيق كركيس عواد، بغداد ١٩٦٧ . مات بحشل في ٢٩٢/٩٠٥.

(٣٦) **كتاب البلدان**، ص ٣٢٢؛ راجع أيضاً البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠، الذي يتحدث خاصة عن المحيط؛ ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ص ١٨٧؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ١١٨ .

(٣٧) فؤاد صفر، واسط: **نتائج الموسم السادس للتنقيب**، القاهرة ١٩٥٢، ٤٥ ص + ٢٢ ص. ونشرت أبحاث كثيرة للمدرسة العراقية بمجلة **Sumer** من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٧ ذكرها بالتفصيل كركيس عواد.

٨٤ / ٧٠٢ - ٧٠٣)[٣٨] . فهي إذن ثمرة لادارة السلطة الأموية في العراق - بمعنى ارادة الحجاج - في التخلي عن البيئة العربيـة المحيطة بـه ، وانشاء مقـر للحكم والاحتلال أو يكاد ، في محيط معاد . الواقع أن واسط قامت إلى جانب حاضرة أهلية قديمة هي كسكر ، وحافظت على تميزها فأنشأت على شاطىء دجلة الغربي ، في حين أن المدينة القديمة كانت تقع في الشرق . لكنه وقع الابقاء على ما كان من صلة بينهما ، فشيد جسر من المراكب ، وثبتت وحدة المدينة بتمامها شيئا فشيئا - أي المدينة القديمة والجديدة - وتراكبت هكذا على النهر كما كان الأمر في بابل[٣٩] . على أن مـدينة الحجـاج حافـظت مـدة عـلى ذاتيتهـا التي كـان السـور يـرمـز اليهـا ويجسمها[٤٠] . ولم يكن للمدينة الجديـدة إلا أن تأخـذ بعين الاعتبـار التجربـة الحضرية التي استوعبها العرب بوادي الرافدين . كان جهد البناء هاما ، وقد تجاوز المحاولات الأولية وهيأ للأعمال الكبرى الأولى في المعمار العربي التي سيدشّـنها الوليد . ولقد أتى هذا المجهود في فترة تأكيد الذات في الميدان الفني ، في فترة تحول طرأ على الحضارة العربية الباحثة عن أسلوب لها ، ومجد تسجله على الحجـر أو الآجر . فظهرت القبة الخضراء المعروفة[٤١] التي قلدها المنصور فكانت حدثا فنيا مع أنها سبقت في الوجود من قبة الصخرة . هذا وإن بنية النواة المركزية كانت من النوع الكوفي : كان القصر يفتح على المسجد ، وقامت غير بعيد من ذلك أسواق

---

(٣٨) أرخ بحشـل إنشـاء واسط سنـة ٧٥ هـ: تـاريـخ واسط، ص ٤٣ . لكن لا يمكن اعتـماد هـذا التاريخ فقد كذبته المصادر الأخرى: الطبري ج ٦، ص ٣٨٣؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٨ : ياقوت، مادة واسط. وقد تضاربت أقوال بحشـل لا محالـة بحيث يضع بنـاء واسط بعد ثورة ابن الأشعث: ص ٤٤ .

(٣٩) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٣٢٢؛ ابن رسته، **الأعلاق**، ص ١٨٧ .

(٤٠) **كتاب البلدان**، ص ٣٢٢، تحدث المؤلف عن مدينة قديمة ومـدينة جـديدة وعن إحـاطة السـور بالمدينة الجديدة فقط. ومن المعلوم أن ابن هبيرة قاوم بها حصاراً مضروباً عليها. وتحدث بحشل عن سورين وخندق: ص ٤٣ ، وذكر ياقوت خندقين وسوراً : مادة «وسط» .

(٤١) **فتـوح البلدان**، ص ٢٨٨ ، **كتاب البلدان**، ص ٣٢٢ ؛ **الأعـلاق النفيسة**، ص ١٨٧ . ولم يـرد ذلك في كتاب التاريخ .

متخصصة[٤٢] . مع الفارق أن البناء تم على صعيد أعظم ، ولا شك أنه كان أكثر تهـذيبا . كـانت أقيسـة القصـر المربـع[٤٣] ، ٤٠٠ ذراع × ٤٠٠ ذراع ، وكان المسجد أصغر من ذلك (٢٠ × ٢٠٠) . إن هذه الأقيسة مساوية تماما لما سيتم في بغداد وأكثر مما كانت عليه في الكوفة . كانت السوق غير بعيدة عن القصر ، وعالية التخصص[٤٤] وقيل أنها كانت متسعة كثيرا . لكن عدد الصنائـع المذكـورة في المصادر غير هام جدا[٤٥] ، وهذا دليل واضح على الفارق الموجود بين الأهداف التي قصدها الحجاج وواقع الاستقرار .

وقد فرضت الأمور تسلسلا مع الكوفة ، في تصور المركز هذا . لكن كافة الأشياء المتعلقة بامتداد الأقيسـة والبحث عن المظهـر العظيم والمتـرف ، توحي باستيعاب أكثر رقة للمكاسب السابقة كما توحي بوعي بالذات للحضارة العربية وهي بصدد التكوين ، وبترجمة معمارية عن شعور بالقوة ، في أن منطقة نفوذ الشام وفلسطين كانت توحي بالبحث عن الجمالية والجمالية فحسب . فهل كان ذلك بمثابة عودة أكثر وضوحا إلى المثال الآشوري ـ البابلي الذي ساعدته ظرفية الدفاع والكفاح ؟

إن الظاهرة الجديدة بواسط بالمقارنة مع الكوفة والبصرة ، هي أن يقع تشييد خط مضاعف من الأسوار، وخندق ، وأن توجد أبواب جيدة الحراسة[٤٦] . هذا احياء لبابل وصورة مسبقة لبغداد أيضا ، كأن واسط أرادت أن تمر من على فوق مرحلة الأمصار الصرف[٤٧] لوصل الحاضرتين الكبيرتين بوادي الرافدين . كانت

---

(٤٢) التاريخ، ص ٤٣ .

(٤٣) ياقوت، مـادة واسط؛ Grabar بحث مذكـور، ص ١٠٥ ؛ Lassner، مرجـع مذكـور، ص ١٣٣ و ١٨٩ .

(٤٤) التاريخ، ص ٤٤ : معلومات هامة.

(٤٥) ذكر بحشل عشر صناعات، وكان التفوق للصرافين.

(٤٦) تاريخ واسط، ص ٤٦ .

(٤٧) المرجع نفسه، ص ٤٥ ، حيث يدور النقاش لمعرفة ما إذا كان لواسط خاصيات ونظام المصر.

الكوفة الأولية والأموية مدينة مفتوحة فعلا . ولم ترض ، شبيهة في ذلك بسبارته ، بسور سوى ذاك الذي ترفعه سيوف أبنائها . لقد تبقى فيها ما يشبه الشعور بالحرية العربية ذاتها ، حرية المقاتلين المتأهبين للهجوم ، لا سيما حرية البدو المولعين بروح الصحراء . ولعلهم كانوا يتبرمون من التعايش المديني ويختنقون فيه اختناقا ولعلهم كانوا يتصورون أي سور كحائط سجن يحبسهم بصفة لا تطاق . ولعل امتناع المصرين من قبول النظام الاستثنائي ، نظام الرقابة وحظر التجول بالليل ، الذي شرع زياد في تطبيقه[48] وتمادى فيه الحجاج ، هو الذي جعل هذا الأخير يقدم على الفصل بين مقر الحكم والسكان العرب . إن التمييز بين المجتمع والسلطة هو وحده الذي يفسر تشييد الأسوار في واسط كما في بغداد ، وليس الخطر الخارجي[49] . بقي أن يقع التنقيب عن نموذج في الحضارات السابقة . . .

في البداية ، تماثل المجتمع بالشعب العربي من مهاجرة الكوفة والبصرة . كانت أمة من المقاتلين تشعبت تشعبا عميقا بذاتيتها بالنسبة لجهاز الدولة الذي اعتبرته طفيليا باستمرار . وهناك أيضا عالم أهل السواد ، الذي منع عليه الحجاج التسرب إلى الحاضرة العربية . لذا اختير السكان العرب في واسط اعتمادا على ما أبدوه من ولاء ، فتكونوا من أهل الشام ومن عدد من أهل الأمصار المنتخبين[50] ، والرأي عندي أنهم كانوا قليلي العدد ولم يشكلوا مجموعة حضرية منسجمة ومتميزة في آن . أما أهالي السواد ، فقد حجرت عليهم الاقامة عبر تمييز عنصري لا يتصور ، إذ كانوا ملزمين بمغادرة المدينة قبل أن تقفل أبوابها عند المغرب[51] . كان للعرب المختارين فقط حق الاقامة ، لكنهم كانوا مثل الآخرين وعلى حد سواء ، خاضعين لنظام الرقابة والارهاب . فيذكر لنا بحشل أن الحجاج وضع الحرس على

---

(٤٨) الطبري، ج ٥، ص ٢١٧ وما بعدها.

(٤٩) كان يجدّ ذلك بعد نشوب الثورات الداخلية: ثورة ابن الأشعث، واضطراب الراوندية، وانتفاضة محمد بن عبدالله الحسني.

(٥٠) تاريخ واسط، ص ٤٤.

(٥١) المرجع نفسه، ص ٤٦.

كل باب من أبواب السور ويذكر لنا أيضا أن العرب كانوا يدخلون المدينة عند المغرب فيما يخرج منها السواديون[52] . اذ لاحق لهم بالمقام فيها .

وهكذا نجد في المشروع الحجاجي لواسط ارادة واضحة لاقصاء الغير، وهذا ما أضفى على واسط مظهر المدينة المغلقة الخاضعة للرقابة ، ومثل هذه النية تبرز في مخطط المدينة المدورة ، لكن الكوفة والبصرة لم تتصفا بهذا المظهر ، ما عدا بعض الفترات الزائلة من الارهاب . ولقد قيل إن أفصح العرب أقاموا بواسط لنقائهم العرقي ، وفي مكان آخر أن أهل الكوفة اختلطوا بالسواديين وأهل البصرة بالخوز[53] ، وهذا دليل على عمق المبادلات بين المصرين ومحيطهما البشري . وقد برزت سياسة التعسف الاستثنائية التي توخاها الحجاج في نهب زخارف العمارة بالمدن القريبة ، لا سيما أبواب الحديد بمدينة زند ورد والدوقرة ، ودير ماسرجيسر وسرابيط ، كما تناقلته الروايات[54] ، واستقدمت لتركيب أبواب واسط ، وأعيد استخدامها في بغداد من قبل المنصور[55] . لكن هذه السياسة التي توخاها الحجاج جاءت معاكسة للتيارات المتجهة إلى الاختلاط ولحركات النزوح الريفي إلى المدينة ، ولذا وقع العدول عنها بعد موته[56] . ولئن ظهرت الكوفة بمظهر النموذج على صعيد المعمار للنواة المدينية فإن واسط اختلفت عنها جذريا ، على الصعيد البشري والثقافي ، وقد ترجم ذلك من حيث المعمار إلى تعارض دامغ في واسط ، بين مركز سياسي ـ ديني عظيم وحزام سكني ـ متركب من محلات ـ هزيل فعلا[57] . وعندما « تمدنت » البصرة والكوفة بانتفاء الصفة العسكرية عنهما، تم

---

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٤٦ .

(٥٣) تاريخ واسط، ص ٤٦ .

(٥٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٩ ؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة «واسط»، ج ٥ ص ٣٤٩؛ الخطيب، تاريخ بغداد، ص ٧٥ .

(٥٥) المرجع نفسه، ص ٧٥ .

(٥٦) معجم البلدان، مادة «واسط». لكن تاريخ واسط يذكر أن التمييز العنصري استمر حتى زوال الدولة الأموية: ص ٤٦ .

(٥٧) تاريخ واسط، ص ١٢، ١٤٠ .

ظهور واسط كمركز استيعاب جيش الاحتلال الشامي ، معوضة الكوفة والبصرة في اختيارهما الحربي السابق ، لكنها وقفت نفسها لخدمة دولة وخصوصية سياسية معينة .

الفصل الرابع والعشرون

الكوفة وبغداد

سبق أن اقترحنا وجود تسلسل مزدوج بني الكوفة وبغداد ، بداية وأصلا عن طريق تدخل واسط وثانيا بالعودة المباشرة إلى التصور الحضري الكوفي بصورة شاملة وتفصيلية . لكن بمفعول العودة يتبين تأثير بنية بغداد على الكوفة التي مازالت في حالة تطور .

لقد ألح التقليد الاستشراقي مدة طويلة على الطابع الفارسي الذي طبعت به بغداد[٥٨] ، وهو أمر واقع لكنه يبدو ثانويا . واليوم أكثر مما كان أبدا ، تفرض نفسها على المؤرخ فكرة الاستمرارية الهيكلية بين الارث الأموى والانشاءات العباسية الأولى ، لكن مع وجود انفصام معين . وفي الجملة فقد جمعت بغداد ـ طبق نظام زمني معكوس ـ بين واسط والكوفة ، وتجاوزتها في آن واحد .

---

(٥٨) Streck, **Die alte Landschaft Babylonien**، ص ٥٦ ؛ وانظر أيضاً: تأليف Creswell, **Early Muslim Architecture**، ج ٢ ، ص ١٨ ـ ٢١ الذي ألح خاصة على التصميم المستدير وجعل منه نسخة من درابجرد وغور وطيسفون. وقد لاحظ صالح أحمد العلي التشابه بين المدينة المستديرة المحصنة والقهندزات الفارسية : انظر مقالة في **The Islamic City**، **Hourani, stern** ؛ في حين أن Lassner نازع في كل فكرة للتسلسل الفارسي : مرجع مذكور ، ص ١٣٢ ـ ١١٣ . لكن صالح العلي أكد الاستمرارية مع الأمصار في مستوى الهياكل الإدارية والبشرية فيما يكرس Lassner النموذجية الامبراطورية لمدينة طيسفون ـ سلوقية المتوأمة . إن التصميم المستدير وجد منذ القدم في وادي الرافدين . لكن الاستدارة لم تكن منتظمة تماماً . وقد انفردت مدينة زنجرلي (آخر الألفية الثانية) بالصفة الدائرة الكاملة ، وكانت تقع بأعلى الشام . ولقد بنيت كثير من المدن الدائرة بعد سقوط امبراطوريتي بابل وسلوقية » : Oppenheim ، مرجع مذكور ، ص ١٤٦ .

كانت الكوفة عاصمة ادارية للعباسيين قبل سنة ٧٦٢/١٤٩ ، لأنها اشتملت على الدواوين المركزية[٥٩] . وكانت العاصمة السياسية تتجسم قطعا في المدينة حيث يقيم الخليفة في تنقلاته المختلفة ، لا سيما مدينة ابن هبيرة في خلافة المنصور[٦٠] . لكن هذه المدينة الأخيرة كانت مصطنعة الانشاء ، وكانت تقابل الكوفة وتستقبل منها قسرا كافة التأثيرات[٦١] . وقد روي أن بغداد تقرر لها التمتع بموقع أفضل من موقع الكوفة . على أن الموقع لا يمكن اعتباره إلا عن طريق الغايات التي يختارها المؤسسون ، ليس في حد ذاته . كانت الكوفة أحسن موقعا ضمن تشكيلة معينة للتاريخ ، ولأن العرب الأولين أدركوا بطريقتهم ما كان للفضاء الجديد المفتوح من اعتبار : كانت الكوفة تستجيب لتخوفهم تجاه الأهالي وتربطهم بالوطن الأم . وقد استجابت بغداد بدورها إلى تمثل جديد للفضاء والبشر الذين تكونت منهم الامبراطورية[٦٢] ، وقد ارتبطت بغاية أخرى تخالف غاية عمر . وظهر في انشاء بغداد الطموح إلى الجديد ، ورمزية الجدة ، ومعنى الامبراطورية وعزتها ، كما برز تصور حديث للموقع الهندسي الذي كان لهذه الأمبراطورية[٦٣] .

فما هي العناصر الرئيسية التي تركبت منها بغداد في خلافة المنصور ؟ كان

---

(٥٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٣.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٢٨٥. سماها كذلك «المدينة الهاشمية». الواجب تمييزها عن هاشمية أخرى قريبة منها كما ينبغي التمييز بين قصر ابن هبيرة ومدينة ابن هبيرة. ويرى الطبري أن المنصور هو الذي أنشأها وهي تقع إلى جانب مدينة ابن هبيرة دون أن تكون قد انصهرت فيها: التاريخ، ج ٧، ص ٦١٤.

(٦١) فتوح البلدان، ص ٢٨٥؛ الطبري، ج ٧، ص ٦١٤ - ٦١٥.

(٦٢) تاريخ الطبري ج ٧، ص ٦١٦ - ٦١٧؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٧ - ٢٣٨. ورد بالكتابين خبر أصلي واحد عن بغداد كمفرق للطرق، لكن الطبري يلح على ما كان لوضعها من قيمة استراتيجية بينما يبرز دورها التجاري في كتاب البلدان لليعقوبي.

(٦٣) Lassner، مرجع مذكور، ص ١٣١ - ١٣٢.

للمدينة المستديرة مركز ، حزام سكني ، وأسوار متشعبة[٦٤] . وقد امتدت منذ البداية إلى أرباض قامت خارج الأسوار[٦٥] .

وكما جد بالكوفة وواسط ، فقد حدد المركز المساحة العمومية حيث يوجد القصر والجامع الأعظم ، وقد كان القصر كذلك أوسع من المسجد[٦٦] . كما أن هناك دارا للشرطة وبعض البنايات الادارية الأخرى وكما هو الشأن بالكوفة أيضا ، فانا نجد حزاما سكنيا يحيط بالمساحة العمومية وتخترقه السكك المختطة اختطاطا هندسيا[٦٧] . إن تقسيم المدينة المستديرة إلى منطقتين فضائيتين ـ أي المساحة العمومية ومساحة للاقامة ـ يظهر استمرارا ممتازا لتركيبة الكوفة . وقد ذكرنا أن هذا التطور ظهر أول ما ظهر بالكوفة،وما يلفت النظر أن كل من درس وضع بغداد ، بداية من Le Strange حتى Lassner ، مرورا بـ Herzfeld و Greswell عبد العزيز الدوري وصالح العلي ، لم يهتموا بمصير الحزام السكني داخل المدينة أو أنهم لم يفكروا في اعتباره عنصرا حاسما للبنية المدينية الاسمية في حد ذاته أولا وفي كونه

---

(٦٤) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١ ؛الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ص ٦٩ ـ ٧٩ ؛ ابن الفقيه، **بغداد مدينة السلام**، نشر صالح أحمد العلي وهو القسم المتعلق ببعداد اعتماداً على مخطوطة مشهد، ص ٣٣. أوضح Lassner جيداً هذه البنية الثلاثية، مرجع مذكور، ص ١٤٢.

(٦٥) الخطيب البغدادي، ص ٨٣ ـ ٩٩؛ **كتاب البلدان**، ص ٤١ : من الواضح أن الأرباع قسمت الارباض الخارجية إلى خطط مربعة الزوايا. والأرباع لا تهمّ الدائرة الداخلية كما ورد في كتب التاريخ الحديثة، انطلاقاً من Herzfeld، حتى صالح العلي و Lassner اعتماداً على الطبري وحده: تاريخ ج ٧ ص ٦٥٢. على أنه من الممكن أن تكون الأرباع الخارجية امتداداً ما للأرباع الداخلية إن وجدت.

(٦٦) قياس القصر المذكور هو ٤٠٠ ذراع للضلع و٢٠٠ ذراع لضلع المسجد لا غير: الخطيب ص ١٠٧ ؛ Greswell, **Short Account**، ص ١٧٩ ؛ Lassner، مرجع مذكور ص ١٣٥ و ١٨٩.

(٦٧) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص ٢٤٠ ؛ الخطيب، ص ٨٩؛ Herzfeld، مرجع مذكور، ج ٢، ص ١٠٣ وما بعدها؛ Reitomeyer، ص ٥٥ ـ ٥٨. ولم يتحدث Lassner عن ذلك قط، ولم يقل عنها صالح العلي إلا القليل، **بحث مذكور**، ص ٩٤.

يتعارض مع المركز السياسي ـ الديني ثانيا . فلو اراد المنصور بناء قلعة فحسب أو « مقرا شخصيا » لما أقيمت هذه المنطقة السكنية وهذه السكك وعددها ٤١ كما ذكر ذلك اليعقوبي(٦٨) . صحيح أن رقة الحزام ـ من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر عمقا . . أي ما يعادل طول الطاقات ـ لا تؤيد ما كان يتوقع له من أهمية(٦٩) . وصحيح أيضا أن الاقطاعات التي منحها قادة الجيش خارج المدينة المستديرة ، وكان ذلك منذ البداية فيما يظهر ، تدعو إلى القول أن الاسكان وقع تصميمه خارج المدينة .

على أن المساحة المخصصة للاقامة داخل المدينة مهما صغرت ، فإنها تؤيد التصور المدمج للحاضرة على النمط الكوفي ، لأن المركز مهما كان متفوقا ، فإنه لم يمتص الفضاء كله . ان وجود مثل هذا الحزام ـ زيادة على بنية المركز نفسه من جامع وقصر ورحبة ـ يحملنا على الاعتراض على تصور المدينة ـ القصر ، ويطرح استمرارية أساسية مع الأمصار .

في حين أن Le Strange(٧٠) اعتمد بصرامة المعطيات التي ورد ذكرها لدى اليعقوبي والخطيب البغدادي فوزع على المركز البنايات الادارية ودور أبناء الخليفة ، نجد أن Lassner قد تصور تصميما آخر تماما . هو أخرجها من المركز وضمها إلى مساحة الاقامة فشيد حلقة إضافية وترك فراغا بينها وبين القصر(٧١) ، معتمدا ما ذكره الطبري لا غير(٧٢) ، بخصوص بيوت القواد ، التي كانت تفتح على الرحبة ،

---

(٦٨) **كتاب البلدان**، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ . ابن الفقيه يسمّي السكك شوارع غلطاً: **بغداد مدينة السلام**، ص ٣٦. يبدو أن ما ميز المدينة المستديرة هي السكك. أما الطرق فهي تواجه المحاور الخارجية الكبرى التي تنطلق من الدروب: كتاب البلدان، ص ٢٤٠ ؛ الطبري، ج ٧، ص ٦٥٤.

(٦٩) Greswell, **Early Muslim Architecture** ج ٢ ، ص ١٣ ؛ Lassner، مرجع مذكور، ص ١٤٥ .

(٧٠) **Baghdad, during the Abbasid Caliphate**، ص ١٤ و١٥ . وقد تجاهل ذلك Herzfeld و Creswell .

(٧١) مرجع مذكور، ص ١٤٤ ـ ١٤٦ ، ص ٢٠٧ .

(٧٢) **التاريخ**، ج ٧، ص ٦٥٦.

ولا سيما إشارة في كتاب البلدان[٧٣] جاء بها :

« وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة . . . ، وحول الرحبة كما تدور منازل أولاد المنصور الأصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الأحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات » . هذا نص هام دون شك ، والغريب أنه لا Herzfeld ولا Greswell اعتمداه في تخيلهم لتصميم مخطط المدينة المستديرة ، لكن لميكن الأمر على هذا النحو بالنسبة لـ ـ Le Strange[٧٤] . فهو يوزع هذه البنايات بين القصر والحزام السكني ، تاركا فضاءات بينها ومحترما الطابع الواضح للرحبة . الواقع أن تصميمه يستجيب أكثر لمجموع المعلومات التي توفرت لدينا ، مما تستجيب لذلك الحلقة الاضافية التي تصورها Lassner . وما قدمه هذا الأخير من حجج لم يكن مقنعا ، بما فيها قصة عيسى بن علي[٧٥] التي لا تدل إلا على أن الرحبة كانت فضاء كبيرا للسير على الأقدام بنفس الصورة التي بقي ما قاله اليعقوبي غامضا . كان الفضاء المركزي واسعا فعلا :كان قطره يتراوح بين كيلومتر وكيلومترين حسب التقديرات ولذا،يمكن تصور القصر والمسجد منعزلين تماما دون اضافة حلقة أخرى مفردة لابد أن تكون المصادر قد أشارت إليها لو كانت موجودة حقا . فضلا عن أن مقر المصالح الادارية كان في كل زمن بالمركز العمومي سواء في الكوفة أو البصرة وواسط والأكثر أن يكون في القصر ذاته أو إلى جواره . لكن بخصوص المدينة المستديرة فإنه ينبغي ابعادها كما أكد ذلك اليعقوبي ولأنه أكد

---

(٧٣) البلدان، ص ٢٤٠ .

(٧٤) مرجع مذكور، ص ١٤ ـ ١٥ .

(٧٥) الطبري، ج ٧، ص ٦٥٢ : كان عيسى يريد الحصول على اذن بألا يستمر في عبور الرحبة راجلًا . وقد جد ما يشبه ذلك في الكوفة : انظر ما سبق ص ١٤٥ . والمهم أن نلاحظ أن الفصائل صممت لتواصل مختلف أجزاء مساحة الإقامة .

الأمر ، دون اقصائها عن المركز الذي من وظائفه أن يتقبل وجود هذه المصالح . وبالفعل فإننا نستعين في مثل هذه الصورة ، بمعرفتنا بالكوفة الأولية وبتلك البنية الحضرية الموظفة التي استنتجناها ، وهي تسمح لنا بأن نحسم في اتجاه المصداقية . على أن الرحبة لا تتقمص المركز كله إلا على سبيل المجاز . إن المقصود بالتحديد من هذه الكلمة هو الفضاء المحيط بمركب القصر والمسجد ، والذي يفصله عن قطائع السكنى . وكما كان في الكوفة ، لكن بصورة أعظم ، أصبحت هذه الرحبة « رحبة المسجد » بعد ذلك[٧٦] ممددة اياه ، واستخدمت للصلاة في الهواء الطلق (أي كمصلى) . وتؤيد كل هذه الأسباب فكرة تعمير المركز بواسطة البنايات الادارية ، وإلا كان ساحة شاسعة خالية أو يكاد . إن Herzfeld يقدر قطر المدينة المدورة بـ ٢٦٨٠ مترا[٧٧] : لكن تصعب الموافقة على هذا الرقم لأنه يزيد من الاختلال بين المركز والحزام السكني الذي كان عمقه هو عمق الطاقات فعلا (٥٣٨ ذراعا = ما يقرب من ٢٩٠ مترا ، وهناك زيادة طفيفة باضافة الطاقات الصغرى)[٧٨] .

---

(٧٦) هكذا يسمّيها الطبري منذ بدء إنشائها: ج ٧، ص ٦٥٢، ويحتمل أن يكون ذلك إسقاطاً يعود إلى الماضي. لكن الأمور تزيد وضوحاً في القرن الثالث: المرجع نفسه، ج ٩، ص ٣٥٨.

(٧٧) **Archaeologische Reise**، ج ٢، ص ١٠٨ وما بعدها وهو يعتمد في ذلك اليعقوبي في **كتاب البلدان**. ص ٢٣٨، حيث ذكر قطراً يساوي ٤٥٠٠ ذراع سوداء، ابتداء من خارج الأبواب.

(٧٨) الرقم الوحيد المتوفر لدينا هو ما يذكره الخطيب البغدادي، مرجع مذكور ص ٧٦. لقد خص الطاقات بطول يساوي ٢٠٠ ذراع أي ١٠٨ من الأمتار، لكن هذا الطول يقف عند الرحبة التي تفتح على الطاقات الصغرى والتي ليست الرحبة المركزية، إلا أن Herzfeld، ص ١٢٩، و Creswell، ص ١٦، لم يوافقا على هذا الرقم مقترحين ٥٣٨ ذراعاً: ٢٩٠ متراً، عملاً بالأقيسة المحتملة للحجرات. هذا رقم يجانب الصواب، وإلا فإن الحزام السكني يتقلص بصورة تبعث على السخرية. أما عن الطاقات الصغرى، فنجهل كل شيء بشأنها. وكان Lasssner محقاً حين خصها بوجود حقيقي. ويكون الفضاء التكميلي الموجود بين الطاقات الكبرى والرحبة الكبرى يساوي ١٠٠ ذراع على الأقل، عملاً بالتصميم الذي تصوره ص ٢١٣. ويمكن ضرب هذا الرقم على اثنين أو ثلاثة حسب عدد الطاقات الصغرى كما وقع تصوره. ويتميز افتراض Lassner بأنه يزيد من سمك المساحة العادية المخصصة للإقامة ومن واقعها. وبما أن هذه المساحة زاد عمقها، فهي تؤيد فكرة المدينة المندمجة المتنوعة.

ويقترب عمق مركبات المداخل المنتهية حيث تبدأ الرحبة من ٧٠٠ ذراع (= ٣٧٠ مترا) اذا جمعنا العناصر المكونة لها[٧٩] . الأمر الذي يجعل قطر المركز يتجاوز ألفي متر . وهو رقم لا يمكن الموافقة عليه ، كما لا يمكن قبول التقدير القصير (حيث يساوي القطر الكامل ٦٠٠ متر)[٨٠] . مما يضفي مصداقية على رقم الميل الواحد (كيلومتران)، الذي ذكرته المصادر[٨١] . وحتى في هذه الصورة يبقى المركز أعظم من مركز الكوفة ، لكن التخطيط لمثل هذه البنية سابق الوجود في واسط . وفي بغداد بالذات وقع التعويض عن نحافة الحزام السكني بالقذف بأرباض السكنى خارج المدينة،ولئن كانت منطقة السكنى مشلولة نسبيا فإنها حافظت على تصور الحاضرة الكاملة ومددت في بنية الامصار السابقة . من كان يقيم بها ؟ نجد بها قادة الجيش وموالي المنصور ، ولم يقم بها الـ ٤٠٠٠ من حرس المداخل، كما يحمل الأمر على الاعتقاد لأن أكثرهم كانوا يقطنون في الطاقات حيث كانوا من جند الحامية لا غير[٨٢] . لكن هنا عنصر هام يميز فيها يبدو المدينة المستديرة عن الكوفة : انه فقدان الأسواق في المساحة العمومية . كان وجودها في المرحلة الأولى قد تأكد في الطاقات[٨٣] ثم استقرت في مرحلة ثانية في الكرخ خارج المدينة[٨٤] . صحيح أن

---

(٧٩) الخطيب ص ٧٤ : Creswell ج ٢ ، ص ١٣ ؛ Lassner، ص ٢٠٠ .

(٨٠) يرى صالح العلي، بحث مذكور ص ٩٣، أن ألف ذراع تعادل ٦٠٠ متر، وهو خطأ لأن الذراع العباسية السوداء المستخدمة في هذا الصدد، تقاس ٥٤ سنتيمتراً: راجع Hinz، مرجع مذكور، ص ٥٥ وص ٦١ . ولا نفهم كذلك كيف اعتمد Lassner في حساباته الذراع الشرعية وهي تقدر بـ ٤٩ سنتيمتراً فاصل ٨٧٥ : مرجع مذكور، ص ٢٠٩ . هذا ولا نجد عند الخطيب البغدادي التقدير الموافق لألف ذراع ، الذي اقترحه العلي، مع أن الخطيب يورد أربعة تقديرات هي ٦٠٠ ذراع من باب الشام إلى باب البصرة، و ٨٠٠ ذراع من باب خراسان إلى باب الكوفة، ص ٧١، وميل واحد، ص ٧١، و ٢٢٠٠ ذراع، ص ٧٣.

(٨١) الخطيب، ص ٧١ : ووافقه Herzfeld، ص ٢١ ، و Creswell، ص ١٠ .

(٨٢) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ الخطيب ص ٨٩ و٧٧؛ العلي، بحث مذكور ص ٩٥؛ Lassner، ص ١٤٥ .

(٨٣) الخطيب، ص ٨٠ .

(٨٤) الخطيب، ص ٧٩ . يرى Lassner، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، إن الانتقال إلى الكرخ لم يكن من باب الصدفة ، إذ لعل الكرخ كان السوق القديمة التي سبقت الإسلام في بغداد، ولعلها

هذه المايزة في هذه النقطة الهامة فعلا قد تؤيد بخصوص بغداد المنصور صورة المدينة الملكية والادارية، أو التي صارت ادارية بصورة متزايدة. على أن الطاقات التي لم تقع بالمركز من حيث الفضاء، تابعة للمجال العمومي لاللمجال السكني الخاص، من حيث الوضع المؤسساتي وليست لها صبغة الاقامة، فضلا عن إمكانية وجود الأسواق في هذا المكان بسبب قرار نقل، لا منذ البداية، لو صدقنا رواية أوردها الخطيب تحمل على الظن أن الأسواق كانت موجودة في بداية الأمر غير بعيد عن القصر أي في المركز[٨٥]. الواقع أن تنقلات الأسواق تكشف عن التردد العميق الذي كان عليه المنصور بخصوص رؤيته لغائية انشائه الجديد، أو على الأقل مقاومته لجاذبية النموذج الكوفي حيث بقيت مركزية الأسواق مكسبا جوهريا. **ولا شك أنه كان يريد في البداية مدينة « ملكية »، لكنها تامة**. ولا شك أنه غير من تصوره بعد ثورة ابراهيم دون أن يستطيع المساس بالمخطط الأول للمدينة المستديرة. فقرر افساح المجال لاقامة جيش دائم متركب من ٣٠,٠٠٠ رجل[٨٦] وقرر عندئذ منح القطائع والأرباع خارج الأسوار، فتحولت بسرعة كبيرة إلى أرباض. وتم الانتقال من الوحدة المدينية المغلقة إلى المجموعة المدينية المركبة، بمعنى إلى المنطقة ـ المدينة؛ انه لانتقال حاسم إذ برز معه الثنائي

استقرت نواة من العمران خارج الحوزة، أثناء بناء المدينة المستديرة، فلم يعمل المنصور إلا على إعادة تطوير هذه المنطقة.

(٨٥) الخطيب، ص ٧٨، لكن قصة البقرة المتنقلة في الأسواق والتي كان خوارها يبلغ مسامع الخليفة ليست مقنعة كل الاقناع، إذ كان في إمكانه الإقامة بمدخل الأبواب أي غير بعيد عن الطاقات لكن ما يعني الخطيب بقوله «السوق العتيقة»: مرجع مذكور، ص ٩٠ فإن أوضح الخطيب، ص ٨٠، إن الأسواق كانت تقع في الطاقات بعد الانتهاء من بناء المدينة مباشرة، فإن الطبري يؤكد أنه لامراء في أنها نقلت حين غلق المنافذ بين الحزام السكني والمركز: **التاريخ**، ج ٧، ص ٦٥٢ ـ أي في مرحلة موالية. واعتمد Lassner، ص ١٤٥، هذه الإشارة مدعياً أن الأسواق تسببت في نقل حراس الأبواب من أماكنهم، دون الاستناد إلى أي مصدر.

(٨٦) الطبري، ج ٧، ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩. تصور العلي المشكل جيداً: **بحث مذكور**، ص ٩٣. وما ذكره الطبري بخصوص بناء بغداد اعترضته رواية ثورة إبراهيم وكأن الأمر جد قبلها وبعدها.

الإسلامي المتركب من المدينة والأرباض . واتضح مفهوم المدينة بوجود بغداد في العمران الإسلامي[٨٧] ، مع أنه استمد وجوده من الازدواج الفارسي الواضح القائم بين الشهر والبيرون[٨٨] . إن الكوفة على العكس مدينة مفتوحة لا وجود فيها للأرباض كوحدات خارجية تقابل وتمدد كيانا مدينيا متراصا شديد التمييز . وقد تكونت الأرباض فيما بعد وطبق نموذج بغداد ـ وهذا تأثير انعكس من بغداد على الكوفة ـ باصطفاء المركز والحزام السكني الأقرب[٨٩] (الموافق للخطط القديمة) ، وفصلها عن المناطق المحيطة التي استمرت تمتد ، وتجسم الانفصال ببناء الأسوار سنة ١٥٥ /٧٧٢ بمبادرة اتخذها فعلا المنصور .

لكن الأسوار كانت جزءاً أساسيا في تشكيلة بغداد ، ولم تكن مقررة فقط لتمييز المدينة عن الأرباض . لقد لعبت هذا الدور بعد ذلك حين تشكلت وحدة الكيان البغدادي . ومن العسير تبين وظيفتها الأصلية . فهل كانت لأسباب خاصة بالأمن ؟ لكنها تكون في هذه الحالة قد بنيت لدرء أخطار الثورة الداخلية . أو كانت رمزاً لتعالي السلطة التي رامت الانفصال عن الأهالي ؟ أو هل أنها عادت إلى العمل بتقليد تشييد المدن على النمط الفرسي ، المسبوق بالتقليد الأشوري البابلي ؟ والملاحظ في هذا الصدد أنه كان لواسط خط مضاعف من الأسوار ، فلا لزوم للرجوع إلى التقليد الفارسي . فقد انفصلت واسط فعلا عن النموذج المفتوح للامصار بفضل سورها ، فاكتست بهذه الكيفية طابع السجن أو الثكنة الذي كان كثير الوضوح في مظهر المدينة المستديرة حيث لا يقع الاتصال بين المركز ومساحة

---

(٨٧) شكلت المدينة ما كان داخل الأسوار لا سيما السور الثاني الذي سمي سور المدينة فعلاً : وهناك ملحوظات دقيقة في كتاب البلدان، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وفي كتاب الخطيب، ص ٧١ و٧٣ و ٧٤ و ٧٦ ، عن مفهوم المدينة كفضاء مغلق يقابل الأرباض بالخارج .

(٨٨) Aubin «عناصر لدراسة التجمعات المدينية في إيران في المعهد الوسيط»، في كتاب Hourani و Stern، **The Islamic City**، ص ٧٢ .

(٨٩) ظهرت كلمة مدينة وربض بالنسبة للكوفة أول ما ظهرت عند رواية ثورة شقيق أبي السرايا سنة ٢٠٢ هـ: الطبري ج ٨، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

الحزام السكني مباشرة . بل كان عليه أن يمر بالفواصل ثم بمركبات الأبواب التي كانت عبارة عن معابر للحراسة المشددة . كانت المدينة المستديرة بتصورها الأول ، قبل أن يقيم الجيش في محيطها ، أي قبل أن تتحول إلى « مدينة » ، قد استهدفت من سورها ابعاد واقصاء العالم الخارجي فقط ، ذاك المحيط الزاخر بالعجم . في حين انفصلت الكوفة عنه بواسطة النهر أي بوقوعها على حافة العالم العربي الأصيل ، خارج العراق أو يكاد . وكلما تقدم العرب إلى قلب وادي الرافدين إلا وزاد ارتفاع أسوارهم . وقد صاحب هذا التقدم مسيرة إلى غابر الزمن ، فنتج عنها تجديد العهد بالحضارات القديمة ومحاكاتها . كانت عودة غير واعية لا محالة ، ازدوجت بعوامل ملموسة تماما : تسرب العناصر الأعجمية بالتناضح البطيء ، وتطور السلطة وتطور المجتمع الشامل في علاقاته مع السلطة . فحتى مع العباسيين القريبين جدا من الخراسانيين ، بقي عالم السواديين العالم الغريب ، الخاضع ، الأهلي ، المحتقر احتقارا عميقا ، وقد حاصروا المدن بحضورهم القريب جدا ، وأثاروا ردودا دفاعية خيالية صرف . وهكذا فمن الكوفة إلى بغداد مرورا بواسط امتدت الرؤية الحضرية العربية وتحولت في آن واحد . وقد استمرت واسط في بغداد بوضوح . أما بالنسبة للكوفة ، فقد انفصلت بغداد عنها من عدة جوانب ، وتمادت فيها من جوانب أخرى . انفصلت بغداد عن روح الصحراء التي كانت حية جدا في الكوفة ، والتي جعلت منها مدينة مفتوحة ـ ما عدا فترات الارهاب . وعادت بغداد إلى النموذج الكوفي بواسطة تصور المركز أصلا والمدينة بصفتها مركزا ومساحة سكنية ، لكن مع رفض مركزية الأسواق وهذا يمثل خروجا عن التقليد الكوفي والإسلامي معا[٩٠] . وأخيراً فقد أثرت على الكوفة رجعا وحثت على ظهور الثنائية الكلاسيكية بين « المدينة » والأرباض ، وهذه كيفية لمراقبة انفجار النواة الحضرية . كان انفجارا سريعا مذهلا بخصوص بغداد . ولا شك

---

(٩٠) أثار Lassner في هذه النقطة نقاشاً مع ماسينيون، لكن مركزية الأسواق محتملة على مستوى الحاضرة كافة: مرجع مذكور، ص ١٧٣ وما بعدها.

أنه يجب تكريس الفرق الكيفي في هذا الصدد ، القائم بين بغداد والامصار القديمة بحيث نلحظ تركيزا أقوى لامكانات الامبراطورية على صعيد أسمى لبناء الحضارة الإسلامية . فبين ضخامة حجم بغداد الكبيرة[٩١] وسامراء ، والحجم المتوسط الذي كانت عليه الكوفة والبصرة ، وبين السرعة الخاطفة للنمو من جهة وبطء التجربة من أخرى ، يتبين نفس الفارق الذي وجد بين الحاضرة الهيلينستية (الأسكندرية مثلا في عصر بطليموس فيلادلفوس عند عظمة تتويجه) ، وبين حاضرة يونانية من العصر الكلاسيكي (أثينا في القرن الخامس) . لكن عمل احتضان الأمصار الذي استمر وجوده بمعزل طيلة قرن ونصف ، هو الذي قامت عليه حضارة بغداد . والتناقض في هذا الصدد أن هذه المدينة الحبيسة كما كانت في بداية الأمر داخل أسوارها بقرار من السلطة ، قامت بتفجيرها لتصيير حاضرة مفتوحة لكافة التيارات . في حين أن الأمصار التي كانت مفتوحة بطبيعتها ، زرعت وحفظت الهوية الثقافية .

---

(٩١) في حين كانت المدينة المستديرة تغطي فضاء يقدر بـ ٤٥٣ هكتاراً، وهذا يمثل حسب رأيي أقيسة الكوفة الأولى في العصر الأموي، كانت مجموعة بغداد في خلافة الموفق (٨٩٠ ب.م.) تقيس ٧ كيلومترات على ١٠ كيلومترات. ويبدو أنها بلغت مساحة تقدر بـ ٧٠٠٠ هكتار: Lassner، ص ١٥٧ و ١٦٩ . الحقيقة أن الكوفة غطت في ذات العصر مساحة تقدر بـ ١٦ ميلاً وثلثي الميل، واشتملت على ٨٠٠٠٠ دار: ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٩٢ ، وأن حقولها الأثرية التي تعود إلى القرن الثالث الهجري، كانت عظيمة (١٥كيلومترا في ٩): الجنابي، ص ١٥٩ . وإني أرى أنه بالغ في توسيعها.

الباب الثامن

الوجه المديني للكوفة
مصير الكوفة وهويتها



الوجه المديني للكوفة
مصير الكوفة وهويتها

لا تنتهي أية مدينة من بنائها الذاتي وهدمها الذاتي أبدا ، ذلك أن نبضات حياتها ترتبط بالمادة البشرية الموجودة داخلها ، وبالمد البشري المحيط بها، كما بوتائر التاريخ الكبرى بذات المقدار ، حيث المستوى السياسي يثبت أحيانا قدرته على الهيكلة بصورة خاصة . فهو قادر بفضل قرار طفيف على تغيير المظهر الاجتماعي والمظهر المديني إلى أجل . لقد نشأت الكوفة عن قرار اتخذه سعد ، وعمر أيضا على مستوى أعلى . ورغم ما انتاب العصر الأموي من هزات وتغييرات ، فقد ساده انسجام كبير . وكان للتحول العباسي الذي جد في الوقت المناسب ، تأثير ووزن كبير على مصير المدينة .

وقد سبق أن أشرنا إلى الطابع الممتاز الذي اتصف به العصر الأموي ، ويجب التأكيد على كلاسيكية معينة داخل هذا العصر ، ارتبطت بفترة حبلى بالأحداث ، بدأت من سنة ٦٠ هـ . وانتهت في سنة ١٢٠ هـ . حيث اتجهت المدينة إلى نحت أدل تعابيرها ، فأوحت بانطباع التماسك واتخذت شكل اطار قار للحياة الجماعية ، وقد داخلتها قطعا بعض الاضافات والتحويرات والاستكمالات .

ولو رمنا تجميع الكيان الكوفي في صورة وصفية وظائفية ، والقيام بقطع جانبي عبر العصر الأموي وهو العصر الأكثر تعبيرا فينبغي التذكير بالثنائية الأساسية بين المركز والخطط ، يضاف إليها أجهزة الأطراف الأساسية الموجودة بالمدينة وخارجها . على هذه القاعدة التفككية ضمن ثلاثية منقوصة ، يهمنا أن نؤكد وحدة المجموع ، وتكامل المجموعات الفرعية كما تشعب الأجهزة وتنوعها . إذ لدينا من جهة دائما مساحة عمومية حيث تتركز أهم الوظائف السياسية والدينية والعسكرية المتداخلة لحدئذ ، ونجد من جهة أخرى الخطط ، وهي عبارة عن فضاءات قبلية وتوبوغرافية مخصصة للسكن.فضلا عن أن المركز يتحمل هو أيضا

وظيفة السكن اذ تضمن دورا كثيرة للاشراف ، وخـطط بعض العشائـر كعبس والأشاعرة بصورة استثنائيـة ، علاوة عـلى أن الخطط تتحمـل على عكس ذلـك وظائف عسكرية قائمة على دور السكـك والجبانـات ، وهذا تـراكب تنويعي . ويتضح الثراء الممتاز في الأجهزة والعناصر المكونة للمركب المديني كله .

فتجاوزا للتقسيم الثنائي أو الثلاثي ـ إلى مركز وخِطط ومحيط مغاير لمفهوم الضاحية ـ نلحظ وجود تعددية وتنوع كبير في الأجهزة والمواضع من أمثال : المسجد الجامع والقصر ومساجد العشائر والجبانات والكنائس وأمـاكن العبادة في الهـواء الطلق (مصلى خالد) ودور الاشراف ، وأيضا دور لعامة الناس وهي البيوت ، ودار الروميين ، ودار للضيافة ، والأسواق المركـزية ، والكنـاسة والسبخة ودار الرزق ، وجسر السفن والقنطرة ، والرحبة التي صارت امتدادا جزئيا للجامع في ولاية يوسف بن عمر . وفي الجملة هو عالم مديني مهيأ مركب بعيـد عن كل التصورات المقامة على فكرة البساطـة البدائيـة ، سواء صحت أو كـانت محض خيال . لا شك أن هذا التطور في سبيل التنوع وقع بدافـع الاحتياجـات ، كما بفضل القوة الخلاقة المنطلقة بصورة طبيعية وبطول المدة في كل مجموعـة بشريـة تحررت من البحث عن الغذاء . لكن حضور التقاليد الحضارية المتعددة ، منها تقاليد كانت موجودة قبل عند العرب ومنها ما استبطنوها وكذا الـدفع من إرادة منبثقة عن حكم مركزي قوي ، كل هذا أمر لا يقل حسما . لقد دام هذا العمل التركيبي العظيم قرنا من الزمن ، لكن دون الوصول إلى تأسيس أكثر من هيئة أولية للمدينة الإسلامية ونموذج استبقى منه المستقبل الأشكال الاسلامية أو الشرقية ـ الإسـلامية أكـثر مما استبقى الأرث العـربي المحض بوجهيـه العـربي ـ الشمـالي واليمني . وبعد ، فإن أهمية الكوفة ، كما وأكثر من البصرة ، تكمن في كونها تمثل لحظة عبور وتحول من العروبة القديمة إلى الإسلام المهيكل ، هي في الحقيقة لحظة كانت تبحث فيها الحضارة الإسلامية عن نفسها في ظلام الولادة والتكوين . لحظة ذات أهمية مؤكدة بالنسبة للمؤرخ ومحيرة اطلاقا بالنسبة للخيـال العادي .




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطابع القبس التجارية



